Mngool.com

غير مخصص للبيع

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد (٢٢٢) - ذو الحجة ١٤١٥هـ - مايو ١٩٩٥م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE (222) MAY 1995

الحج
فيض الإيمان واستحضار العبر

رثاء الحيوان:
فن الحزن الجميل

العمارة الخليجية
وتحديات المستقبل





مشتمل الأحكام

ليحيى بن عبدالرحمن مجد الدين المغربي، الدمشقي المولد، المعروف بالأصبهاني، أبي زكريا (المتوفى سنة ٦٠٨هـ).

الكتاب في الفتاوى الحنفية، ألّفه صاحبه للسلطان محمد الفاتح بأدرنة سنة ٨٧٩هـ، وقد سماه بهذا الاسم كما ذكر لأنه مخصوص للقضاة والحكام، وهو في الحقيقة كتابان: كبير وصغير.

وهذا هو الكتاب الكبير الذي بدأه بقوله: «هذه نسخة جمعت فيها درر الهداية وغررها، وأتيت بتفرقاتها في أصل أبوابها، ليسهل طلبها، وألحقت بها من المتون المستعملة زوائد مسائلها وهي المجمع والوقاية والكنز والمختار، وكتبت عبارة كل كتاب بعينها ليكون الاعتماد زيادة عليها إلا إذا دعت الضرورة إلى غيرها».

وقد سمّاه مشتمل الأحكام لاشتماله على روايات المتون المذكورة وفوائد كثيرة غيرها. ويشتمل على سبعة وخمسين كتابًا أو بابًا من أبواب الفقه المعروفة؛ بدأها بكتاب الطهارة، فالصلاة، فالزكاة، فالصوم، فالحج، فالنكاح.. وانتهى بكتاب الجنايات، فالمعاقل، فالوصايا، وأخيرا كتاب الخنثى.

تقع المخطوطة في ٣٠٥ ورقات من الحجم المتوسط، ومسطرتها ٢١ سطرًا ومقاسها ٢٦×١٧سم. نسخت بخط تعليق بيد شعبان المشهور بابن أغا، سنة ست وتسعمائة هجرية، وذلك في قصبة أقجة قرانليق في محكمة القاضي.

كُتبت كلمة فصل وكلمة باب وأسماء الكتب أو المتون المستعملة في المخطوطة وكلمات أخرى بالمداد الأحمر، كما وضعت خطوط سوداء وحمراء تحت بعض الكلمات أو العبارات، وزُوّد المتن بكثير من الحواشي والتعليقات التي وضعت في أماكن متفرقة بين سطور المتن أو خارجها وبطرق مختلفة؛ فأحيانًا مائلة وأحيانًا رأسية أو أفقية. والمخطوطة بأولها أختام وقف وتملك، تليها فوائد وتعليقات.

والمخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم ٣٠١١

إعداد: فراج عطا سالم

في العدد القادم:

- ملحمة البوسنة والشعر المعاصر
- مدرسة سوكوتو وحركة الاجتهاد
- ظاهرة الخوارق في أدب مرسيل إيميه

البريد

THE MAIL

قضية البيئة :
نحو مزيد من التوعية المؤسسة

جهدكم الأخير المتميز الذي صدر بعنوان «إفساد البيئة.. اغتيال للحياة»، جاء عملاً رائعًا، ونموذجًا للنتائج الجيدة حين يكون العمل مدفوعًا بالإحساس الذاتي الصادق، وهو استمرار للخط الواعي نفسه الذي اختطته مجلة الفيصل، في اهتمامها المثابر على تنمية الوعي البيئي في المجتمع. فالدور الذي تنهض به «الفيصل» هو جهد علمي رصين، ومنتظم، يعبر عن وعي حقيقي بالأخطار، ويعتمد على المعرفة العلمية الدقيقة.

إن القائمة الشاملة التي أنجزتموها لهي عمل رائد في مجال البيئة، والإنجاز لايأتي من فراغ، لكنه حصيلة الجهد المتصل النابع من التصور السليم. فنهوضكم بهذه المهمة هو ثمرة الوعي بأهميتها، فعسى أن تتواصل الإنجازات بهذا المستوى الرفيع، وعسى أن يستفيد المختصون والمجتمع من هذا الإنجاز المهم.

إبراهيم البليهي

مدير عام الشؤون البلدية والقروية بالقصيم

هذا الباب مفخرة لكل مسلم

موضوعات باب «الطريق إلى الله» في مجلة «الفيصل» مهمة جدًا، وفي الوقت نفسه شائقة، وتبعث على التأمل والتفكير. هذا الباب هو أول ماأقرؤه كلما تسلمت جديدًا من «الفيصل» وعندها أشعر بالاعتزاز والفخر لعظمة الإسلام. وثمة أمر آخر، هو أنني أشعر بالود تجاه الشخصية التي يتحدث عنها الموضوع، وأتمنى صادقًا أن أتعرف إلى هذا المسلم الجديد وأتحدث معه.

الملاحظ أن موضوعات هذا الباب تتناول أسماء معظمها من الشخصيات العالمية المرموقة التي لها مكانة اجتماعية أو ثقافية أو فنية، وبمعنى آخر، لديها مستوى من المعرفة، ومواقع متميزة في مجتمعاتها. وهذا مايثلج الصدر، أن نجد شخصية مهمة تترك طريق الضلال، وتتبع سبيل الهدى عن قناعة، ودون ضغط أو إكراه من أحد. ومما يثلج الصدر أيضًا، أن معظم هؤلاء المهتدين الجدد يصبحون دعاة إسلاميين، ويبذلون قصارى جهدهم لنشر الإسلام بين مواطنيهم في أصقاع المعمورة.

ونظرًا لأهمية الموضوعات التي تُنشر في هذا الباب، أودّ أن أبدي بعض المقترحات التي أرى فيها تعميمًا للفائدة ودعمًا للرسالة الثقافية التي تنهض بها «الفيصل»:

١- يُستحسن تكثيف المعلومات الخاصة بالشخصية موضوع العدد، فالملاحظ أنكم تتعمقون في شرح مراحل طريقة اهتداء الشخص - موضوع الحديث - إلى الإسلام، وهذا جيد ومهم، وليتكم تشرحون أكثر لتوضحوا للشباب المسلم المنبهر بالغرب، مبلغ إفلاس الديانات المحرَّفة والنظريات الوضعية..

وماأعنيه بـ «تكثيف» المعلومات هو إيراد المزيد من الإيضاحات عن الشخصية التي اعتنقت الإسلام؛ كأن تُبينوا مكان وتاريخ الولادة، الأعمال التي قدمها بعد اعتناقه الإسلام، هل الشخصية على قيد الحياة، ماالأعمال التي يزاولها الآن، ذلك لنكون على دراية أكثر بالموضوع.

٢- على غرار الاقتراح الذي جاء في العدد (٢١٥) متضمنًا الدعوة إلى جمع مقالات الدكتور حسن ظاظا عن اليهود في كتاب، أقترح إصدار ملحق سنوي يحوي الموضوعات التي تنشرونها في باب «الطريق إلى الله»، يوزع مع العدد الأول من السنة الجديدة، ولا أقول مجانًا.. كم سيكون ذلك مفيدًا وممتعًا لجمهرة القراء.

م. تامر عبداللطيف إدريس

حمص - سورية

رسول كسري وليس القائد الروماني !

نشرت «الفيصل» في العدد ٢١٥ مقالاً بعنوان «مواقف في تاريخنا: بين عدل الخلفاء وعدالة المخالفين» كتبها الأستاذ فهد العريفي، وتناول فيها مواقف جيدة من تاريخنا المجيد، وأهاب بالشباب خاصة أن يعتزوا بمفاخر حضارتنا الإسلامية. ولي ملاحظة على بعض ماورد في المقالة، ومن ذلك قول الكاتب: «وتناسى القائد الروماني وهو يمر بالخليفة عمر نائمًا تحت شجرة في القدس، فيقول القائد: عدلت فأمنت فنمت». من المعلوم أن العبارة قالها رسول كسرى عندما جاء إلى المدينة المنورة، وأشار إليها الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته «العمرية»:

قد راع صاحب كسرى أن رأى عمرا
بين الرعية عُطْلاً وهو راعيها
وعهدُهُ بملوك الفرس أن لها
سورا من الجند والأحراس تحميها
وقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهُمُ
فنمت نوم قرير العين هانيها

محمد عبدالله الحسيني

الرياض

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على البعض الآخر للقراء
يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح
فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة

مبتكرات العصر



إن الحضارة المادية التي بلغتها البشرية في هذا العصر كانت، في كثير من جوانبها، أحلامًا تسكن دواخل الأدباء والعلماء، الذين حاولوا بخيالهم استشراف آفاق مجهولة، واقتحام عوالم مغلقة، قد تبدو - للوهلة الأولى - مُصادِمة لحقائق الأمور الظاهرة.

وقد أدى تراكم الإنجازات التقنية اليوم إلى غياب كثير من علامات الدهشة التي كان الإنسان يستقبل بها كل خيال يطمح إلى اختراع أو إنجاز، حتى إن تخيّل إنشاء مستعمرة فضائية تضم ملايين البشر، وتعج في جنباتها مظاهر الحياة من حيوانات وأنهار ووديان وجبال وغيرها، لم يعد يثير الدهشة نفسها التي بدت حين شرع الإنسان في تطويع الحديد من أجل استخدامه في النقل، لدرجة أن اختراع العجلات البسيطة التي تنقل مواد البناء من مكان لآخر كان أمرًا عجبًا في حينه. والمفارقة أن إنسان العصر حين يذهب بخياله إلى تلك الأزمان الغابرة؛ التي تخلو من هذه الوسائل المتقدمة للحياة التي يتمتع بها اليوم، يصاب بالاستغراب والدهشة إلى الحد الذي يجعله لايرى وجود حياة من دون هذه الوسائل العصرية.

وكان كثيرون من الذين ذهبوا بخيالهم إلى التنبؤ بمستقبل ينعم فيه الإنسان بمخترعات، ومبتكرات تيسر له سبل العيش، محل استهزاء وسخرية. ولاشك أن الساخرين منهم معذورون؛ لأن نمطيتهم في التفكير وإعمال العقل لم تتح لهم إمكان استيعاب التصورات المستقبلية التي تخيلها هؤلاء الذين ملكوا خصوبة الخيال، ووُهِبوا ملكات التفكير المنتج، والقدرات العقلية التي تستطيع استيعاب مافي البيئة من مثيرات، والربط بينها، وصولاً إلى روابط وعلاقات جديدة، وتوقع مايمكن أن تفضي إليه هذه العلاقات.

والخيال الواعي لايبعد من الواقع، وإنما يعمد إلى وضع صورة لماسيكون عليه هذا الواقع من خلال التعمق في استقراء معطياته، والتفكير المتأني في الإمكانات التي سيتيحها المستقبل، في حالة إقامة علاقات وروابط غير معهودة بين الأشياء والموجودات والمثيرات المختلفة.

ولايتحول الخيال، في الأحوال كلها، إلى واقع بالملامح والتفاصيل نفسها، لأن الخيال يتجاوز في بعض الأحيان الحقائق العلمية. كما أن المتخيل لايكون - بالضرورة - هو من يقوم بترجمة خياله إلى واقع، لأنه، في الغالب، يكون موحيًا لغيره ممن تتوافر لديهم القدرة العلمية والخبرة العملية، ويكون أيضا من الذين يستطيعون فهم الصور المتخيَّلة ووضعها في إطار علمي يحققها. وقد يصل الفارق الزمني بين تخيل الشيء وتحققه إلى سنوات قد تمتد - أحيانا - إلى قرون.

ويوضح مسار قصص الخيال العلمي أن السفر إلى القمر، واكتشاف الفضاء كان حلما راود الإنسان منذ فترة بعيدة؛ فقد كتب لوسيان السوري في القرن الثاني الميلادي كتابا باليونانية بعنوان «قصة حقيقية»، جسد فيه هذا الحلم، وتبعه كثيرون اقتفوا أثره، فكتب الفرنسي سيرانو دي برجراك في القرن السابع عشر، متخيلاً رجالاً يطيرون في الفضاء في سفن وصواريخ متعددة الطوابق، وكتب الفلكي الألماني يوهانس كيلر قصة «رحلة إلى القمر»، كما كتب الإنجليزي فرانسيس بيكون قصة «أطلانتس الجديدة»، صور فيها مراصد للنجوم ومعامل وحمامات للاستشفاء وناسا يعيشون في جزيرة نائية يتميزون بالجدية في العمل، والعلمية في التفكير بغية تغيير البيئة نحو الأفضل.

وتوضح هذه المحاولات أن اكتشاف المجهول وإدراك مافي هذا الكون من أسرار - كما سبق القول - هدف سعى إليه الإنسان - ولايزال - من أجل استغلال أفضل لمكونات بيئته، كما أنها تعبر عن مخاوف الإنسان من أن يقوده التقدم المادي إلى تناسي القيم الإنسانية والحضارية التي ميزته من غيره من المخلوقات، والتي تدفعه إلى نبذ روح الأنانية في علاقاته مع غيره من بني البشر، وفي تفاعله مع بيئته.

وقد ضاق الفارق الزمني بين الخيال العلمي والواقع التقني؛ نتيجة لتراكم معلومات الإنسان وخبراته وماتحقق له من تقدم، يزداد اطّرادًا في كل لحظة. ومن عجيب مايذكر أن المخابرات الأمريكية أصيبت بالشك والحيرة حين نشر الكاتب الأمريكي كارتيل عام ١٩٤٤م قصته «الموعد النهائي» التي تشير إلى صنع قنبلة ذرية. ومرد هذا الشك وهذه الحيرة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تجدّ في ذلك الوقت في صناعة القنبلة الذرية في جو من السرية التامة، وثبت من التحقيقات التي أجرتها المخابرات الأمريكية أن الكاتب لم يطلع على هذا السر، وإنما كان ذلك من بنات أفكاره، وإعمال خياله. كما يقال إن العالم الألماني هرمان أوبرت وضع مخطوطته في عالم الفضاء في ضوء اطلاعه عام ١٩٠٦م على قصة الفرنسي جول فيرن «من الأرض إلى القمر»، وكانت هذه المخطوطة من الأسس التي انطلق منها الإنسان لارتياد الفضاء. وكذلك الحال بالنسبة لزرع الأعضاء البشرية وصناعة الإنسان الآلي وأطفال الأنابيب وأشعة الليزر وغيرها من مخترعات العصر وعلومه، فكل هذه الحقائق العلمية التي نحياها اليوم، كانت - يوما ما - خيالات تداعب أذهان العلماء والأدباء إلى زمن قريب.

وملكة التخيل وحدودها تحكمها اعتبارات عديدة مبعثها المناخ الثقافي، فهذا النوع من التفكير يبدو مهمًا عندما يُوازَن بما تحقق من مخترعات كانت وليدة الخيال، الذي لاشك يحتاج إلى مناخ ثقافي يتيح للإنسان الانطلاق بفكره دون خوف من النقد اللاذع والسخرية، مهما كانت أفكاره قليلة الشأن. ويتاح ذلك في المجتمعات التي ترى أن المستقبل جنين في رحم الحاضر، بكل مايحتويه هذا الحاضر من عناصر موحية ومحرضة على التغيير، وفي الوقت نفسه فإن أفكارًا كبيرة تموت في مجتمعات تسود فيها نظرة الاستهزاء والسخرية، تلك التي تحجّم ملكات التخيل والابتكار لدى أبنائها، وتقلل من شأنها، بسبب التأثيرات النفسية والحساسية التي تنشأ لدى هؤلاء المتميزين خيالاً، مما قد يوقفهم عن ممارسة هذا النشاط العقلي، على الرغم من أن تخيلاتهم وتصوراتهم قد تكون عظيمة الشأن في صياغة المستقبل إذا وجدت طريقها إلى التطبيق والتنفيذ. وهؤلاء المبدعون قد يجدون الخلاص في الهجرة إلى مجتمعات تتبنى أفكارهم وتحترم تصوراتهم، وتتيح لهم ظروفا أفضل للابتكار وإثبات الذات .

ومن الطبعي أن الخيال العلمي قد يهدم وقد يبني، أو يتذبذب بين هذا وذاك، مالم يضبطه إطار قيمي. وهذا مايؤكده الدين الإسلامي الحنيف الذي يحث على إعمال العقل وضرورة التدبر والتفكير واضعًا لذلك حدودًا، يكون في تجاوزها إضرار بالإنسان والبيئة، قد يتسبب في تدميرهما. ولعل في محاولات بعض العلماء التحكم في صفات الجنين، والاتجاه نحو إيجاد مايُعرفونه (بنخبة النخبة) - أي أولئك الذين يتميزون بقدرات عقلية خارقة، عن طريق توظيف علم الهندسة الوراثية -، مايدل على التفكير البذخي الذي قد يغرق فيه الإنسان حين يعمل من دون إطار قيمي يضبط خياله وسلوكه. ويتضح ذلك أيضا في التفنن في صنع أسلحة الدمار التي تهدد حياة الإنسان، وتدمر البيئة الطبيعية، وتؤدي إلى الإخلال بتوازنها. فبقدر مايكون خيال العالم منصرفًا لتلبية احتياجات بيئته، مطورًا لوسائل توظيفها لمصلحة الإنسان، بقدر مايعبر ذلك عن تشبعه بروح المسؤولية الاجتماعية، وبُعده عن إشباع تطلعات علمية ذاتية قد تكون سببًا في الإضرار بمجتمعه والمجتمعات الإنسانية الأخرى.

إن تأثير تطبيقات الخيال في واقع الإنسان ومستقبله يؤكد أنه يجب تناول هذا النوع من التفكير داخل الإطار الثقافي والقيمي الذي يفرزه. فبالرغم من أن مفهوم (العالم القرية) قد أزال حواجز كثيرة بين الشعوب، وأوجد قواسم مشتركة بين الثقافات المختلفة، الأمر الذي يوحد زوايا النظر إلى كثير

وليدة خيال

من المخترعات والمبتكرات، وتقويمها؛ إلا أن تصورات المفكر لما سيكون عليه المستقبل تظل محكومة بقيمه العقدية والحضارية؛ ولذلك فإن المخترعات المجلوبة من أي مكان تأتي وفي ثناياها فكر المصدر وثقافته، وأسلوبه في الحياة، ولاتترك هوامش تتحرك فيها خصوصيات ثقافة الطرف الآخر - المتلقي - ، وفي هذا الجانب، يدفع الخلل في التدفق التقني - المحسوم بكامله حتى الآن لصالح الغرب - الإنسان إلى طرح علامات استفهام عديدة، وبخاصة أن هناك من يرون أن الظروف مواتية لإيجاد ثقافة كونية واحدة، تلغي تباين الهويات الثقافية. ولايحتاج المرء - في ظل اختلال التدفق الإعلامي والتقني - إلى إرهاق العقل لمعرفة ملامح هذه الثقافة الكونية التي يروج لها، والتي يراها مروجوها نهاية لما يعرف بالصراع الحضاري، وبداية للتلاقح الحضاري. والسؤال المطروح: كيف يمكن تصور وجود هذا التلاقح في ظل سيطرة ثقافة معينة؟ بينما يمثل التباين والتمايز سمة للمجتمع الإنساني، إذ للمجتمعات أن تعايش مع واقعها بفكر يفهم هذا الواقع ويتفاعل معه. فحلول مشكلات أي مجتمع يجب أن تنبع منه، وأن تكون منسجمة مع منظوره القيمي والأخلاقي، لأن هذه الحلول تكتسب مدلولاً ثقافيا وحضاريا ذاتيا، مما يجعلها تتنافر مع البيئة الاجتماعية في حالة القسر والفرض، ومن ثم يقود هذا إلى مايسمى بتناطح الحضارات.

ولعل هذا التناطح يبدو واضحًا في قضية التنمية التي شُغلت بها - ولاتزال - كثير من بلدان مايسمى بالعالم النامي - ومن بينها الدول الإسلامية - التي تبنت الدول الكبرى مصطلحها دون أن يكون لهذا العالم أي دور في تحديده. وقد تغير مفهوم هذا المصطلح على مر العقود، إذ تركز في البداية على الجانب الاقتصادي، وكانت نسبة دخل الفرد مقياسا للتنمية، ثم أصبحت الموازنة بين معدلات الإنتاج والاستهلاك معيارًا لها، وعندما آلت خطط التنمية - وفق هذا المنظور - إلى الفشل، كان لابد من البحث عن الحلقة المفقودة، فاتجه الاهتمام إلى بعض الجوانب الإنسانية والتربوية. وقد انتهت الأمم المتحدة إلى اعتبار أن التنمية لاتتم إلا في الإطار الثقافي المتأصل في بنية المجتمع، وأنها لاتُستورد ولاتُفرض، لكونها تصورًا لما لدى المجتمع من مفاهيم للعمل والثروة والزمن والعلاقات الاجتماعية وغيرها، أي إنها رؤية شاملة للحياة بكل زخمها.

ويتضاءل مدى هذه الرؤية عند أي مجتمع عندما تتضاءل ثقافته، مما يجعله عرضة للاختراق والتبعية للتيار الثقافي السائد، ومن ثم فإن التنمية ترتبط بقدرة المجتمع على امتلاك أدوات التفاعل الإيجابي مع العصر، بحيث يستطيع أن يطوع مايأخذه من الآخرين ويدخله في نسيجه الثقافي، ليصبح جزءًا منه. ويقتضي هذا التطويع ثقة في الذات، واعتدادًا بالموروث الحضاري؛ الذي يجب أن يكون المرتكز في التفاعل مع الآخرين، فالمستقبل لايمكن أن يُبنى على تصورات تُستورد أو تُستعار، والأمة التي تعتقد ذلك، ستجابه حتما مسارات صعبة، ربما تفضي بها في النهاية إلى الضياع.

ويعد التعليم أحد وسائل دعم ثقافة المجتمع وتوكيد هويته، مما جعل الدول المهتمة تتجه إليه لتطوير مناهجه، وجعلها ملبية لحاجاتها. وفيما يخص العلاقة بين التعليم والخيال العلمي للطفل، فقد وُجد أن الخيال يشكل أهمية خاصة له، وضرورة من ضرورات تنمية تفكيره وتطوير قدراته على إدراك المواقف والأحداث واستيعابها، وتعويده النظر إلى الأمور من زواياها المختلفة، مما يعينه على تصور المشكلات التي تجابهه، ومن ثم محاولة إيجاد الحلول لها.

وبينت الدراسات التي أجريت في هذا المجال في العالم المتقدم أن الخيال ينمي أسلوب التفكير العلمي، ويزيد من قدرة الطفل على إدراك المفاهيم العلمية واستيعابها، ويجعله أكثر ميلاً للتعبير عن نفسه ومشاعره الذاتية، وبخاصة إذا جُنّب النقد اللاذع ولم تُسَفَّه محاولاته، كما يسهم الخيال في إيجاد اتجاهات وقيم إيجابية عند الطفل تجاه العلم والعلماء، مما يدفعه إلى محاولة تمثل خطاهم.

وتعوّل هذه الدراسات كثيرًا على الاتجاه نحو تشجيع الطفل لاستخدام حواسه، وتطبيق مايتعلمه بنفسه، والإفادة من التطورات التقنية في تعويده التجريب والتعامل المباشر مع التقنية الحديثة، وإكسابه الثقة اللازمة لذلك. وقد وُضعت في ضوء هذه الدراسات مناهج تعليمية تتميز بالمرونة وعدم التقليدية، إذ يتم توظيف نشاطات الطفل لإبراز مواهبه وقدراته وصقلها بإتاحة الفرصة له للممارسة والتجريب، مما يزيد من قدرته التخيلية، وينمي هذه الملكة لديه. وفي الوقت نفسه فإن المناهج التي لاتتيح حيزًا لعمل الخيال، وتكتفي بالتلقين فقط، تعطل عمل العقل، الذي يمثل الخيال إحدى وظائفه وقدرة من قدراته، وتكون النتيجة ضآلة مستويات التفكير، ونضوب معين الخيال.

وتحاول مناهج التعليم المؤسسة على الرؤية العلمية السليمة تعميق الشعور بالانتماء في نفوس الأجيال الجديدة، من طريق تكوين صورة ذهنية واضحة في مخيلتها عن الإرث الحضاري، بما يحقق التواصل بين الأجيال. ولاتقتصر مهمة تحقيق هذا التواصل على مؤسسات التعليم فحسب، وإنما تتوزع الأدوار بين المؤسسات الثقافية والمراكز العلمية والبحثية وغيرها، بحيث تتكامل هذه الأدوار في تجسيد شخصية الأمة، لتكون حية نابضة أمام الناشئة.

وتأتي الآداب والفنون الرفيعة في مقدمة الوسائل الكفيلة بتقديم التراث الثقافي للأمة، لما تمتلكه من عناصر جذب وأساليب قادرة على التأثير.

ويكتسب فن العمارة في هذا الخصوص أهمية واضحة، لأنه يعكس أسلوب تفاعل الإنسان مع بيئته، ومدى قدرته على تطويع مفردات هذه البيئة، وإضفاء عناصر الجمال عليها من دون أن يخل بتوازنها الطبيعي، مما يجعله - أي فن العمارة - أحد المقاييس المهمة للحكم على عطاء الأمة، وقدرتها على رسم صورة لما تريد، بخاصة إذا التزم العمل الأصالة، وحافظ على الهوية، ثم استفاد من معطيات العصر، ونتاجات أمم الأرض جميعها.

وقد أدرك المعماري المسلم ما لفن العمارة من دور في التعبير عن مكونات حضارته، فعمل على إيجاد عناصر فنية محددة تحمل قيمها وتصوراتها للكون والحياة، على الرغم من تباين الأقاليم والبلدان التي شملتها الحضارة الإسلامية، حتى غدت العمارة معلمًا بارزًا من معالم هذه الحضارة، وأداة للتعبير عن خصوصيتها وتميزها، ودليلا من دلالات تقدم المسلمين في علوم الهندسة والرياضيات والميكانيكا، ورقي الذائقة الفنية لديهم.

ونتج من ذلك امتداد تأثير المدرسة الفنية الإسلامية للعمارة والزخرفة إلى الأمم الأخرى، فبدا أثر المآذن واضحا في تصميم الأبراج في أوربا التي اقتبست كذلك فكرة المشربيات، فاستخدمتها في قصورها، وظهرت التكوينات الهندسية الإسلامية جلية في كثير من مبانيها التاريخية، هذا بالإضافة إلى الجوانب العملية التي تراعى في التصميم.

ولاشك أن خصوصية العمارة الإسلامية التي استمدها المسلم من قيمه الروحية ومكونات بيئته ومفرداتها، ونجاحه في تحقيق التآلف والانسجام بينها، بما أتاح له التعبير عن ذاته وانتمائه، دليل واضح على خصوبة خياله وتفرد تفكيره، واعتداده بمقوماته الحضارية، ويعد في الوقت نفسه دليلاً على رقي الوسط الثقافي والحضاري الذي هيأ هذه الخصوبة في الخيال وهذا التفرد في التفكير. وفي الوقت ذاته فإن المسخ الذي أصبحت عليه كثير من المدن الإسلامية ليبرهن على الوهن الحضاري الذي تعيشه. فبعد أن كانت الأقاليم والبلدان الإسلامية جميعها - على الرغم من تباينها - تتوحد في إطار عناصر هندسية وجمالية وخصائص معمارية مشتركة، تُنبئ عن روح حضارية واحدة، صارت المدينة الواحدة اليوم تجمع بين التناقضات والأضداد في الرؤية ومادة البناء نفسها، مما أدى إلى غربتها عن بيئتها.

لذلك فإن التحدي الذي يواجه القائمين على تخطيط المدينة العربية الإسلامية اليوم هو كيفية الجمع بين خصائص المعمار الإسلامي ومعطيات التقنية الحديثة دون تنافر أو تناقض، بحيث يكون نتاج المزج الواعي بينهما متآلفًا مع البيئة المحيطة، ومعبرًا عن الذات.

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الفيصل
العدد (٢٢٢) - السنة (١٩) - ذو الحجة ١٤١٥هـ - مايو ١٩٩٥م



العنكبوت وهندسة الغزل والنسج

العناكب مخلوقات عجيبة، تختلف كثيرًا عن الحشرات لامتلاكها أربعة أزواج من الأرجل، كما أنها تبلغ نحو (٤٠.٠٠٠) نوع، مما يؤدي إلى اختلاف أشكالها وبيئاتها وطبائعها. وتشتهر العناكب ببيوتها الواهنة، التي تتميز - على وهنها - بدقة البنية، وإحكام الهندسة.
ولكن، هل تعلم كيف تغزل هذه الكائنات بيوتها وتنسجها؟

ص ٨٣



«الميناماتا» يجتاح الأنهار !!

كانت إصابة بعض صيادي خليج ميناماتا الياباني بأعراض التسمم والعصبية سببًا في الكشف عما عرف بمرض «الميناماتا». وقد وجد أن هذا المرض لايقتصر على هذا الخليج فحسب، وإنما هو وباء يجتاح أنهارا كثيرة في أنحاء شتى من العالم.
ما أسباب هذا المرض؟ ومامدى خطورته على الجهاز العصبي؟ وكيف تكون المواجهة؟

ص ٨٧



فن الحزن الجميل

فن الرثاء من الفنون الأصيلة في الأدب العربي؛ لانسجامه مع النفس العربية التي تغلب عليها العاطفة الجياشة في مواقف الفراق والوداع، والتي يتم التعبير عنها بصور شتى، يأتي الشعر في مقدمتها، باعتباره ديوان العرب وأحب الفنون الأدبية إليهم.
ولعل من أعجب مامسّه فن الرثاء: رثاء الحيوان. فمنهم من كتب مرثيتة في الهر والكلب والببغاء، ومنهم من كتبها في «حمار» له.
لكن مايدعو إلى العجب أن أحد الشعراء أقام حفل تأبين لصديقه «العجْل»، أنشد فيه:

ياباهي الذيل والقرون　　　أبكيك بالمدمع الهتون

وهناك كثير من الجد والهزل في هذا الفن، فن الحزن الجميل، فاقرأ:

ص ١٠٦

أدب وفكر

استطلاعات

علوم

تعليم

تراث وتاريخ

رئيس التحرير
د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

من كتاب العدد

د. عمر بن قينة



- مواليد المسيلة، الجزائر ١٩٤٤م.
- حاصل على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر المركزية.
- عمل معلمًا في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ويعمل حاليا أستاذًا محاضرًا بمعهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر المركزية.
- له أربعة عشر مؤلفًا مطبوعًا في الدراسات الأدبية والقصة والرواية، ودراسات أخرى منشورة في الصحف والمجلات المتخصصة.

د. محيي الدين عبدالحليم حسين



- مواليد مصر ١٩٤١م.
- حاصل على الدكتوراه في الإعلام، كلية الإعلام، جامعة القاهرة.
- عمل محررًا صحافيا، وإخصائيًا إعلاميا بهيئة الاستعلامات المصرية، ومحاضرًا بجامعتي البصرة بالعراق والملك عبدالعزيز بجدة، ورئيسًا لقسم الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر، ويعمل حاليا أستاذًا للإعلام بجامعة الكويت.
- حضر العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والعربية.
- من أهم مؤلفاته: الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العلمية، الرأي العام في الإسلام، الدراما التلفزيونية والشباب الجامعي، الإعلام الدولي والدعوة الإسلامية. إلى جانب العديد من البحوث العلمية.

يوسف فجر رسلان



- من مواليد إحدى قرى حمص، سورية ١٩٣٩م.
- حاصل على مؤهل تربوي، وتخرج في «قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية»، جامعة دمشق.
- يعمل حاليا موجها تربويا في المرحلة الثانوية.
- كتب القصة القصيرة والشعر، وله عدد كبير من الدراسات الأدبية المنشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.

د. منير مصطفى البشعان

- من مواليد دير الزور، سورية ١٩٥٥م.
- حصل على درجة الدكتوراه في العلوم الطبية البيطرية (علم جراثيم) من كلية الطب البيطري، جامعة البعث، سورية ١٩٩٢م.
- قام بالتدريس في العديد من المعاهد الصحية والطبية والطبية البيطرية في سورية.
- له عدد من الكتب المطبوعة والمخطوطة في مجال العلوم الطبية والطبية البيطرية، كما نشر العديد من البحوث والمقالات العلمية والأدبية في المجلات العربية والأجنبية، وحصل على جوائز وميداليات فضية وذهبية وشهادات تقدير.
- لديه اهتمامات أدبية وبخاصة في مجال الشعر والقصة القصيرة.



مسجد عمر بن الخطاب في مدينة الدوحة .. شاهد على قدرة العمارة الإسلامية على التطور

العمارة الخليجية تواجِ

كامل يوسف حسين

تزامنت الطفرة النفطية التي شهدتها المجتمعات الخليجية مع سلسلة هائلة من المتغيرات، ربما كان من أكثرها وضوحًا الاتساع الكبير في البنية المعمارية للمدن الخليجية، التي كانت على امتداد تاريخها نماذج متكاملة للمدن العربية الإسلامية، في توافقها المحكم بين هياكلها المعمارية والقيم الروحية والأخلاقية الإسلامية ونمط النشاط والسكنى، كما عرفته الاستمرارية الطويلة للمدينة الإسلامية.

وبالرغم من الجوانب الإيجابية الكبيرة المرتبطة بالتوسع العمراني والحضاري الهائل الذي شهدته المدن العربية الخليجية، في فترة قصيرة نسبيا لاتتجاوز ربع القرن، فإن هذا التغير المعماري الكبير قد أثار لدى الكثير من الباحثين والدارسين والمهتمين بالأفق الحضاري العربي مجموعة من التساؤلات وعلامات الاستفهام، عن مدى التوافق والارتباط بين الشكل المعماري والمضمون الروحي والإنساني، والطابع التقليدي لهذه المدن، وعن مدى إمكان تحقيق التوافق بين المعالم المعمارية الجديدة وروح العمارة الإسلامية الحديثة، على نحو مانجحت فيه مجتمعات عربية أخرى، كمجتمعات المغرب العربي، وهي في طريقها نحو التطور.



قصر المؤتمرات في مدينة الرياض.. نموذج للمزج الواعي بين العمارة الإسلامية والعمارة الحديثة

...ـه تحديات المستقبل

هذه التساؤلات تمتد لتفرض نفسها حول إمكان استشراف جهود البناء في إطار العمارة الإسلامية الحديثة لآفاق التقنية المتطورة في ميدان العمارة، وتوظيف المواد المستخدمة والمستوردة وغير المألوفة في البيئة العربية الخليجية.

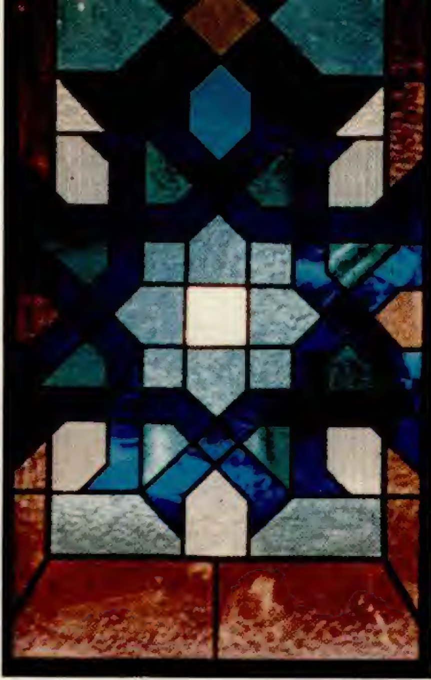
وتصل علامات الاستفهام هذه إلى قمتها عندما تتعلق بالكيفية التي يمكن من خلالها للعمارة الخليجية أن تواصل الاحتفاظ بالتراث الإسلامي المعماري العريق، وتواجه في الوقت نفسه تحديات المنعطف الأخير للقرن العشرين، وفي مقدمتها التوسع العمراني الكبير، وتنفيذ المشروعات العملاقة المتعلقة بتطوير مدن المنطقة إلى مراكز عالمية عملاقة للنشاط المالي والتجاري والصناعي المتخصص.

ولكن قبل محاولة التصدي لأبرز جوانب علامات الاستفهام هذه، من المنطقي أن نعرف أولا التصور العلمي للعمارة - ولو في أبسط مفاهيمه - من ناحية، وأن نتفهم بوضوح - من ناحية أخرى - المقصود بالمعايير والقيم التشكيلية التي استوعبتها العمارة الإسلامية عبر العصور، والتي يشكل التمسك بها مدخلاً أساسيًا للإبقاء على الهوية الإسلامية للمدينة العربية الخليجية، وبذلك يتكامل الإمساك بطرفي الموضوع الذي نعالجه هنا.

إن المجلد الأول من دائرة المعارف البريطانية في القسم الموسّع (ص ١٠٨٨) يضع يدنا على البعد الأول الذي ننشده هنا، حيث يوضح أن العمارة هي فن البناء وأسلوبه المستخدم لتحقيق متطلبات عملية وتعبيرية يقتضيها شعب متحضر. فكل مجتمع مستقر على وجه التقريب يمتلك ناصية الأساليب الضرورية للبناء قدّم عمارته الخاصة، وهي ضرورية في إطار كل الثقافات باستثناء أكثرها بساطة، فمن دونها يجد الإنسان نفسه في مواجهة صراع مع العناصر الطبيعية، وبالاستعانة بها لايجد الدفاع ضد البيئة الطبيعية فحسب، وإنما يجد كذلك منافع بيئة إنسانية تشكل الشرط المسبق والرمز لتطور المؤسسات المتحضرة.

ولكن، ماالسمات أو الخصائص التي تميز العمل المعماري من غيره من البنى التي يقيمها الإنسان؟

روعة الزخرفة وجمال الألوان كما تبدو في قبة أحد المساجد في بر «دبي»


الزخرفة بالتجريد الهندسي كما تبدو في ركن من أركان مسجد في بر «دبي»


ماذا كان يعني حسن فتحي بقوله: «انظروا إلى الأرض التي تحت أقدامكم ثم ابنوا»؟

الخصائص عديدة، ولكن في مقدمتها مايلي:

- يتميز العمل المعماري بملاءمته للاستخدام من قبل البشر بصفة عامة، وإمكان تحويله ليتوافق مع أنشطة إنسانية بعينها.
- ثبات العمل المعماري ودوامه.
- توصيل العمل المعماري للتجربة والأفكار الكامنة خلفه من خلال الشكل الذي أقيم في إطاره.

ومن ناحية أخرى فإن الطراز المعماري الإسلامي أفرز، عبر عصوره المختلفة، وجوها معمارية لامجال للخطأ بشأنها، ولا موضع لإنكار أصالة الأساس التصميمي للأعمال المقامة في إطار هذا الطراز، مع وجود أنماط فكرية وتشكيلية مبتكرة، وتكوينات زخرفية تعبر عن الزمان والمكان واتجاهات مختلفة للتطوير؛ مما يجعل الطراز الإسلامي في العمارة مكتسبًا صفة الأصالة والمعاصرة في وقت واحد.

القيم التشكيلية للعمارة الإسلامية

وعلى امتداد عصور تاريخية، وعبر العالم الإسلامي الممتد من الهند وسواحل الصين الجنوبية والقوقاز إلى أفريقيا جنوب الصحراء، تبلورت مجموعة من المعايير والقيم التشكيلية التي استوعبتها العمارة الإسلامية وأبرزتها بصور متعددة لها صفة التطور، وهذه المعايير والقيم يمكن إيجازها في النقاط التالية:

مفهوم الوظيفة: حيث تميزت العمارة الإسلامية بعدم ارتباط التشكيل بأداء وظيفة معينة، مما أكسبه البعد الحركي (الديناميكي) في الأداء، مع إحداث التكامل بين الفضاء الداخلي كونه مأوى للعيش والنشاط، وبين الصورة البصرية للفضاء الخارجي، حيث ظهرت نوعيات مختلفة من المباني ذات أساس تصميمي واحد

تحديات المستقبل

وأغراض استخدامه متعددة، منها: المساجد، والتكايا، والخانقات، والوكالات.

التجريد والرمز: فالفنون الإسلامية - ومن بينها العمارة - حرصت على التخلص من المحاكاة الحرفية للطبيعة، والاتجاه إلى التجريد، وتبنِّي الأشكال الهندسية والنباتية، مما أعطى دفعة للمعماري المسلم لاستنباط أشكال فنية جديدة.

توظيف المواد المتاحة في البيئة: لا حصر للابتكارات التي قدمها المعماري المسلم في هذا الصدد، ومنها استخدام البريق المعدني بديلاً للذهب، وهكذا تميزت العمارة الإسلامية بالمرونة منذ عصورها الأولى.

المفهوم النحتي: حرص المعماري المسلم على أن تكون مبانيه الدينية والدنيوية - على حد سواء - تجسيداً لمفهوم الكيان المعماري، باعتباره جسداً داخل ذاته، في مفارقة واضحة لمفهوم النحت في الحضارات الأخرى، القائم على اعتبار المبنى كتلة في فراغ، ومن هنا جاء التركيز الإسلامي على الفلسفة الزخرفية، المعتمدة على التكامل والتسطيح بمعنى البعد عن التجسيد.

الآن إذا أخذنا هذا الإطار العريض زاداً في رحلتنا لمواجهة الوضع الراهن للعمارة الخليجية، والكيفية التي يمكن بها أن تستجيب لتحديات المستقبل، فما الذي نجده؟

الحقيقة الأساس التي ينبغي أن نتذكرها هنا هي أن جهوداً نبيلة قد بُذلت حتى لا تفقد المدينة العربية الخليجية هويتها الإسلامية في عمارتها، وبخاصة أن القيادات الخليجية كانت حريصة على الدفع في اتجاه إبقاء الروح الإسلامية تسري في عروق كل المنشآت الصرحية العامة الجديدة، والعديد من المباني الخاصة.

ولكن بالرغم من نبل القصد والهدف، فإن المتخصصين يشعرون بقلق غير قليل حيال النتيجة النهائية التي وصلت إليها حمّى البناء في العديد من المدن العربية الخليجية.

اتجاهات العمارة الخليجية الحديثة

حقّاً إن حركة البناء في هذه المدن أفرزت العديد من الأعمال الصرحية الرائعة الجديرة بالتوقف عندها، وكانت - وماتزال - هناك جهود مكثفة للجمع بين التراث المعماري الإسلامي وأعمال البناء الكبرى، ولكن النتيجة النهائية لايمكن القول بأنها تدعو إلى التفاؤل.

كيف؟ بالرغم من خطورة الانزلاق إلى هوّة التعميم، في حديث ينصرف إلى مدن عديدة في عدة أقطار عربية، إلا أننا يمكن أن نرصد سبعة اتجاهات في العمارة الحديثة في المدن العربية الخليجية، من حيث علاقتها بالتراث المعماري الإسلامي، هي:

الاتجاه الأول: يتمثل فيما أسماه المعماري العربي رفعة الجادرجي بالاتجاه «الجروتسكي» أو «الغرائبي»، ولم يتردد في القول بأنه اتجاه مضحك - مبك، لأنه خليط من العناصر التراثية والشعبية بصورة عشوائية دون ضوابط أو معرفة أكاديمية حقيقية. وهو اتجاه يرجع إلى إسناد مشروعات معمارية كبيرة في الخليج إلى شركات هندية وباكستانية وصل جهلها بتراث المنطقة المعماري إلى حد إقامتها منشآت يصل قبحها إلى حد «اللامعقول».

الاتجاه الثاني: قد يدفعنا استنكارنا له إلى حد وصفه بالاتجاه التشويهي أو الاتجاه المؤذي،



أحد المساجد في «أبو ظبي».. العمارة الإسلامية البالغة الروعة



وهو يقوم على تقليد العمارة الأوربية، وإشباع متطلبات نفعية، ولكن مع تجاهل كل الجوانب الإنسانية، فهو اتجاه يطرد العمارة التراثية ليحل محلها معمار رديء تسبب في تخريب مدن بكاملها وإفقادها طابعها الأصيل.

الاتجاه الثالث: يجمع بين الاتجاهين السابقين، أي بين الغرائبية وتقليد العمارة الأوربية.

الاتجاه الرابع: يمكن وصفه بالاتجاه العادي، أي الذي يحقق إشباعًا وظيفيًا، ولكنه لايضيف أي إضافة تذكر إلى حضارة عصره.

الاتجاه الخامس: هو الاتجاه المعماري المنمّق، وهو ينطلق من استهداف بعث معالم التراث المعماري الإسلامي، والتخفيف من سلبيات الاتجاهات السابقة، ولكنه يقع في هوّة التكرار والحشو؛ بحيث إن إغناء العمارة المعاصرة بوساطة المسحة التراثية ينقلب إلى أشكال وأنماط متفاقمة ومزدحمة، تطغى كل منها على الأخرى وتفقدها قيمتها التقنية والجمالية.

الاتجاه السادس: وهو الاتجاه الدولي البارع الذي يتصدى لقيادته معماريون على جانب كبير من الكفاءة والبراعة، وتندرج جهودهم في إطار المدرسة الدولية الحديثة في العمارة، ولكن قبولهم للعناصر المحلية يظل محدودًا ومقيدًا بتطورات المدرسة التي ينتمون إليها.

الاتجاه السابع: الاتجاه التجريبي المحلي، وهو اتجاه يدعو أصحابه إلى التعاطف مع التراث المحلي، وأقصى طموحهم هو تقديم إسهام خليجي في النهضة العمرانية الإسلامية الحديثة. ولكن أصحاب هذا الاتجاه يمثلون قلة محدودة للغاية، تكاد تكون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

والمتأمل لملامح الصورة الشاملة، التي ترسمها هذه الاتجاهات السبعة؛ لابد له أن يدرك على الفور أن العمارة العربية في الخليج، بالرغم من النهضة الكمية الهائلة التي تشهدها، تواجه مأزقًا لاموضع للاستهانة به أو التقليل من خطورته.

وفي مواجهة هذا المأزق يغدو السؤال المنطقي الذي لابد من البحث عن إجابات عاجلة له هو: إلى أين من هنا؟

من المؤكد أن محاولة العثور على مثل هذه الإجابات في مواجهة هذا السؤال لن تقودنا إلى وصفة سحرية، تشكل دواء ناجعًا من كل العلل، ولن تفضي بنا إلى خارطة تشبه الخرائط القديمة المفضية إلى كنوز أسطورية. لكننا يمكن أن نستمد العون من اجتهادات معماريين لهم جهودهم المتميزة على الساحة العربية، وأيضًا من تجارب رائدة ومتميزة على أرض الواقع، تقدم نماذج جديرة بالبحث والتأمل والمتابعة واستخلاص الدروس.

كيف؟ لاشك في أن المعماريين العرب الذين أدركوا المنعطف الخطير الذي تمر به النهضة المعمارية العربية كثيرون، ولاموضع للتقليل من أهمية الجهود الكبيرة التي بذلوها في هذا الصدد. دعونا، إذن، نعمد إلى الاستعانة بطروحات مهندسَيْن عَرَبِيَّيْن، يختلفان تمام الاختلاف في المَرحلة التي ينتميان إليها من تطور العمارة العربية، وأيضًا في الاجتهادات التي قاما بها، ولكنهما يشتركان في أكثر من إطار للتحليل، فيما يتعلق بالمشكلة التي تواجهنا هنا.

حلول حسن فتحي

المهندس المعماري العربي الذي سيرد اسمه إلى الذهن، على الفور، هو حسن فتحي، الذي ينطلق من تجربة ممتدة شملت البناء في مناطق صحراوية عديدة، منها بالإضافة إلى مصر:

العمـــارة الخليـــجيـــة تواجـــه تحـــديـــات المســـتقـــبل



ملمح شامل لمدينة الشارقة حيث يبدو مسجد «الملك فيصل بن عبدالعزيز»

السعودية والمكسيك والعراق والولايات المتحدة والعديد من الدول الأفريقية ودول العالم الثالث.

وأول مايبادرنا به في هذا الصدد يتمثل في مقولته التي طبقت شهرتها آفاق العالم بأسره، وهي: «انظروا إلى الأرض التي تحت أقدامكم ثم ابنوا». وهو مايعني ببساطة أنه يرفض الغالبية الكاسحة من المباني المقامة حديثًا في منطقة الخليج، والتي تعتمد على مواد بناء مستوردة، وبصفة خاصة الإسمنت والزجاج والألومنيوم.

أليس هو القائل: «إن التطور يجب ألا يعني إقامة بيت ذي جدران زجاجيةفي وسط الصحراء.هذا ماأسميه المفارقة التاريخية، حيث يصبح التقدم كما هو عندنا مجرد الأخذ بالأفكار الغربية دون النظر إلى ماإذا كانت توافقنا، أو لاتنسجم مع واقعنا المحلي»؟

ويوضح حسن فتحي مايعنيه في هذا الصدد بقوله في مقابلة صحفية معه: «تصوّر أعرابيًا بلباسه التقليدي، الحطة والعقال، تصوّره في بيت ذي جدران زجاجية، وفي صحراء السعودية الملتهبة أو في الكويت. إن مثل هذا البيت بإمكانه أن يجذب الأشعة مافوق البنفسجية، فجدار زجاجي بثلاثة أمتار مضروبة في ثلاثة أمتار لأشعة الشمس يُدخل ألفي كيلو حريرة في الساعة من الحرارة. وقد شكا لي مدير مركز الأبحاث العلمية في القاهرة مما يعانيه؛ حيث إنه لايستطيع البقاء والعمل في هذا المركز، لأن جدرانه من الشرق والغرب زجاجية، مما يضطره لإغلاق النوافذ».

إن أفكار حسن فتحي معروفة ومطروحة للجميع، سواء في مشروعاته أو مؤلفاته المتخصصة أو كتبه العامة المشهورة، مثل: «العمارة من أجل الفقراء» و«البيت العربي في المحيط الحضري». ولكن مايعنينا منها في هذا السياق يكمن في عبارات بالغة الدلالة، منها قوله: «إن خصائص المعمار الإسلامي العربي تكمن في الاستفادة من الفضاء، وليس في عوارض الأسلوب أو النمط».

هكذا بأبسط المعاني.. فإن المدينة الإسلامية العربية، كما يتصورها حسن فتحي، هي تلك التي تختار الفضاء، ومن خلال مواد البيئة المحيطة، وفي أُطُر إنسانية، تتفق مع قيم الإنسان المسلم العربي ونمط حياته. وهو نفسه يلخص هذا التفسير بقوله: «لايحتاج الإنسان إلى أربعة جدران وسقف فوق رأسه، إنه بحاجة إلى أن يرى امتداد السماء ليرى النجوم والكواكب الأخرى. الدار مكان حميم ينبت فيه الإنسان ويكبر تمامًا مثل البذور، وحين تضع الإنسان في صندوق مربع أو ما أسميه بتابوت حجري، يتحول هذا الإنسان الشرقي إلى مخلوق منغلق على نفسه، وينعدم احتكاكه بالعالم الخارجي لدرجة الصفر».

ومايحذر منه حسن فتحي في إطار نظرية للعمارة في العالم الثالث، يحذر منه المعماري العربي رفعة الجادرجي في صورة صرخة مدوّية لحماية المدينة الإسلامية العربية الجميلة من ضياع هويتها، حيث يقول: «إن أساليب الحياة والأنماط القياسية والاتجاهات المتشابهة في البناء القائمة في كل قطر في زماننا هذا، جلبت معها خطر إضاعة عدد من المدن الجميلة هويتها الحضارية الفريدة في بحر من العمارات المتشابهة المبنية على الطراز العالمي. وكل خطوة تبعدنا من ذلك،

الدال: «تقويم تجربة مدينة العين في تحقيق التوافق مع خصائص العمارة الإسلامية للبيئة المحلية»، يوضح د. محمود أحمد عبداللطيف أستاذ التخطيط العمراني والإقليمي المساعد بكلية الهندسة بجامعة الإمارات، أن مدينة العين واجهت سؤالاً محدداً يوجز قضية مهمة، هو: كيف يمكن للإنسان أن ينتج خلال فترة زمنية محدودة حجماً كبيراً من التغيرات العمرانية والاجتماعية في بيئة صحراوية بدائية قاسية وحساسة، ومع ذلك ينجح في جعل تلك التغيرات إيجابية في طبيعتها، وعالية التوافق مع خصائص البيئة المحلية بصفة عامة، وخصائص العمارة الإسلامية التراثية بصفة خاصة؟


مسجد «الملك فيصل بن عبد العزيز» في مدينة الشارقة.. طراز متجدد من المعمار الإسلامي

ويوضح أن العين انتقلت مما كانت عليه من وضع حتى العام ١٩٦٩م، أي من مجرد

الإسلامية: أسسها وتطويرها»، التي عقدت في دبي في أبريل ١٩٩٤م، وحملت العنوان

وتعيدنا إلى أيام التنوع الغنية السابقة جديرة بأن تحظى بالتأييد والترحيب».

مدينة العين مثال نموذجي

وإذا أردنا نموذجاً لمواجهة العمارة الخليجيةالعربية خطر فقدان الهوية هذا؛ لوجدناه في أرقى صورة متمثلاً في العديد من الملامح العمرانية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وبشكل خاص في مدينة العين.

كيف؟ يوضح الدكتور مجدي محمد موسى، أستاذ العمارة بكلية الهندسة بجامعة الإمارات، أن المدينة الإسلامية التي ظلت على امتداد عصور طويلة تحتفظ بهويتها على نحو شامخ، قد واجهت في العصر الحديث مجموعة من المشكلات، في مقدمتها: موضوع وسائل الحركة، الكثافة السكانية المرتفعة، الأنشطة الحيوية المعاصرة (الصناعة مثلاً).

وبينما كان أمام مدن كالقاهرة مايزيد على قرن كامل من الزمان لتجد حلولا لهذه المشكلات، فإن المدن العربية الخليجية كان عليها في ربع هذه المدة تقريباً أن تحل هذه المشكلات نفسها، بالإضافة إلى تحديات التوسع الكمي والكيفي إلى أضعاف مساحتها.

فكيف واجهت مدينة العين هذه التحديات الهائلة؟

في ورقة عمل معدة لندوة «العمارة



العمارة الخليجية تواجه تحديات المستقبل

مجموعة قرى صغيرة يقطنها نحو عشرة آلاف نسمة إلى مدينة مزدهرة يبلغ عدد سكانها الآن حوالي ١٧٥ ألف نسمة، يتوقع أن تستمر في اجتذاب السكان والأنشطة الاقتصادية في المستقبل.

لقد كانت هناك صعوبات هائلة أمام تحقيق هذا التحول الكبير، منها ماهو مادي، ويتمثل في المناخ الصحراوي الحار، والافتقار إلى المياه الوفيرة الضرورية للشرب والري والأنشطة الانتاجية والخدمية وعدم توافر البنى التحتية، كشبكات الطرق والهواتف والمواصلات. ومنها ماهو إنساني، مثل الزيادة السكانية وغياب الكوادر المتخصصة والمدربة والهيكل الإداري المتكامل.

في المقابل، كانت هناك إيجابيات واضحة في تجربة مدينة العين العمرانية والتنموية بشكل عام، في مقدمتها توافر القدرة التمويلية العالية، من خلال الثروة النفطية للإمارات، والدعم والتأييد غير المحدود من جانب القيادة السياسية في دولة الإمارات لمشروعات التنمية العمرانية الشاملة.

ولعل من أبرز العناصر التي يجب التوقف عندها، في التجربة العمرانية الرائعة لمدينة العين، وجود لجنة خاصة تسمى «لجنة الحفاظ على الطابع المعماري الإسلامي»، لايمكن لأي مشروع عمراني أن يرى النور قبل أن تصدر هذه اللجنة مايفيد أن تصميمه متوافق مع أسس العمارة الإسلامية.

وسيلاحظ كذلك كل متأمل لتجربة العين العمرانية الإصرار من جانب المسؤولين وصانعي القرار والمتخصصين على اعتماد مجموعة من الأساليب التي أسهمت في تأكيد التوافق مع الطابع المعماري الإسلامي، فهناك التحديد المتشدد للارتفاعات النهائية للمباني، والتأكيد على مبادئ تراثية من أهمها احترام المقياس الإنساني، ومبدأ التدرج من العام المزدحم بالأنشطة والمباني في المركز إلى الخاص الهادئ في الأطراف، ومبدأ التوافق العمراني الوظيفي من خلال الحفاظ على مستوى كثافة سكانية وعمرانية مناسب للاستخدامات والوظائف المختلفة لأجزاء المدينة.

ومن أبرز المظاهر التي سيلاحظها زائر المدينة للتوافق مع التراث المعماري الإسلامي تأكيد دور المسجد بوصفه عنصراً أساسا في المدينة، والحفاظ على القيم التراثية في المباني العامة والتقليدية كالقلاع والحصون، والسكنية باستخدام معالجات كالعقود والمقرنصات والحليات والتقسيمات، وضمان الشعور بالراحة النفسية من خلال الخضرة والأشجار والحدائق، وتحقيق المرونة والكفاءة الوظيفية والانسيابية الحركية.

هذه الثروة من الدروس والمعاني المكتسبة تتراكم بهذا القدر أو ذاك من الوفرة في معظم مدن الخليج العربية، ومن المؤكد أنها تشكل السلاح الكبير في مواجهة التحديات التي يحملها المستقبل لهذه المدن.



«سوق المجرة» بمدينة الشارقة.. سوق عصرية في ثوب معماري إسلامي

المراجع:

١ـ أرداش كاكافيان، حسن فتحي وقصة المشربية. «فنون عربية» العدد٣ ـ دار واسط، ١٩٨١م، لندن.

٢ـ أودو كولترمان، معماريون معاصرون في الوطن العربي. «فنون عربية» العدد١ ـ دار واسط ١٩٨١م، لندن.

٣ـ د. محمد أمين محمد، «الهوية الحضارية للعمارة الإسلامية: ربط المحاولات التراثية بعوامل المعاصرة»، ورقة مقدمة لندوة «العمارة الإسلامية: أسسها وتطويرها»، دبي، أبريل ١٩٩٤م.

٤ـ محمود أحمد عبداللطيف، «تقويم تجربة مدينة العين في تحقيق التوافق مع خصائص العمارة الإسلامية»، ورقة مقدمة للندوة نفسها.

5 - HASSAN FATHY: ON POETICS OF SPACE IN: ALIF NO.6, SPRING 1986, AUC. - CAIRO.

6 - THE NEW ENCYCLOPEDIA BRITANICA . MAC VOL.1, CHICAGO, 1988.



قوارب القرن الحادي والعشرين

إعداد: محمد سلامة

منذ أن عرف الإنسان القديم الانتقال على صفحة الماء بوساطة زورق مصنوع من أعواد النباتات، أو على متن سفينة يبنيها بما يتوافر له من أخشاب، وتمتلئ أشرعتها بالهواء، ليجوب فيها البحار؛ كي يكتشف بلادا جديدة، ومرورا بعصر السفن التي تعمل بالفحم، والسفن التوربينية والبخارية، إلى عصرنا الحاضر، بعد أن تجاوز الإنسان ـ في مسيرة حضارته اللاهثة وراء كل جديد ـ ماتفتقت عنه مخيلته من أنواع أخرى. وفي ظل عصر السرعة، والبحث كل يوم عن جديد؛ تظل العقول تفكر وتخترع، والأيدي تنتج.. كي يتحقق لأبناء هذا العصر مايرغبون فيه من وسائل الانتقال السريع على صفحة الماء، ولامانع ـ في الوقت نفسه ـ من أن تحتوي على شيء من الرفاهية.

حوامة تنتفخ بالهواء

في عصر السرعة.. والدقة.. والمرونة.. لم تعد القوارب البحرية ذات النمط الكلاسيكي تلائم العصر ومستحدثات القرن الحادي والعشرين.

لذلك قام الباحثون والعلماء بجامعة برمنجهام في بريطانيا باختراع حوامة جديدة ذات مواصفات خاصة، تستخدم للبر والبحر (برمائية)، أُطلق عليها «تايجر٤»، وتتيح الفرصة للاستقصاء العلمي لمناطق ساحلية جديدة، كان من المتعذر الوصول إليها بالقوارب واللنشات العادية.

ويمكن لهذه الحوامة التوغل في المناطق الطينية والمنبسطة على طول حوافى مصبات الأنهار؛ لمراقبة التخلص من النفايات، والملاحة والصيد وحتى الترفيه. والحوامة لها خواص مميزة؛ إذ يمكن تجميعها وتفكيكها بسهولة، وهي قابلة للنفخ بالهواء. ويمكن تفريغها بعد القيام بمهماتها وحملها بسهولة في سيارة. ولجسم الحوامة أربع حجيرات وأخرى احتياطية، وتتمتع الحوامة بكل الفوائد المزود بها زورق قابل للنفخ. ووحدة الطاقة عيار ٣٤ كيلو وات (٤٦ حصان) عبارة عن محرك ثنائي الاسطوانة، وثنائي هوائي التبريد. والرفع والدفع يتمّان بوساطة مروحة محورية أحادية يبلغ قطرها ٩٠٠ملم ذات ١٢شفرة.

ويعتقد العلماء أن تلك الحوامة يمكن استخدامها بمهارة في المستنقعات

أكثر من ثلاثين شركة اشتركت في تصميم هذا القارب وإنتاجه

الحوامة البريطانية (تايجر ٤)، للبر والبحر معا



والشواطئ الأمامية الوحلة لأنها تجذب الترسب الدقيق من المصادر النهرية والبحرية.

وأسرع قارب للسباقات

أنتجت شركة بريطانية قاربا سريعًا تصل سرعته إلى ١٦٠ كيلا في الساعة، لحساب جماعة الخضر لمراقبة الأنهار والبحار والأسطح المائية. والقارب مزود بمحرك سريع الحركة.

وقد اشتركت أكثر من ٣٠ شركة مع الشركة الأم في إنتاج هذا القارب الذي يعد من أسرع القوارب في العالم.

ويتميز بخفة وزنه ومرونته وتصميمه الذي أعد بالحاسب الآلي.

وجيل جديد من اللنشات

قامت شركة (ف بي م مارين)

قوارب القرن الحادى والعشرين

الجيل الجديد من اللنشات.. مهمات متعددة وأشكال مختلفة



(هيربر).. زورق السباق الجديد من البلاستيك

البريطانية بإنتاج لنش جديد يبلغ طوله ١٥ متراً متعدد الأغراض. ويعد هذا اللنش جيلا جديدا من مراكب الموانئ التي أنتجت لتحل محل المراكب الأحادية البدن.

ويستخدم اللنش في مهمات متنوعة في الموانئ والأنهار والطرق المائية المحمية، وبأشكال مختلفة وأيضا بحمولات مختلفة.

وكان قد جرى تصميمه كي يحمل ٣٠ راكبًا وطنين من البضائع.

واختيار البدن الجديد المكون من سبائك الألمونيوم المقاومة للتآكل؛ يتيح للركاب الجلوس تحت غطاء في مستوى الصعود إلى المركب دون الحاجة إلى السلالم، كما يوجد مكان فسيح لإيواء ٦٠ راكبا إذا استعمل بمثابة معدية، وله محرك قدرته ١٤٠ حصانًا.

ويتميز اللنش بتقسيم (الهيكل) إلى أجزاء صغيرة بوساطة حواجز ضد الماء؛ مما يتيح طفوه واستقراره على سطح الماء.

ويمكن تشغيله من قبل طاقم من الملاحين قوامه رجلان، كما أن به حجرة يوجد فيها صالون مزود بمقاعد ومطبخ صغير.

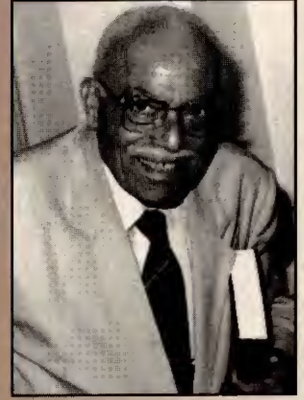
وزورق سباق من البلاستيك

جرى تصميم الزورق الرياضي الجديد (هيربر) البالغ طوله ٢٢ قدما؛ بحيث يبحر بسرعة تتجاوز ٦٣ ميلا في الساعة أي مايعادل ١٠١ كيلو مترات.

والزورق مخصص للسباق، وهو مصمم من البلاستيك المقوى بالزجاج، ومجهز بمحركات في المؤخرة من عيار ٢٦٠ أو ٣٣٠ حصانًا.

ويتيح الزورق أماكن لستة أشخاص بالإضافة إلى الربان والملاح، والمقاعد محكمة التثبيت، كما أن للأحجبة الهوائية دعامات معدة من الفولاذ الذي لا يصدأ تدعم وزن الراكب. كما يحتوي الزورق على سرير كبير للاستلقاء عليه إذا أريد الاستمتاع بأشعة الشمس، وحجرة ذات مقعدين.

الحائرون..
وموسى بن ميمون



د. حسن ظاظا

أردت بعنوان هذا المقال أن أضع إشارة إلى أهمّ مؤلفات موسى بن ميمون (الفلسفية) كما يصفها أبناء ملّته اليهود، لأنهم لايوافقون على أن يكون كتابه هذا «دلالة الحائرين» دراسة متعمقة وملتزمة بعلم العقائد عندهم. وقد أثار الكتاب جدلا حادا في الأوساط الدينية عندهم، حتى أعلن كثير من رجال التفسير والشريعة في أمتهم تكفير هذا الرجل ونَهَوْا عن قراءة كتابه. وهو في الحقيقة كتاب صعب ومعقد وطويل (مقدمة ضخمة، وأبواب تملأ ثلاثة مجلدات كبيرة)، وفي حديث سابق عن تاريخ حياته ذكرنا أن شيخ المترجمين الأندلسيين للتراث اليهودي المكتوب باللغة العربية (ابن تبّون) كان قد ترجم هذا الكتاب إلى العبرية، وكتب إلى ابن ميمون وهو بالقاهرة رسالة يرجوه فيها أن يأذن له بزيارته، ليطّلع على ترجمته العبرية لكتابه «دلالة الحائرين». وردّ موسى بن ميمون متعللاً بكثرة أعماله وأعبائه، وأن ابن تبّون لن يجد بعد رحلة طويلة في البحر، محفوفة بالمخاطر، مايأمل فيه من فرص طويلة للقراءة والمراجعة.

وواضح في رده أنه كان يتهرب من حمل مسؤولية هذه الترجمة العبرية لكتاب كثر حوله اللغط بين يهود العالم العربي، وهم أكثر تحررا وتسامحا من أولئك الإشكناز في بولندا وأوكرانيا وروسيا وليتوانيا، وماجبلوا عليه من تزمت وأصولية تقليدية شديدة المحافظة.

وكان، قبل كتابه هذا، قد أخرج لليهود كتابا ضخما جدا (١٤ مجلدا) سماه «مثاني التوراة» وأودعه كل صغيرة وكبيرة من أوامر التوراة وكتب الأنبياء وأسفار الحكمة، والمشنا والتلمود. وفي هذا البحر الخضم من الشرائع والأحكام والفرائض والمستحبات والمندوبات كان لابد من السهو أحيانا، إمّا عمدًا، إذا كانت الأحكام مهملة وغير مطبقة، وإما سهوا لأن هذه كانت أول مُدوَّنة جامعة لكل الشرائع والأحكام.

وقد تعنّ لنا فرصة نتناول فيها «مثاني التوراة» بالتعريف والتعليق. وقد أتم تأليفها في مصر بالعبرية وهو مدير للأوقاف اليهودية، وطبيب للقصر السلطاني، ورئيس للمجلس الملّي اليهودي في القاهرة. وأول معارضة جاءته كانت من بغداد، فقد جرت العادة - في ظل خلفاء بني العباس - على السماح لعلماء الشريعة اليهود بانتخاب شيخ لهم يتولى الرئاسة العلمية والمالية للطائفة، ويطلق عليه اسم (جاأون) أي العلاّمة. وكذلك (رأس المثيبة) أي رئيس دار الإقامة، أو (رأس الجالوت) أي رئيس الجالية، وكان يتولى الاتصال بدار الخلافة بشأن اليهود كلما اقتضى الأمر. وكان الجاأون في ذلك الوقت اسمه السموءل بن علي، وكان يطمح في أن يعينه الخليفة حاخامًا أكبر ومفتيا وأميرا لليهود، في جميع بلاد الإسلام. ففوجئ بهذا الأندلسي وكتابه «مثاني التوراة» فاتهمه بأنه سيصرف اليهود عن قراءة التوراة والتلمود والاستغناء بكتابه هذا. ولكن التجربة أثبتت العكس؛ فكتاب مثاني التوراة بتبويبه وترتيبه أعطى مادة التلمود المائعة الرجراجة نوعا من التماسك شجع اليهود على قراءة تراثهم الديني. ولم يعدم موسى بن ميمون من يدافع عنه، وفي مقدمتهم الحاخام التلمودي المغربي - من مدينة سَبْتة - يوسف بن اكنين. وكان قبل هذه الأزمة قد جاء إلى القاهرة ودرس على ابن ميمون وأصبح من وجوه تلاميذه ومريديه، وتحمس لمنهجه في التوفيق بين الفكر اليوناني ومرويات اليهود في كتبهم مقتديا في ذلك بفلاسفة العرب؛ كابن رشد وابن سينا وابن باجه والفارابي.. وغيرهم. واقتدى بهم حتى في مخالفتهم لأرسطو إذا كانت تعاليم الدين تنافي ماجاء عند اليونان، فنجده قد أنكر على أرسطو قوله إن المادة لاتفنى ولاتستحدث؛ لأن العقيدة تقول إن المادة مستحدثة بأمر الخالق، وهي تفنى بأمره أيضا، لأن كل شيء فان إلا الخالق سبحانه وتعالى. وكانت هذه الأمور قد استقرت في العالم الإسلامي منذ العصر الأموي وأوائل الدولة العباسية في زمن الكندي والفارابي، وأخذها يهود الدولة الإسلامية متأخرين.

ومن الأطباء المغاربة الذين جاءوا إلى مصر والتقوا بموسى بن ميمون في القاهرة، يوسف بن يحيى بن اسحاق السبتي المغربي، أبوالحجاج نزيل حلب، وهو في سبتة يعرف بابن سمعون، وهو جده العاشر أو التاسع. قال عنه القفطي في (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): «هذا كان طبيبا من أهل فاس من أرض المغرب، وسبتة مدينة بسواحل البحر الرومي، كبيرة جامعة. وكان أبوه بها يعاني بعض

الحرف السوقية. وقرأ يوسف هذا الحكمة ببلاده فساد فيها، وعانى شيئًا من علوم الرياضة وأجادها، وكانت حاضرة على ذهنه عند المحاضرة. ولما أُلزم اليهود والنصارى في تلك البلاد بالإسلام أو الجلد، كتم دينه [ومن هذا النص يتأكد أنه كان يهوديا]، وتحيّل عند إمكانه من الحركة في الانتقال إلى الإقليم المصري، وتم له ذلك، فارتحل بماله، ووصل إلى مصر، واجتمع بموسى بن ميمون القرطبي، رئيس اليهود بمصر، وقرأ عليه شيئا، وأقام عنده مدة قريبة، وسأله إصلاح هيئة أبي أفلح الأندلسي [أي خريطة السماء بنجومها] فإنها صحبته من سبتة، فاجتمع هو وموسى على إصلاحها وتحريرها. وخرج من مصر إلى الشام ونزل حلب، وأقام بها مدة، وتزوج إلى رجل من يهود حلب يعرف بأبي العلاء الكاتب مَارْزَكّا، وسافر من حلب تاجرًا إلى العراق، ودخل الهند وعاد سالما، وأثرى حاله، ثم ترك السفر وأخذ في التجارة، واشترى مِلْكا قريبا، وقصده الناس للاستفادة منه، فأقرأ جماعة من المقيمين والواردين، وخدم في أطباء الخاص في الدولة الظاهرية في حلب. وكان ذكيا حاد الخاطر، وكانت بيننا مودة طالت مدتها، وقد شكا إليَّ يوما أمره وقال: لي ابنتان، وأخشى عليهما من مشاركة السلطان لهما في الميراث، وأود أن يكون لي ولد ذكر». ونصحه القفطي بما أوصى به بعض الحكماء السابقين عند المضاجعة ليكون المولود ذكرا. قال القفطي: «وقد صَحّت التجربة معه». فهذا أيضا طبيب حرص على رؤية موسى بن ميمون وتلقى العلم عنه بالقاهرة وهو في طريقه من المغرب إلى المشرق. مما يؤكد أن شهرة الرجل، ورئاسته الجالية اليهودية، وصدارته في الطب وعلم الفلك كانت قد طبقت الآفاق.

هل اعتنق ابن ميمون الإسلام؟:

وكان موسى بن ميمون رجل سياسة أيضا، ويظهر ذلك في رسالته إلى يهود اليمن وهم في أوج أزمة من القهر والاضطهاد، ترمي إلى إرغامهم على الانتقال من اليهودية إلى الإسلام، فأبى عليهم ذلك، وأوصاهم بالصبر والابتعاد عن أن يكونوا طرفا في معركة هم فيها الجانب الضعيف، وهَوَّن عليهم الثبات حتى الموت، وعدم التفريط في دينهم. وهذه الرسالة تمثل ردا عمليا على من اتهموه بأنه كان في الأندلس قد اعتنق الإسلام، وشهادة للإسلام على احترامه لحرية العقيدة عند أهل الذمة إذا سالموا، حتى ولو لم يسلموا، فيما عدا جهات كانت سياسيا معرضة لانهيارات خطيرة فكانوا تحت سيطرة الفزع الذي يتهددهم يحاولون سد جميع الصدوع في بنائهم الاجتماعي الإسلامي ليتحصنوا من هذه الأخطار.

وأما الكتاب الذي نحن بصدده، فإننا نشعر عند قراءته، بأنه ـ كما يقول مؤلفه ـ يجب أن يظل مقصورا في دراسته وقراءته على القادرين على فهمه بما حصلوه من قبل من دراية علمية وفلسفية، ومن قدرة على تحكيم العقل مع الاحتفاظ بالإيمان ـ شريعة وعقيدة ـ. وكان الأمر عليه سهلا من جهة وصعبا ـ يكاد يكون مستحيلا ـ من جهة أخرى. فهو يقول في مقدمته الطويلة: إن النصوص الشرعية استعملت كلمات متشابهات يستطيع أي فرد من العامة أو السوقة أن يدرك معناها الظاهر ويصدقه ويقتنع به. وأما الصعوبة الكبرى فإنه هو شخصيا يلمسها عند محاولة التوفيق بين نصوص دينه اليهودي وفلسفة اليونان. والأمر عنده مختلف تمام

الكلمة الواحدة عند اليهود لها معنى مباشر، ومعنى اجتهادي، ومعنى رمزي، ومعنى سري

الاختلاف عما هو عندنا في الإسلام. فأسفار العهد القديم عندهم تغطي فترة من الوحي ـ في اعتقادهم ـ تزيد على ألف سنة منذ موسى عليه السلام في القرن الخامس عشر قبل المسيح ـ تقريبا ـ، إلى عزرا (عزير) بعد القرن الخامس قبل المسيح. وهي نصوص تنسب إلى عشرات من أنبيائهم وملوكهم، وأكثرها قيل في أماكن متفرقة ومتباعدة من العالم: في مصر وفي بوادي سيناء، وفي صحراوات الأردن ثم في فلسطين: القدس، الخليل، غزة، السامرة، الجليل، جبل الكرمل، ثم بوادي الشام (أرض جلعاد)، ثم في معتقلات الأسرى اليهود في العراق (نبيّهم حزقيال)، أو وَهُم عبيد في إيران (نبيّهم دانيال). ففي هذه الرقعة الشاسعة جدا في الزمان والمكان والظروف السياسية والاجتماعية، كان من الضروري أن يتغير كل شيء حتى اللغة. وذلك في نصوص العهد القديم وحده، فإذا أضفنا إليه (شرائع المشْنا) التي لم تُدوّن إلا في القرن الثاني قبل الميلاد، ونَسبها كاتبها الربّي يهودا الكبير إلى موسى عليه السلام من غير سند متصل يغطي ألفا وثلاثمائة سنة بين الرجلين، تضاعفت صعوبات التفسير والتريب والتقريب. وهم يعتقدون أن التلمود بدوره كتاب مُلزم مثل التوراة، وهو أطول من التوراة ـ على طولها ـ بأكثر من خمسين مرة، وعند التفسير لامفرّ من الاستعانة بالتفاسير الأثرية القديمة (المدراش)، وبالتراجم الموغلة في القدم آرامية أو يونانية. فالآرامية اشتهر منها ترجمة أونكلوس وترجمة يوناثان، وبينهما خلافات حادة. فالأول يتجنب ترجمة المعنى الظاهر إذا كان يشعر بأن الله له جسم أو عين أو يد أو أعضاء، أو أنه يغضب ويرضى ويبطش ويحب ويكره. في حين يبقى الثاني على ظاهر الخطاب تاركا للقارئ أو المفسر مهمة التحويل والتأويل. وفي اليونانية كان لابد من رجوع المفسر إلى مفاهيم الجمل المتشابهة في الأصل، وكيف فهمها سبعون حاخاما كانوا يترجمون معًا هذه (الترجمة السبعينية)، مع موازنتها بترجمات أخرى إلى اليونانية اشتهرت بين اليهود، مثل ترجمة آكيلا وترجمة سيماخوس، وتفاسير يهودية من العصر اليوناني كتبها شيوخ من اليهود تشربوا الفكر اليوناني بأكمله، مثل فيلون اليهودي الإسكندراني الذي وصلتنا أكثر مؤلفاته، ومازال اليهود يحللون رموزها ويتعمقون في خفاياها إلى الآن، واشتهر منهم العلاّمة الفرنسي ـ الروسي الأصل اليهودي الملّة ـ فالنتان ينكبر ونتسكي الذي رحل من هذه الدنيا منذ نحو عشر سنين، وكانت لي معه مطارحات ومقابسات تستعصي على النسيان، مهما طال بها الزمن. كل هذا أذكره حتى نتصور أمورا مهمة في معرفة عناصر شخصية ابن ميمون.

كتاب تأويلي باطني

وأول مايقال في كتابه «دلالة الحائرين» إنه كتاب تأويلي باطني أول الحائرين فيه هو مؤلفه نفسه. فهو يريد أن يستدل، لا على مطالب دينه، بل على عدم استحالة أن يكون المفكر يهوديا وفيلسوفا في آن واحد، وأن يُعبِّر بلغة الناس بعد أن يقدم على (سَحْل) المعاني على أرضية ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقا) التي لايقر لها قرار على أية أرض، ولاترى السماء إلا من بعد سحيق! وأنا لاأريد أن أدين موسى بن ميمون على ماقام به من

الحائرون.. وموسى بن ميمون

ارتكاب هذا الكتاب، كما أدانه الكثيرون من بني ملته، ولكنني آخذ عليه مخالفة العنوان للمحتوى. ثم إن كتابه قد يبدو لقارئه غير المتعود على الجدل اليهودي - حتى من اليهود أنفسهم - أنه كان أولى له أن يسميه «حيرة المستدلّين». لكن بحر الجدل اليهودي واسع، فالكلمة الواحدة عندهم لها معنى مباشر، ومعنى رمزي، ومعنى اجتهادي، ومعنى سرّي. فالمباشر هو معناها الدائر على ألسنة العامة، المفهوم بينهم، ويسمونه (بشاط)، أي البسيط. والرمزي هو معنى يوحي بصورة معينة؛ فإذا سمعنا «السماء» فكرنا لا في الرقعة الزرقاء الممتدة فوق رؤوسنا فحسب، بل في عالم كامل يختفي وراءها فيه الملائكة، واللوح المحفوظ، ومالم تره عين من المخلوقات العليا المجنحة، ويسمى هذا المعنى عندهم (الرمز). أما المعنى الاجتهادي فهو معنى استنباطي مفهوم من الكلمة نفسها. فكلمة (الطهارة) تدل في أصلها على كون الشيء خالصا غير مخلوط ولاتشوبه شائبة، ثم أُطلق على الطهارة الدينية، فانتقل المعنى من الخلوص إلى الإخلاص، ويسميه المفسرون اليهود (دراش)، بمعنى الدراسة. وأما المعنى السرّي فهو معنى مغلق ومكتوم إلا على المأذون لهم بالوقوف على هذا السرّ من شيخ من العارفين، ومن دونه يبقى طريق المعرفة مسدودا، ولذلك يسمى في اصطلاحهم العبري (سُدْ). فَصلَةُ أي نبي بالله يقررها الله متى شاء وكيفما شاء وأنّى شاء: يكلم النبي مباشرة ووجها لوجه، أو في المنام أو من خلال الغمام، أو يرسل ملكا من عنده أو يُسْمعه صوتاً دون أن يرى المتكلم، إلى مالا يدخل تحت حصر من مشيئة الله سبحانه وتعالى. وهذا المنهج من التفسير السرّي أو المكتوم أو المسدود فُتِن به غير اليهود في العالم؛ فالقواميس الباطنية عن الصوفية في جميع الملل هي مجموعات من المعاني الخاصة جدا لألفاظ عامة جدا. فهذه المناهج الأربعة: البسط، والرمز، والدرس، والسرّ، إذا أخذت أحرفها الأولى كانت (بَرْدسْ) أي الفردوس، وإذا وصفوا مفسرا عندهم بأنه يملك مفاتيح البَرْدس، فإنما يعنون بهذا اللقب أنه يملك (مفاتيح الفردوس). كل هذا كان معروفا عند اليهود قبل موسى بن ميمون بقرون طويلة، وكانوا من خلاله يحرّفون الكلم عن مواضعه حسب ماوصفهم القرآن الكريم، وابن ميمون توسع هنا في توظيف هذه الطرق: لاسيما الرمزي والسرّي في سياق حديثه في دلالة الحائرين، الذي كتبه وفرغ من تأليفه بالقاهرة، حوالي عام ١٢٠٠م، ثم قام بترجمته إلى اللغة العبرية «صمويل بن تبون» عام ١٢٠٤م. وعلى الرغم من ادعاء الباحثين المعاصرين من اليهود أن هذه الترجمة العبرية تمت بإشراف المؤلف، فقد أشرنا إلى أن رسالته إلى ابن تبّون كانت تتضمن تهرّبا من هذا الإشراف. وابن تبون لايقول إنه ذهب إليه أو رآه في مصر، مما يجعل ماتقوله دائرة المعارف التي تنشرها إسرائيل لا دليل عليه، حين تزعم أنه أشرف على ترجمته العبرية.

وأما محاولة المؤلف التوفيق بين المرويات اليهودية القديمة والفكر الفلسفي اليوناني فصحيح في مجموعه، إلا أنه يبدو أكثر انحيازا إلى فلاسفة اليونان منه إلى المعاني المباشرة لمرويات اليهود في كتبهم، مما جعله يحذّر من الإقدام على قراءة كتابه دون دراية من القارئ بأسرار الحكمة اليونانية. وفي ذلك يقول في المقدمة - وأنا أترجم عن ترجمة ابن تبون العبرية -: «... فللكلام عن كل هذه الموضوعات (أي الإلاهيات) من التعبير عن ذلك بألفاظ متقاربة المعاني، حتى تستطيع العامة أن تفهم شيئا منها على قدر عقولها وبحسب ضعف فطنتها. أما الإنسان الكامل، الذي أخذ من التعليم بحظ وافر فإنه سيفهم من تلك الألفاظ نفسها معاني مختلفة». ولذلك أجمع دارسوه من اليهود على أنه كتاب فلسفي باطني مغلق. ثم يقول في الجزء الأول من كتابه: «واعلم أيها القارئ لدارستي هذه، أن الإيمان ليس اعترافا ننطق به بأفواهنا، بل هو أمر يتولد في الروح، فيشعر به الإنسان وكأنه حقيقة قائمة في النفس كما هي في اعتقاده. فلنحذر عند سماع الآراء التي اشتهرت بأنها حق أن نحفظ منطوقها برمّته، وأن نكرره دون تأمل أو روية أو فهم، ويزداد الأمر صعوبة، عند البحث عن الحقيقة العُظمى. وهكذا نواجه من الأغبياء من لايفقهون مايقولون!».

وفي «دلالة الحائرين» يحاول موسى بن ميمون أن يؤول الجمل البسيطة المسطورة في التوراة أو التلمود، إلى المعاني الروحية التجريدية التي يريدها، ولكي يُسكت المعترضين، يسوق تفاسير مشابهة لاتجاهه هذا من قدماء المفسرين في المدراش، أو يأخذ الكلمة الآرامية المستعملة في (الترجوم)، أو يقع على تخريج للعبارة في (التلمود) يدعم رأيه. وأحيانا يخرج عن الموضوع برمته فيخوض في حديث آخر. وزعم دارسوه من اليهود أنه إنما يفعل ذلك عمدا ليكون تعْمية على موضوعه الأصلي، وأظن أن هذا الحكم أصدره قوم ليست عندهم فكرة عن كثرة الاستطراد لدى المؤلفين العرب القدماء الذين تشبّع موسى بن ميمون بمناهجهم. ثم إنه كان رجلاً منوّع الثقافة، ولم يكن الطب إلاّ مهنة يعيش منها، وقد أكمل دراسته فيه بعد أن غادر الأندلس، واضطر إلى البقاء في المغرب، على الرغم من اضطهاد الموحدين لليهود، إلى أن أكمل دراسته ورحل بأهله إلى الشرق. وكان وريثا لأسرة من علماء الدين اليهود منذ عدة أجيال قبله، فكان عليه أن يجيد التفسير للتوراة، وأن يتقن الرياضيات التي تقتضيها مطالب المواريث، والمواقيت، وتحديد الصلوات والمواسم والأعياد، وكان ضليعا بالعبرية (لمعرفة التوراة والمدراش)، والآرامية (لمعرفة التلمود والترجوم)، والعربية الفصحى لأنها لغة الدولة في الأندلس، ولغة الفكر والثقافة في العالم الإسلامي، وبعض عاميات شعوب تلك المنطقة للتفاهم مع العوام والمرضى (الإسبانية الدارجة، والعربية العامية، ولهجات البربر المختلفة). ولم يذكر أحد أنه كان يعرف اليونانية أو اللاتينية، ويبدو أنه قرأ كل هذا مترجما إلى اللغة العربية، إذ قال المتخصصون في فلسفة أرسطو وآراء الأفلاطونية الجديدة أنه أخذها مترجمة ومشروحة بأقلام عربية، وهذا محتمل جدا، فالذين يعرفون اللاتينية من اليهود هاجر أكثرهم إلى شمال إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا، ويزيد من ترجيح ذلك أن «دلالة الحائرين» احتوت على نصوص من أرسطو مترجمة بنصها من ترجمة عربية لآخرين.

ذكاء ودهاء

وكما سبق أن أشرت إلى أن موسى بن ميمون نفسه كان أول الحائرين. فقد تضاربت في نفسه اتجاهات متضادة ومتعارضة. فهو رجل شريعة يهودية ملتزم وصارم في هذا الميدان، وهو يهودي شديد الانتماء إلى قومه، حائر في عقيدته، ولكنه ثابت في عصبيته الاجتماعية والسياسية والتاريخية

لقومه، شغل أعلى المناصب في الطائفة وهو في مصر، وكان يخدم بني جلدته مجانا لايسألهم أجرا على رئاسته لهم ولا على (الأجوبة) التي يردّ بها كتابةً على أسئلتهم، وهي التي أصبحت من بعده مراجع في القضاء والفتوى عند اليهود. وهو مع ذلك يتمتع بثقة صلاح الدين وقادة جيشه ووزيره القاضي الفاضل، لدرجة أنه رفض أن يقبل أن يكون طبيبا خاصا لواحد من أهم الملوك الصليبيين أثناء هدنة طويلة بينه وبين المسلمين، وهو الملك البريطاني ريتشارد قلب الأسد، الذي كان يحتل جنوب فلسطين ويلقب نفسه «حاكم عسقلان». ونستدل على ذكائه ودهائه في الأزمات السياسية، باستطاعته البقاء في إسبانيا بعد استيلاء الموحدين على قرطبة لسنين طويلة، ثم هجرته إلى المغرب وهو تحت حكم الموحدين أيضا. وإتمام دراساته الطبية هناك، ثم سفره من المغرب إلى عكا، واختراقه فلسطين كلها تحت أعين الصليبيين، ثم وصوله إلى مصر، وارتقائه السريع فيها إلى أن يكون الطبيب الخاص لقصر السلطان صلاح الدين الأيوبي. هذه كلها مسائل جديرة بالبحث والدرس، مايزال الكتّاب يمسونها برفق ويمرون بها مرّ الكرام. وبلغت شهرة الرجل إلى أن الشارع الذي ولد فيه بقرطبة - على الرغم من نفور إسبانيا الكاثوليكية من كل ماهو يهودي - مازال إلى الآن يسمى شارع موسى بن ميمون.

«دلالة الحائرين» عمل سياسي

فبين الصلابة في الشريعة والابتداع في العقيدة إلى درجة التعرض لتهمة الكفر، كان هذا الطبيب الداهية يعرف مايقول، ولعل كتابه هذا «دلالة الحائرين» كان عملاً سياسيا يثير الكثير من اللغط والاستغراب والمعارضة بين اليهود بعضهم بعضا، فيزداد تمسكهم بوجهات نظرهم من متسامحين أو متشددين؛ فلا يفكرون بعد ذلك في الانتقال من يهوديتهم إلى مسيحية أو إسلام، مادامت الشريعة عندهم ماتزال صلبة، والعقيدة ماتزال مرنة تقبل الكثير من القيل والقال، والنقاش والجدال.

فمثلا نجد المؤلف في كتابه هذا ينفي الصفات عن الله تعالى، كما كان بعض المتكلمين الإسلاميين يقول إن الله عليم لابعلم، قدير لابقدرة.. ونحو ذلك، لأن الصفة أمر يعرض للموصوف، وهو تعالى جوهر لايقبل العَرَض، وقد أخذ موسى بن ميمون بهذا الرأي وقال إن صفات الله كلها صفات نفي؛ فعلمه ليس كعلمنا، وقدرته ليست كقدرتنا، ورضاه ليس كرضانا، وغضبه ليس كغضبنا، ووجوده ليس بمادة وليس بجسم وليس بصورة.

ولأن الرجل لم يقرأ أرسطو إلا مشروحا ومترجما إلى العربية في العالم الإسلامي؛ فإنه حذا حذو أرسطو من خلال شروحهم لكتبه في المنطق والطبيعة وماوراء الطبيعة. فمثلا عندما يذكر موسى بن ميمون قول التوراة (سفر العدد ١٢:٨) أن موسى «نظر إلى وجه الله» يؤوله بأن موسى قد «استوعب» وجود الله. وعندما يتناول عبارة التوراة من أن الله «خلق آدم على صورته وشبهه» يقول إنه أنار روحه بالعقل حتى يصل إلى معرفته. وهذه أمور حَامَ حولها كثير من تلاميذ علم الكلام الإسلامي من اليهود مثل سعديا سعيد بن يوسف الفيومي صاحب كتاب «الأمانات والاعتقادات». ويضيف الدكتور جورج فايدا، مؤرخ الفكر اليهودي في ظل

بعد تردد طويل بين الفلسفات اليونانية ونظريات المتكلمين المسلمين يميل إلى رفض تعاليمهم

الإسلام، إن القول بعقلانية الاعتقاد، وتأويل مايوهم ظاهرهُ التحديد والتجسيم قد سبق إليه مؤلف يهودي آخر قبل سعديا الفيومي وموسى بن ميمون، وأصبح اليوم نسيًا منسيا، هو داود بن مروان المُقَمِّص، في كتاب له عنوانه «عشرون مقالة»، ذكر فيه وجوب التأويل للخروج من الماديات في حق الخالق إلى الروحانيات الخالصة. وعلى هذه الوتيرة سار موسى بن ميمون، وأكثر من الأمثلة والمناقشات التي نخشى أن يملّها القارئ المسلم، بعد أن أصبحنا جميعا نعلم أن «كل ماخطر ببالك، فالله غير ذلك».

ثم أفاض ابن ميمون في التدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه تعالى لايتعدد ولايتجزأ ولايفترق ولايتّحد، ولاينحلّ ولايتماسك، وأنه روحانية بحتة، تهيمن على كل المواد، ولا مادة لها، وأنه واجب الوجود، وعلة العلل، وأنه حكمة محضة وتدبير محض، وحق محض...إلخ.

وفي موضوع مسؤولية العباد أمام الله، فرّق صاحبنا بين كلمتين متقاربتين في المعنى هما: المشيئة والإرادة. فالإرادة أمر سبق لديه تعالى منذ الأزل، وهي تتعلق به تعالى، ولايعلمها إلا هو، أما المشيئة فهي عنده أمور سبقت في علمه ولها وقت موقوت تتم فيه على من قُدِّر لها من العباد.

وهو في هذا يبتعد من أرسطو وفيلون والترجوم، ويقترب جدا من تصور الأشاعرة من أهل السنة، ويبتعد تماما من عقائد المعتزلة التي تأثر بها سعديا الفيومي في كتابه «الأمانات والاعتقادات».

وفي هذا الموضوع يقسّم ابن ميمون الحوادث إلى: حوادث الخلق والتكوين (بالعبرية بريشيت)، وحوادث الناس وتصرفاتهم (بالعبريةأناشيم)، ثم حوادث المركبة، ويقصد بها المعجزات، لأن النبي «إلياس» في قصته في كتابهم انتهت حياته على الأرض، وكان واقفا على الضفة الغربية لنهر الأردن ومعه تلميذه «اليسع» فهبطت مركبة من السماء وصعد فيها حيًا وأخذته إلى الملكوت الأعلى. وتكررت بعد ذلك قصة المركبة في الكتابات اليهودية الدينية حتى أخذها التصوف اليهودي، وأسس عليها طريقة من طرقه الصوفية.

ومع تسليم موسى بن ميمون بأن القضاء والقدر هو شيء سبق في علم الله تعالى لا في إرادته، على رأي الأشاعرة، فقد بنى على هذا أن الإنسان مخير في سلوكه في هذه الدنيا، وأن المطيع والعاصي إنما يعملان مايعملانه طبقا لما سبق في علم الله لا في إرادته أو مشيئته، فالإنسان مخير لا دخل للإرادة الإلهية في طاعته أو عصيانه. وهي كما نرى أمور فلسفية متعلقة بأسرار ماوراء الطبيعة، لاتستطيع قوى البشر أن تخرق حجبها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

أما مايصيب الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مسرّات أو مكاره فإنها تأتي من كونه ثنائي التكوين، يحتوي على مادة وروح. والمادة هي سبب الانفعالات والمسرّات والمكاره. والإنسان بطبيعته قادر على أن يقاوم مكاره ماديته. وهنا أيضا تبدو حيرة موسى بن ميمون. فهو يقول بأن العناية الإلهية يمكن أن تتدخل في سلوك الانسان، وعاد يؤكد أن الإنسان عرضة للمصادفات العشواء! وهذا الرأي الأخير مأخوذ من أرسطو في قوله: «ليس هناك كبير

الحائرون..
وموسى بن ميمون

فرق بين ورقة شجر تسقط في الماء، وصخرة ضخمة تسقط من الجبل على سفينة كل ركابها حكماءفتغرقهم». وقال موسى بن ميمون في «دلالة الحائرين»: القط يهجم على الفأر فيمزقه ويأكله، والعنكبوت تهجم على الذبابة فتمزقها وتأكلها، والأسد يهجم على نبي فيمزقه إربا.. لافرق بين تلك الحالات! ثم نراه يعود إلى تردده فيقسّم مايمكن تصوره إلى «الواجب» من جهة و«المستحيل» من جهة أخرى. أما «الممكن» أو «الجائز» أو «المحتمل» فإنها لاتجوز على المشيئة الربانية! وهو هنا يسيء فهم نظريات الكلام الإسلامي عند الأشاعرة. وبعد تردد طويل بين الفلسفات اليونانية، ونظريات المتكلمين المسلمين، خصوصا الأشاعرة الذين يحظون منه باهتمام خاص، والمعتزلة على النقيض من ذلك يميل إلى رفض تعاليمهم، وبعد شرح مستفيض ومعقد، يعود إلى التوراة فيسوق ماجاء في حق الله تعالى (سفر التثنية - ٣٢:٤) من أن «كل مسالكه عَدْل»، ثم يعود فيسأل: أين يكون مكان العناية الإلهية من هذا العدل؟ ثم يشعرنا بأنها ترهب من الخالق لنفوس صَفَتْ في طاعته، فيولّي بعضهم ليحكم بين الناس بالعدل. ويقف وقفة عند قصة نبي الله أيوب الذي تعرض، مع عدله وطاعته، إلى ابتلاء الله له في صحته وبدنه، فيشرح أن العدل الربّاني لايشبه عدل مخلوقاته الفانية، وأن هذا الابتلاء قد أعقبته العناية الإلهية فمحت كل آثاره!

كان الموقف الحائر الذي وقفه موسى بن ميمون من علاقة الابتلاء الرباني بالعناية النهائية مثارا لكثير من النقد والسخرية منه ومن رأيه، حتى لدى المحدثين من الباحثين اليهود مثل شارل تواتي في مقاله الكبير في «مجلة الدراسات اليهودية» الباريسية بعددها لعام ١٩٦٨م

ومن أهم أجزاء الكتاب، القسم الذي خصصه للحديث عن «حدوث العالم ونهايته». ويناقش حجج المتكلمين المسلمين ناقداً ومكملاً، ويضع في مواجهتها رأي أرسطو في أبدية العالم. وأخيرا يختار نظرية حدو ث العالم، لأن التوراة، في أول سطر من سطورها نصت عليه صراحة، ولكنه يعطي تفسيراً «رمزيا» لقصة التكوين، يؤكد مايشعر به الباحث في كتابه من أنه ينظر إلى نصوصه المقدسة بعيدا من روح المساواة، حتى يسوغ المفهوم الحرفي القريب للعوام والمفهوم الباطني الفلسفي للخواص، فعنده لايمكن أن نسوي في أقوال الأنبياء بين آذان العامة وعقول الخاصة. وهو موقف من الترفع صحبه في الكثير من تصرفاته، وإن كان ينهى تلاميذه عن إبداء أي اشمئزاز عند عنايتهم بمريض فقير، من حقارة مسكنه، أو ملابسه، أو حتى طريقته في الكلام. ومع ذلك في كلامه المسهب عن الإنسان أكد اختلاف حظوظ البشر من العقل، وقسم العقول إلى ثلاثة أصناف: ١- العقل الطبيعي. ٢- العقل الفعّال. ٣- العقل المستفاد.

وبعد هذا التقسيم وبَسْط الكلام فيه، أفرد (النبوّة) بدراسة خاصة يبدو فيها غير معترف بأية نبوة خارج نطاق أنبياء بني إسرائيل الذين لهم أسفار في كتاب العهد القديم، على الرغم من أنه في لمحات خاطفة أشار إلى «أديان التوحيد» وبخاصة الإسلام والمسيحية، ولم يذكر الصابئة، وهم موحِّدون وأهل كتاب أيضا، ولكن كثرتهم في الشرق الإسلامي وبراعتهم في الطب ربما جعلت منهم منافسين في المهنة لهم خطرهم، فأخفى ذكرهم مع أن نبيهم يحيى، مثل نبي النصرانية عيسى بن مريم كانا من ذرية اليهود! أما سيدنا موسى فقد خصه بعنايته، وقال إنه لايسمى نبيا ولارسولا عند اليهود، بل يلقب بالمعلم لأن التوراة معناها بالعبرية التعليم، ومع ذلك فإن موسى لم يكن يلقب باسم المعلّم في التوراة بل يوصف بأنه «رجل الله» أي «رسول الله».

أنواع التكليف في شريعة اليهود

وفي حديثه عن موسى أفاض في إثبات أن الخلق محتاجون إلى «شريعة» تنظم حياتهم على هذه الأرض. ثم فصل ذلك فقال إن شريعة اليهود يمكن ترتيبها في أربعة عشر نوعا من التكليف، هي التي كان قد ألّف فيها «مثانى التوراة» في أربعة عشر جزءًا:

١- الإشارة إلى أصل الأمة، والقواعد الأساسية التي يقوم عليها الدين، أي أركان هذا التشريع.

٢- تقويض المعتقدات السابقة من عبادة الأصنام أو الشرك أو التفرغ للإيمان بالجن والسحر ونحوها.

٣- تحسين حال المجتمع وترقيته وتأمينه.

٤- ربط الإحسان بالإيمان، لتنسيق علاقة المؤمنين ببعضهم بعضا. وذكر من ذلك حق العبد في الفرار من سيده إذا قسا عليه، بحيث لاتجوز معاقبته، ولا ردّه إلى سيده السيء المعاملة.

٥- إلزام المتسبب في الضرر بالتعويض عنه، وإغاثة الملهوف.

٦- القصاص والحدود والجنايات والتعزيرات.

٧- أحكام الملكية الخاصة والتجارة وفرائض المواريث.

٨- الأعياد والمواسم وطقوسها، السبت، يوم الغفران، عيد الفصح... إلخ.

٩- أوامر أخلاقية في التعاون، وحب الله، واحترام الجار... إلخ.

١٠- الشرائع التي تتصل ببيت العبادة من واجبات على المؤمنين، وأخرى على الكهنة.

١١- أحكام الحج والأضاحي والقرابين.

١٢- أحكام النجاسة والطهر، وبعض الطقوس؛ كإحراق البقرة المذبوحة للكفّارة.

١٣- الحلال والحرام في الطعام والشراب واللباس، وأحكام الشخص المنذور لخدمة المعبد.

١٤- الختان والزواج ودفن الموتى وماإلى ذلك.

ونلاحظ في هذا التقسيم الأثر الواضح للفقه الإسلامي، ولعلنا نقدّم قريبًا بيانا أوفى في ذلك. أما الذين كفّروا موسى بن ميمون من اليهود فقد أخذوا عليه مازعمه من أن البعث والنشور والحساب والعقاب يوم القيامة يكون للأرواح فقط دون الأجسام، وكان دفاعه أنه ليس في كتبهم أية إشارة إلى البعث، فضلا عن أن يكون بالأجسام والأرواح أو بالأرواح فقط. بل إن تسمية «يوم القيامة» لم ترد، بل ورد بدلا منها «يوم الرب» دون وصف أو تحديد، وكأنه هو «يوم الحساب».

وهكذا نصل في خاتمة المطاف إلى أن موسى بن ميمون لم يكن نسيجا وحده - حتى في قومه - بل كان رجلاً عالما ذكيا استطاع أن يقود سفينته في خضم عواصف الاضطهاد ضد اليهود، وعواصف الحروب الصليبية، وعواصف التزمت والجمود في شيوخ ملّته، ووصل بعد رحلته الطويلة إلى أكثر مما كان يتمنى.

البارودي والمزاوجة بين التراث

على امتداد رحلة الشعر العربي الطويلة التي قطعت أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان شهدت حياة هذا الشعر ظاهرتين ملازمتين له:

الظاهرة الأولى التواصل المتصل بين المراحل التي قطعتها هذه الرحلة الطويلة دون أن تتقطَّع الأسباب بين هذه المراحل أو أن تفقد القدرة على الرؤية الواعية للماضي، وكأنما ظلت نقطة البداية معلما ثابتا لايغيب عن أنظار المنطلقين مع هذه الرحلة مهما تباعدت المسافات واختلفت المذاهب.



د. يوسف خليف

والظاهرة الأخرى أنه في مفترق الطرق وفي مراحل الانتقال تتم عملية مزاوجة بين الماضي الذي يمثل تراثا خالدا متصلا والحاضر الذي يمثل الحياة الجديدة التي يستقبلها الشعر على امتداد رحلته الطويلة.

وفي ظنّي أن تفسير هاتين الظاهرتين يرجع إلى القرآن الكريم الذي حفظ على اللغة العربية حياتها، وعلى الأدب العربي بقاءه حتى اليوم. ومامن شك في أن هذا التواصل بين الأجيال، وهذه الصلة المتصلة بين الماضي والحاضر، وهذه المزاوجة بين التراث والمعاصرة، هي التي حفظت على هذا الشعر حركته التي لم تتوقف، وحياته التي استمرت حتى اليوم.

نرى هذا بوضوح عند الشعراء الذين عاشوا مراحل الانتقال بين العصور المختلفة، وخاصة عند الأعلام الثلاثة الذين يمثلون معالم بارزة في مفترق الطرق التي تحرك فيها الشعر العربي: حسان بن ثابت في مفترق الطريق بين الجاهلية والإسلامية، وبشار بن برد في مفترق الطريق بين الأموية والعباسية، ومحمود سامي البارودي في مفترق الطريق بين التراثية والمعاصرة. وهم الثلاثة الكبار الذين أتاحت لهم ظروف حياتهم أن يمثلوا هاتين الظاهرتين أقوى تمثيل: ظاهرة التواصل بين الأجيال، وظاهرة المزاوجة بين القديم والجديد، والربط بين الماضي والحاضر، والمزج بين التراث والمعاصرة.

ومن بين هؤلاء الرواد الثلاثة يبدو الموقف مع البارودي مختلفا عن موقف الرائدَين الأوَّلَين، اختلافا يجعله رائدا متميزا في تاريخ الشعر العربي على امتداد رحلته الفنية الطويلة. فالبارودي لم يعش عصرين مختلفين كما كان الشأن مع حسان وبشار، وإنما عاش عصراً واحدا، فلم تتحقق له ـ كما تحققت لهما ـ تلك الصلة بين الموروث الفني القريب الذي وجده الرائدان القديمان: حسان في العصر الجاهلي، وبشار في العصر الأموي، وإنما وجد نفسه في عصر سبقته عصور طويلة من الظلام تفصل بينه وبين عصور النور البعيدة، ولم يقبل أن يعود إلى العصر القريب السابق على عصره ليستمد منه المادة التراثية التي يقيم عليها تلك المزاوجة بينها وبين عصره، وإنما مضى في الاختيار الصعب فتجاوز هذا العصر القريب، وتجاوز عصوراً أخرى قبله، وعاد عودة بعيدة إلى عصور النهضة في تاريخ الشعر العربي، واتخذ من المادة التراثية التي اتصل بها في هذه العصور البعيدة العنصر التراثي الذي راح يقيم عليه بناءه الفنيّ الجديد من طريق المزاوجة بينه وبين عصره، واتخذ من قمم الشعر في هذه العصور مُثُلَه الفنية العليا ومعالمَ طريقه الفني الجديد. ومن خلال هذه المزاوجة بين العصر الذي يعيش فيه وعصور النهضة البعيدة التي تجاوز إليها عصور الظلام، مضى يشعل النور الجديد على ضفاف النهر الجديد الذي راح تيار الشعر يَتدافع فيه بعد طول ركوده في عصور الظلام.

صورة متفردة ووثبة واسعة

ومن هنا يتراءى البارودي في وضعه الدقيق، فهو لا يمثل امتدادا متطورا للشعر العربي بين مرحلتين متصلتين، وإنما يمثل ثورة أو انقلابا في تاريخ هذا الشعر خرق سنة التطور الطبيعية التي تحرك فيها على امتداد رحلته الطويلة بمراحلها المتصلة؛ فالبارودي لم يكن صورة من هذه الحركة الطبيعية للتطور، وإنما كان صورة متفردة وثَبَ به وثبة واسعة عادت به إلى أصوله الأولى وثوابته القديمة، وحققت له عودةً إلى جذوره الأصيلة الضاربة في الأرض الطيبة التي أنبتت الشجرة المباركة. فظهور البارودي بهذه الصورة التي تأخذ شكل الثورة والانقلاب دون مقدمات لها أو إرهاصات تبشِّر بها يرجع ـ في رأيي ـ إلى العبقرية الشخصية التي لاتزال حتى اليوم سرا مجهولاً على الرغم من تعدد المحاولات لتفسيرها، وإن لم يمنع هذا من وجود عوامل مهيئة لها تقف وراءها. ومن الحق أننا نستطيع أن نرد هذه الظاهرة إلى أكثر من سبب، ولكن يظل السؤال واردا: لماذا البارودي بالذات من بين شعراء عصره؟ ولماذا تأخر ظهوره هذه القرون المتطاولة منذ أبي العلاء خاتمة القمم التي ارتفعت على طريق الشعر العربي؟

والمعاصرة (*)

على خطى المتنبي

ظهر البارودي وكأنه أمل طال انتظاره، ليكون بحقٍ رائد المدرسة الإحيائية في الشعر الحديث. ولكن الحقيقة أنه لم يكن رائد الشعر العربي الحديث فحسب، وإنما كان قبل ذلك صاحب ثورة التحرير والتصحيح التي حررت هذا الشعر من قيوده وأغلاله التي كبَّلة بها شعراء القرون الثمانية التي سبقته، وصححت مساره حين ردته إلى مجراه الطبيعي الذي شقه له رُوَّاده الأوائل. وهذا هو دوره الأساسي في تاريخ الشعر العربي الحديث.

والبارودي بهذا الدور الثوري من أجل التحرير والتصحيح يُعَدّ صورة أخرى من المتنبي عبقري الشعر العربي القديم، وصاحب الثورة الأولى التي شهدها الشعر العربي في القرن الرابع، والتي ردت النهر عن مجراه الصناعي الذي شقَّه شعراء مدرسة البديع إلى مجراه الطبيعي الذي كان يتدفق فيه من قبل، بعد أن كانت مدرسة البديع قد استنفدت أغراضها بعد قمتها الشامخة أبي تمام. ومن هنا كنت أرى أن أهمية المتنبي في تاريخ الشعر العربي ترجع إلى أنه حرره من هذه القيود الصناعية، وعاد به إلى أصالته الأولى تعبيراً حراً عن نفس صاحبه وعقله وحياته وتجاربه فيها، وعن عصره الذي يعيش فيه ومتغيراته الجديدة، وأعاد إليه حريته الطبيعية وأصالته الأولى وثوابته الخالدة، ولكنْ في ثياب جديدة نَسَجَتْها خيوط عقلية معقدة غَزَلَها من المواد الثقافية المتعددة المصادر التي استوعبها في أعماقه من ثقافات عصره المختلفة. ومن هنا كان تجديد المتنبي، وكانت المعاصرة في شعره؛ فلم يكن صورة طبق الأصل من التراث القديم، وإنما كان صورة جديدة لها ألوانها المتميزة التي لايخطئها أحد بما تُقدِّمه من شخصية لا تتشابه مع غيرها من الشخصيات.



محمود سامي البارودي

ومن خلال هذه الشخصية المتميزة خرج المتنبي على الشعر العربي بالقصيدة «البدوية الحضريّة» التي تمثل انعكاسا صادقا للمزاج الغريب الذي عاشت هذه الشخصية في أعماقه، بين عقل الحضري المثقف الواسع الثقافة، ومزاج البدوي في أصالته الفطرية وتراثيته الأصيلة. هكذا كان دور المتنبي في تاريخ الشعر العربي القديم، وهكذا كان دور البارودي في تاريخ الشعر العربي الحديث، خرج كلاهما بهذه القصيدة البدوية الحضرية. والبارودي يُصَرِّح بهذا في بعض شعره حيث يصف قصيدته بأنها:

حَضَرِيّة الأنساب إلا أنَّها
بَدَوِيةٌ في الطبع والتركيب

ومن هنا يبدو البارودي في تاريخ الشعر العربي صورة من المتنبي، لاصورة من بشار أو حسان كما يخيل لبعض الباحثين، فالبارودي - كالمتنبي - مَثَّلَ ثورة في تاريخ الشعر العربي، أما حسان وبشار فقد مَثَّلا تطورا في تاريخ هذا الشعر.

ظهور دون تمهيد

ظهر البارودي في عصر كان كل مافيه يتطور ويتحرك في ظل «الإعلان الحضاري» الذي أطلقه الخديوي إسماعيل لتكون مصر قطعة من أوربا، وكانت ظروف العصر كلها قد تهيأت لهذا التطور الحضاري البعيد المدى: ظهور المطبعة والصحافة، وانطلاق البعثات العلمية إلى أوربا لتعود إلى مصر بالعلم والحضارة، وإنشاء دار الأوبرا المصرية، ودعوة قاسم أمين لتحرر المرأة، وتأسيس أول مدرسة لتعليم البنات بعد تأسيس مدرسة الألسن، وظهور حركة الإصلاح الديني والسياسي مع جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، وظهور مدرسة دار العلوم، وإنشاء دار الكتب المصرية التي راحت تجمع التراث العربي من كنوزه المنتشرة في أرجاء العالم. وكانت الحياة السياسية تسعى جاهدة لتحقيق آمالها وأحلامها وطموحها في تغيير الوضع السياسي الذي كان أرجوحةً بين أيدي القصر وأيدي النفوذ الأجنبي، ومارتب على ذلك من ظهور رواد الثورة المصرية الأوائل وحَمَلَة مشاعلها: أحمد عرابي ورفاقه، ومصطفى كامل ومحمد فريد، ومن التف حولهم من ثوار الجيش والشعب. ومع هذا التطور الاجتماعي والسياسي كانت الحياة الأدبية تتحرك أيضا في محاولة جاهدة للخروج من السجن الذي قُيِّدت حريتُها في غياهبه، والقيام بدورها في المجتمع الجديد، ولتشارك في هذه الحياة الجديدة التي راحت تدب فيه. وفي كلمات قليلة: كان كل شيء في مصر يتحرك من أجل تجديد كل شيء في مصر.

كان الشعر - حين ظهر البارودي - قد وقف حيث وقف به شعراء العصر العثماني، حتى الخشاب والعطار؛ وهما أهم شاعرين ظهرا بعد ذلك في عصر الحملة الفرنسية وعصر محمد علي؛ كانا صورة من الشعر المصري أيام ركوده وسُباته في ظل العثمانيين: تكلّفا وتصنّعا، وأثقالا من المحسنات البديعية المبتذلة، وضروبا من العبثية الرخيصة. واستمر الخط البياني في انحداره حتى عصر إسماعيل حيث لمع الشيخ محمد شهاب الدين والسيد علي الدرويش اللذان بلغ الشعر عندهما درجة من العبثية لم تكن لتخطر على ذهن شاعر من قبل.

في هذا المجتمع الأدبي الذي خلا من الأدب، وفي هذه الساحة الفنية التي أقفرت من الفن، ظهر البارودي دون تمهيد له أو إرهاص يبشِّر به، وإنْ يكن بعض الباحثين

يميلون إلى أن يَرَوا في الساعاتي مقدمة له ومبشرا به. ولكن الحقيقة - كما أراها - غير ذلك، فالساعاتي كان يحاول شيئا، ولكن الخيوط التقليدية التي كانت تشد شعراء عصره ظلت تشده أيضا، وهي خيوط كانت أقوى من محاولته، وكان شدُّها له أشدّ من إرخائها، فلم يكن لمحاولته ذلك التأثير الذي نستطيع أن نراه من خلاله مقدمةً للبارودي أو إرهاصًا لظهوره، وإنما عاش الساعاتي يؤدي دوره دون أن يحدد لنفسه هدفا، أو يبشر في شعره برسالة، فلما مضى، مضى معه دوره وانتهى، دون أن يكون له تأثير فيمن جاء بعده على المسرح الفني.

من المولد حتى الممات

ولد البارودي (محمود سامي بن حسن حسني عبدالله البارودي) في السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٣٨م، في أسرة جركسية تنتمي إلى المماليك الذين كان لهم دور كبير في مصر وغيرها من البلاد العربية أيام التتار والصليبيين، واتجه منذ صباه المبكّر إلى الحياة العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية، وتخرج فيها سنة ١٨٥٤م، ثم سافر إلى تركيا في سنة ١٨٦٣م، ثم عاد إلى مصر في حاشية إسماعيل وهو في الرابعة والعشرين، ومضى في طريق حياته بين القصر والجيش حتى وصل إلى قيادة سلاح الفرسان في الجيش المصري، ثم إلى نظارة الحربية ورئاسة الوزارة، وشارك في حروب كريت والبلقان التي أعلنتها روسيا على تركيا في أراضي البوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود في سنة ١٨٧٨م. ومن هناك مَدَّ رحلاته إلى فرنسا، وعَبَر المانش إلى إنجلترا، ثم عاد إلى مصر، وابتعد فترة عن الحياة السياسية. حتى إذا كان عصر توفيق، واشتعلت الثورة العرابية، كان واحدا من زعمائها وقادتها. ومع النهاية المأساوية الحزينة التي انتهت إليها الثورة نُفي البارودي مع رفاقه، رفاق السلاح، إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حيث قضى سبعة عشر عاما وبعض العام، صدر بعدها عفوٌ من عباس الثاني عنه وعن رفاقه. وعاد إلى مصر وقد أخذت نُذُر الفناء تسرع إليه وهو يقف محطمًا منهارًا على أبواب النهاية المحتومة أربع سنوات ذهب في أثنائها مابقي من بصره، حتى إذا كانت الأيام الأخيرة من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٠٤م ودع «رب السيف والقلم» هذه الحياة الحافلة، وسقط القلم من يده بعد أن كان السيف قد سقط منها منذ أكثر من عشرين عاما، وهوى النسر من فوق قمته الشامخة.


الإمام محمد عبده


جمال الدين الأفغاني


قاسم أمين

عودة إلى المنابع الأصيلة

أتيحت للبارودي ثلاثة عوامل حققت له اتصاله بالتراث العربي، وكوّنت له شخصيته التراثية التي كانت المقوم الأساسيّ الذي قام عليه بناؤه الفني، والمادة الفنية الثرية التي اعتمد عليها في حركته الإحيائية: حركة إحياء التراث التي نشطت نشاطا ملحوظا مع ظهور المطبعة، وإنشاء دار الكتب مما قدم للحياة الثقافية زادا وفيرًا من أمهات الكتب التراثية التي كان حَبْسُها قد طال في المكتبات الخاصة ومكتبات المساجد، ثم تردده إلى تركيا أكثر من مرة وإقامته فيها فترات طويلة منذ شبابه المبكر، مما أتاح له فرصة التردد إلى مكتباتها وخزائنها التي تزخر بمخطوطات هذا التراث، ونَسْخَ طائفة كبيرة من دواوين الشعراء، ملأ بها حقائبه، وحملها معه إلى مصر حين عاد إليها. وقد قَدَّمت له هذه الدواوين المادة التراثية التي جمع منها مختاراته التي تمثل روائع الشعر العربي، في سنوات المنفى الطويلة، وهي المختارات التي كانت العامل الثالث الذي كَوَّن له ثقافته التراثية.

حققت هذه العوامل الثلاثة للبارودي اتصالا واسعا بالتراث العربي ترك بصماته في أعماله الفنية على المستوى اللغوي والمستوى الأسلوبي والمستوى التصويري، فمعجمه اللغويّ وصياغته الأسلوبية وصندوق أصباغه التصويري تستمد مادتها من مناجم هذا التراث التي لاتَنْضُب، ومعارضاته للشعراء القدماء التي تنتشر في ديوانه انتشارا واضحا شاهد قوي على هذه الصلة التراثية، وعلى تمثله الدقيق لمذاهب الشعراء القدماء ومدارسهم الفنية، ويتراءى البارودي من خلال هذه المعارضات كأنه شاعر بدوي أو شاعر من المحافظين على عمود الشعر المتمسكين بتقاليده، وإن لم يمنع هذا من ظهور شخصيته التي احتفظ بها، والتي تعد أهم سمة مَيَّزته من الشعراء القدماء، وجعلته لايفني فيهم ولايختفي وراءهم.

مع هذه التراثية الأصيلة عاد البارودي إلى شعراء العربية الكبار، وبخاصة شعراء العصر العباسي، يرى فيهم مُثُلَه الفنية العليا، ويستمد منهم مادته الفنية، مجددًا للشعر العربي حياته القديمة التي كان عليها في عصور ازدهاره ونهضته، متجاوزًا شعراء جيله والجيل الذي سبقه الذين رآهم يمثلون انحدارا فنيا لم يشهد الشعر العربي مثله من قبل، طاويا من ورائه ثمانية قرون من الزمان حتى يصل إلى مناجم الذهب الخالص يستمد منه رصيدًا ثريا يحقق به ماكان يحلم به من إحياء التراث القديم الذي بَدَّدته عصور السقوط، ويُرْسِي به دعائم مدرسة البعث والإحياء في الشعر الحديث. وبهذا كشف البارودي الطريق الصحيح لمن جاء بعده من الشعراء، وحدد لهم معالمه، ومهّد لهم الأرض الطيبة لتتحرك فوقها أقدامهم قوية ثابتة كما كانت من قبل ثمانية قرون. وعادت القصيدة العربية قصيدةً عربية كما كانت أيام روادها الكبار، وتوارت القصيدة العثمانية لتأخذ مكانها في متاحف

التاريخ الأدبي، وأسدل عليها الستار.

خلّص البارودي القصيدة العربية من شيئين، وحقّق لها في مقابل ماخلصها منه شيئين: خلّصها من الدوران في الأغراض العنيفة الضيقة، ومن شعر المناسبات الرخيصة والمجاملات التافهة، وخلصها من أثقال المحسنات البديعية، ومن العَبَثية التي كان الشعراء من قبله يرون فيها الصورة المثالية لصناعة القصيدة العربية، وحقّق لها عودةً بالشعر العربي إلى عالمه القديم، وتحقيق تلك التراثية له التي أقام عليها بناءه الفني، والتي حققت له ريادة المدرسة الإحيائية الحديثة، وحقق لها وصلاً صادقا أمينا بحياته وعصره بكل مايمر به فيهما من تجارب ومشاعر وأحداث، مما حقق لها تلك المعاصرة التي تمثل المقوِّم الثاني في بنائه الفني. وكان هذا هو البارودي في تقليده وتجديده، أو ـ بعبارة أخرى ـ بين التراث والمعاصرة. وهو في أبيات له يذكر خمسة من العمالقة الكبار في العصر العباسي الذي شهد أكبر حركات التجديد في الشعر العربي، ويسجل تأثره بهم، وسيره على آثارهم: أبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام والبحتري والمتنبي:

مَضَى «حَسَنٌ» في حَلْبة الشعر سابقا
وأدرك لم يُسْبَق ولم يَأْلُ «مُسْلِمُ»
وباراهما «الطائيُّ» فاعترفتْ له
شهودُ المعاني بالتي هي أحكم
وأبدع القول «الوليدُ» فشعره
على ماتراه العينُ وَشْيٌ مُنَمْنَم
وأدرك في الأمثال «أحمدُ» غاية
تَبذُّ الخُطَى مابعدها متقدمٌ
وسرتُ على آثارهم، ولربما
سبقتُ إلى أشياء، واللهُ أعلمُ

عاد البارودي هذه العودة البعيدة إلى منابع الشعر العربي الأصيلة يستمد منها الصورة الأصيلة للقصيدة العربية: اللغة والأسلوب والألوان والموسيقا العروضية، ولكن ظلت وراء هذا كله شخصيته التي نراها دائما تفرض نفسها، وتؤكد وجودها، ولاتختفي أو تتوارى وراء الحُجُب التراثية التي تنتشر في شعره.

ومن هنا كان شعر البارودي بحق صورةً من حياته ونفسه وعصره ومجتمعه، أو ـ بعبارة أخرى ـ من حياته العامة والخاصة. وهو يؤكد هذه الشخصية، ويراها علامة واضحة، وسِمَة مميزة في شعره، فيقول:

فانظُر لقولي تجدْ نَفْسِي مصورَّة
في صفحتيه، فقولي خَطُّ تمثالي

ويطول بنا الطريق لو مضينا نتابع البارودي في معارضاته، فهي كثيرة ومنتشرة في ديوانه بصورة تجعلها ظاهرة مميزة لشعر البارودي، ولكن بشرط أن نتحول بكلمة «المعارضة» بعيدا من محدودية المصطلح إلى كلمة «المحاكاة» أو «التقليد» أو نحوهما. وفي أغلب الظن أن عبارات: «قال يروض الشعر» أو «قال يروض القول» أو «قال على طريقة العرب» والتي تتردد بصورة واسعة في ديوانه تشير إلى هذه المعارضات. ومن هنا تتراءى طائفة من هذه المعارضات كأنها تجارب فنية يحاول البارودي من خلالها أن يحقق الصورة النهائية للقصيدة الإحيائية التي يريد أن يقدمها لمجتمعه الأدبي.

المزاوجة بين البداوة والحضارة

ولكن تظل في هذا المجال ملاحظتان تستوجبان الاهتمام بقوة لانملك معها أن نتجاوزهما، وهما تتصلان بشاعرَي العربية الكبيرين: المتنبي وأبي العلاء ومدى تأثر البارودي بهما، فعلى امتداد ديوانه الكبير نرى طائفة من قصائده ومقطوعاته حاول أن يقلد فيها مذهب أبي العلاء في «لزوم مالا يلزم». ومع ذلك، فإن تأثير أبي العلاء فيه ليس كبيرا، ولعل هذا هو السبب الذي جعله لايذكره مع الشعراء الخمسة الذين أشار إليهم في أبياته السابقة. وربما كانت هذه المحاكاة للزوميات هي أوضح مظاهر هذا التأثير فيه. أمّا أشعاره في الزهد التي تنتشر بصورة واضحة في شعره في المنفى، ففي ظني أنها ليست من التأثير العلائي فيه، ولكنها انعكاسات لما أحسّه في أواخر حياته من إحباط، وماأصابه مع تقدم السن من اقتراب نُذُر النهاية المحتومة. وذلك لأن أشعاره في الزهد ليست من طراز أشعار أبي العلاء التي تصدر عن نظرة تحاول أن تفلسف الحياة، لا عن ذلك الاستسلام لها الذي صدرت عنه أشعار البارودي.

أما المتنبي ففي ظني أنه أبعد الشعراء تأثيرا في البارودي، وأشدهم ظهورا في شعره، وهي ظاهرة تبدو طبيعية للتقارب الشديد بينهما في النظرة إلى الحياة، وفي أسلوب التعامل معها، وفي إحساس كلٍّ منهما بأنه «شاعر فارس»؛ وكأنما رأى البارودي فيه المثل الأعلى الذي كان يبحث عنه، وكأنما وجد من خلاله شخصيته وحقق ذاته، فكان «رب السيف والقلم» تأكيدا للصورة التي رسمها المتنبي في بيته المشهور:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والضرب والطعن والقرطاس والقلم

والأمر الذي لاشك فيه أن هناك عوامل التقاء كثيرة بينهما: الطموح، والثقة في النفس، والاعتداد بالشخصية، والشعور بالتميز والتفرد، وأيضا الإحساس بالعروبة والإيمان بها، واستمداد الرموز الفنية منها، ثم هذه النزعة الثورية التي سيطرت عليهما، ودفعتهما إلى الدعوة لها والعمل من أجلها، ثم انتشار الحكَم في شعرهما، تلك الحكم التي تعكس تجاربهما في الحياة، وتحاول أن تفلسف نظرتهما إليها. ثم قبل ذلك كله الإيمان بالعودة بالشعر إلى أصالته الأصيلة وصورته الأولى، وتحريره وتصحيح مساره الصناعي، ليعود إلى مساره الطبيعي الذي تحرك فيه رواده الأوائل وأصحابه الأصلاء، ثم تتويجًا لهذا كله ظهور «القصيدة البدوية الحضرية» عندهما تعبيرا عن هذه المزاوجة البارعة بين البداوة والحضارة، أو بين التراث والمعاصرة. وفي ظني أن المتنبي هو الأستاذ الأول للبارودي الذي تلقى عنه الصورة الأصيلة للقصيدة العربية التي كان يبحث عنها، وهو أيضا المثل الأعلى الذي كان دائما أمامه في حياته الفنية، بل ربما في أكثر من موقف من مواقفه في الحياة، وفي أكثر من جانب من جوانب سلوكه فيها وتعامله معها. لقد عاش المتنبي يحلم بالفارس العربي القديم،

وكـذلك عاش البـارودي في أعمـاق حُلْم المتنبي به، وأيضـا بأحـلام الفارس العـربي الجديد الذي كان يرى نفسه صورةً منه، وأنه قادر على أن يعيد له دوره الذي قـام به في تاريـخنا القـديم، والذي عليـه أن يقـوم به في تاريخنا الحـديث. ولعل هذا هو الذي جعله يستبيح لنفـسه أن يستعير منه تلك الصورة التي رسـمها لنفسـه، والتي رأى أنها تمثل صورته أيضا، فكما قال المتنبي:

وفؤادي من الملوك وإنْ كا
ن لَساني يُرى من الشعراءِ

قال البارودي:

هِمَّتي همةُ الملوك، ونفسي
نفسُ حُرٍّ ترى المذلة كفرا

وفي شعر البارودي المبكر الذي كان يحلم فيه بأن يعيد فروسية أجـداده العرب والمماليك الذين سـجلوا في صـحـائف التـاريخ أمـجـاد العروبة والإسلام، وفي شـعـره الذي عـاصـر الثـورة منذ أن كانت مـرْجَلا يغلي في صـدور أبناء الجيش المصـري حتى انفجـرت بركانا مع عرابي، نحس أصداء المتنبي الثائرة التي كانت تتردد في شـعره المبكّر عندما كـان يحلم بثورة عربية تُطيح بالحكام الأعـاجم، وتعيد الأمر إلى أيدي أصـحـابه العـرب. وفي صـوته البـدوي المتـمـثل في حـبه لـلبداوة، واعـتـزازه الشـديد بالتـراث العربي فـي شـتى مـجـالاته، نسـمـع أصداء صـوت المتنبي القديم في دعـوته للعروبة ورفع شعـار العودة إلـى البـداوة؛ فـفي شـعـر البــارودي نرى تلك الرغـبـة في العــودة إلى بساطة الحـياة وصـفاء الطبـيعة في البـادية التي يراها خيـرا من حيـاة المدينة بما فيـها من أسـتار وحُـجُب تخفي هذه البسـاطة وهذا الصفـاء. وفي شعره أيضا نرى تلـك الصورة الجميلة من الغزل في البدويات وتفضيلهن على الحضريات التي دعـا إليهـا المتنبي، وحـقـقـهـا في كثيـر من قـصـائده. ولاشك في أن هذا اللون من الغـزل البـدوي كـان ـ كمـا كـان عند المتنبي ـ رمـزا تراثيـا لأحلام الفارس العـربي القديم الـتي كان يتمنى لو تحـولت إلى واقع يعيـد للحياة العـربية أصالتها وقيَمَها ومُثُلَها العليا.

وكما عاد المتنبي إلى الشعـر القديم يستمد من أصـوله الثـابتـة لغتـه وأسلوبه وصـيـاغـتـه ليمـزجها ويزاوج بينها وبين مـتغيرات عـصره، عـاد البـارودي إلى هذا التــراث الشــعري، يستمد منه ثوابته، ويـزاوج بينها وبين المتغيرات الجديدة فـي عصره. وعلـى امتداد ديوانـه تبدو ظاهرة استـغلال التراث واضـحة في كثـير من قصائده، وهو لايكتفي بأن يستـمد منه معجمه اللغـويّ ومـعـجـمـه التـصـويري وصـيـاغـتـه الأسلوبيـة، بل يستـمد منه أيضـا رموزه الفنيـة ولوازمه الثابتة، وأدوات بناء قـصائده ـ «أعرابية وحـشيـة» على حد عـبارة بشـار المشهـورة ـ: أسـمـاء أعلامـه وقـبـائله والمواضع التي أكـثـر الشعراء من ذكرها وأسماء المحبوبات التي كان الشعـراء يتخذون منها رمـوزًا لحبهم، أو تعبـيرا عن تجارب حية عاشوها في حياتهم.

لم يكن دور البـارودي في ثورته الإحيـائية مجـرد العودة إلى التراث أو الـوصول إلى منابع



أحمد عرابي

النهر، وإنما كـان هدفه من هذه العـودة أن يبدأ معـها رحلة جـديدة على طريق الشعـر العربي، يجدد فيها القصيدة العربية، ويرد إليها حياتها، ويـبـعـثـهـا بعـد مـوتهـا خلقـا آخـر، من طريق المزاوجة بين هذا التراث وبين عـصره، واتخاذه إطارا يضم واقع حيـاته وصورة شخصيته. فلم تكون ثورته الإحيـائيـة إلا هذه المزاوجة الفنيـة التي حققت له ـ كما حققت للمتنبي من قبل ـ «القصيدة البدوية الحضرية».

شعره .. حياته

والأمر الذي لاشك فيـه أن تراثية البارودي لم تَحُلْ بينـه وبين التـعـبـيـر عن شـخـصـيـتـه ونفسيته، ولم تستطـع أن تضع بينه وبين عالمه المعاصر وواقعه الحيّ الذي يعيش فيه حجابا يرد الرؤية، ويـبــاعــد بينه وبين تـصـويره، فـظلت «شخصيته» التي تحدد مـلامحه وقسماته تطل علينا من وراء شعـره، وظلت تطل معهـا تجاربه الشـخـصـيـة في الحـيـاة، ومن خلالهـا تحـقـقـت فكرة «التجـربة الشعـرية» لأول مرة في شـعرنا الحديث. ومن هنا كان الدكتور محمد حسين هيكل دقيق الملاحظة حين سجل في أول عبارة من مقدمـته الممتازة لديوانه أن «شـعر البارودي حياته»، وحين أكـد ذلك في قـوله إن «شعـره مرآة بيئته وزمـانه». وهذا هو البارودي ـ كـما أراه أيضا ـ في مـعاصرته، أو ـ بعـبارة أعم ـ بين التراث والمعاصرة.

ثلاث مراحل لحياته

ولكي تـتـضـح لنا هذه «الشــخـصــيــة البـارودية» سنوزع حيـاة البـارودي على ثلاث مراحل تَنَقَّلَتْ بيـنها رحلة حيـاته، لنرى كيف كان شـعره في كل مرحلـة منها صورة لحياته الاجتماعية وحـياته النفسية، وكيف انعكست هذه الصورة على حياته الفنية:

المرحلة الوردية: مـرحلة الشـبـاب المبكّر، وهو يسـتـقـبل حيـاته بـدراسـتـه العـسكرية، ومـاحـقـقه لـنفـسـه فيـهـا من اتصال بالجيش، ومشاركـة في حروب الدولة العثمـانية، وتَرَدُّد إلى تركيا، ورحَلات إلى فـرنسا وانجلترا. وهيَ مــرحلة ربما تـكون قــد وصلت به إلى سـنة ١٨٦٨م وهو يودع عـامه التـاسع والعشـرين، عندما بدأت الحيـاة السياسيـة تنحدر إلى هاوية أحس مـعهـا أن عليه دورًا فـيـها لإنقـاذها. في هذه المرحلة عـاش البـارودي شـبـابه بين الحب والطبيعة من ناحية، والفروسية والفتوة والحرب من ناحـيـة أخرى، أو ـ بعـبـارة أخرى ـ عـاش حياة الفارس العربي القديم. وسنطلق على هذه المرحلة من حياة البارودي «المرحلة الوردية».

المرحلة الحـمـراء: والمرحلة الثـانيـة مـرحلة اتصاله بالحياة السيـاسية منذ عـصر إسمـاعيل الذي يبدأ في سنة ١٨٦٣م، وهو عصر أخذت المشكلات السياسية تتحرك فيه، وأخذت قوى الشعب والجيـش الثائرة المتمردة تتـحـرك أيضا، ومن خلفهـا الأفغـاني وعرابي، مـن أجل إعادة تشكيل الحـيـاة السيـاسـيـة في مصـر تشكيـلا جـديدًا. وهي مـرحلة امتـدت حـتى اشتـعـال الثورة العرابية التي كان البارودي أحد زعمائها وقـادتها. ومع إخـفـاق الثـورة، وانهيـار الأمل

فـيـهـا، والحكم على زعـمـائـهـا ـ ومـن بينهم البـارودي ـ بالنفي إلى جـزيرة سيلان، تنتـهي هذه المرحلة مع نهـاية سنة ١٨٨٢م حين تحرك قطار النفي بـه وبرفـاق الثـورة في طريقـهم إلى البحـر لتحملهم باخرةُ المنفى إلى عـالم جديد. وفي هذه المرحلة الـتي امتـدت قـرابة عـشـرين عاما عاش البارودي حياة الثائر المتـمرد الذي تحطمت آمـاله، أو النسـر الجـريح الذي أصـابه سـهم فـهـوى به من عليـائه. ومن هـنا سنطلق على هذه المرحلة «المرحلة الحمراء».

المرحلة الرمادية: ثم تكون المرحلة الثـالثة، مـرحلة المنفى، وقـد امـتـدت هي أيضـا قـرابة عشريـن عامًا منذ بدأت رحلتُهُ إلى عـالم الغربة والوحشة إلى أن صعـدت روحه إلى بارئها في أواخر سـنة ١٩٠٤م، قضى منهـا سبـعة عـشر عامًا وبضعـة شهـور في المنفى، وقضى الفـترة القصيرة الباقية منذ عودته في سنة ١٩٠٠م في وطنه يبكي دنيـاه التي ضـاعت منه وأحـلامـه التي ذهبت أدراج الرياح، ويسـتـعـيد ذكـرياته البعيدة والقريبـة، ويسترجـع أيامه الحلوة والمرة التي مرت بـه على أرض الوطن البعيـد، ويبكي أعـزاءه الذيـن طواهم الموت وهو في غـربتـه، ويحاول أن يقنع نفسه بـقدره، ويتوجه إلى الله أن يكشف عنـه غـربتـه وكـربتـه، ويقف أمـام الحيـاة يتأملها فـي محاولة لاستـخلاص العـبرة منها، وأخذت ماديته تتساقط عن روحه ليسمو فوقها إلى مقـامات من الزهد في الحياة والعمل للآخــرة. وسنطلق عـلى هذه المرحلة «المـرحلة الرمادية». وفي ظني أن هذه الألوان الثلاثة التي اخـتـرناهـا لهـذه المراحل تكشف ـ بـدلالتـهـا الرمزية المعـروفة في مـجال الفنون التشـكيلية ـ عن طبيعة كل مرحلة منها.

أصالة التراث وجدة المعاصرة

في المرحلة الأولى نرى البـارودي الفـارس العربي بكل مـاتحمله الفروسـية العربيـة من قِيَم ومُثُـل أرساها «فرسـان الصحـراء» منذ العـصر الجاهلي، وأداروها حول ثلاثة محـاور أساسية: الفتـوة والحب والخمر. ومن هنا نرى شـعره في هذه المرحلة مـعبـرا عن حياته، حـياة الفـارس العربي، بوجهـها الجاد ووجهها اللاهي، تعبيرا لانفتقد فيه شخصيتـه المتميزة، تتردد فيه أسماء طائفة من مـحبوباته وذكـريـاته العاطفية مـعهن بين الطبيـعة الجميلة ومجالس الشـراب واللهو والغناء، كمـا تتردد صـور المعارك التي خاضـها متغنيا بشجاعتـه فيها وفـروسيته. وفي قـصائد هذه المرحلة يختلط الوجـهان الجاد واللاهي في حيـاته، وتتشابك خـيوطهـما الخشنة والناعـمة لتـشكل الـنسيج الفني الجـديـد الذي يحـمل أصـالة التـراث وجـدّة المعاصـرة، في مـحـاولة بارعة للمزاوجة بينَ الحيـاة العصرية التي يحياها في واقعه، والحياة البدوية التي يحياها في خياله ، ولذلك تتردد في هذه القصـائد الرموز الفنية القديمة التي أصبحت ثـوابت في شعرنا العربي، وتتردد معهـا متغيِّرات العصـر الذي يعيش فيه، والواقع الذي يعيش مـعه، فنـرى رموز التـراث العـربي وعلامـاته من أسـماء الأمـاكن العربيـة وأسماء المحـبوبات العربيات، وإلى جـانبها نرى مظاهر الحيـاة المصـرية، حـاضرها ومـاضيـهـا، «وأضـواء المدينة» التي تتألـق في ليالي القـاهرة الساهرة، وأحلام الريف التي تنام وتصحو على السـواقي والجـداول ومـزارع القطـن وسنابل القـمح، وأمجـادَ الماضي الخالد التي تعـيش مع الهـرمين وأبي الهول والآثار الفـرعونيـة الممتـدة على ضفاف الوادي من أسوان إلى الجيزة.

ومع كـاظمـة وحُـزوى والغضـا والعـقـيق واللوى والبان والعَلَم والصَّبا والخُزامى والضَّال والسَّلَم، نرى الجـيـزة وحلوان والروضـة والمنيل والمقياس والجزيرة وشبرا والفسطاط، ومع ليلى وهند وظلوم وريا وأميمة ولميـاء وريحانة، نرى ظبيـة المقيـاس وجـمـيلات الروضـة وفـاتنات حلوان وحـسان شـبـرا. وبين الثـوابت التراثيـة والمتغيرات المعاصرة تتـم عملية مزاوجـة بارعة بين حـيـاته كـمـا يحـيـاها في حـاضره وحـيـاة الشعراء القدماء كما عاشها معهم في شعرهم.

ولكن الظاهرة التي تستـرعي النظر في شعر هذه المرحلة أن العنصـر التراثي فـيه يـبـدو أكـثـر ظهـورا من عنصـر المعـاصرة. وهي ظاهرة تبـدو طبـيعـية إذا لاحظنا أن هذه المرحلة هي مـرحلة البـداية التي كان البـارودي يمارس فيـها تجاربه الفنيـة من خـلال مـحـاكـاته لـلنمـاذج الفنيـة التراثيـة، فمن الطبـيعي أن يبدو مـشدودا إليـهـا فلم يسـتطع أن يحقق تلك المزاوجـة، التي نجح في تحقيقها بعد ذلك، بينها وبين المعاصرة.

وظاهرة أخرى تسترعي النظر في شعر هذه المرحلة، وهي ظاهرة «الوحدة الموضـوعية» التي تبـدو إرهاصات لهـا في بعض قصـائدها لأول مـرة فـي تاريخ الشعــر الحـديـث. وهي تلك القصائد التي كانت تستقلّ بموضوعات خاصة بها لاتشركها فيها موضوعات أخرى.

تعبير عن آمال الشعب

فـإذا مضـينا بعد ذلـك إلى المرحلة الثانيـة، «المرحلة الحمـراء»، فإننا نلاحظ أن شعره فـيها يدور حول مـحور أساسي واحـد، وهو الدعوة الثـورية التي تحاول الكـشف عن فسـاد الحيـاة السيـاسية من ناحـية، ومـحاولة إصلاحـها من ناحـيـة ثانيـة، ثم الـوقـوف في وجـه التـدخل الأجنبي في مجالات الحياة المصرية الاقتصادية والسـيـاسيـة من ناحيـة ثالثـة. وقـد اسـتطاع البـــارودي أن يعكس في شــعـر هـذه المرحلة الآمال التـي كانت تجيش بها صدور الـشعب والجيش، ومـايحلمـون بـه من انقـلاب يغيِّـر الثالوث الذي يقف وراء الفساد، والذي يتمثل في الحاكم والحاشيـة والحكومة، وما كان يلوح في الأفق من نُذُر ثورة يقـوم بهـا الجـيش تطيح بأسـبـاب هذا الفـسـاد، وتقلم أظفـار التـدخل الأجنبي، وتحقق للشعب أحلامه في حياة نيابية تُرسي دعـائم الديموقراطيـة. ولذلك تنتشـر في قصـائد هذه المرحلة العبارات الثـورية الملتهبة التي تعكس المشـاعـر الثـورية التي تجيش بهـا نفـوس الشعـب والجيش، وتـتـردد الصـيحـات الجريئة التي تدعـو إلى الثورة أو الانقلاب الذي يحـقق هذه الأحلام، وتتـردد عبـارات الأسف والحسرة على مآأصاب مصر بعد ماضيها المجيد الذي يشهد بـه تاريخها العربي، وكأنه يـستنفر قومـه ليدركوا الأمر قـبل أن يفلت من أيديهم، ويحـدد لهم أوصاف البطل المنتظر، ومـايجب أن يتـحلى به من صفـات تتيح له القـيام بهـذا الدور البطولي.

وتتحول طائفة من قصائد هذه المرحلة إلى

البـارودي والمزاوجـة بين التـراث والمعـاصـرة

مايشبه أن يكون «منشورات ثورية».

والظاهرة الفنية التي نسجلها على شعر هذه المرحلة هي اتجاه البارودي إلى تحقيق «الوحدة الموضوعية» بصورة أقوى من المحاولات والتجارب التي لاحظناها على شعر المرحلة السابقة. كما نسجل على شعر هذه المرحلة أيضا غلبة عنصر المعاصرة والتجديد على العنصر التراثي. وهي ظاهرة تبدو طبيعية، فقد كان البارودي في هذه المرحلة يعيش حياة عصره، ويتخذ من شعره أداة للتعبير عنها، تعبيرا على قدر كبير من الصدق والواقعية.

نزعة نحو الزهد

فإذا مضينا بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة، «المرحلة الرمادية»، فإننا نلاحظ أن شعره فيها يدور حول ثلاثة محاور أساسية: ذكريات الماضي الحلوة والمرة، ذكريات شبابه من ناحية، وذكريات الثورة من ناحية أخرى، ثم البكاء على الأعزاء الذين رحلوا عن الحياة وهو بعيد منهم في غربته الموحشة، ثم الحكَم التي تعكس خلاصة تجربته في الحياة، وتمثل نزعة واضحة نحو الزهد فيها واليأس منها والتفكير في المصير المحتوم، وهي حكَم كانت تتردد في ثنايا قصائده، ولكنه كان يفرد لها في أكثر الأحيان مقطوعات كاملة. وهي - من ناحية أخرى - تختلف عن الحكَم التي تنتشر في المرحلتين السابقتين، فهي هنا تدور حول محور أساسيّ واحد لاتكاد تخرج عنه إلا في مواضع قليلة، وهو محور الزهد في الحياة والتفكير في المصير المحتوم. ولكنها - كالحكَم في المرحلتين السابقتين - تعد انعكاساً لظروف حياته ومتغيراتها فيها.

وشعر هذه المرحلة كثير، وربما كان السبب في هذا يرجع إلى فرص الفراغ التي كانت متاحة له فيها أكثر مما أتيحت له في المرحلتين السابقتين اللتين كان مشغولا فيهما بحياته من ناحية، وحياة شعبه من ناحية أخرى. ومن غير شك فإن أروع ماقدمه في هذه المرحلة هي ملحمته الطويلة التي سجل فيها السيرة النبوية في معارضة لبردة البوصيري، والتي سماها «كشف الغُمَّة في مدح سيد الأمة»، وقد امتد بها امتدادا طويلا حتى بلغت أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا، وهي ليست مدحا خالصا للرسول عليه الصلاة والسلام كما فعل البوصيري، ولكنها تاريخ كامل للسيرة النبوية المعروفة بالإلياذة الإسلامية.

مظاهر الحياة الحديثة في شعره

على امتداد هذه المراحل الثلاث، وعلى طول الطريق الذي سلكه البارودي في رحلته الفنية، تتساقط قطَع براقة في بعض قصائده تعد انعكاسات للحَياة المعاصرة التي يحياها بما تمثله من بعض مظاهر هذه الحياة. وفي ظني أن البارودي كان يحرص على ظهورها في شعره، وكأنه يرى أنها تؤكد أنه - على الرغم من تراثيته التي أقام عليها بناءه الفني - لم ينفصل عن عصره. ولم يبُتّ حباله من الحياة العصرية الحديثة التي كان المجتمع المصري يأخذ بأسبابها، منذ أن رفع إسماعيل شعاره بأن يجعل مصر قطعة من أوربا.

ويبدو الحديث عن الكهرباء أكثر هذه القطع البراقة ظهوراً في شعره، ومعها يظهر الحديث عن آلة التصوير، وعن المنظار المُقَرِّب، وبعض المظاهر الحضرية الحديثة. وهو يوظفها توظيفا فنيا على قدر غير قليل من البراعة في رسم صوره وتلوينها، وإضفاء هذه اللمسة العصرية عليها. وفي أكثر من موضع من شعره نراه يتحدث عن «القطار» الذي يسميه «الوابور»، وهي التسمية التي أطلقها عليه الشعب المصري في أول عهده به، تعريبا أو تمصيرا لكلمة «البخار» في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو يصف رحلته به مستغلا رموز الرحلة المألوفة في القصيدة العربية القديمة، فنرى على اللوحة الحديثة ألوانا يستمدها من «صندوق الأصباغ» التقليدي، حتى ليتراءى القطار في بعض أبياته التي تحدث عنه فيها جواداً أدهم، تحققت فيه كلُّ الصفات التي أدار الشعراء القدماء وصفهم للخيل حولها، ومعها ظهرت كل الرموز الثابتة في الشعر القديم، ومعها تحولت اللوحة الحديثة إلى لوحة تراثية، وظهر القطار عليها جوادا عربيا أصيلا.

وإلى جانب هذه القطع البراقة التي تعكس بعض مظاهر الحياة العصرية، نرى في بعض مواضع من شعره كلمات أجنبية وكلمات مصرية من لغتنا الدارجة، فالخمر في بعض قصائده «بَرَنْدي»، والداية هي «البَنْد» التسمية الفارسية لها، والفَرَس «سَمَنْد» وهي التسمية الفارسية لها أيضا، وذيل «الفستان» هو «الأَتَك» وهي التسمية التركية له. ومع الكلمات المصرية التي نراها في بعض قصائده نحس أن البارودي - كما كان يحرص على أن يؤكد «عصريته» - يحرص أيضا على أن يؤكد «مصريته»، وأن يشيع جوا من الظرف القاهري وخفة الروح المصرية فيها، وكأنها روح البهاء زهير الشاعر المصري الرقيق تطل علينا من جديد.

هذا هو البارودي بين التراث والمعاصرة، رائد الشعر الحديث، ورأس المدرسة الإحيائية، أرسى أصول القصيدة العربية الجديدة، ورسم للإحيائيين من بعده طريق التجديد القائم على الموازنة الواعية بين التراث والمعاصرة، وعلى إدراك أن للعصر حقا على الشاعر لابد من الوفاء به، وهو حق يجب ألا يجور على حق التراث علينا، حتى لايكون التجديد كالنبت الشيطاني لانعرف من أين ظهر؟ ولاكيف ظهر؟ وحتى لانكون كمن «فقد الذاكرة»، على حد عبارة العقاد العظيم.

ومن الحق مالاحظه الدكتور هيكل في مقدمته الممتازة لديوانه من أن شعره «كان في عصره جديداً كله». وهي ملاحظة بالغة الدقة والذكاء، لاتظهر دقة الحكم فيها، وذكاء النظرة إليها، إلا مع الرجوع إلى حالة الشعر قبل البارودي، لتحديد دوره في حركته بعد ذلك، دور الرائد الذي لايَكْذب أهله، والدليل الخبير بمسالك الصحراء التي يخترقها مُغْمَضَ العينين، قد دَوَّخها وسَلَكَها، كما كان القدماء يصفون أدلاءهم في شعاب الصحراء الملتوية الغامضة.

(*) من المقالات التي خصّ بها الأستاذ الأديب «الفيصل» قبل رحيله، يرحمه الله.

صور من الرحلة إلى الحج في النثر الجزائري الحديث

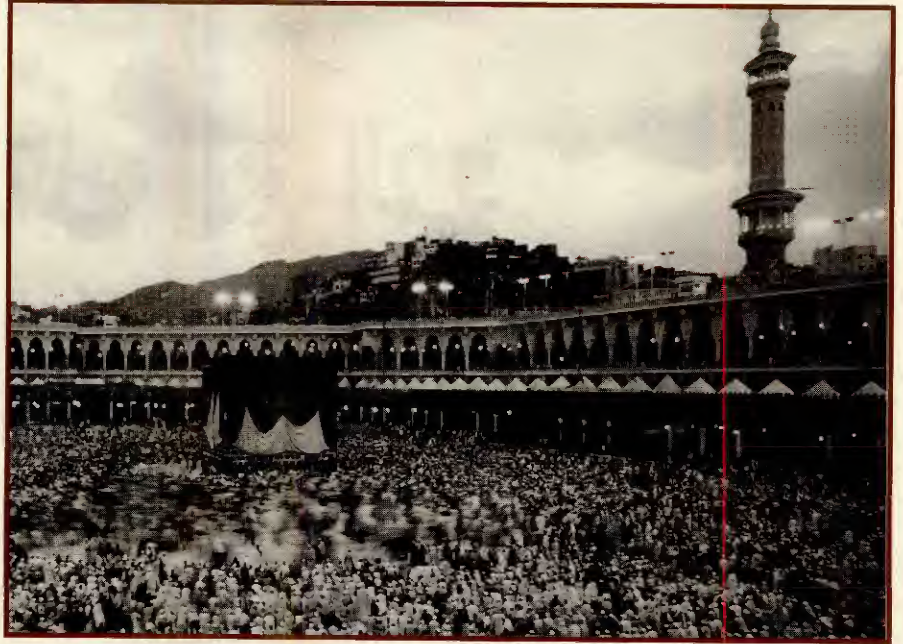
د . عمر بن قينة

أدب الرحلة من الفنون الأدبية التي عرفت ازدهارًا في أدبنا العربي منذ القرون الأولي، ومنه الأدب الجزائري، وكانت نشأة الرحلة هنا لغاية الحجّ أساسا، والتعليم بعد ذلك، ومن النماذج القريبة المهمّة في ذلك: رحلة الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني، في القرن الثاني عشر الهجري (١١٢٥ - ١١٩٣هـ/١٧١٣ - ١٧٧٩م)، المعروفة بعنوان: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار»(١) .

غير أنّنا بدخول القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين في مرحلة تطوُّر الأدب الجزائري الحديث نلاحظ تراجعا لرحلة حجٍّ مستقلة كنصٍّ مدوّن، فلئن كانت وفود الحجاج السنوية لم تنقطع نحو البقاع المقدسة، ومن بينها أعلام أدب وفكر، إلا أننا لم نعثر على رحلات حجّ مستقلة: تسجّل الأشواق إلى البقاع المقدسة، كما تصور المعالم والمشاعر والانطباعات أثناء أداء هذه الفريضة الدينية، لعوامل مختلفة، بل سرعان ماصارت الرحلة إلى الحجّ جزءًا من رحلة عامة، يأتي فيها الحجّ أو العمرة جزءا فقط، ربما لتراجع الحوافز والمثيرات التي تدفع هذا الكاتب أو ذاك لكتابة انطباعاته والتعبير عن مشاعره، رغم أنّ طبيعة الاحتكاك بالمكان والإنسان جديرة بتحريك المشاعر وإثارة العواطف ، وتجسيدها على الورق كمطلب فكري وروحي ونفسي لدى الكاتب الأديب الفنان خصوصا.

ورغم أننا لم نعثر في القرن العشرين خصوصا على رحلة مستقلة خاصة بالحج يكون هو غايتها ومقصدها في منطلقها، فإننا نجدها جزئية في رحلات محدودة، أولها: رحلة الغسيري العامة «عدت من الشرق»(٢)؛ حيث طرأت له فكرة الحج وهو في القاهرة عندما وصل إليها من الجزائر سنة ١٩٥٣م في وفد من الكشافة الإسلامية عبر تونس وليبيا، ولم تلبث حتى وجدت طريقها إلى التنفيذ خاصة بعد الدعوة من السعودية إلى محمد البشير الإبراهيمي ومعه الغسيري وغيره أيضا، كي يكونوا ضيوفا على الحكومة السعودية أيام الحج، وهو مابدأ الكاتب يتحدّث عنه بقوله: «حان وقت الحج ونحن بقاهرة المعز لدين الله(٣)، فحَنّت النفس، واشتدّ الشوق إلى تحقيق الأماني الروحية العذاب فوق ثرى مهبط الوحي، والاتصال بالحاضر والماضي، فوق معالمه وأماكنه المقدسة»(٤). إذن فقد نمت رحلة الحجّ هذه كفكرة سريعة في ذهن الكاتب وهو في القاهرة فتاق إلى تحقيقها، تبرّح به أشواق روحية للبقاع المقدسة من أجل أداء فريضة الحج، ومشاهدة الأرض التي نزل فيها الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

تحدّث في أخبار رحلته عن الإجراءات الإدارية في مصر والسفارة السعودية في القاهرة: «فما وجدنا منها إلا كلَّ إجلال وتعظيم»؛ تقديرا للعلم والثقافة ورجالهما. كما وصف السفر على طائرة سعودية «تحركت فسارت ثم ارتفعت وحلقت فوق سماء القاهرة، وعلت أصوات الحجاج الكرام بالتلبية وذكر الله». مثلما وصف هبوطها بمطار جدة حيث حظوا باستقبال رسمي، ووضعت الحكومة السعودية تحت تصرفهم سيارة انطلقت بهم من جدة إلى مكة حيث بدأت المشاعر تهتزّ للذكريات في أرض النبوة والجهاد ونكران الذات في سبيل الله. فوصف الكاتب بعضا ممّا كانت تحتدم به نفسه من مشاعر، حيث أوحت الأماكن بما ألهب العاطفة واضطرمت له المشاعر من أشواق روحية اشتد بها الظمأ لمشاهدة أماكن الوحي، والإمعان في إيحاءاتها وظلالها: «هناك بدأت النفحات الربانية تهب على أرواحنا، فشعرنا بلذة الإيمان بالله، وبنبوة



محمد صلى الله عليه وسلم، وراعتنا قداسة الأماكن، وعاودتنا الذكريات الحلوة»(٥). فلم يلبث التاريخ حتى أعلن حضوره عبر الأماكن والمواقع التاريخية التي شهدت الصراع بين الإيمان والكفر زمن الرسالة المحمدية، حتى كان الجماعة على أبواب مكة المكرّمة «ماهي إلا ساعة من نهار حتّى كنّا على أبواب أقدس بقعة على وجه الأرض، طالما تضرّعنا إليه في أن يكتب لنا زيارتها لأداء واجب له علينا فَرَضَهُ منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام».

فوصف دور مكة في الحضارة ومكانتها في قلوب المسلمين وتاريخهم بوصفها عاصمة للعالم الإسلامي، كما وصف ماشهدته من حركة تحديث وتطوير في مجالات مختلفة.

ثم يحدثنا عند النّهوض للطواف، عن مظاهر التلبية وعباراتها الدافقة تنطلق ألفاظها من «شفاه مئات الألوف من الحجاج بالحرم المقدّس، وما أدراك ما الحرم المقدّس!»(٦)، حيث أدرك الحاجة إلى مطوّف: «فما راعني إلا وكل شيء يحتاج إلى مطوّف، فهو دليل، وهو مدافع عن الحاج، وهو معلم يلقّنه الأدعية»(٧). لكنه هو يتحرّر من الأدعية الجاهزة، لأن حاجته إلى الله تتطلّب أدعية أخرى نابعة من القلب، تختلف عن تلك التي وضعها آخرون لأوضاع عامة، أو لحالات مشتركة، يريدها أدعية نابعة من أعماقه، له ولوطنه، لمعالجة آلام ومحن، أو طلب مغفرة أو رجاء عون ليتحرّر الوطن من قهر الاحتلال.

كما يسجّل الكاتب أحاسيسه ومشاعره على أثر السعي بين الصفا والمروة مع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الثامن من ذي الحجة؛ معربا عن الصلة التي تدقّ بين الإنسان في هذا الموقف وخالقه، يرجوه مغفرة وثوابا، فيصف لنا في ذلك أيضا حال الإبراهيمي في إحدى هذه اللحظات قائلا: «رأيت لأول مرة صاحب الفضيلة الشيخ البشير الإبراهيمي تحت نوع من التأثر العميق وهيجان الشجون وتأثير نور الإيمان على روحه الطاهرة يتحوّل إلى طفل صغير يبكي ويغمغم ..... وكأنه وهو يستعرض حاضر العالم الإسلامي قلق غير راض بما يراه عليه من الذلّ والهوان، فتتولى العبرات ترجمة خلجات نفسه»(٨). كما يتحدث عن النزول في عرفات يوم ٩ ذي الحجة مسجّلا بعض الملاحظات على الحجاج، كما يتحدث عن المزدلفة ومنى في العاشر من ذي الحجة حيث: «أدركنا العيد، وللعيد في منى روعة أخرى، وإنّ فيه لذكرى، وإن فيه لشجوننا، وإن فيه لعبرة لأولي الأبصار». فتبرز في ذلك العبرة من قصة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام رمزا للفداء والتضحية، وحربا «على النفس وأثرتها وأنانيتها وكبريائها»(٩)؛ ليتخذ الكاتب من ذلك مناسبة للشرح والتعليق بحسّ ديني تخفق به كلمات الكاتب ومشاعره متأثرا بالجوّ الديني العام.

ثم يعود الكاتب إلى الحديث عن الرجوع إلى مكة لطواف الوداع، وزيارة بعض المواقع والمعالم، والانتقال إلى المدينة المنوّرة، حيث تتألق روحه من جديد، ويغمره إحساس بالطمأنينة والرضى: «ماأروع أن تصافحنا الذكريات تترى فوق أديم شهد نبراسا للهدى أضاء على أربعة عشر قرنا من التاريخ، وما أجلّ أن تدور عجلة الزمن فتقصر المسافات وتدنو البعاد، وتسهل الأوعار، فتتحقّق الأماني سراعا بين عشية وضحاها، فيبلغ أسارى حب محمد صلى الله عليه وسلم ماأرادوا وماظلّوا منذ المهد يحنّون إلي رؤية معالمه ومغانيه في أمد وجيز جدا جدا، هي ساعة من زمن مرت كخيال في أجواء الحجاز، نقلتنا من جدة إلى المدينة وكأنها صدى لأشواقنا، وكأنها قوّة دفاعية لتحقيق أمانينا بسرعة البرق مالم يحلم به أوالينا»(١٠).

هكذا صاغ الغسيري الحديث عن حجّه



الشيخ البشير الإبراهيمي

صور من
الرحلة إلى الحج
في النثر الجزائري الحديث

بأسلوب أدبي جيد في ظلال دينية موشّاة بتوق شعوري خاص، انطلق بركوب الطائرة ونزولها أيضا، سواء في جدة أو المدينة بعد ذلك، كما صحبه في كلّ المواقع وانفعل به في مختلف المواقف، فجاشت نفسه بهذه الأحاسيس التوّاقة إلى صفاء روحي في علاقة الإنسان بخالقه، في موطن حضارة إنسانية زاهرة، نهضت بانتصار الرسالة السماوية التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم، فكادت تجعل من العالم رقعة إسلامية واحدة يسودها العدل والإخاء والحب والأمن والسّلام بين البشر.

كما أننا نجد الرحلة إلى الحجّ جزئية جدا في رحلة المدني في شهر تموز/ يوليو ١٩٥٧م، صحبة وفد سياسي إلى السعودية، وقد طغت فيها المهام السياسية على غيرها، فتحدث عنها حديثا سريعا تحت عنوان: «حجّ وحاجة (١١)»(١٢)، اختلط فيها الحديث عن الحج بالسياسة، واكتفى - اختصارا - بثبت برنامج النشاط في السعودية ثبتا تقريريا سريعا، تضمن ذكر عرفات ومنى والطواف بشكل سريع جدا خال من حرارة المناسبة الدينية؛ لطغيان الاهتمام السياسي بكل أجوائه متحدثا عن المقابلات السياسية والنشاط العام في التعريف بالثورة الجزائرية؛ خاصة في يوم الوقوف بعرفات حيث يجتمع جميع الحجاج.

لذا تبقى هذه الرحلة قليلة الأهمية بالنسبة لرحلة الغسيري المتميّزة التي عكست فعلا طبيعة الانفعال بالمناسبة والمكان، فزخرت بمختلف الأحاسيس والمشاعر والصور ذات الظلال الدينية المشرقة.



فرحات عباس

ورحلة الغسيري إلى الحجّ، رغم أنها جزء من رحلة عامة تعددت أغراضها، فإنها تأتي متميّزة فكريا وفنيا في هذه الفترة، فلم نعثر على رحلة حجّ مدونة منشورة غيرها بصرف النظر عن رحلة المدني وسعدالله كما سيأتي بعد حين.

ومهما يكن من شيء؛ فإن عدم العثور على نصّ مستقل لرحلة حجّ لا ينفي قيام كتاب وأدباء كثيرين برحلات حجّ مثل غيرهم، لكنّه يسترعي النظر إلى عزوف لدينا عن فنّ أدبي إنساني جميل أصيل في تراثنا وحضارتنا الإسلامية، وقد مارسه أبناء المغرب العربي أنفسهم بشغف أيضا، فكان من أهمهم ابن بطوطة(١٣) ذو الشهرة العالمية حتى الآن.

أمّا العمرة وحدها أو (الحجّ الأصغر) كسنّة مؤكدة فإن وصفها وارد أيضا مرتين في الرحلة الجزائرية في هذه الفترة - حسب علمنا حتى الآن -، وبشكل جزئي أيضا في رحلتي المدني وسعد الله.

فتحدّث الأول عن عمرة له بصحبة فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة في المنفى، في ٦ آزار/ مارس ١٩٥٩م؛ حين كانا في السعودية في مهمة سياسية يصحبهما وزيران آخران في الحكومة المؤقته. فبعد استقبالهم في مطار جدة انطلقوا إلى مكة حيث أدّى الرجلان العمرة التي لم يكد يتجاوز حديث الكاتب عنها السطور التالية: «بعد استراحة قصيرة في جدة ذهبنا ممتطين سيارتنا الرسمية إلى منبع النور ومصدر الهدى مكة المكرمة حيث أدّينا العمرة، وصلّينا بساحة مسجدها المطهّر فريضتي المغرب والعشاء، ورأيتُ الرئيس فرحات عباس، المتفرنج، رأيته والله يرتعد فرقا وهو بين يدي الله، وقد اصفرّ لونه حتى أصبح ليمونة صيف، وارتعش إلى درجة أنني كنت أمسك به حتى لا يقع، ووجم كأنما هو صوفي من رفقاء الجنيد(١٤) أمام جلال الله، وعظمة الله، وروعة بيت الله. وهكذا تفجّر إيمانه فإذا هو أقوى وأصدق إيمانا»(١٥).

فهو وإن أجاد وصف جانب ممّا يعتري المرء في لحظات التأثر والخشوع؛ فقد اختصر اختصارا مخلاً في نقل تفاصيل المشهد في هذا الموقف غير العادي، ولم يَخْلُ هذا الاختصار نفسه من مبالغة في قوله: «كنت أمسك به حتى لا يقع»، فلم يوح كلامه باللحظة المحددة التي استدعت تدخّله لتجنيب رفيقه السقوط، كما لم يوح هذا الكلام بالموقف الخاصّ به الذي أثر فيه، فجعله على تلك الحال، حتى بدا أنّ ذلك حالة لازمت رفيقه حين عبّر بكلمة «كنت» فلم يعد بمقتضاها من همّ له إلا حماية صاحبه من السقوط على الأرض.

أمّا سعد الله فإن حديثه عن أداء العمرة كان جزءا من حديثه عن الأماكن المقدّسة أثناء حضوره «الندوة العالمية الأولى لمصادر دراسات تاريخ الجزيرة العربية»(١٦)، مع وفود مختلفة من بينها وفد المغرب العربي؛ الذين كانت رغبتهم شديدة في زيارة الحرمين الشريفين إشباعا لحاجة روحية كان يحسّها كل واحد منهم، فوصف الكاتب استعداده الرّوحي لأداء هذه السُّنة، كما سجّل انطباعات مختلفة قبل الطواف وأثناءه وبعده: «قادنا المطوّف إلى الحرم لأداء العمرة، وكان الوقت حوالي الساعة الثانية صباحا، وكان الجوّ رطبا والنفس مشوقة رغم الحاجة إلى النّوم والطعام، ومع ذلك فإن شعور المرء بأنه يمشي على الأرض التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم،ونزل فيها الوحي،

وانهزم فيها الكفر، وانتصب فيها مقام إبراهيم، جعل كل تعب يهون، وكل حاجة دنيوية تتضاءل، وكان المطوّف خبيراً بأداء الشعائر فصيح اللسان، ويبدو أنه متمرّس أيضا على الطواف بالوفود الرسمية»(١٧).

وقد لاحظ الكاتب أثناء هذا الطواف مايلحق العربية من أذى: لحنا وتهشيما وتحريفا يرتكبه عرب أيضا، كما لاحظ لأحد زملائه «بعد أداء العمرة ... مدى تعدد ألسنة المسلمين واختلاف أشكالهم وأزيائهم وألوانهم، فأجابني بكلّ تأكدّ وبساطة: ذلك هو المجتمع الإسلامي الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم، فرغم اختلاف عناصره، وتعدّد أصقاعه، فإن أهله يجتمعون حول الكعبة في كتلة متراصة»(١٨).

كما تحدّث الكاتب عن قضاء خمسة أيام في مكة مجاورا الحرم لا يكاد يخرج إلا للضرورة إشباعا لرغبة دينية، كما تحدّث عن ثلاثة أيام قضاها في المدينة سعيدا فيها؛ فوصف غبطته بالفرصة وسروره بتحقيق «أمل عريض». كما عبّر عن ذلك وهو ينزل في مطار المدينة قائلا أيضا: «لم أكد أصدّق أنني أسير على تراب المدينة، وأنظر إلى جبالها ونخيلها وعمرانها عندما كانت السيارة التي أقلّتنا من المطار تقطع الطريق إلى فندق الرحاب الذي وضعنا فيه رحالنا والذي كان مُعَدّاً لإقامتنا، والذي لايفصله عن الحرم النبوي سوى الطريق. وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ملابسنا توجّهنا فورا إلى الحرم فأدّينا حقّ المسجد، وحقّ قبر الرسول عليه وسلمصلى الله عليه وسلم، ولا أستطيع في هذه العجالة أن أصف المشاعر التي غمرتني وأنا أشاهد المسجد من بعيد ثم وأنا داخله من قريب، وكذلك عندما كنت أقف عند الضريح الطاهر»(١٩) ضريح محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وخلال هذه الأيام الثلاثة مضى الكاتب يشبع فضوله في معرفة المساجد والمكتبات ومواقع الغزوات بحسّ المؤرخ، ولكن أيضا بحسّ مسلم متديّن عملي استحوذت على مشاعره ظلال المكان الروحية بتاريخه الحافل إبّان انتشار الرسالة المحمّدية وأثرها في النفوس عبر القرون والأجيال.

وقد بدا تأثر الكاتب واضحا تجاه البقاع المقدسة، وقد ارتفعت درجة التأثر تلك والرجل يقترب من الحرم النبوي حتى بدا في نفسه ميل ما.. إلى أن يقيم: حيث راحة النفس وطمأنينة الروح، وطهر الحياة.

ومهما يكن من شيء، فلئن قلَّتْ رحلة الحجّ الجزائرية المدوّنة في القرن العشرين لمختلف العوامل الخاصة والعامة، فإن ماكتب منها عبّر بوضوح عن أصالة الرابطة الروحية وعمق الشعور الذي يشدّ الإنسان في الجزائر إلى مهبط الوحي، حيث يمكث الشوق والحنين مقيما في النفوس إلى البقاع المقدسة، فبقدر مايبقى الهاجس فريضة دينية ينبغي أن تؤدى، يصاحبها التوق إلى معرفة أرض الوحي الطاهرة، وقد انتشرت منها الرسالة النبوية تشيع الأخوة والعدل والحب بين الناس ، وتمكّن لكلمة الله بين الجميع.

وهكذا بدا للأماكن المقدّسة جلال خاص في نفوس الحجاج الجزائريين كما صورته هذه الرحلات المفعمة حبّا.. وتوقا روحيا، فبرز أثره قويا فيهم، خاصة في الغسيري وسعدالله وهما في مكة والمدينة وغيرهما من الأماكن التاريخية وما حولهما، يستحضران ظروف البعثة المحمدية، وإشعاعها الإنساني، وأثرها الحضاري والأخلاقي والديني في الإنسان، فصفت النفس وسمت الروح إلى آفاق تلك الرسالة، بما توحي به من حبّ وخير وفضيلة وتسامح، وإخلاص العبادة لله وحده بكلّ ماتتطلّبه من طهارة في القلب وفي الجسم واستقامة في السلوك، في محيط سمتهُ العدل والإخاء والإنصاف بين الناس.

الهوامش

١- تحقيق وتقديم: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيرفونتا الشرقية، الجزائر، ١٩٠٨م. ولُقّب بالورثيلاني وقيل الورتيلاني.

٢- نشرها في تسع عشرة حلقة بجريدة البصائر الأسبوعية، السلسلة الثانية، ابتداء من العدد: ٢٥٠، في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ - ١١ كانون الأول/ ديسمبر١٩٥٣م، وانتهاء بالعدد: ٢٧٦، في ٢٤ شوال ١٣٧٣هـ - ٢٥حزيران/ يونيو ١٩٥٤م، ولما تنشر بعد في كتاب رغم أهميتها.

٣- المعز لدين الله الفاطمي معدّ بن إسماعيل: ٣١٩ - ٣٦٥ هـ ٩٣١ -٩٧٥م، من أشهر الخلفاء الفاطميين، ولد في المهدية بتونس، وتولّى الحكم في المغرب العربي (٣٤١ هـ)، واشتهر بمدائح ابن هانئ له. وبعد فتح القائد الفاطمي جوهر الصقلي مصر ٣٥٨هـ، ولّى المعز على المغرب العربي بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة ٣٦٢ هـ، لينتقل إلى مصر حيث كان تأسيس القاهرة على يد جوهر سنة ٣٥٩هـ بعد فتح مصر بسنة.

٤- البصائر، عدد :٢٥٧، في ١ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ - ٥ شباط/ فبراير ١٩٥٤م.

٥- البصائر، عدد:٢٥٨، في٨ جمادى الآخرة ١٣٧٣ هـ - ١٢ شباط/ فبراير ١٩٥٤م.

٦- البصائر، عدد : ٢٦٠، في٢٢جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ- ٢٦شباط/ فبراير ١٩٥٤م.

٧- البصائر، عدد : ٢٦١، في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ - ٥ آزار/ مارس ١٩٥٤م.

٨- البصائر، عدد :٢٦٢، في ٦رجب ١٣٧٣هـ ١٢ آذار مارس ١٩٥٤م.

٩- البصائر، عدد :٢٦٣، في١٣رجب ١٣٧٣ هـ - ١٩ آزار/مارس ١٩٥٤م.

١٠- البصائر، عدد : ٢٧١، في١٢ رمضان ١٣٧٣ هـ - ١٥أيار/ مايو ١٩٥٤م.

١١- «حجّ وحاجة» مثل شعبي دارج ، هو ترجمة للمثل المعروف «ضرب عصفورين بحجر واحد».

١٢- حياة كفاح، أحمد توفيق المدني، ج ٣، ص٣٠٩، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢م.

١٣- محمد بن عبدالله شمس الدين اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، ولد في طنجة بالمغرب الأقصى، في ٢٧ رجب ٧٠٣ هـ -٢٤ شباط/ فبراير ١٣٠٤م. قام بعدة رحلات جاب فيها معظم البلدان المعروفة يومئذ، وتحدث عنها في كتابه المعروف باسم شهرته «رحلة ابن بطوطة» أو «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». توفي سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م .

١٤- الجنيد بن محمد، أبوالقاسم الخزّاز، صوفي عاش في القرن الثالث الهجري ببغداد، توفي سنة ٢٩٧ هـ - ٩١٠م .

١٥- حياة كفاح، ج٣، ص٤١٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢م .

١٦- انظر كتاب: تجارب في الأدب والرحلة، ص٢٣٥، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣م.

١٧- المصدر نفسه، ص٢٥١ .

١٨- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

١٩- المصدر نفسه، ص٢٤٩.

الاتصال في مختلف النسبة لمغلطاي بن قليج

٣



حلقات يكتبها :
حمد الجاسر

مخطوطة كتاب «الاتصال»

وصف ابن حجر فيما تقدم من كلامه ذيل مغلطاي بأنه (أجزاء)، ولم أطلع منه إلاَّ على قسم لعله أحد أجزائه، وهو موجود في (خزانة الرباط) من كتب الشيخ عبدالحي الكتاني، وضمت إلى الخزانة، وقد أتحفني بمصورتها العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، وتمتاز هذه المخطوطة بأنها مسودة المؤلف بخطه، فقد جاء في آخرها في (باب صبيح وصفيح) مانصه: (صفيح الدوسي خال أبي هريرة قاتل بجير بن العوام بأبي أُزَيْهر، وبسببه كان أبو هريرة يتنقل في الأحياء ويغير اسمه، ذكره الكلبي، ومِنْ ضَبْطِ ابن راهب نَقَلْتُه، وصفيح الرِّياحي شاعر هاجى جريراً، فغلب جرير عليه، وله يقول جرير:

فلولا أن يسوء بني رِياح
لقلّعت الصفائح عن صفيح

ذكره المرزباني في معجمه، وأشار إليه في «المستنير» من تأليفه.

آخر الجزء الأول من كتاب «الاتصال» على يد مؤلفه مغلطاي -غفر الله له ولوالديه وللمسلمين- في النصف من شعبان المبارك سنة سبع وثلاثين وسبع مئة، وهذه هي المسودة، والحمد لله وصلواته على خيرته من جميع خلقه أجمعين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين، يتلوه في الثاني الذي يليه باب: (صتم وصنم) والله أعلم وهو حسبي ونعم الوكيل).

أما أول هذه النسخة فيحوي مقدمة الكتاب في صفحة واحدة، لم أستطع قراءتها لضعف بصري، ولعدم وضوح تصويرها، يشير فيها إلى أنه نال من الأسماء الغريبة غريبها، وانثالت عليه من الأخبار البديعة أبكارها وعونها، فأعرض عن بعضها إيثاراً للإيجاز، ودفع في أكثرها خشية الإطالة والإملال، قال: (فلما حويت خطيرها، وأحرزت جليلها، وعربت دقيقها، وعقلت شاردها، وقيدت نادرها، وأبرزت غامضها، ووعيت واضحها، وسميته بكتاب «الاتصال لكتاب ابن سليم وابن نقطة والصـ(ـابوني) والإكمال». ولعل الناظر فيه يعرف في بابه زيادة لم تبلغني، فيسارع إلى نسبتي إلى التقصير، فلينظر إلى ذالك الباب بعينه، هل يعرف باقيه، فإن لم يعرفه فليعلم أن ماعرفه نقطة في بحر، وليعترف لنا بحسن الاجتهاد الذي نرى أنه يعجز عنه كل من .... ويوفق لمثل ذالك توفيقنا). ثم سطور لم تتضح، آخرها (.. حسبي ونعم الوكيل) مما يدل على انتهاء المقدمة.

وفي الصفحة التي تليها كلام يتعلق بقوم شعيب نصه: (مع قوم شعيب عليه السلام، فقالت أخت كلمون ترثيه:

كلمون هدَّ ركني

هُلكُهُ وسط المحلَّه

وهذه الصفحة ليست متصلة بالتي قبلها، فأول الكلام فيها متعلق بكلام سابق، وتلك الصفحة قد انتهى الكلام فيها بانتهاء مقدمة المؤلف، فأول الكتاب ناقص، مما يفهم منه وقوع نقص هنا، وقد لايتجاوز صفحة أو صفحتين، إذ هذه الصفحة الثانية تبتدئ بالكلام على مادة (أبجد وأبجر) أي الباء مع الجيم، وأول الكلام في هذه المادة مما سقط، وقد يكون منه كلمات أخرى مما تحدث عنه المؤلف قبلها، ويحوي هذا الجزء من الحروف من الهمزة إلى أثناء حرف الصاد، وهي تشغل منه:

١- حرف الألف (من ص ١ إلى ص ٢٨).

٢- حرف الباء (من ص ٢٩ إلى ٦٧).

٣- حرف التاء (من ص ٦٨ إلى ص ٧٧).

٤- حرف الثاء (من ص ٧٧ إلى ص ٨٢).

٥- حرف الجيم (من ص ٨٢ إلى ص ١٧٢).

٦- حرف الحاء (من ص ١٧٢ إلى ص ٢٢٨).

٧- حرف الخاء (من ص ٢٢٨ إلى ص ٢٥٧).

٨- حرف الدال (من ص ٢٥٧ إلى ص ٢٨٢).

٩- حرف الذال (من ص ٢٨٢ إلى ص ٢٨٩).

١٠- حرف الراء (من ص ٢٨٩ إلى ص ٣١٣).

١١- حرف الزاي (من ص ٣١٣ إلى ص ٣٢٣).

١٢- حرف السين (من ص ٣٢٤ إلى ص ٣٧٥).

١٣- حرف الشين (من ص ٣٧٥ إلى ص ٣٩٥).

١٤- حرف الصاد: في النسخة من أبوابها: (باب صباح وصبّاح) و(باب صبرة وضَيْبَرة) و(باب صبر وصقر) و(باب صبيح وصفيح)، وهذه الأبواب في صفحتين، وبهما تنتهي النسخة بنهاية الصفحة (٣٩٧).

طريقة المؤلف

١ - يورد في أول كل باب الكلمات المتشابهة كتابة، ثم يُفَصِّل الكلام فيها كأن يقول(١): (باب آبي وأُبي) أما (آبي)، بعد الهمزة ألف وباء موحدة مكسورة- فهو آبي الخسف، واسمه خويلد بن سعد بن عبد العُزّى سُمي بذلك لقوله:

ونحن أباةُ الخسف يوم كُلَيَّة

ونحن أباة الخسف كُلَّ مكان

وفيه يقول يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام:

أبٌ لي آبي الخسفِ قد تعلمونه

وفارس معروف رئيس الكتائب(٢)

فارس معروف: الزبير بن العوام، ومعروف اسم فرسه ذكر ذلك الكلبي.

وخالد بن علقمة بن الحويرث بن عبدالله بن آبي اللحم، وابنته بنت خالد بن علقمة، تزوجها عبدالله بن محمد بن الحنفية، أبو هاشم، فولدت له هاشمًا، به كان يكنى ومحمد الأصغر، لابقية لهما ذكره ابن سعد.

وأما أُبيٌّ فزعم ابن ماكولا أنه كثير، أورد ذلك ابن سليم وزعم أنهم ستة، وقد بينا ذلك في كتاب أفردناه لما وهم فيه هو أو غيره ممن دللنا أن قول الأمير صواب، والله أعلم).

٢ - وبعد إيراد الكلمات المتشابهة في الصورة أو المتقاربة في التشابه وشرحها يورد في آخر كل حرف بحثًا خاصًا بعنوان «مشتبه النسبة من هذا الحرف».

ففي آخر حرف الباء بعد أن قال: باب بيزار وبندار: الأول بزاي بعد الياء المثناة من أسفل وزاهر البيزار، إلى آخر ماذكر، قال: (مشتبه النسبة من هذا الحرف باب الباجي والناجي والتاجي)، ثم شرح هذه الأسماء، واستمر في سرد المنسوبين ممن تبتدئ نسبتهم بحرف الباء، ثم بما يشبهها من الحروف، وعلى هذا المنوال، سار حتى نهاية الجزء.

وصف المخطوطة

تقع المخطوطة في (٣٩٧) من الصفحات، في الصفحة (٢٣) سطرًا، والخط بالقلم الفارسي الدقيق، وهو واضح لمن اعتاد قراءته، وأدرك طريقة الكاتب في رسم بعض الكلمات، والمداخلة بين بعض الحروف، ولكون هذه النسخة هي مسودة المؤلف، فقد أضاف في هوامشها، وفي أوراق ملحقة بها إضافات كثيرة لم يتضح بعضها في التصوير، وخاصة الكلام الذي يقع على أطراف الورق، حيث تآكل بعضه لقدمه.

ويلاحظ أن الترتيب في بعض الأوراق المضافة وغيرها وُضع في غير محله، وهذا من الممكن تداركه بإلحاق كل مادة في موضعها.

الاتصال في مختلف النسبة

لمغلطاي بن قليج

٣

ولعل هذا الجزء من الكتاب هو أحد أجزائه التي ذكرها الحافظ ابن حجر.

ولم أُعْنَ بالبحث عن نسخة أخرى، ولاأستبعد العثور على ذلك، لاسيما وأن الحافظ ابن حجر وبعده السخاوي اطلعا على الكتاب، مما يدل على شهرته، وأن صاحب «كشف الظنون» مصطفى بن عبدالله (١٠١٧/١٠٦٧هـ) وَصَفَ الكتاب وَصْفَ عارف به، مما يدل على أنه اطلع عليه. أما هذه المخطوطة فقد لايقدر على فك مغلقها إلاّ من كان من ذوي العناية بهذا الفن، وممن مرنوا على قراءة خطوط العلماء القديمة، الذين لايهتمون بإجادة الكتابة اهتمامًا يصرفهم إلى إجادة الصورة أكثر من اهتمامهم بايضاح ماتدل عليه.

ومن الممكن لمن يتصدى لتحقيق هذا الكتاب أن يكتفي بقسم منه، ففيه علم غزير، مع رجوع مؤلفه إلى مصادر كثيرة في الأنساب وفي الأدب وفي الشعر، وفي غيرها من المؤلفات التي لايزال أكثرها مجهولاً.

وفي النصوص التي نقلها المؤلف من تلك المصادر مايفيد المهتمين بدراسة أصول كتب التراث، ومعرفة ماكان معروفًا منها إلى عهد تأليفه في (القرن الثامن الهجري). وهو مع ذلك يصحح كثيرًا من الأسماء التي وردت في بعض ماعرف من تلك الكتب في هذا العهد محرفة أو مصحفة عند نشرها، لأن المؤلف يرجع إلى أصول بخطوط مشاهير متقدمي العلماء، ويعنى كثيرًا بهذا الجانب من الضبط.

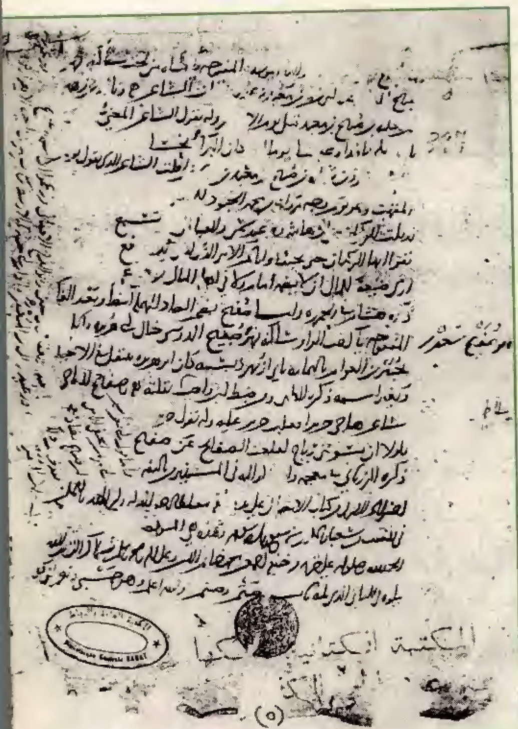
وبالإجمال فهذا الكتاب، متى هيأ الله العثور على بقية أجزائه، يعد من المصادر المهمة في موضوعه.

أما رأي بعض متقدمي العلماء في مغلطاي ومؤلفه هذا، فكما سبقت الإشارة إلى أن مايقع بين المتعاصرين، وخاصة مختلفي المذهب، قد يكون له أثر في ذالك، يضاف إلى هذا أن مغلطاي في كتابه توسع في المباحث الأدبية والتاريخية توسعًا لايختص بعلم الحديث الذي كان نشوء هذا الفن في أول أمره الغاية منه خدمته، فلذالك نظر إليه ابن حجر وهو من أئمة المحدثين نظرته تلك. والله الموفق.

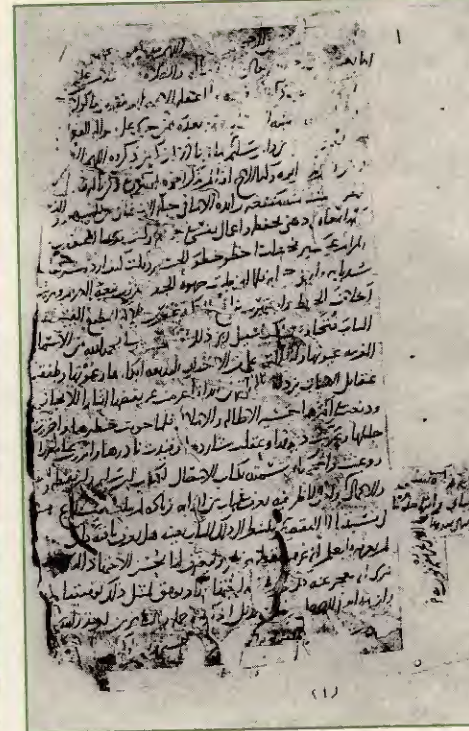
الحواشي:

١ – الاتصال في مختلف النسبة، ص ٣.

٢ – من أبيات أربعة أوردها الزبير بن بكار في كتاب «جمهرة نسب قريش»، ص ٢٨٧.







الصفحات الأولى والـ (١٣٨) والأخيرة من المخطوطة المحفوظة في المكتبة العامة في الرباط برقم (٣٦١٥)



قصة قصيدة

سلام الأعداء

د. محمود جبر الربداوي

قال النابغة الذبياني يعرّض بأعدائه الذين تناصروا عليه، وأخرجوه من أرضه، ونفوه إلى قبيلة عُذرة:

ألا أبلغـــا ذبيـــان عني رســـالة ... فـقـد أصـبحتْ عن منهج الحق جــائره

***

وإني لألقى من ذوي الضــغن منهم ... ومـاأصبحت تشكو من الوجد ساهره(١)

كـمـا لَقِيَتْ ذاتُ الصفـا من حليـفهـا ... ومـاانفكّت الأمثـال في الناس سـائره(٢)

فـقـالـت له: أدعـوك للعـقـل وافـيًـا ... ولاتغـشَـيَنّي منك بـالظلم بـادره(٣)

فـــواثقـــهـا بـالله حين تـراضـيـا ... فكانت تَدِيه المال غِـبًّــا وظاهره(٤)

فلمـــا توفّى العـــقل إلا أقلّه ... وجـــارت به نفسٌ عن الخـــير جـــائره

تذكـــر أنّى يجــعل الله جُنّةً ... فـيـصـبح ذا مـــالٍ ويقــتـل واتره(٥)

***

فلمـــا رأى أنْ ثَمّـــر اللهُ مـــاله ... وأثّل مـــوجــودًا، وســدّ مـفـــاقـره(٦)

أكب على فــأسٍ يحــدّ غُــرابهـــا ... مـــذكّـــرةً من المعـــاول باتره(٧)

فـقـام لهـا من فــوق جُحْـرٍ مُشـيَّـدٍ ... ليــقــتـلهــا أو تخطئ الكفُّ بادره(٩)

فلمـــا وقـــاها الله ضــربة فــأســه ... وللبِـــرّ عينٌ لاتُغـــمِّضُ ناظره(٩)

تنـدّم لمـا فـــاته الـذّحل عنـدها ... وكـانت له إذ خاس بالعـهـد قـاهره(١٠)

***

فـــقـــال: تعـــاليْ نجـعـل الله بيننا ... على مـــالنا أو تنجـــزي لي آخـــره

فـــقـــالـت: يمين الله أفـــعـل، إنني ... رأيتك مـــسـحـورًا، يمينك فـاجـره(١١)

أبى لي قـــبـــرٌ لايزال مـــقـــابلي ... وضـربـة فـأس فـوق رأسي فـاقـره(١٢)

كثيرون هم الذين يعرفون أن النابغة اسم يطلق على أكثر من شاعر، ويعرفون أن النابغة الذبياني جاهلي، تنسب إليه إحدى القصائد الطويلة المسماة «المعلقات»، ويعرفون أن النابغة الذبياني مُبتدع فنّ الاعتذار في الشعر العربي، ويعرفون -في جملة مايعرفون- أنه تردد بين بلاط المناذرة وبلاط الغساسنة، ونال الحظوة في البلاطين؛ لجودة شعره، وحُسن بيانه، وقد أطعمه المناذرة من جوع، وأمنّه الغساسنة من خوف. أطعمه المناذرة حتى بلغ به الأمر أنه صار يأكل في صحافٍ من ذهب، وتتردد إلى خيمته (عصافيرهم) وهي نوقهم النجيبة التي حبوه إياها.

ويحفظ المتخصصون في الأدب العربي أنه كانت تُنصب له قبة من أدَم (جلد)، في عكاظ، كان يجلس في صدرها ليحكم بين الشعراء، ويفاضل بين قصائدهم، فإذا حكم لأحدهم بالتفوق عامه ذاك، خرج الفائز وقومه فأقبلوا على الكعبة - وكانت في الجاهلية مجتمع الناس - يذيعون القصيدة الفائزة أو يكتبونها بماء الذهب، ويعلقونها على أستار الكعبة - كما تذكر بعض الروايات المتأخرة -.

ويحفظ المتخصصون في الأدب والنقد أيضًا شكلاً من أشكال الخصومة والحوار النقدي الساخن الذي دار بينه وبين الشاعر حسان بن ثابت، في فترة ماقبل الإسلام، حول بيتي حسان:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرّ يلمعْن في الضحى ... وأسيافنا يقطُرْن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابْنَيْ مُحرِّقٍ ... فأكرم بنا خالاً وأكرِم بنا أبنما

ويحفظ الرواة خبرًا آخر مؤداه أن هذا الناقد الجاهلي الكبير وجد من ينقده ويبين أخطاءه، فكشفوا عما يسمى في المصطلح النقدي (الإقواء) الذي تكرر في قصيدته الدالية.

كل هذه المعلومات التي أذكرها معلومات مستفيضة بين الناس ليس فيها جديد. صحيح أن الناس يتفاوتون في العلم بها، ولكنها من

مكرور القول ومُعاده، ليس فيها جديد، يشد القارئ، أو يجذب المتأمل.

غير أن الجديد الذي أعرفه عن النابغة الذبياني، وأريد أن يعرفه الناس هو أنّ النابغة رائد فن القصة الشعرية، هذا الفن الذي يجازف نقادنا المعاصرون فيجعلون ولادته على أيدي شعراء القرن العشرين أمثال شوقي وعزيز أباظة وغيرهما، ويوغلون في المجازفة فيعزون معرفة شعراء العربية لفن القصة الشعرية ومالنبثق عنه من فن الشعر المسرحي إلى احتكاك الأدباء العرب بأدباء الغرب، واقتباسهم هذا الفن منهم، ويتجاهلون قُدْمَة الشعراء العرب أمثال الحطيئة في قصيدته:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرْملِ
ببيداءَ لم يَعرِفْ بها ساكنٌ رسما

والفرزدق في (دعوته للذئب) في قصيدته:

وأطلسَ عسّالٍ وماكان صاحبًا
دعوت بناري مَوْهِنًا فأتاني

والنابغة الذبياني في غير ما قصيدة.

ومادمنا في معرض الحديث عن النابغة الذبياني وعن القصة الشعرية فحريٌّ بنا أن نؤكد ريادة هذا الشاعر في مضمار القصة الشعرية؛ لأنه أورد الكثير من القصص في سياق شعره الاعتذاري والمدحي وحتى الهجائي. ولو اطلع بعض المعجبين بالأدب الغربي وبريق مصطلحاته على شعر النابغة لوجد فيه رائد (الرمز) أو رائد (القصة الرمزية) في الأدب العربي، ويمكن أن يجازف أكثر من ذلك فيأخذ من المصطلحات الكثيرة التي تدفقت علينا من الأدب الغربي فيقول عن النابغة: هو رائد من رُوّاد (توظيف الأسطورة)، ويجد المرء مصداق ذلك في حديثه عن الأساطير مثل «أسطورة زرقاء اليمامة» و«أسطورة بناء تدمر»، والقصص كقصة «سليمان الحكيم وتطويع الجن له»، والتي سادت في العقلية الجمعية العربية منذ القدم، وماتزال إلى يوم الناس هذا.

والحديث عن (توظيف الأسطورة) في الشعر، وفي الشعر الجاهلي خاصة، بشكله الفطري، لي معه وقفه خاصة طويلة ليس هذا مقامها، وأتحدث هنا عن قصيدة النابغة التي أثبتناها في مطلع حديثنا هذا، وكيف أن النابغة طوّع هذه القصة للشعر، أو إن شئت فقل: كيف طوّع الشعر ليستوعب هذه القصة. وهي، فضلاً عن أنها قصة، هي قصة ذات مغزى، تصلح -لولا طولها- أن تكون مثلاً يُضرب، وقد كانت فعلاً مثلاً في الحياة الجاهلية، ولو سمع بها نقاد هذا القرن لأدرجوها تحتَ مصطلحهم (توظيف المثل في قصة الشعر). فما هذه القصة؟ ومامغزاها؟

إنها قصة «ذات الصفا»، وهي القصة التي أوردها النابغة في قصيدته الرائية المشبعة بالهاء الساكنة، التي وجّهها إلى أعدائه الذين حسدوه على شرفه وعفته -كما تقول المناسبة- وتناصروا عليه حتى نفوه إلى قبيلة عذرة.

وهي قصة ثلاثية الأبطال، أبطالها: رجلان وأفعى، زمانها: العصر الجاهلي، ومكانها: واد في الجزيرة العربية. والرجلان راعيا إبل، أجدبت أرض بلادهما، فطلبا المرعى في بلاد أخرى، فقادتهما المقادير إلى واد أغراهما بخصبه، فنزلا فيه، وساما إبلهما، ثم تبين لهما أن هذا الوادي تملكه أفعى تحميه، وتذود عن حياضه، (والأفعى في ذهن النابغة رمز لعدوّ الإنسان). فلما علمت بنزول الأخوين في الوادي واستباحة حماه تقدمت إليهما، وحذرتهما من مغبة عملهما، ولكن عنفوان الشباب حملهما على التحدّي، فتحدياها، وأساما إبلهما في واديها عنوة واقتدارًا. فلما رأت الحية هذا التحدي قررت الانتقام، فأمكنتها الفرصة عندما وجدت أحد الأخوين نائمًا فلدغته لدغة ذهبت بحياته، فأغاظ ذلك أخاه وأثار حقده، فقرر الانتقام منها، وبات كل منهما يتوعد صاحبه، والتقيا ذات يوم، فقالت له الأفعى: لقد قتلتُ وندمتُ، فهل لك في الصلح؟ وسأدعك في هذا الوادي آمنًا مطمئنًا، وأعطيك في كل يومين دينارًا ذهبيًا دية لأخيك؟ فصالحها، وتحالفا، وأخذت تقدم له يومًا بعد يوم دينارًا ذهبيا، وفي ذات مساء عنّ له ذكرُ أخيه، فقال: ومافائدة الدنانير؟ والله لأقتلنّ قاتلة أخي، وأظفر بالدنانير المخبوءة كلها. فقام إلى فأسه يحدّدها، وترصّدها في موعد خروجها من الجحر، فلما شرعت في الخروج - والأفعى ماكرة، تُخرج ذنبها قبل رأسها - هوى عليها الرجل بفأسه، فقطع ذنبها، فانسابت راجعةً إلى جحرها ولم تمت. ثم إنها مكثت مدة لاتخرج، ولاتقدم الدنانير كالعادة، وحين خرجت التقيا فعاتبها على انقطاعها عن تأدية الدية، فأعلمته بتحللها من العهد الذي تعاهدا عليه، فما كان منه إلا أن ترصدها ثانية، ولما أخرجت رأسها أهوى بفأسه عليه فشجها دون أن يُميتها، وعاد من فعلته مخفقًا، فلما التقاها بعد حين عرض عليها السلام والمصالحة فرفضت وقالت: ليس بيننا إلا العداوة، فخذ حذرك فإني قاتلتك! فخاف شرها، فقال لها: هل إلى صلح من سبيل؟! فقالت: هذا مستحيل مادمت أرى شجة غدر في رأسي، ومادمت أنت ترى قبر أخيك. فصاغها النابغة صياغة شعرية انتهى بها إلى مسك ختام القصيدة حيث قال:

أبى ليَ قبرٌ لايزال مقابلي
وضربة فأس فوق رأسي فاقره

معاني الكلمات:

(١) الضِّغن: الحقد، ساهرة: عين ساهرة من الهم. (٢) ذات الصفاء: حية. (٣) العقل: الدية، بادرة: اسم فاعل من بدر إذا عجّل فعلاً. (٤) تديه: تدفع له الدية عن أخيه، غبًا وظاهرة: تعطيه يومًا وتحجب عنه العطاء يومًا آخر. (٥) أنى: كيف؟، جُنّة: وقاية، واترة: جانية. (٦) ثمّر ماله: كثّره، أثّل: أثبت مالاً، وسد مفاقره: سدّ جهات الفقر. (٧) أكبّ: أقبل ولزم، يحدّ غُرابها: يجعل طرفها الرفيع حادًا سريع القطع، مذكَّرة: مصنوعة من حديد صلب. (٨) أو: هنا بمعنى إلا أن، والمعنى أنه يعجل إلى ضرب الحية خيفة أن تخطئ كفه فتفلت الحية من الضّربة. (٩) للبرّ عين: أي إن بر الحية في يمينها كان سببًا في نجاتها. (١٠) الذحل: الثأر، وخاس، نقض وخان. (١١) مسحورًا: مخبول العقل. (١٢) يقال: فقرته الداهية فهي فاقرة: إذا نزلت به شديدة.

ثقافتنا بين الأصالة والتغريب

د. عبد القادر طاش

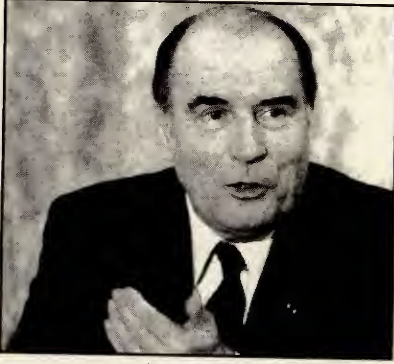
تواجه الباحث في قضية الثقافة إشكالات عديدة تتمثل أولاها في إشكالية التعريف، فماالثقافة؟ وماذا نعني بها عندما ننسبها إلى أنفسنا؟ وماالأصالة وكيف تتحقق؟ ثم ماالذي نقصده بـ «التغريب» وكيف يمكننا معرفته ودراسته؟ إننا لانرغب هنا التوقف طويلاً أمام هذه الأسئلة، كما لانرى مسوغًا للدخول في متاهات التعريفات الفلسفية للمصطلحات المذكورة. لذلك سنكتفي بتعريفات مبسطة حتى لانقع في مصيدة الجدل العقيم.

يفرق بعض الباحثين بين «الثقافة» كلفظ مجرد و«الثقافة» عندما تنسب إلى الأمة فيقال: ثقافة الأمة، أو ثقافتنا. فالثقافة كلفظ مفرد تقترب من كلمة «الأدب»؛ إذ يراد بها «الأخذ من كل علم بطرف». ويؤيد هذا المعنى ماورد في كثير من معاجم اللغة العربية في شرح مادة «ثقف»، وقد أنشأ العرب علمًا يلبي حاجة من يريد التثقف فأسموه «علم الأدب».

أما الثقافة عند إضافتها للأمة فالمراد بها «أسلوب الحياة السائد في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات»، وهذا التعريف يجعل الثقافة السائدة في أمة من الأمم هوية مميزة لها. وبهذا يمكننا أن نثبت هنا تعريف «الهوية الثقافية» ـ كما ورد في كتاب (التنمية الثقافية: تجارب إقليمية) للفيف من خبراء اليونسكو ـ حيث يرى ذلك التعريف أن الهوية الثقافية لأي أمة هي تلك العناصر التي تكوّن «خصائص وتصرفات مجموعة بشرية متجانسة نسبيًا تنعكس على طرائق العيش، وسلّم القيم، وأساليب الإنتاج والعلاقات الاجتماعية، وأخيراً الإنتاج الثقافي والفني». وتتمثل أصالة الثقافة في مكانتها الأساسية التي ترتكز عليها وتعود إليها وتستقي منها في تفاعلها مع نتاج ثقافات أخرى.

ولاينبغي أن ينظر إلى أصالة الثقافة في بعدها التراثي فحسب، بل في أبعادها المتنوعة من تراثية وعصرية. فالأصالة ليست صفة جامدة لثقافة الأمة؛ بل هي صفة نامية ومتجددة؛ ولذلك لانجد تطابقًا تامًا في ثقافة الأمة في عصرين مختلفين، بينما نجد بروزًا لخصائص وسمات أساسية ينتظمها سلك واحد عبر عصور متعددة، وإن افتقدت التشابه في المظاهر والطرائق.

ويبقى أن نقف قليلاً أمام مصطلح



فرانسوا ميتران

«التغريب»، فهو يثير جملة من الأسئلة، ونحن نقصد بالتغريب في هذه السياق محاولات إحلال ثقافة الحضارة الغربية محل الثقافات الذاتية للأمم والشعوب. ونتساءل هنا:

ـ لماذا خصصنا ثقافة التغريب بهذه المقابلة بينها وبين الأصالة؟

ـ وهل يمكن حقًا أن تحل ثقافة أمة محل ثقافة أمة أخرى؟

ـ وهل محاولات إحلال التغريب بديلاً للثقافات الأخرى تندرج ضمن مفهوم الغزو الفكري أم أنها غير ذلك؟

ـ وهل أصالة ثقافتنا تقتضي رفض التغريب جملة وتفصيلاً؟

ـ وماالذي يمكن أن نفعله في مواجهة التغريب الثقافي ؟

ثقافة التغريب

إن تخصيص «ثقافة التغريب» كمقابل لـ «ثقافة الأصالة» تخصيص مقصود، فثقافة التغريب تعدّ اليوم الثقافة الأكثر تحديًا لثقافات كثير من الأمم والشعوب؛ بل إنه ليس من المبالغة في شيء أن نقول: إنها الثقافة «المهيمنة». وليس هنا مجال الحديث عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى تلك الهيمنة. إن ثقافة التغريب هي ثقافة متحدية لثقافة الأصالة. ومن هنا كان تخصيصنا بالمقابلة أمرًا سائغًا: منطقًا وواقعًا.

ومن جهة أخرى تستند ثقافة التغريب إلى مزاعم باطلة يأتي على رأسها أنها - كما يقول المروّجون لها والمنافحون عنها - ثقافة «إنسانية» لاتختص بأقوام دون آخرين، كما أنها ثقافة «عالمية» أو «كوكبية» لاتحدها حدود جغرافية ولا تاريخية. وبما أنها ثقافة إنسانية وعالمية فهي ثقافة صالحة للناس جميعًا، ولابد لها أن تسود العالم، بل لابد لها أن «تنقذ» العالم وتنقله من وهدة التخلف إلى فضاء التقدم. ومن هذه المزاعم تنبع الدعوات المحمومة - من الغربيين والمستغربين على حد سواء - إلى ضرورة تعميم الديموقراطية الغربية ومفاهيمها الإنسانية، وإلى «عولمة» - نسبة إلى العالم - أسلوب الحياة في الغرب بوصفه أسلوبًا صالحًا للناس أجمعين.

وإذا كان من الصعوبة البالغة الجزم بإمكان حلول ثقافة أمة مكان ثقافة أمة أخرى بالكلية، فإنّ أحدًا لايستطيع إنكار التأثير الذي يصل في كثير من الأحيان إلى حدّ بليغ. بل إنّ الواقع المشاهد ليدلّ على أن هناك أممًا وشعوبًا انمحى كثير من معالم ثقافتها الأصيلة وغدت ذات ثقافة «مسخ»؛ فلا هي أبقت ثقافتها الذاتية ولا هي تشربت تمامًا الثقافة الغازية وهضمتها.

وربما ساغ للواحد منا - في هذه الأيام على نحو خاص - أن يطلق صيحة تنبيه وتحذير في ضوء مايشهده عصرنا من تطور هائل في وسائل الاتصال التي باتت تشكّل عقول الناس وتؤثر فيهم على نحو لم تعهده البشرية في تاريخها القريب والبعيد.

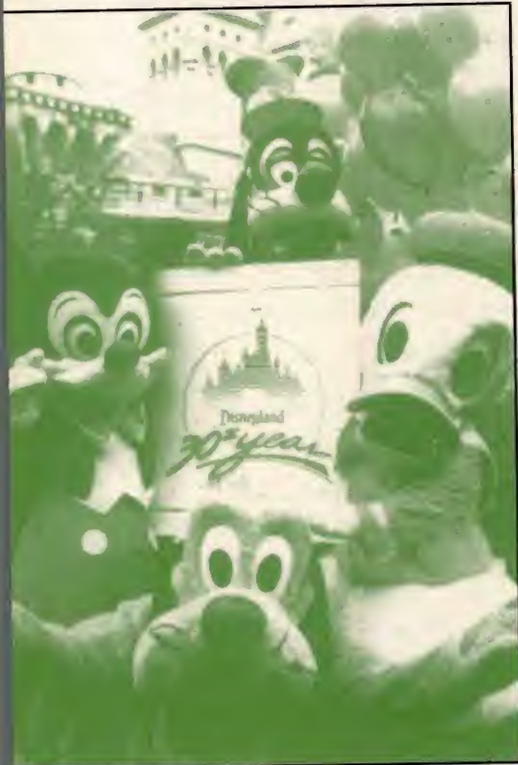
ولنضرب مثلاً واحدًا يوضح لنا مدى مايمكن أن تحدثه وسائل الاتصال الحديثة من آثار بليغة في ثقافات الأمم. إن وسائل الاتصال هي بمثابة الأذرعة الفعالة لما يسميها «توماس ماك فيل» - أحد خبراء الإعلام الغربيين - بـ «الإمبريالية الإلكترونية» ويعرف «ماك فيل» هذه الإمبريالية بقوله: «إنها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الأجنبية، ومعها المهندسين والفنيين، ومايتعلق بها من بروتوكولات ومعلومات. وذلك بخلق الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية والتوقعات التي يمكن أن تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية إلى درجات مختلفة. فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية إلى الأقمار الصناعية، ومن الكمبيوتر إلى الليزر، وبجانبها المنتجات الأكثر تقليدية مثل البرامج الإذاعية والمسرح والأشرطة السينمائية وخدمات البرق وعروض الإذاعة المرئية.»

إن «ماك فيل» قال هذا الكلام قبل أكثر من خمسة عشر عامًا، فماذا سيقول الآن، وقد استحكمت عرى «الإمبريالية الإلكترونية»، وبلغت من القوة والتحكم حدًا لم يكن يتصوره حتى أكثر الناس خيالاً قبل عقود من الزمان؟! إنّ التخوف من حلول قيم بديلة وتبلور رؤى مغايرة يمكن أن تؤثر سلبًا على الثقافة الذاتية لم يعد تخوفًا مستبعدًا؛ بل هو تخوف له مايسوّغه. لذا فإنه لابد من الالتفات إليه بجدية وبحثه بواقعية قبل فوات الأوان.

غزو ثقافي أم لا؟

وفي الإجابة عن السؤال عما إذا كانت محاولات التغريب الثقافي تعد غزوًا فكريا أم لا، أقول: إن محاولات إحلال ثقافة التغريب محل الثقافات الذاتية للأمم لايمكن أن تكون إلا غزوًا ثقافيًا. فالغزو عمل مقصود يهدف إلى هذا الإحلال، وإن تَستَّر ذلك الغزوُ بدعاوى عريضة مثل «حرية» الثقافة و«إنسانية» القيم، فمن حقنا أن نتساءل: ماالثقافة التي يراد أن تتاح لها الحرية؟ وماالقيم التي تتصف بالإنسانية؟!

وحديث الغزو الثقافي ليس حديث خرافة، والجدل حوله ليس مقتصرًا علينا. وقد ثار جدل صاخب في فرنسا حول الغزو الثقافي الأمريكي للمجتمع الفرنسي، وقاد حملة مناهضة الغزو الأمريكي قادة فرنسا بمن فيهم رئيس الجمهورية «ميتران»؛ الذي رفض قبل مدة دعوة إدارة «يوروديزني» - وهي مدينة الألعاب الأمريكية في باريس - لزيارة المدينة، وتناول الشاي مع ميكي ماوس - أحد أبرز الرموز الأمريكية في مدينة الألعاب - بمناسبة افتتاح المدينة، وأعلن «ميتران» في جامعة «غدانسك» في بولندا قائلاً: «إنها هوية أممنا، وهو حق كل شعب في ثقافته وفي حرية



مدينة ديزني لاند

ثقافتنا
بين الأصالة والتغريب

الابتكار واختيار الصور». وأضاف: «إن أمة تتخلى عن وسائل التعبير عن نفسها تصبح أمة مستعبَدة». ولذلك سعى الفرنسيون في قمة الدول الفرانكوفونية ـ التي عقدت قبل مدة ـ إلى استصدار توصية جماعية تنص على استثناء المنتجات الثقافية من اتفاقية «الجات» التجارية وذلك بمعاملتها معاملة خاصة في التبادلات التجارية العالمية.

وحتى ندرك أهمية المقاومة الفرنسية ـ والأوربية بعامة ـ للغزو الثقافي الأمريكي نذكر أن الأفلام الأمريكية السينمائية ـ مثلاً ـ تسيطر على ٩٠٪ من أذواق المتفرجين في ألمانيا، وعلى ٨٧٪ في بلجيكا، وعلى ٨٢٪ في إيطاليا. كما أن ثلثي البرامج في التلفازيات الأوربية هي برامج أمريكية. فإذا كانت فرنسا ـ بسطوتها الفكرية ونفوذها السياسي والاقتصادي ـ تشكو من الغزو الثقافي؛ فما بالنا بالأمم والشعوب الأخرى المستضعفة فكريًا والفاقدة للنفوذ السياسي والاقتصادي؟!

وإذا كان الغزو حقيقة لايمكن إنكارها، فإن مايمكن تسميته بـ «الاستلاب الثقافي» هو البيئة الصالحة التي يفرّخ فيها الغزو الفكري وينفث سمومه وآثاره الخطيرة.

والاستلاب الثقافي حالة من القابلية النفسية والواقعية للذوبان في ثقافات الآخرين أو الارتماء في أحضانها.

هل نرفض التغريب؟

التغريب هو ثمرة الاستلاب الثقافي الذي تشكو منه كثير من الأمم، فهل أصالة ثقافتنا تقتضي رفض ثقافات الآخرين جملة وتفصيلاً، وهل يمكن أن نطلق على كل تأثر ثقافي بحضارة الغرب «تغريبًا»؟ هذه إشكالية أخرى من الإشكاليات التي يثور حولها جدل لايتوقف.

إن رفض التغريب بالمفهوم الذي ذكرناه آنفًا ـ وهو محاولة إحلال ثقافة الغرب محل الثقافة الذاتية للأمة ـ ضرورة حضارية من ثلاثة جوانب: أولها أن الدفاع عن الهوية الثقافية حق مكفول في شرائع الأديان السماوية وفي تنظيمات القانون الدولي. ولقد كان الإسلام أكثر الأديان حرصًا على عدم الاعتداء على ثقافات الآخرين، بل أسهم الإسلام في حفظ تلك الثقافات ورعايتها في ظل حضارته المتسامحة.

وثانيها أن حضارة الغرب حضارة خاصة لها منطلقاتها الفكرية والأيديولوجية الملائمة للغرب، فلماذا تُجَرّد من خصوصيتها لتصبح عامة لكل البشر؟ ثم إن قيم هذه الحضارة وانعكاساتها في الحياة الإنسانية مثار نقد واسع ومستمر بين الغربيين أنفسهم، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى البحث عن أبدال أخرى، فكيف يراد لهذه الحضارة أن تكون حضارة العالم كله؟!

أما الجانب الثالث الذي يسوغ لنا رفض ثقافة التغريب الغازية؛ فيتعلق بثقافتنا الإسلامية نفسها؛ فهي ثقافة تقدم للناس خيارًا آخر يمكن أن يحتذوه. وإن سيادة ثقافة التغريب وعدوانها على الثقافة الإسلامية يضعف من موقف الخيار الثقافي الإسلامي مما يفقد الإنسانية حرية الموازنة بين الثقافات واختيار الصالح منها.

ونختم الحديث عن رفض التغريب بالتأكيد على أمور على قدر كبير من الأهمية لكيلا تختلط الرؤى في هذه المسألة، وهي:

ـ إن رفض التغريب هو رفض لمحاولات فرض الهيمنة الثقافية. ولايعني ذلك رفض التفاعل بين ثقافة الغرب وثقافتنا الأصيلة. والدعوة إلى الانغلاق والانكفاء الثقافي دعوة لاتنسجم مع طبيعة ثقافتنا؛ فهي ثقافة منفتحة، وتدل تجارب أمتنا في عصور الازدهار الحضاري على هذا الانفتاح الذي أسهم في إثراء ثقافتنا وإغناء حصيلتها.

ـ إن تفاعلنا الثقافي مع الآخرين ينبغي أن ينطلق من الاعتقاد بأن ثقافتنا ليست كلها ثقافة مقدسة؛ فلاقداسة إلا للوحي ـ كتابًا وسنة ـ، أما تجارب البشر وخبراتهم وطرائق عيشهم وأسلوب حياتهم فهي أمور اجتهادية، وهي متغيرات متحركة وليست ثوابت راسخة.

ـ ان في ثقافات الآخرين بعامة ـ والغربيين بخاصة ـ جوانب مضيئة وثمرات نافعة لايمكن إنكارها، وهي من الثقافة المشتركة بين البشر؛ مما يحسن بنا أن نستفيد منها دون شعور بالنقص. وإذا كان ثمة عصر من العصور يمكن أن يوصف بالتداخل الثقافي فلن يكون غير عصرنا الذي نعيش فيه. ولذلك لاينبغي أن ننساق وراء المنادين بـ «الطهارة الثقافية» لأنها دعوة لاتتلاءم مع طبيعة ثقافتنا من جهة، وهي دعوة ضارة بنمو ثقافتنا وتجددها من جهة أخرى.

وأخيرًا نقول: إنه إذا كان الاستسلام لثقافة التغريب الغازية إعلانًا عن وفاة الثقافة الأصيلة؛ فإننا ـ من جهة أخرى ـ لن نتمكن من مواجهة التغريب الثقافي بالتقوقع ونشدان الطهارة. إن المواجهة المجدية تتمثل في التفاعل الثقافي الذي يقوم بين طرفين متكافئين يحترم كل منهما ثقافة الآخر، ويحكمه منطق الاختيار الحر وليس الإجبار والاكراه، سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر. إن النتيجة المرجوة من هذا التفاعل الثقافي هي إثراء الثقافتين معًا.

وإذا كان مطلوبًا من عقلاء الغرب أن يكبحوا جماح الراغبين في بسط نفوذ ثقافة التغريب على الأمم الأخرى، فإن المطلوب منا أن نقيم مع الآخر حوارًا متكافئًا ركيزته قوة المعرفة وقوة المحاجة، ولابد أن تنبع هاتان القوتان من رغبة صادقة لدى الطرفين للوصول إلى مايجعلهما يتعايشان معًا دون هيمنة إلا لقيم الحق والخير والجمال.

بيان محمد صلى الله عليه وسلم

من أمارات تفرده

د. إبراهيم عوضين

اقتضت حكمة الله جل شأنه أن يؤيد كل رسول بما يقنع قومه بأنه رسول الله، فأجرى على يدي كل رسول أمرا خارقا في حدود مايشتهر به قومه، ليؤكد لهم عجزُهُم فيه أنهم أمام إنسان مؤيد من الله.

والناظر في حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلاحظ أن العناية الإلهية كانت توجهه منذ طفولته إلى مايسترعي أنظار قومه لما يتفرد به من دونهم؛ تهيئة لاستقبال الأمر الأخطر، وإعدادًا لإعلان الرسالة.

نعم.. فلقد بدت أمارات التفرد في سلوك محمد منذ كان طفلاً يتيما، ثم صبيا يتأبى على مااعتاده أترابه وأنداده من العادات والأفعال، حتى استرعى بشمائله وأخلاقه وسلوكياته أنظار المحيطين به في وقت مبكر، فلقبوه بالصادق الأمين.

ومحمد - بذلك التأبي - لم يكن جاريا على سنن موجود يُقتدى به، ولكنه كان مدفوعا بقوة خفية لينتقي مما تغص به بيئته من كل فضل وفضيلة، فيكون السبَّاق إليها، ويعرف كل مافيه شذوذ عن الفطرة السوية فيرفضه، وينصرف عنه... دون أن يدري لهذا ولا لذاك سببا؛ فحقق بذلك ماجعله متفردا بين أترابه، ومامكَّن له في نفوس العقلاء منهم، فأكبروه صغيرا، وقدَّروه صبيا، وأعجبوا به شابا، حتى كان الآباء يتمنون أن يروا أبناءهم في صحبته؛ اطمئنانا عليهم.. وحتى أصبح مااختاروه له لقبا علما عليه؛ فلاتذكر كلمة (الأمين) إلا استُحضرت هيئة محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى أصبح ماعليه من خلق عظيم إحدى الخصائص التي ينعته بها القرآن الكريم.

وهكذا.. واصل محمد بن عبدالله مسيرته الحيوية - أو قادته العناية الإلهية - ليحرز في كل مرحلة، مايميزه، ويعلن عن تفرده.

عزوفه عن الشعر

وكان موقفه من الشعر من أبرز ماظهر فيه تفرده صلى الله عليه وسلم مبكرا؛ فعلى الرغم من أنه نشأ في بيئه يهفو فيها كل بيت إلى أن يكون من بين أبنائه من يبرز في الشعر، ليكون لبيته وأسرته ظهرا يرتكز إليه، ولسانا يدافع عن أهله، وسلاحا يخوض به قومه المعارك.. حتى كان همّ كل فتى أن يلازم شاعرًا يتتلمذ عليه، ويأخذ عنه، ويحتذيه؛ فإذا شب عن الطوق حمل الرسالة، وقام بدوره بين قبيلته... على الرغم من هذه النشأة الفنية البيئية، نرى أن محمدا لم يخط خطوة واحدة في هذه السبيل، ولا حاول أن يدخل ميدان المنافسة في ذلك مع أترابه، بل كان منها في واد، وكل الآخرين في واد آخر، لافرق في ذلك بين قصيٍّ وقريب... وهذا أقرب مصاحبيه إليه - أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة - يروي الشعر وينظمه في مبتدأ نشأته، ويأخذ نفسه بأسباب التفوق فيه، حتى عُرف بما حصَّل من تاريخ العرب وأيامهم - وهو مادة الشعر، وأساس النبوغ فيه - فأصبح مرجعًا ثبتا في ذلك.

ولو حاول باحث يومها أن يتعرف السر في عزوف محمد عن ولوج ميدان الشعر - رواية ونظمًا - لوجد نفسه يسعى وراء سراب؛ فليس هناك من سبب مقنع، ولا سر واضح يقيم الباحث عليه علة ذلك الموقف من شاب عربي، نشأ في تلك البيئة العربية التي يعد فيها الشعر إحدى ضروراتها الحيوية، حتى كان واحداً من دواعي الاجتماع والتلاقي فيما اشتهر بأسواق العرب، في عكاظ، ومجنة، وذي المجاز.

بينما نستطيع اليوم - وبعد أن بدا من أمره صلى الله عليه وسلم مابدا - أن نلمح ماكان وراء عزوفه عن الشعر من قوة عليا مدبِّرة، لاتُدرك إلا من مظاهرها، ولايُكتنه سرها إلا بعد إنفاذ ما أرادت.!

فلو أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان في نشأته تلميذا لهذا الشاعر أو لذاك - شأن غيره من

معاصريه ـ لما كان له في ذلك مايميزه من غيره، إلا نبوغ في جانب، وخمول في جانب آخر؛ فهو ـ كغيره من الشعراء ـ امتداد لسابق؛ إليه يرجع فضل إعداده، وتقويم لسانه، ومنه يأخذ أسباب نجاحه، وعوامل تفوقه... وهو ـ كغيره من الشعراء ـ ينافس ندا، ويعمل على اللحاق به، أو تجاوزه، أو الارتفاع عليه.

لكن صَرْفَ محمد عن هذا الميدان المعتاد في تكوين الإنسان العربي بيانيا، يكشف لنا أنه كان ـ في الحقيقة ـ صَرْفا لمحمد عن التتلمذ على مخلوق، حتى يحتفظ بتفرده وتميزه في بيانه، كي تتم به أبعاد المعجزة؛ فلو كان في بيانه تلميذاً لمخلوق، لما كانت له فيه خصيصة، ولما حق له أن يُرجع ما أوتيه من تفوق بياني إلى الله تعالى، فيما أُثر عنه من مثل قوله: «أُوتيتُ جوامع الكلم...».

ومن هنا... نستطيع أن نقف على سر تلك المفارقة العجيبة؛ إذ نجد القرآن الكريم ـ في معرض تمجيد محمد صلى الله عليه وسلم ـ ينفي عن محمد تعليم الله إياه الشعر وآلاته، في الوقت الذي كان يتفاخر فيه كل معاصر من أبناء أمته بتعلم الشعر، والتمكن من آلاته، حتى كان من لايملك شيئا من ذلك يعمل على إدعائه، والتعلق بأذيال من نبغوا في قول الشعر؛ حرصا على حيازة ذلك الفخر.!

فالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وماعلّمناهُ الشِّعرَ ومَايَنْبَغِي له..﴾ (يس:٦٩)، لاينفي عن محمد صلى الله عليه وسلم مانسبوه إليه من قول الشعر فحسب، ولكنه ـ إلى ذلك ـ ينبه إلى أن من مفاخره صلى الله عليه وسلم براءته كل البراءة مما يفخر به الآخرون، لأنه ليس كأحدهم ـ في ميدان البيان ـ بل هو متفرد عنهم جميعا في ذلك، وإن يكن ـ في عموميات البشر ـ واحداً منهم، يناله ماينالهم من آلام وهموم وعوارض، لايكاد يختلف عنهم في شيء من ذلك، اللهم إلا تلك الفوارق البيئية المعتادة.!

نعم... إن القرآن الكريم ـ في هذا القول الحكيم ـ يومئ إلى أحد مظاهر تفرده صلى الله عليه وسلم، دون القصد إلى تحقير الشعر في ذاته، ولاتحقير مايتوسل به إلى قول الشعر؛ فالآية الكريمة تلفتنا إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يتتلمذ على مخلوق، ولكنه إعداد رباني كامل، ارتفع به عن عموميات المخلوقين، حتى يحفظ رسالته من احتمال التأثر بهذا أو بذاك!

ولو أن من خاصموا محمدا ودعوته ترووا في أحكامهم، واتخذوا موقف المحايد في نظرتهم.. لما جرؤ واحد منهم على الزعم بأن محمداً تتلمذ على هذا الراهب، أو على ذاك المتحنف، لأن بيان هؤلاء وأولئك يختلف كل الاختلاف عن بيانه.

وماذلك إلا لأن النظر العادل المحايد يقرر أننا ـ مع محمد صلى الله عليه وسلم ـ أمام ظاهرة متفردة، تتمثل في كيان متميز في بيانه، لم تصنعه أية قوة من القوى المخلوقة المعتادة، التي تتدخل ـ بعامل التطور والتدريب والمران ـ في صنع الآخرين، وتواصل الأجيال.!

الإبداع المحمدي

فإذا رجعنا النظر إلى مااستبدله صلى الله عليه وسلم من الفنون البيانية بالشعر، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة بيانية فريدة، لم يكن للعرب ولا للعربية بها عهد سابق؛ إذ كان وُكْد فصحاء العرب وحكمائهم قول الشعر، فإذا اتجهوا إلى النثر لم يستطيعوا الخروج به عن دائرة الشعر.. حيث يلتزمون فيه بعض مااعتادوا التزامه في الشعر؛ من مثيرات بيانية ـ مثل السجع، والطباق، والجناس ـ حتى استقر النثر العربي ـ أو كاد ـ على ماعرف بسجع الكهان... وما خرج عن ذلك الالتزام جاء جملاً مفردة مسجوعة، أو حكما وأمثالا مفصولة، لايكاد يسلكها نظام بياني، سوى المقصد العام منها، من خطبة، أو وصية، أو منافرة.. كما نرى فيما ينسب إلى أكثم بن صيفي التميمي، وعامر بن الظرب العدواني، وهانئ بن قبيصة الشيباني، والأوس بن حارثة.

فلما نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح له المدرسة المؤدِّبة... سار على الدرب في بيانه ودعوته، ففجأ العرب بما لم يخطر لهم على بال، إذ وجدوا في بيانه صلى الله عليه وسلم بدعا من القول لم يعهدوه، ولم يلتزم فيه بسابق مثال من كلامهم، على الرغم من أنه فيه لم يخرج على لغتهم، ولاشذ عن ترتيب كلامهم؛ فهم أمام بيان عربي أصيل لم يعرفوا في تاريخهم البياني مثاله، ولاسبق لواحد منهم السير في طريقه، مما استحوذ على حسهم الفني، وملك عليهم كيانهم البياني... فلم يستطيعوا إلا النظر المتأني؛ بحثا عن سره، دون جدوى... أو الحكم المتعجل بأنه شعر شاعر مجيد، أو سحر ساحر قوي، فارتد عليهم هذا الحكم بأسرع مما أصدروه؛ لأنهم أمام بيان لاهو من شعر الشعراء، ولا هو من هذيان السحرة والكهان.!

وهكذا.. لم يقتصر محمد صلى الله عليه وسلم على تفرده بين العرب بالعزوف عن الشعر، ولكنه ضم إليه تفرداً آخر... بإيثاره هذا المنهاج البياني الذي أبدعه؛ إذ سار فيه على غير مثال بشري سابق؛ حتى تقرر أنه صلى الله عليه وسلم كان فيه معانا من ربه بجوامع الكلم التي جعلها ـ على حد وصف الخطّابي ـ ردءًا لنبوته، وعلما على رسالته، فتعجب من إبداعه البياني، أقرب الناس إليه، وأوثقهم صلة به... من استجاب منهم لدعوته، ومن كابر منهم وعاند.

ولقد صرح صلى الله عليه وسلم بهذا التفرد فيما رواه ابن عساكر في الخصائص الكبرى(١)، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا النبي لاكذب، أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنّى يأتيني اللحن؟!».

ثم علل صلى الله عليه وسلم هذا التفرد بتتلمذه على القرآن الكريم، الذي تحدّى به مُنْزِلُه سائر المخلوقين، وجعله معجزة تعلن عن صدق محمد في دعوته.. فقد روى صاحب الخصائص الكبرى (٢)، عن الرَّامَهُرْمزي ـ بإسناده ـ قال له صلى الله عليه وسلم أصحابُه: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «ومايمنعني، وإنما أُنزل القرآن بلساني، بلسان عربي مبين، وإني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر؟!».

وروى أبو الحسن أحمد بن عبدالله بن

بيان محمد صلى الله عليه وسلم
من أمارات تفرده

محمد البكري في كتابه (أنس الواحش، وريّ العاطش)(٣): قالت بَرَّة بنت عامر الثقفية سيدة نساء قومها لإخوتها: يابني عامر، أفيكم من أبصر محمدا صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: كلنا قد رأيناه أيام الموسم، فقالت: أفيكم من سمعه يتكلم؟ قالوا: نعم، فقالت: كيف هو في فصاحته؟ قالوا: يا أختاه إن أقبح مثالب العرب الكذب.. أما فصاحته، فما ولدت العرب فيما مضى، ولاتلد فيما بقي أفصح منه، ولا أذرب منه؛ إذا تكلم يُعجز اللبيبَ كلامه، ويخرس الخطيبَ خطابه».

الثبات على المستوى الفني

فإذا رجعنا النظر إلى مأثر من بيانه صلى الله عليه وسلم، رأينا أنفسنا أمام العديد من مظاهر التفرد الإبداعي... سواء في ذلك: المحتوى، والشكل، وأثر هذا وذاك في المتلقين.

لقد كان نهج العرب الذين تلقوا بيانه ـ ومازال هو نهج الجميع عربا وغير عرب ـ يقتضى أن يعلو ذكر الأديب ببيت شعر يسير، أو بعبارة محكمة، أو بقول حكيم، دون تأثر بهبوط آخر، قد يعتور هذا الأديب في مواقف أخرى.

ولكن العرب أمام بيان محمد صلى الله عليه وسلم، وجدوا الثبات على مستوى فني واحد، لايخضع لما ينشئه الضعف البشري من تذبذب أو تردد بين الارتفاع والهبوط، تبعا للحالات النفسية التي يمر بها الأديب؛ فالبيان النبويّ على درجته العالية من التوازن مع كل المتلقين، مهما اختلفت هوياتهم، وثقافاتهم، ولهجاتهم، فما قَدِم عليه وفد عربي إلا كان معهم في أرقى مستوى من لهجتهم التي قد لايفهم أكثر كلامها الآخرون، حتى نهض علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مبديا دهشته لذلك في قوله: «يارسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لانفهم أكثره». فقال صلى الله عليه وسلم: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي».

والذي أثار دهشة علي، أثار دهشة أبي بكر رضي الله عنه ـ على تفوقه في معرفة أخبار العرب وأنسابهم ولغاتهم ـ فقال: لقد طفتُ على العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بما أجاب به عليا رضي الله عنه، قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فكان تفرده في ذلك إعلانا صريحا: أنه صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الناس كافة، من غير استثناء، فأوتي ـ لذلك ـ مااحتاجته تلك العمومية في حياته صلى الله عليه وسلم؛ من قدرة على التكلم مع كلّ بما يناسبه، ممهدًا بذلك الطريق لمن يخلفه في الدعوة إلى الإسلام، حين يتسع ميدان الدعوة، ويصبح على الدعاة مخاطبة الأمم الأخرى.

تعدد الأشكال البيانية

ومع هذا الثبات في المستوى الفني.. فإننا نتلقى في بيانه صلى الله عليه وسلم أشكالا بيانية دائمة التغير، وفقا لما يستدعيه المضمون، والموقف، والمتلقي.. فكانت تلك الفنون البيانية التي لم يكن للعرب سابق عهد بها، ولا كان لهم سابق عهد بهذا النهج من أديب واحد؛ إذ نجد أنفسنا ـ مع بيانه صلى الله عليه وسلم ـ أمام الحديث المباشر، والحديث غير المباشر، والحوار، والخطبة، والقصة، والرسالة، والمعاهدة، والوصية، والابتهال.

كما نجد ـ مع التأمل الناقد ـ أن هذا التلوين في الفنون النثرية ليس مفروضا عليه صلى الله عليه وسلم من خارجه، ولكنه يتوجه إليه بدافع ذاتي فطري، يوجهه إلى اللون البياني المناسب أدق المناسبة، بحيث لايصلح غيره في مكانه، مما لايتسع المقام لتفصيله، وآمل أن أعود إلى ذلك بشيء من التفصيل في مقام آخر.

فلم يقف صلى الله عليه وسلم في تفرده البياني عند حد الانصراف عن الشعر، ولاعند حد التوسل في بيانه بالنثر الفني، ولاعند حد التمكن من لهجات العرب المختلفة، ولاعند حد الثبات على المستوى الفني الراقي من غير تأثر بالعوارض... بل ضم إلى هذا وذاك... تفرده في التوسل التلقائي بالفنون البيانية النثرية المختلفة... مما أفقد الأدباء العرب الاتزان، وأغرقهم في محيطات الذهول والحيرة نحو قرن من الزمان..!

ولم يكن هؤلاء العرب الأقدمون هم وحدهم الذين تنبهوا إلى مافي بيانه صلى الله عليه وسلم من تفرد؛ إذ لم تكن مظاهر التفرد تلك بالتي تخفى على الأديب الناقد المحايد، أيا كانت هويته الدينية، وأيا كانت لغته وثقافته؛ فلقد تنبه إليها كثير من معتدلي النقاد الأوربيين في العصر الحديث ـ على الرغم من ذلك الفاصل الزماني الذي قارب خمسة عشر قرنا، إلى جانب الفاصل المكاني واللغوي ـ فها هو ذا الأديب والمفكر الفرنسي (فيليب كاردينال) يقرر ماصرح به نقاد الأدب العربي قديما، في قوله الذي نقلته عنه صحيفة الأهرام القاهرية الصادرة في ١٩٨٤/١/١٣م، إذ يقول:

« أعتقد ـ كأوربي دارس للأساليب اللغوية المعاصرة ـ أن أسلوب هذه الأحاديث ـ يعني الأحاديث النبوية ـ هو أسلوب متفرد تماما، يدفعنا دفعا إلى إعادة صياغة وحداتها أو تطورها لإدخالها في بناء الرواية اللغوي. ويمكننا حينئذ أن نستفيد بهذه اللغة في إعادة النظر إلى لغتنا المعاصرة... أستطيع القول دون مبالغة: إن الأحاديث النبوية أحدث أسلوب أدبي في العالم المعاصر».

وبعد... فالحديث عن البيان النبوي ممتد، وأمارات تفرده صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تعرض في كتاب ضخم ـ بله في مقال ـ وأشمل من أن يتناولها دارس واحد.!

الهوامش:

١ـ ج ١ ص ١٥٨، نقلا عن سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام محمد بن يوسف الصالحي، ج٢ ص ١٣٥، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

٢ـ المرجع السابق.

٣ـ نقلا عن سبل الهدي والرشاد، ج٢ ص ١٣٥، ١٣٦.



التصور الإسلامي في شعر الأمير الصنعاني

(١٠٩٩-١١٨٢هـ)

د. عبد الله بن محمد
أبو داهش

يتصل منهج الأدب الإسلامي بنتاج عدد من أدباء هذه الأمة في القرون الأخيرة الماضية، على الرغم من إهمال مؤرخي الأدب المعاصرين له، حينما لم يظهروه في مسار منهجهم الحديث، حيث غاب الكثير من أعلامه الشعراء الذين هم أحق به من غيرهم، ومن أولئك الشعراء المنسيين الذين يستحقون الوقوف والنظر: الشاعر العالم محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني الذي بلغ الآفاق بعلمه وذكره؛ ولاغرابة في ذلك فهو صاحب كتاب «سبل السلام»، وناظم القصيدة الدالية المشهورة في تأييد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حينما تخلّى عن صاحبها الكثير من الناس.

أقول: إن هذا الشاعر يستحق من الدارسين الدرس والتحليل، فهو أيضًا صاحب تلك القصائد الرائعة التي جلّى في مضمونها حقيقة إيمانه، وأوضح في معانيها تصوره الإسلامي لله سبحانه وتعالى، وأنه: « موجود، وأن وجوده حق ثابت، وأنَّ جميع ماعداه من الموجودات، إنما هو من صنعه، وأنه ظاهر الوجود، فما من مخلوق إلاّ وفيه شاهد على وجود الله، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وكماله، وبديع صنعه»(١)، قال تعالى: ﴿هذا خلقُ الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾ (لقمان:١١). لذا فإنه إذا قيل بأهمية شعر الصنعاني الأمير، وغيابه عن منهج الأدب الإسلامي، فانظر إليه، وهو يحقق القول السابق، إذ قال:

[القلبُ أعلمُ ياعذول بدائه
ماغير داء الذنب من أدوائه]
والذنب أولى مابكاه أخو التقى
وأحق منك بجفنه وبمائه
فوَمَن أُحب لأعصينَّ عواذلي
قسمًا به في أرضه وسمائه
من ذا يلوم أخا الذنوب إذا بكى
إن الملامة فيه من أعدائه
فوَحقّ من خاف الفؤاد وعيده
ورجا مثوبته وحسن جزائه
ماكنت ممن يرتضي حسن الثنا
ببديع نظمي في مديح سوائه
من ذا الذي بسط البسيطة للورى
فرشًا وتوَّجها بسقف سمائه
من ذا الذي جعل النجوم ثواقبًا
يهدي بها السارين في ظلمائه
من ذا أتى بالشمس في أُفُقِ السما
تجري بتقدير على أرجائه
أسِواهُ سوّاها ضياءً نافعاً
لا والذي رفع السما ببنائه
من أطلع القمر المنير إذا دجى
ليلٌ فشابه صُبْحَهُ بضيائه
من طوَّل الأيام عند مصيفها
وأتتْ قِصاراً عند فصل شتائه
من ذا الذي خلقَ الخلائق كلها
وكفى الجميع ببره وعطائه

وأدرّ للطفل الرضيع معاشَهُ

من أمه يمتص طيب غذائه

ياويح من يعصي الإله وقد رأى

إحسانه بنواله ونداثه(٢)

وانظر إلى قول الشاعر نفسه في قصيدته الأخرى الآتية :

من ذا سواك أدرَّ كل سحابة

بالماء فهي سحابة وطفاءُ

نسجت حواشيها الرياح فأصبحت

في الجو وهي على الثراء كساء

وحدا بها حادي الرعود وساقها

برقٌ فهذي النارُ وهي الماء

وتآلفُ الضدين قدرةُ قادر

إعدامُهُ سيانَ والإنشاء

وترى الثرى لم تبق فيه غبرة

قد عاد وهي الروضة الغنّاء

بينا نراه هامدًا متخشعًا

ميتًا أتاه بالحياةِ حياءُ

فأعاده حيًا وروضًا ناضرًا

وعليه تُنسَجُ حُلةٌ خضراء

يأتي بأرزاق العباد عجائبًا

شتى هما صنفان فيه سواء

متخالفاتٌ خِلقة وطبيعة

والطعم مرّ حامض حلواء

قل للطبيعيّ الجهول علامَ ذا

والتُربُ أصلُ جميعها والماء

وكذاك ابنا آدم هذا أتى

ذكرًا وذا أنثى وذا خنثاء

فالكل مختلف كذاك صفاتهم

فيهم غدا الشوهاءُ والحسناءُ

مثلُ: اللغات يكون فيهم ألثغٌ

ومفوهٌ خضعت له البُلغاء

والكل من ماء مهين صُوِّروا

في باطن الأرحام كيف يشاء

هذا الدليل بأن ربكَ واحد

يُختار لاقسر ولا إلجاء

فله الثنا والحمدُ منا دائما

يأتي به الإصباح والإمساء(٣)

وإزاء هذين النصين السابقين نقول: إن الشاعر وُفِّق كثيرًا في رسم واقع ذلك الملكوت الذي ينصرف في كليته لتوحيد الله تعالى وتسبيحه، وهو بهذا الغرض الشعري قد ملأ فؤاد المسلم إيمانًا وتصديقا، فزاده ثقة إيمانية حقيقيةً، وأسعد ناظره؛ فهو جذلان بمرأى الوجود في عناصره الكثيرة، وآياته الواسعة، انظر إليه يستجلي هذه العناصر الشاهدة على عظمة الخالق سبحانه، واتقان صنعه تعالى الله عما يصفون: ﴿صُنعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كلَّ شيء﴾(النمل: ٨٨).

فهذه الأرض شاهدة على مافيها من آيات، وتلك السماء وقد جللت الوجود بدراريها، وبديع صنعها، وتلك الشمس قد عظمت في الأفق، فهي تجري بحسبان، وذلك القمر المنير ينير الوجود، ويسعد الناظر بكماله وتمامه، وتلك الأيام في تقلبها بين القصر والطول، وهؤلاء الخلق بألوانهم وأجسامهم ، وأرزاقهم. وذلك الطفل الذي يمتص طيب غذائه من أمه في سيرورة عجيبة، مَنْ خلق هذه الأسباب جميعها، ومن كونها؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وهذه آياته، ألا يستحق العبادة وحده، دون سواه، فما أبعد الجاحدين من الحق! وماأعظم جبروت الطغاة الملحدين.

ياويح من يعصي الإله وقد رأي

إحسانه بنواله ونداثه

ويمضى الصنعاني في قصيدته الثانية يجلي الأمر، ويزيده وضوحًا، حيث حقق عظمة هذه الآيات وأظهرها، فهذا السحاب قد أدرّ ماء عذبًا صافيا لايحاط بهيئته، وهذه الرياض قد كساها النبت، ونمت أزهارها فهي خضراء جميلة، ذات نضرة وبهاء، وهذه الأرزاق مقسمة مقننة، وذلك اللسان في تنوع كلامه، وتعدد لغاته، فمن برأ هذا الوجود، وأتقن صنعه؟ إنه الله الذي لاإله إلا هو العزيز الحكيم .

هذا الدليل بأن ربك واحد

يختار لاقسر ولا إلجاء

لقد بنى الشاعر قصيدتيه هاتين على بحر شعري واحد هو «الكامل التام»، ومضى يذكّر النفس فجورها وتقواها، ويبث في مكنونها حقيقة التوحيد، وعظمة الخالق في لغة يسيرة سهلة، ثقافتها الإسلامية عميقة، وتكوينها الأسلوبي معتدل مقبول، في قافية سلسلة سهلة، تجري على اللسان والأذن بعذوبة واعتدال، فلقد أشرقت تلك الأبيات بصورها المركبة ذات الحس والمرأى، ومعانيها الرفيعة ذات السمو والتفوق، فهي واضحة، جلية للناظر، فما أحوجنا لمثل هذا الأدب، وما أحرانا في ظلاله بمنهج أدبي إسلامي سوي.

الهوامش والتعليقات

١- عبدالرحمن الباشا، «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد» ص ٩٨، ط، مط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢- ديوانه ٥، مخطوط، توجد نسخة منه عند الباحث .

٣- المصدر نفسه ٧ .

اضطراب الأقوال في تحديد الوشم والوشوم



الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

قال أبو عبدالرحمن: صداع اليوم من الصداع الجديد الذي لم يمر مثله في مواضيع الصداع السابقة.. وهو من البلدانيات، وقد قلت كثيرًا إن التاريخ والتراجم والبلدانيات مسامرات وأخبار ومشاهدات من المعارف المهضومة التي لاتتعب الفكر كالفلسفة، وعلم الكلام، وأصول الفقه، وأصول العلوم، فكيف وجد بقدرة قادر مايصدع العقول في البلدانيات؟.

قال أبو عبدالرحمن: هذا وارد إذا اضطربت الأقوال واحتاج رصدها والتمييز بينها إلى دقة فكر، وهذا ماحصل بالفعل في تحديد الوشم وإحصاء بلدانه.

قال ياقوت: «الوشم ـ ويقال له الوشوم ـ: موضع باليمامة يشتمل على أربع قرى ذكرناها في أماكنها. ومنبرها الفقي، وإليها يُخرج من حجر اليمامة.

وبين الوشم وقراه مسيرة ليلة، وبينها وبين اليمامة ليلتان عن نصر.

قال زياد بن منقذ:

والوشم قد خرجت منه وقابلها
من الثنايا التي لم أقلها ثرم

وأخبرنا بدوي من أهل تلك البلاد أن الوشم خمس قرى عليها سور واحد من لبن، وفيها نخل وزرع لبني عائذ لآل مزيد، وقد يتفرع منهم.

والقرية الجامعة فيها ثرمداء، وبعدها شقراء وأشيقر وأبو الريش والمحمدية.

وهي بين العارض والدهناء»(١).

قال أبو عبدالرحمن: نص ياقوت هذا انتقده الشيخ ابن بليهد رحمه الله من ثلاثة أوجه:

أولها: أنه ذكر قرى لا يعلمها ابن بليهد ـ وهو من أهل الوشم ـ وهي الفقي، وأبو الريش، والمحمدية.

وثانيها: أن مابين القرى من مسافات طويلة لايسمح ببناء سور واحد من لبن يحيط بها.

وثالثها: أن ياقوتًا أسقط من الوشم قرى قديمة لاتزال قائمة الآن(٢).

وعرَّف ابن بليهد الوشم: بأنه مقاطعة بين القصيم والرياض(٣).

وسماه ابن لجأ وشم القرى في مهاجاته لجرير فقال:

ونحن أخذنا من بني أسد معًا
بوشم القرى قسرًا سويدًا ومعبدا

وذكر ابن أبي حفصة أسفل الوشم فقال: «البكرات ماء لضبة بأرض اليمامة، وهي قارات بأسفل الوشم. قال جرير:

هل رام جو سويقتين مكانه
أو أبكر البكرات أو تعشار»(٤).

وقال ابن أبي حفصة: «الفهدة قارة هي بأقصى الوشم من أرض اليمامة»(٥).

هذا في مادة فهدة.. وقال ياقوت في مادة الفهدات: «قارات في باطن ذي بهدى.. قال جرير:

رأوا بثنية الفهدات وردًا
فما عرفوا الأغر من البهيم»(٦).

وقال ياقوت" «بهدى بوزن سكرى، ويقال ذو بهدى: قرية ذات نخل باليمامة.

قال جرير:

وأقفر وادي ثرمداء وربما
تدانى بذي بهدى حلول الأصارم

وقيل هما موضعان متقاربان.

ويوم ذي بهدى من أيامهم.. قال ظالم بن البراء الفقيمي:

ونحن غداة يوم ذوات بهدى
لدى الوتدات إذ غشيت تميم(٧).

وقال ياقوت: «قرقرى أرض باليمامة إذا خرج من وشم اليمامة يريد مهب الجنوب وجعل العارض شمالاً فإنه يعلو أرضًا تسمى قرقرى.. إلخ»(٨).

وعَرَّفَ الأستاذ ابن خميس الوشم فقال: «منبسط من الأرض يشقه رمل الرغام وفيه بلدان وقرى خصب منبت منتج»(٩).

وحدده فقال: «من أقاليم اليمامة الكبيرة غربيها شماليها واقع بين رمل الرغام من الشرق، وصفراء تضاف إلى الوشم من الغرب.

ومابين قرقرى من الجنوب ومابين الهوابج ومستقرات سيول المستوي من الشمال.

وبعضهم يلحق به الحمادة كما هي الآن تابعة له إداريا: أي ما يليه شرقًا منها، ويقال له أيضا: الوشوم.

ويبدو أن أرضه الملونة بالرمال والهضاب الحمراء، والحزون الصفراء، والسهول المشكلة:



عبدالله بن خميس



أمين مدني

أعطاه هذه التسمية»(١٠).

وتابع ابنُ خميس وأصحاب المعاجم كافة الشيخَ ابنَ بليهد في نقد كلام ياقوت، فقال: «اختلط على ياقوت رحمه الله بينها وبين سدير(؟؟؟) حينما قال: «ومنبرها الفقي».

فالفقي منبر لسدير، أو على الأصح الكرمة.

وقال: كما أنها ليست بين العارض والدهناء، فالعارض هو الذي بينها وبين الدهناء.

وبيَّن الشيخ ابن خميس: أن بلبولاً في أسفل سدير بعيداً من الوشم.

قال ذلك في معرض رده على الهمداني، ورد عليه إدخال عرض باهلة في الوشم، وقال: فليس العرض من الوشم، وليس الوشم من العرض، فكل منهما يباين الآخر، ويختلف سكانًا ووصفًا ومسافة(١١).

وحدد شيخنا حمد الجاسر بلاد الوشم في تعليقه على كتاب لغدة فقال: «إقليم واسع من أقاليم نجد يحده غربًا السر، وشرقًا المحمل، وجنوبًا العرض والبطين شرقًا (يعني شرقي الحد الجنوبي) ووهم ياقوت.. إلخ»(١٢).

وأما الشيخ أمين مدني فقد حدد الوشم بأنها جنوبي سدير والقصيم، ورأى في إحصائه بثمانين قرية مبالغة إلا إذا اعتبرنا قرى المذنب من الوشم على رأي بعضهم.

ويرى وجاهة الفصل بين الوشم والوشوم على أنهما موضعان.

ويختم جولته بقوله: «أما في الوقت الحاضر فإنك تجد الوشم على خريطة الجزيرة العربية مكتوبا بالخط العريض دلالة على سعته»(١٣).

وقال ابن منظور: «الوشم موضع.. أنشد ابن الأعرابي:

رددتهم بالوشم تدمى لثاتهم
على شعب الأكوار ميل العمائم

والوشم بلد ذو نخل به قبائل من ربيعة ومضر دون اليمامة قريب منها يقال له: وشم اليمامة.

والوشوم: موضع.

والوشم في قول جرير:

عفت قرقرى والوشم حتى تنكرت
أواريهما والخيل ميل الدعائم

زعم أبو عثمان: عن الحرمازي: أنه ثمانون قرية»(١٤).

وقال الجوهري: «يقال له: وشم الناقة»(١٥).

وقد مر من كلام صاحب اللسان: أنه وشم اليمامة.

وعن نصر: أن بين اليمامة والوشم ليلتين، وذكر قول زياد بن منقذ:

والوشم قد خرجت منه وقابلها
من الثنايا التي لم ألقها ثرم(١٦)

قال أبو عبدالرحمن: هذه أقوال المعجميين عن عموم الوشم والوشوم، ولم أر أحدًا تقصّاها في صعيد واحد، ولو فعل لحل إشكالات كثيرة حول تحديد الوشم.

وهذه النصوص تحتاج إلى وقفات فاحصة:

الوقفة الأولى: أن الإقليم ـ أي إقليم ـ يتسع ويضيق:

إما بعرف جغرافي قديم أو حديث.

وإما بعرف إداري قديم أو حديث.

والعرف الإداري قد يكون حسب امتداد ولاية العامل للدولة، وقد يكون حسب امتداد سكنى القبيلة.

والمعجميون اليوم يحذقون التفريق بين امتداد الوشم إداريا وجغرافيا في العرف المعاصر.

وما أراهم يحذقون ذلك عن امتداد الوشم جغرافيا وقبليًا في العرف القديم.

والعرف الجغرافي للوشم حاليا أضيق من العرف الجغرافي القديم.

والسر في ذلك أنه استجدت أسماء لبعض أجزاء من الوشم كاسم سدير الذي تناول بعض أعمال الوشم.

فبقي اسم الوشم علمًا على بقية أعماله التي لم يستجد لها اسم.

قال أبو عبدالرحمن: وقد نسي أكثر المعاصرين أن الوشم واحد الوشوم، وللوشوم امتداد جغرافي أوعب من العرف الراهن.

ونسوا أن الوشم امتداد قبلي شاسع بحسب امتداد حواضر تميم والرباب.

ونسوا أن في الوشم قرى اندثرت مثل الشمس والشمسية ولغز وبهدى وقطين النميري وأبو الريش.

والأخير لا أشك في أنه أم الريش أو الريشية في الطريق إلى حليفة آل صقيه، وقد وقفت عليها أنا وشيخنا حمد الجاسر حفظه الله والشاعر عبدالله بن صقيه منذ عشرين عامًا تقريبًا، فوجدناها سفعًا ونواتئ تدل على آثار قرية كانت قائمة.

الوقفة الثانية: لم يحدد نص ياقوت الوشم بأربع قرى، وإنما أشار إلى أربع قُرى يشتمل عليها الوشم.

الوقفة الثالثة: لاغرابة في جعل منبر الوشم آنذاك في الفقي، لأن الوشم تبع الفقي، والفقي منها حسب الامتداد القبلي الذي يقوم مقام الامتداد الإداري إذا ضعفت الولاية.

الوقفة الرابعة: دعوى سور لبن يجمع قرى الوشم أو بعضها دعوى لاتعقل.. على أنني سمعت من الشيخ محمد بن إبراهيم البواردي رحمه الله أنهم وجدوا آثاراً من هذا السور.

قال أبو عبدالرحمن: ولايزال الأمر عندي على الوهم، لأن ضرورة الحس والعقل تدفع ذلك، فأين السبل والمراعي والطرق والسيول والمحتطب والمرافق واستقلال القرية مع بعد المسافات التي يعجز جهد القوم عن تسويرها مع تخلف داعي الضرورة؟!

الوقفة الخامسة: القرى التي لم يذكرها ياقوت من الوشم عندما ذكر الوشم لم يسقطها، لأنه لما ذكرها في مواضعها من المعجم نص على أنها من الوشم.

الوقفة السادسة: بيت ابن لجأ عن وشم

اضطراب الأقوال في تحديد الوشم والوشوم

القرى لـه دلالته على أن الوشم ذو قـرى كثيرة، لأنه وُصفَ إضافة بوشم القري.

ومادام ذكر بلاد بني أسـد فمعنى ذلك أن قرى الوشم تمتد بامتداد الرغام.

وهذا يؤيد قـول الحرمازي أن الوشم ثـمانون قرية.

الوقـفـة السابعـة: يكون أقـصى حـد للوشم بالعرف الجغرافي القديم قارة الفهدة كما قال ابن أبي حفصـة، ولايكون بعد ذلك إلا قرقـرى كما ذكر ياقوت.

ويكون ذو بـهـدى جنوب شـرق ثرمـداء بمسافـة بعيدة، ويسقط وهم بعض المعـاصرين أن «ذو بهدى» قرب ثرمداء، أو أنه ثرمداء نفسها.

الوقـفـة الثـامنة: رمل الرغـام كله بما فيـه من قـرى داخل في مسـمى الوشم بالعـرف الإداري (القبلي) القديم.

الوقفـة التاسعـة: لامعنى لقول الأسـتاذ ابن خـمـيـس: «وبعضـهـم يلحق بالوشـم الحـمـادة.. إلخ»، لأنه لاخلاف في ذلك أصلاً.

الوقفـة العاشرة: نصّ يـاقوت على أن الوشم بين العـارض والدهناء وَهْمٌ عـلى كل تقـدير، بل العـارض بين الوشم والدهناء، ولو صح أن جـزءاً من الوشم ـ على أبعـد تحديد ذكر ـ كـان شرقي العـارض لما صح إطلاق هذا التحـديد بأن الوشم بين الدهناء والعارض.

الوقفـة الحادية عـشرة: بلبـول داخل في حد الوشم بالعرف القديم جغرافيا وإداريًا.

الوقفـة الثانيـة عشرة: تحديد شـيخنا حـمد للوشم بالسر يجعل المروت وشـمًا، وهذا حاصل في الامتداد القبلي.

الوقفة الثالثة عـشرة: قبائل الوشم ـ على أبعد تحديد ـ في عـهد ابن الأعرابـي مضرية لاربعية، وإنما فيها ربيعة تميم من مضر.

قال أبو عبدالرحمن: وممن لهم حق عليَّ جمرة العـرب بنو نمير بن عامر بن صعـصعـة فـهم جيـراننا أهل الوشم من جـهة الغـرب، وديارهم حـد بين الوشم والسـر والقـصـيم، ولهم مـعـالم في القـرائـن من بلدان الوشم، وإليهم يعزى وادي الـنميري، وتمادى منهم قوم إلى بطين ضرماء.

قـال أبو عـبـدالرحـمن: ولبني نميـر ديار في عـالية نجد بالشريف وبالبـلد التاريخي الشـهيـر أضاخ.

وهم غـيـــر بني نمـيـــر بن نصـــر مـن بني أسد(١٧).

وفي اليمامة عد السكوني من بلادهم ملهم وقران.

وقال: على ليلة من مرة(١٨).

قـال أبو عبـدالرحـمـن: ليست ملهم وقـران لبني نمير، وإنما حرفت غـبر إلى نمير في كتـاب السكوني.

ووردت مرة مشددة الراء، وإنما المراد مراة.

ونقل الشيـخ ابن خـميس عـن ياقوت نقـلاً مختصرًا أن العويند لبني خديج عن الحفصي.

وأنها من مياه بني نمير عند أبي زياد.

قـــال: وأثبت الـهـمـــداني أنهـــا لبـني خديج(١٩)

قـال أبو عـبـدالرحـمـن: التي ذكـر أبو زياد عويند أخرى، لأنه قال (خـلال الكلام كما نقل عنه ياقـوت، وأغـفل الأسـتاذ ابن خـمـيس هذه الزيادة)(٢٠): والكلاب بضـم الكاف من ديار نمير.

«وقـــال أبو زياد: الـكلاب واد يسلـك بين ظهـري ثهـلان، وثهـلان جـبل في ديـار بني نمير»(٢١).

قال ياقـوت: الكلاب اسم واد بثهـلان لبني العرجاء من بني نمير فيه نخل ومياه(٢٢).

قـال أبو عـبـدالرحـمن: نقل المعـارف قـبل هضمها مخل.

قال ياقوت: ومن بلادهم باليـمامة أجوية أو جواء جمع جو(٢٣).

ثم ذكـر جـواء من قـرقـرى مـن نواحي اليمامة(٢٤).

وعد ياقوت أيضا من بلادهم الوخراء وقال: من مـيـاه بني نمـير بأرض الماشـيـة في غـربي اليمامة(٢٥).

ولعلـه يضـــاف إلى كـتـب الأنســـاب من الجديد مـافرعه الهـجري؛ فقـد ذكر من بطون بني ضنة ابن نمير المحرِّش وعفيف وسعد(٢٦).

وذكر منهم بني العرجاء(٢٧).

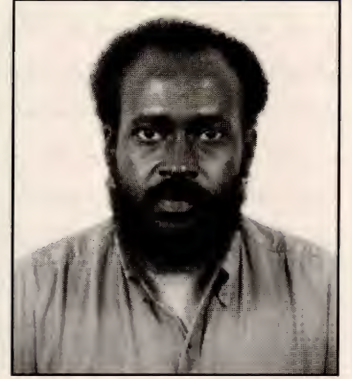
وذكر منهم بني صلاءة بن قنع بن خويلفة بن عـبـدالله بن الحـارث بن نميـر(٢٨)، وبني قطن بن ربيـعة بن عبـدالله بن الحارث بـن نمير جمـاعة الراعي النميري، وبني الحـدرجان من عامر بن نمير(٢٩).

الهوامش:

١ـ معجم البلدان ٣٧٨/٥.
٢ـ صحيح الأخبار ٢٥٢/٤ ـ ٢٥٣.
٣ـ ماتقارب سماعه ص٩٦.
٤ـ معجم البلدان ٤٧٥/١.
٥ـ معجم البلدان ٢٨١/٤.
٦ـ معجم البلدان ٣١٨/٤.
٧ـ معجم البلدان ٥١٤/١.
٨ـ معجم البلدان ٣٢٦/٤.
٩ـ معجم اليمامة ٣١/١، وتاريخ اليمامة ١٧/١.
١٠ـ معجم اليمامة ٤٤١/٢ـ ٤٤٢، وتاريخ اليمامة ٣٧٢/٣.
١١ـ انظر معـجم اليـمامة ٤٤٢/٢ ـ ٤٤٤، وتاريـخ اليـامـة ٣٧٣/٣ ـ ٣٧٥.
١٢ـ بلاد العرب ص ٢٧٢.
١٣ـ التـاريخ العربي وجـغرافيتـه ص٢٢٦، وعن عمـوم الوشم يراجع دليل الخليج/القسم الجغرافي ٢٥٥٩/٧ ـ ٢٥٦٤.
١٤ـ لسان العرب ٦٣٩/١٢.
١٥ـ الصـحـاح ٢٠٥٢/٥، والناقة تحـريف لليـمامة، ولعل ذلك تطبيع من المحقق العطارأو غيره.
١٦ـ تاج العروس ٩٤/٩.
١٧ـ بلاد العرب ص ٦٤. وانظر عن بلادهم خارج اليمامة بلاد القصيم ٣٦٠/١، ومعجم البلدان لياقوت ٢١٩/٥ فقد ذكر من مياههم بالعالية ملاعة.
ولهم في غـرب القصـيم مـاء التشناش كـمـا في معـجم البلدان ٣٣٠/٥ ـ ٣٣١، وبلاد القصيم ٢٤٠٣/٦ ـ ٢٤٠٤.
١٨ـ معـجـم البلدان ٢٢٦/٥. فـإذا طالت سنة الغين العليـا من غبر ومـدت إلى أسفل دون قصد، بل لسرعـة ناسخ أصبحت نميرًا.
١٩ـ معجم اليمامة ١٩٣/٢.
٢٠ـ معجم البلدان ١٩٢/٤.
٢١ـ معجم البلدان ٥٣٦/٤.
٢٢ـ معجم البلدان ٥٣٨/٤.
٢٣ـ معجم البلدان ١٣٠/١.
٢٤ـ معجم البلدان ٢٠٢/٢.
٢٥ـ معجم البلدان ٤١٩/٥.
٢٦ـ التعليقات والنوادر ٧٨٥/٢.
٢٧ـ التعليقات والنوادر ٧٣٧/٢.
٢٨ـ التعليقات والـنوادر ترتيب الشيخ حـمد الجـاسر ٦٤٩/٢ عن مختصر الإشيلي للرُشاطي.
٢٩ـ المصدر السابق ص ٧٣٦.

حُوارٌ مَعَ

حقّار بن محمد أحمد (١)



إيجاد الإنسان الأفريقي التابع هدفُ لحركة التنصير

أجراه: حسين حسن حسين ـ محمد القعطبي

«أفريقيا نصرانية عام ٢٠٠٠» شعار رفعه مجلس الكنائس العالمي، والمنظمات الكنسية، التي وضعت الخطط اللازمة لتحقيق هذا المرمى، مستغلة ماتعانيه هذه القارة من جوع وفقر ومرض.

وفات هؤلاء أن ثلثي سكان هذه القارة من المسلمين الذين دخلوا في دين الله أفواجا عبر الاحتكاك بالعرب المسلمين من التجار وغيرهم، فتشربوا تعاليم الإسلام وقيمه. وقد يظن كثيرون أن هذا المرمى وذلك الشعار يعودان إلى عهد قريب، ولكن من يتعمق في تاريخ الحركة التنصيرية والاستعمار، يجد أن العرى بينهما وثيقة، وأن أفريقيا كانت دومًا هدفًا لهما، وأن زعزعة الإسلام عن قواعده في أفريقيا تشكل المنطلق والغاية معًا.

في هذا الحوار مع الداعية الإسلامي الأستاذ حقار بن محمد أحمد نسبر غور الحركة التنصيرية: تاريخها، وخططها، ومراميها، وخطورتها على الوجود الإسلامي في أفريقيا، وماينبغي على الدول الإسلامية والمنظمات الإسلامية القيام به لمواجهتها.

علماً بأن اسم الضيف «حقار» ـ كما أوضح ـ اختير له ليشب على احتقار المستعمر الذي كان يجثم على صدر بلاده. وكان مدخلنا للحوار تعريف منه لطبيعة حركة التنصير، حيث قال:

التنصير حركة سياسية اقتصادية اجتماعية وأخيرًا دينية ترمي إلى تنصير العالم الإسلامي، كما ترمي إلى تنصير الوثنيين.

لكن التنصير في أفريقيا له أكثر من هدف، ويكاد لاينفصل عن الاستعمار، ونلاحظ هذا من خلال أول بعثة استكشافية أرسلها هنري الملاح سنة ١٤٣٤م.

هذه الرحلة الاستكشافية كان قادتها قساوسة ورهبان؛ اعتبروا أنفسهم مكتشفي أفريقيا، وبنوا فيها محميّة عسكرية في الكونغو (زائير اليوم).

ثم بدؤوا يجمعون الناس باسم الدين والدعوة إلى الإنجيل والسلام والحب بين الناس، والأفارقة في هذه الأنحاء بعيدون من تأثير الإسلام، ودياناتهم غير السماوية ضعيفة أمام منطق دعوة فيها شيء من دعوة الله تعالى، ولهذا بدؤوا الانجذاب إلى هذه الديانة، ثم تمكّن النصارى فكشروا عن أنيابهم واستعمروهم. هذه بداية التنصير كحركة.

هل نستطيع أن نؤرخ لها بتاريخ معين؟

التنصير كحركة من حيث التأسيس تبدأ مع المؤسس لهذه الحركة وهو ريمون لول الإسباني الجنسية، وإليه يعزى تأسيسها، وذلك في حدود عام ١٤٥٥م.

هل يمكنكم إلقاء الضوء على دور هنري الملاح وريمون لول؟

هنري الملاح هو ملك البرتغال، وريمون لول هو الذي قام بعمل تأطير منهجي لهذا الأمر، وقام بتجسيده عمليًا على أرض الواقع، وهو لم يكن ضمن البعثة.

وقد استلهم ريمون لول هذه الفكرة (فكرة وجود التنصير كحركة) من رسالة وجهها إلى جميع القساوسة في العالم رجلٌ اسمه (بيير فينرابل) أو بيير المبجل، قال فيها:

إن القساوسة عاجزون عن مواجهة هرطقة - هكذا يقول - هي الهرطقة المحمدية التي تستحق أن تُسمَّى - والكلام له - بالهرطقة المخزية أو البدعة الجاهلية الخطرة، وعلى الناس أن يقفوا في وجهها ويقضوا عليها، ولايمكن القضاء على هذه الهرطقة إلا من خلال تعرفها بدراستها، ثم يقول حرفيًا: ودراسة دستورها المشؤوم الذي يُسمَّى القرآن.

هل هذا يفسِّر حرص النصارى على دراسة اللغة العربية؟

نعم ولذا يقول: لايمكن محاربة هذه الهرطقة إلا بدراستها، والدراسة تكون بمعرفة اللغة التي نزل بها، والتي كتبت بها هذه الهرطقة، والتي سمحت لهذا البدوي أن يوصل فكرته إلى نصف المعمورة. ثم يقول: علينا أن نتعلّم اللغة التي كتبت بها هذه الهرطقة، وأن نعرف من أشرف على توسيع رقعة هذه الهرطقة.

والفكرة جاءت من هنا: كلف بيير فينرابل شخصا كان يعرف العربية بشكل جيد لأنه زار القدس، وظل فيها سنوات تعلّم خلالها العربية واسمه بيير لو دلمات. قام دلمات بتدريب أناس آخرين لمدة عشر سنوات على تعلّم اللغة، وكلفهم بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية في تلك الفترة، وطلب منهم أن يكونوا أمناء جدًا، وأن يحرصوا على الدقة الشديدة في الترجمة.

ينسب الناس هذه الترجمة خطأ إلى ريمون لول، فيقولون أدق ترجمة لمعاني القرآن هي ترجمة ريمون لول، لكنها في حقيقة الأمر ترجمة بيير لو دلمات، قام بها تحت إشراف بيير فينرابل.

وقاموا أيضا بتأسيس خمسة معاهد لتعليم اللغة العربية، اثنان منها في روسيا وواحد في سيلمانكا في إسبانيا و اثنان في فيرون في إيطاليا.

وبعد أربع سنوات من تأسيس هذه المعاهد فُتح قسمٌ للغة العربية والدراسات الشرقية في كل جامعة من جامعات أوربا.

ماعلاقة هذا بالبعثات التي بعثها ملك البرتغال؟

كان من وصايا الملك أن مهمة هذه الرحلة: أولاً: وضع اليد على المواد الأولية. ثانيًا: إيقاف تقدم الإسلام. ثالثًا: إيجاد أصدقاء للإنجيل من السود.

هذه أهداف الرحلة، ولكي يوقف تقدم الإسلام فلابد من دراسة الإسلام للإيقاع به.

لماذا كانت البداية من زائير؟ لمَ لمْ تكن من الشمال الأفريقي وهو الأقرب إلى أوربا؟

كانت رحلة هنري الملاح بقيادة جيل إيفان، وكان من الذين درسوا التاريخ العربي الإسلامي، و من ثم كان يتوقع مقاومة في منطقة المغرب العربي، لذلك تجنبها وذهب إلى جنوب غرب أفريقيا (أنجولا، وجنوب أفريقيا)، ثم ذهب إلى زائير. والمنطقة الجنوبية بعيدة إلى حد كبير من تأثير الديانات السماوية، ولايتوقع فيها مقاومة لأن الناس مسالمون، والعيش فيها أيضا كان رغدًا جدًا، وكانت منطقة شمال أفريقيا مصابة بالتصحر في تلك الفترة.

هل هذا يعني أن تواجد البيض في جنوب أفريقيا يرجع إلى كون هذه المنطقة كانت أولى محطات الغزو التنصيري في أفريقيا؟

الذين اشتركوا في هذه الرحلة كتبوا فيما بعد: هل هذه الرحلة كانت بداية للاستعمار؟، وقالوا: إن التنصير مهّد للاستعمار، لأنه وصل إلى أفريقيا قبل الاستعمار بأربعين سنة، كما أن الذين وصلوا بغرض التنصير أصبحوا فيما بعد قادة للاستعمار.

ولذلك يقول أحد الفرنسيين: كل موقع فيه مؤسسة تنصيرية هو مكان للتدريب على الاستعمار، إذ كانت بداية التنصير في أفريقيا مع بداية الاستكشافات البرتغالية، وتتابعت بعد ذلك الرحلات من رحلة ديابو جاو في سنة ١٤٤٤م إلى رحلة فاسكودي جاما في سنة ١٨٠١م، وكثّفوا من حملاتهم وبنوا مخيمات كثيرة جدًا، وكان جنود التنصير من الجيش الملكي - فلم يكن في ذلك الحين في أوربا فصل بين الدين والسياسة -، كان هؤلاء الجنود يحملون الصليب في يد والبندقية أو الساطور في اليد الأخرى.

الضيف.. في سطور

- ولد بمدينة سلال بتشاد عام ١٩٦٢م.
- حصل على ليسانس في الشريعة والحقوق من جامعة بغداد.
- حصل على ماجستير القانون المدني الفرنسي من جامعة فرانسو رابلي بفرنسا.
- حصل على دبلوم عال في الأديان المقارنة من معهد الآباء اليسوعيين الخاص بإعداد الأئمة في التنصير من مدينة تور بفرنسا.
- يعد أطروحة للدكتوراه بعنوان: «دراسة مقارنة بين آيات الأحكام في القرآن الكريم والقانون المدني الفرنسي».
- له عدد من المؤلفات والبحوث المنشورة بالفرنسية والعربية.
- يعمل حاليا داعية في المنطقة ذات الأغلبية النصرانية والوثنية في جنوب تشاد.

كيف تقبّل الناس الديانة النصرانية هناك؟

كانت المؤسسات التنصيرية هي مؤسسات الجيش، ونجحوا هناك أكثر عندما تنصّر ملك الكونغو الذي كان قويًا جدًا. والقبائل الكونغولية قبائل بدوية مقاتلة رُحّل وفيهم مقاومة بعكس قبائل المزارعين. استمال المنصرون الملك فدخل في النصرانية، وطلب من ملك البرتغال أن يزوّده بدعاة مهرة، وقيل إنه زوده بدعاة مهرة مع مؤسسات تعليمية ترمي إلى تأهيل قساوسة سود وإداريين وكتبة وباحثين.

واستمر هذا البرنامج، واستطاع الملك إيجاد قساوسة محليين من الأفارقة أنفسهم، فانتشرت النصرانية انتشارًا كبيرًا، وكان لملك الكونغو نفوذ واسع في منطقة غانا وفولتا العليا وبوركينافاسو إلى مناطق الجابون وفي الجنوب الشرقي إلى رواندا. هذه السيطرة الواسعة مكنت ملك الكونغو من تأهيل قساوسة وكتبة وباحثين محليين استطاعوا أن يقودوا العملية التنصيرية بعد جيل واحد.

ثم جاء ولي العهد الذي لُقّب رسول الكرسي البابوي، وكانت له مهمتان: الأولى الإشراف على المؤسسات الكنسية، والثانية أنه سفير للبابا.

لكن الفونس - وهو اسم الملك آنذاك - لاحظ عملية الاسترقاق والمتاجرة بالرقيق الأسود، فكتب رسالة إلى ملك البرتغال يطلب منه فيها إيقاف هذه العملية، وقال فيها: إن مايقوم به المواطن الأوربي الأبيض من متاجرة بالأسود يؤدي إلى هدم النصرانية، وكل الجهود التي بذلت تذهب سدى.

لكن الملك أخذ بعين الاعتبار رأي العنصر الأبيض التنصيري الوافد من أوربا وأهمل هذا الاقتراح.

الكتابات الاستشراقية إلى الآن تنسب الرق إلى المسلمين وليس إلى النصارى!!

احتكاك العربي بالأفريقي الأسود يسبق احتكاك الأوربي به. صحيح أن العرب الذين وفدوا إلى أفريقيا في الجاهلية كانوا يتاجرون بالرقيق الأسود ولعل هذا كان سببًا من أسباب الغزو الحبشي الأول لليمن، لأن ابنة أخت ملك الحبشة أصحمة الحادي عشر، جاءت إلى اليمن سفيرة، فاسترقها اليمنيون، فغزاهم أصحمة الحادي عشر واستعمر اليمن لمدة أربعمائة سنة وكان ذلك قبل الميلاد، وهو الغزو الحبشي الأول لليمن، وليس غزو أبرهة.

هذا الاسترقاق انتهى بعد مجيء الإسلام الذي جعله عملا غير شرعي. وعلى كل حال فنية العربي في المتاجرة بالأسود مسألة ليست في حجم الاسترقاق الأوربي الذي حدث، والذين استرقهم العرب هم الآن أحرار يعيش الواحد منهم كأي مواطن، ويتكلم العربية ويتمتع بحقوقه كاملة. لكن الذين ذهبوا إلى أمريكا خُلعوا من جذورهم، لم يتركوهم يعيشون في بلادهم، وبعد أن استغنوا عنهم يريدون التخلص منهم، فأين يذهب الواحد منهم وقد خلع من جذوره؟!

بالتأكيد أن أساليب التنصير قد تطورت منذ ١٤٣٤هـ، هل يمكن أن نتعرف ملامح هذا التطوّر؟

لقد تجنبوا مسألة تأهيل القساوسة المحليين لأنه عندما جاء ملك البرتغال يوبولت الثاني ألغوا مسألة تأهيل السود، وقالوا: «إن هذا خطر.. وإن مهمتنا في الدرجة الأولى ليست إدخال الأفارقة في النصرانية، أو دعوتهم إلى معرفة الله»، ورد هذا في رسالة وجهها وزير ملك البرتغال إلى القساوسة الذي يقول أيضًا: «فاجعلوهم يطيعونكم ويطيعوا الإداريين الذين يقومون بنقل ثروات هذه القارة للاستفادة منها في أوربا».

معنى هذا أن الهدف ليس التنصير وإنما مجرد الاستعمار

نعم هذه الرسالة موجودة وهي سرية وفيها أيضا: «اجعلوهم يقبلوا كل شيء بلا مناقشة ولاتُعلِّموا الأسود».

وفي فقرة أخرى: «علموا الأسود أن يقتنع ولاتعلموه كيف يمنطق الأشياء». وكان يعتمد في ذلك على آية إنجيلية تقول: طوبى للفقراء فإن أبواب الملكوت مفتحة لهم.

إذن مهمتهم أن يعلموه كيف يقول نعم من دون مناقشة، وأن يكون فقيرا مستمرًا على فقره ليس لديه أي تطلّع. هذا الأسلوب أدى إلى غياب الإطار التنصيري الأسود، واستمرت هذه الحالة إلى بداية فترة الاستقلال.

أثناء انسحاب الدول الأوربية عسكريا من أفريقيا حدثت تغييرات كثيرة في أوربا، ومن ذلك الفصل بين الدين والدولة، ولذا فالجندي قبيل الانسحاب لم يكن من اهتماماته القيام بالتنصير، وقد أصبح شبه ملحد في غالب الأحوال.

والمؤسسات التنصيرية لابد أن تستمر في برامجها الاستثمارية التمويلية لتحافظ على نشاطها الكبير، فنشأت الحاجة من جديد إلى جهاز تنصيري محلي لأن الأسود هو الوريث في السلطة للإدارة المحلية؛ فعادت من جديد مؤسسات التأهيل في المجال الإداري والتقني، وقاموا بإنشاء معاهد خاصة لتأهيل جهازالدولة، وكأنهم عادوا إلى برنامج ملك الكونغو.

وكان هذا ضروريًا جدًا من أجل سد الفراغ الذي سيحصل بانسحاب القوات العسكرية، لأنهم إن لم يقوموا بسدّ هذا الفراغ فالمؤهل لسدّه هم المسلمون.

هذا يعني أن الهدف استعماري، وأنهم عندما انتهوا من تحقيق هذا الهدف، عادوا إلى الهدف الأصلي وهو التنصير، لتظلّ هذه الدول مرتبطة بهم.

بالضبط، وهم على كل حال مستفيدون، وعندما أهلوا الأفريقي ليكون أسقفا أو شماسًا أو قسًا، ودربوه تدريبًا جيدًا دينيا وإداريًا، وجعلوه أمينا على الكنيسة التي

حوار مع

حقّار بن محمد أحمد

حوار مع

حقّار بن محمد أحمد

ينتمي إليها، صالحًا لأن يكون أداة من أدوات الدولة، ويكون في الوقت نفسه قياديًا في الدين، لم يكن همهم سوى السيطرة على أفريقيا، ومهمة الحركة التنصيرية في أفريقيا مهمة سياسية اقتصادية اجتماعية، وللسيطرة على هذه القارة لابد من وجود العنصر المحلي ضمن خطة تكفل السيطرة عليها.

لهذا فإن معظم زعماء أفريقيا ماعدا شمال الصحراء من خريجي معهد اسمه «سيفوت» وهو معهد تكوين جهاز الدولة، وأي رئيس جمهورية في أفريقيا لابد أن يكون قد تخرج فيه.

أين مقرّ هذا المعهد؟

مقره الرئيسي في البرافيل في الجابون، وله فرع في كل مدينة أفريقية بالاسم نفسه، وهو أشهر شيء في كل مدينة.

كلمة سيفوت هل هي اختصار لكلمة معينة؟

نعم هي اختصار لعبارة مركز تدريب وتأهيل الجهاز العامل، وإذا لم يكن الموظف من خريجي هذا المعهد أو إحدى الجامعات الفرنسية أو الإنجليزية فلا أحد يثق فيه.

والتنصير من خلال تدريب العناصر المحلية تمكن من توجيه السياسة والفكر والاجتماع والثقافة حتى في الناحية العسكرية، ويستطيع إثارة الحروب وتحريض الدول بعضها على بعض، أو المجموعات داخل الدول بعضها ضدّ بعض.

ما الفائدة التي يجنونها من ذلك؟

هناك سببان لإثارتهم الحروب:

الأول: إما أن المنطقة التي تثار فيها الحروب ذات غالبية إسلامية عندها تَطَلُّعٌ للوصول إلى قيادة البلد، أو عجزوا عن تنصير مجموعة منهم.

السبب الثاني: أن المحسن الأوربي عندما تعجز هذه المؤسسات عن تمويل نفسها في منطقة ما فإنه يقوم بمدها بالمال، والمحسنون الأوربيون أصحاب شركات ربما تكون لها مصالح في إثارة هذه الحروب.

على سبيل المثال فأكبر شركة لتصنيع الأسلحة بما فيها طائرات الميراج والجاجوار ملك لأكبر مموِّل لحركة التنصير في أفريقيا (فَيليب داسُو).

ولفيليب داسو علاقة مباشرة بالإدارة التنصيرية المركزية، التي تعينه على بيع عدد من الرشاشات الأتوماتيكية وعدد من السيارات القادرة على السير في الوحل والرمال أثناء الحروب، حيث يكون الطلب عليها شديدًا، والمعلومة يتم توصيلها والتصديق عليها لإثارة الحرب على الشكل التالي:

من مكتب البابا إلى مكتب مجلس كرادلة روما إلى مكتب أساقفة الكنائس الإقليمية إلى سفير الكرسي الرسولي في مناطق عدة في أفريقيا. ويتم التنفيذ وإثارة الحرب وتباع كمية هائلة من هذه الأسلحة، ولهم وسائلهم وشبكاتهم الخاصة على مستوى أوربا نفسها. ولإبعاد الشبهات عن الرجل يوجدون أجواء يظهرونه فيها كأنه ملحد، وليس له علاقة بالدين.

كثير من الناس يعتبر المؤسسات التنصيرية دُوَلاً داخل الدول الأفريقية، وأنا على العكس أعتبر بعض الدول الأفريقية إدارات صغيرة داخل الحركة التنصيرية في أفريقيا.

يدربون الناس في النواحي الأمنية مع أن إنجيلهم يدعو إلى أن من أعطاك صفعة على خدك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر، هذا الكلام نظري والتطبيق مختلف.

صحيح أنك عندما ترى راهبًا وهو يصلي داخل الكنيسة تشعر أن هذا الرجل مهما يكن لديه انحراف في دينه فهو يتضرع إلى الله تعالى. لكن هذا المظهر لمجرد خداع الناس، وهذا الشخص الذي تراه يتضرع بهذا الشكل ولايرفع عينه لينظر في إنسان، هو نفسه الذي لديه اتصال بأخطر شركة لصنع آلات إهلاك البشرية.. هذه هي الحقيقة.

الدول الأفريقية اليوم تفتقر في معظمها إلى مقومات الدولة، والتنصير كحركة له دور كبير جداً في استغلال ثروات هذه الدول وعرقلة تقدمها.

هل يعني هذا أن النصرانية استطاعت الوصول إلى قلوب الأفارقة؟

عند معايشتي لمعظم الذين ينتسبون إلى الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية عرفت أن معظمهم تصدق عليه كلمة الوثني أكثر مما تصدق عليه كلمة النصراني المخلص.

لماذا؟

لأنهم قالوا يجب أن نجعل الكنيسة أفريقية عندما عجزوا أن يخرجوا الأفريقي من المعتقدات القديمة كمسألة الوسائط بين الله والبشر، ومسألة الصور الخيالية التي تتحول إلى حقيقة.

عجزوا عن ذلك لأن نصرانيتهم أصلاً وثنية، هي شكل من أشكال الوثنية، وفاقد الشيء لايعطيه، ومهما كرّسوا جهودهم ليخرجوا الأسود من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة ثلاثة آلهة (الآب والابن وروح القدس) فإن ذلك صعب. ما دامت التعددية موجودة في الأصل فغير مهم إذا كانت مائة أو اثنتين أو ثلاث.

وعلى هذا فكل من دخل في النصرانية من الأفارقة فاقترابه من الوثنية أكثر من اقترابه من النصرانية، وهذا يعني أنهم قد فشلوا في مهمتهم، والارتباط بالنصرانية اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي أكثر من كونه ارتباطا دينيًا.

(نتابع الحوار في العدد القادم)

الحج

مهرجان إعلامي ودعوي لانظير له ولكننا لانستثمر معطياته ونضيّع إمكاناته

د. محيي الدين عبدالحليم

إن العالم المعاصر في مسيس الحاجة إلى جهود هذه الأقليات المسلمة التي تعيش بداخله؛ لكي تصحح مسيرة الحياة المادية الطاغية التي تهز كيانه وتهدد حاضره ومستقبله، في الوقت الذي تأتي هذه الأقليات المسلمة من كل مكان في هذه الدنيا لأداء فريضة الحج وتعود خالية الوفاض لم تتزود إلا بالزاد الروحاني. إنهم خير رسل للإسلام في هذا العالم المعاصر الذي يمر بمنعطف خطير يواجه الحضارة البشرية كلها متمثلاً في عدم قدرة الإنسان، سواء في الشرق أو في الغرب، على تحقيق السلام الداخلي مع النفس، والذي فشل في تحقيق السعادة له أو لمجتمعه في ظل الأنظمة التي تحكم حركة الحياة في المجتمع الدولي، على الرغم من المكاسب المادية الكبيرة التي حصل عليها، وعلى الرغم من التقدم الثقافي الذي أحرزه.

إن إنسان اليوم يعيش في عصر القلق والإحباط واليأس والقنوط، والشواهد البارزة في هذا الصدد تؤكد أن العلاقات الإنسانية، على مختلف مستوياتها، مهددة بالاضطراب والخوف، ومتدهورة إلى مراحل الخطر. وهذه العلاقات تحوّل سلوك الإنسان إلى التخريب وحب الهوس الجدلي دون تحديد لهدفه أو التزام إطاره المعياري، فيسلم هذا الإنسان نفسه إلى المذاهب المادية والإلحادية بما تحويه من العبث العقلي واللاعقلي.

إننا يمكن أن نؤهل رسلاً ودعاةً للإسلام في هذه المناسبة من كل عام؛ لمواجهة الظلم الاجتماعي والأنظمة الاقتصادية والسياسية المهترئة، ولكي نقدم لإنسان اليوم الحل الإسلامي لمشاكله كافة، بدلا من هذا الضياع والتيه الذي يعيش فيه، والذي جعله يتشبث بفلسفات انتشرت في أوربا بشكل واسع لعدم وجود البديل الإسلامي.

وقد أجمع علماء الأخلاق أنه لا رادع ولا وازع أقوى من الدين، لأن الإنسان إذا ابتعد من رقابة القانون، واختفى عن أعين الناس في مسمعهم ومرآهم، ولم يكن له رادع مقدس من نفسه ولارقيب يهيمن على ضميره، ارتكب من المنكرات والقبائح مالا ينقضي منه العجب. لذلك أجمع العلماء على أن قواعد الأخلاق وأحكام القانون لايثبت لها أثر في النفوس، ولاتسيطر على الضمائر مالم تكن مستمدة من الدين. كما قرروا أنه لايكفي العقل وحده للتغلب على القوى الشهوانية والمادية في الإنسان لأن العاطفة كثيرا ماتغلب العقل والعلم، ولأن النفس الإنسانية مفطورة على الأثرة والظلم، إلا إذا منع مانع، وليس هناك مايردع العقل والعاطفة سوى الدين الذي يهيمن على الضمائر.

ثم إن النفس الإنسانية مطبوعة على النسيان، والإنسان ينسى السرور والحزن، وينسى اللذه والألم، كذلك ينسى الحقَّ والباطل، فيبعث الله الأنبياء والرسل بالدين لمعالجة هذه القضايا معالجة متكاملة.

إن هذه الأقليات المسلمة التي جاءت خالصة مخلصة لتؤدي فريضة الحج، ليست أقلّ شوقًا في نشر الدعوة من أولئك الرجال الذين ذهبوا بدعوتهم وأخلاقهم وسلوكهم من الجزيرة العربية إلى الشرق الآسيوي فأحالوا معظمه إلى دول إسلامية، ومن ثم فإن هذه الأقليات تستطيع أن تقول للعالم في المشرق والمغرب: إن الإنسان لايستطيع - ولو بلغ أعلى الدرجات في مجال العلم والمعرفة - الاستغناء عن الدين، لأنه ألزم اللوازم لتحقيق خلافته في الأرض التي أسكنه الله فيها، وسخَّر له فيها جميع الكائنات، والعالم الأوربي اليوم يهتم بالبحث عن دين عالمي بعد إخفاق المذاهب والمعتقدات الفكرية والديانات الموجودة حاليا عن إشباع رغبته وحل مشكلاته النفسية والمادية والروحية.

هذا عن الأقليات. فماذا عن هذه الأعداد الضخمة والآلاف المؤلفة من المسلمين الذين جاؤوا من الصومال ومن أفغانستان ومن غيرهما من الدول الإسلامية التي يتقاتل فيها الزعماء، وتتناحر الشعوب، وتراق دماء الجماعات، وتتمزق الأمة؟ ألا يمكن أن تعود هذه الأعداد إلى دولها لتصنع شيئا يرأب الصدوع، ويؤلف بين الخصوم ويلم الشَّمل، ويجمع الشتات، ويزرع المحبة بين أبناء العقيدة الواحدة والوطن الواحد.

ثم أين الدور الذي تقوم به المنظمات الإسلامية التي تعلق لافتات براقة، وترصد ميزانيات ضخمة لنشاطها، وتضم أعدادًا من العلماء والخبراء والأساتذة؟ أين منظمة المؤتمر الإسلامي والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والهيئات الإسلامية الدولية والقومية والمحلية؟ إن هؤلاء وهؤلاء بالتضافر مع الحكومات الإسلامية مطالبون، بل محاسبون أمام ربهم على مايدور في العالم الإسلامي من أحداث وأهوال وتخلّف وتمزق أدت إلى هذا الوضع المحزن البائس لهذه الأمة الواحدة التي تتجمع الأمم المختلفة حولها، ويتوحد أعداء الأمس، وهي تسير إلى هذا المنعطف الخطير من التمزق والتشتت والتشرذم والعداوات. فهلا تكون هذه المناسبة العظيمة فرصة لجمع الشمل ورأب الصدع وتوحيد الأمة. وهل تقوم خطط عملية لإصلاح النفوس، وتزكية القلوب، وتصحيح العقيدة، تنطلق من المؤتمر الإسلامي السنويّ في الحج؟ وتضاف إلى الجهود الهائلة المبذولة لإطعام الجائعين، وكسوة العريانين، وإيواء المشردين، ونصرة قضيتهم في العالم. ومحاولة إيقاظ ضمائر البشرية التي أضلتها أطماعها ومآربها، وأعماها حقدها على الإسلام وأهله.

لغتنا ومناهج التعليم (٢)

نحو الارتقاء بدور مناهج التعليم العربية في تنمية اللغة



د. أحمد محمد المعتوق

تحدثت في مقالي «لغتنا ومناهج التعليم» الذي كتبته تلبية لطلب من مجلتنا الغراء «الفيصل»، ونشر في عددها الصادر في شعبان الماضي ضمن الملف الخاص باللغة العربية وغربتها في بلادها، عن طائفة من أهم السلبيات أو المشكلات التي تعاني منها مناهج التعليم لدينا فيما تؤديه من دور في مجال التثقيف اللغوي. وقد كان للمقال جزء مكمل لم يتسن «للفيصل» آنذاك نشره، يتضمن بعض المقترحات التي تهدف إلى حل بعض المشكلات المطروحة، وإلى التخلص من السلبيات المشار إليها، من أجل الارتقاء بدور مناهج التعليم في عملية التثقيف اللغوي، ومن ثم التخفيف مما يعانيه ناشئتنا من ضعف في لغتهم، وماتعانيه اللغة نفسها من غربة في بلادها.

ولقد عتبت على «الفيصل» عتاب المحب لعدم نشرها هذا الجزء، لاعتقادي بأنه لايحسن الحديث عن المشكلات دون عرض الحلول مادام الهدف الأساسي هو البناء، وهو، كما يقول الدكتور زيد الحسين في مقدمته للملف المذكور: «الوصول إلى توصيف دقيق يحدد أسباب غربة اللغة العربية في ديارها، ويعين على إيجاد المخرج والسبيل لها لتعود لغة الثقافة والحياة». وربما كان يشفع لمن أعد الملف المذكور ونسق موضوعاته أنه كان يسعى لإيجاد التوازن بين المقالات فيما تستوعبه من الصفحات التي خصصت للملف. وعلى كل حال فإنني أقدر للمجلة حسن نواياها، وأكبر ماتقوم به من دور في خدمة اللغة والفكر. كما أشكر القارئ على حسن ظنه وجميل متابعته. وأرجو أن أوفق لتقديم مايمكن أن يسهم في تحقيق مستوى أفضل للغة كتابنا الكريم من خلال ماأبديه في هذا الجزء من مقترحات تهدف إلى الحد أو التخفيف من المشكلات أو السلبيات التي تحدثت عنها في الجزء السابق من المقال المشار إليه.

إن ماسبق الحديث عنه من سلبيات، يعتبر في اعتقادي من أشهر ماتعاني منه مناهج التعليم الحالية على المستوى المحلي، وربما على الصعيد العربي أيضا، وهو كما سبقت الإشارة في الجزء السابق مجرد ملاحظات، قائمة بصورة أساسية على تجربة خاصة طويلة في التدريس في مراحل تعليمية مختلفة، لاتجسد نظرة متكاملة للموضوع، ولكنها يمكن أن تشارك في إيجادها. إن تلك الملاحظات تحتاج بلاشك إلى مزيد من التأمل والتفصيل والدراسة المبنية على التحليل والتمثيل والموازنة والتتبع الدقيق لمناهج تعليم اللغة العربية، على المستوى المحلي والعربي، وهو عمل لايتسع له هذا المجال، ولربما احتاج إلى لجان متخصصة تشرف عليها إحدى الجامعات أو المؤسسات اللغوية العربية المعتبرة، لاتقتصر مهمتها على تشخيص وتحليل السلبيات وبيان مدى خطورتها على مستقبل اللغة، وإنما تتضمن أيضًا السعي لاستئصال هذه السلبيات ووضع الحلول الجذرية لكل المشكلات التي تعاني منها المقررات المذكورة، ثم وضع خطة عربية موحدة لتطوير مناهج التعليم عامة، ليتم تدريس اللغة العربية على أسس علمية منهجية سليمة في جميع أقطار العالم العربي، وبذلك يتم توثيق الارتباط بين ناشئتنا ولغتهم، وتعزيز مكانة هذه اللغة في نفوسهم من أجل ضمان مستقبل حضاري زاهر لها وللأمة.

ومهما كانت نوعية الحلول التي يمكن أن تطرح من قبل الدوائر المختصة التي تتولى معالجة القضية، ومهما كانت طبيعة الظروف التي تحيط بالمدرسة في بيئاتها المختلفة فإن هناك

أمورًا أساسية لايمكن أن يتجاهلها كل من أراد للمدرسة أن تقوم بدورها الحقيقي تجاه اللغة، وأن تؤدي وظيفتها على نحو أخص في تنمية مهارات الناشئين في هذه اللغة، وتمكنهم منها، وتوثق ارتباطهم بها، وتعزز مكانتها في نفوسهم من خلال المناهج الدراسية التي تعتمدها. وإذا لم يتسع المجال هنا للحديث عن جميع هذه الأساسيات، وتقديم كل المقترحات التي يمكن أن تخدم هذه الجوانب، فلامناص من أن نذكر طائفة من أبرزها وأهمها:

١- لاريب أن من أظهر الأساسيات التي يفترض التسليم بها، بل الحكم بضرورتها أن توضع مناهج الدراسة في كل مراحلها باللغة العربية الفصحى، ويتم التدريس في جميع مراحل التعليم أيضًا بهذه اللغة. حيث لايمكن الحديث عن دور المدرسة في نشر لغتنا وفي تعزيز مكانتها إلا بعد تحقق هذا المنطلق. وهذا لايمنع من القول بإمكانية تدريس بعض المواد العلمية في مراحل التعليم الجامعي باللغة الأجنبية إذا اقتضى الأمر ذلك. شريطة أن لاتصبح هذه اللغة منافسة للغة الأولى على مكانتها وأولوية الاهتمام بها.

وربما كان من أهم مايرتبط بهذا الأمر أن تهيأ المصطلحات العلمية والتقنية وألفاظ الحضارة العربية، فذلك يهيئ للاستغناء عن التدريس باللغة الأجنبية التي اضطر إلى التدريس بها، كما يمكّن العربية من أن تساير التطورات العلمية الحديثة ويسهل عليها استيعاب كل المستجدات، ومن ثم يسهل على المعلم والمتعلم استخدامها في كل مجالات المعرفة والفكر. وهذا الاقتراح لايمنع بطبيعة الحال من أن يتعلم الناشئة لغة أجنبية أو أكثر، تكون لهم بمثابة النوافذ على حضارات الأمم الأخرى.

٢- أن يهيأ المدرس الكفء، الواسع في علمه، البارع في فنه، المتمكن من لغته، المخلص في أداء وظيفته، القادر على بعض الحيوية والمرونة في المقررات التي يتولى تدريسها، مهما كان مستوى هذه المقررات، والذي يصلح أخيرًا لأن يكون قدوة حسنة لتلاميذه في اهتمامه واعتزازه باللغة، وإيمانه بضرورة نشرها والعمل من أجل الارتقاء بها وإنشاء العلاقات الحميمة معها.

٣- أن يهيأ للناشئ الكتاب الملائم الثري النافع في محتواه، الطريف في أفكاره ومعانيه، المتنوع في موضوعاته، المرن الثري في لغته، الشائق في أسلوبه، وأن تقدم له اللغة من خلال هذا الكتاب بكل مستوياتها وعلاقاتها وموضوعاتها ومعانيها كافة، ويربط الحديث من مفرداتها بالقديم، والمألوف بالمستحدث، والأصيل بالمنقول، والخاص بالعام، لتلبي حاجته في التعبير عن كل مايجيش في نفسه من مشاعر ويدور في ذهنه من خواطر، وتعينه على الإفصاح عما يكتسبه من المعارف والعلوم المختلفة، وعما يمكن أن تبدعه موهبته وينتجه فكره. ويفترض أن تراعى في وضع هذا الكتاب دائمًا الفروق الفردية بين الطلبة، ويراعى «أن ماصلح لجيل قد لايصلح لجيل آخر، ومايصلح لقوم قد لايصلح لقوم آخرين». ولذلك لابد أن يكون هذا الكتاب في تجدد دائم وتطور مستمر مواكب لتطورات الحياة.

٤- يفترض أن توضع كل المناهج المتعلقة باللغة على أساس دراسات ميدانية دقيقة متفحصة، تستقرئ وتتحسس أذواق التلاميذ وميولهم ومستوياتهم الثقافية والعقلية واللغوية، وتتعرف حاجاتهم وظروف حياتهم الفعلية، ويختار من الموضوعات مايتناسب مع هذه الأذواق والمستويات والميول والحاجات والظروف، وما يتلاءم مع متطلبات الحياة الفعلية. ويمكن بل من المفترض أن يستعان في ذلك بالمدرسين الذين يمارسون عملهم بالفعل، ويستفاد من آرائهم وملاحظاتهم، من طريق وضع استبانات خاصة توزع عليهم خلال فترات من العام الدراسي أو في نهايته؛ فالمدرسون أقرب إلى حياة طلبتهم وأدرى بميولهم وأذواقهم، وقد يكونون أعرف بما يلائم هؤلاء الطلبة من مناهج وسبل.

٥- أن تتضمن المقررات الدراسية موضوعات تظهر فاعلية اللغة ومرونتها وحيويتها وقدرتها على استيعاب مستجدات الحياة الحاضرة، وتبرهن للناشئ من طريق التجسيد والممارسة الفعلية على أن لغة الحضارة القديمة التي نتباهى بها هي لغة الحاضر وهي لغة المستقبل المتطور الزاهر. فيُعرَّف الناشئ من خلال هذه المقررات كل مايتجسد فيه ثراء اللغة بالمفردات الحية المرنة ومصطلحات العلوم والفنون والتقنيات الحديثة المقبولة، كما يطلع على كل مايعكس طابع العصر المتطور وتغيراته الإيجابية ومشاهده الحية المتجددة من نماذج مكتوبة ونصوص علمية وأدبية، إضافة إلى إطلاعه على مايوثق ارتباطه بتراثه الأدبي والفكري الماضي الأصيل.

٦- أن تتضمن المقررات الدراسية مايمكن أن يحفز الناشئ إلى ممارسة اللغة الفصحى، ويتيح له الفرص المتعددة للحوار والمناقشة والخطابة والكتابة، وكل ما من شأنه أن يمرن لسانه، وينمي طلاقته اللغوية والفكرية، ويرتقي بقدراته على الإنشاء والإبداع الفكري والفني، ويشعره بضرورة التمكن من لغته. فالموضوعات التقريرية السردية التي تجعل الناشئ متلقيًا، وتتركه منصتًا يأخذ ولايعطي، ويسمع ولايتكلم، يحشي فكره بالمعلومات دون أن يطبقها أو يعالجها بفكره، يمارس الحديث عنها ويعبر عن آرائه فيها ومواقفه منها، هذه لاتطور لغته وإنما تبلد ذهنه وتحد من طلاقته ومن قدرته على الإبداع، وتحسسه بضآلة أثر اللغة في حياته.

٧- أن تتضمن المقررات الدراسية موضوعات تشجع الناشئ على القراءة الحرة، وتنمي لديه حب الاستطلاع والفضول العلمي، وتربي لديه الطموح والتطلع إلى آفاق فكرية وثقافية يتسع فيها مجال استخدام اللغة وتتنوع مستوياتها، فذلك يضاعف محصوله من مفرداتها وتراكيبها ويزيد من معرفته بأساليبها، كما يعمل على ترسيخ أصولها وقواعدها في ذهنه. وهكذا تنمو لديه اللغة

ويسلس له قيادها فيزداد تمسكه واعتزازه بها. ولربما كان اكتسابه المهارات اللغوية من خلال تعلمه الذاتي واتجاهه الطوعي وقراءته الحرة أوفر وأقوى وأشد أثرًا مما يكتسبه منها من خلال دراسته المقررات الدراسية المفروضة عليه. ومما يرتبط بذلك بطبيعة الحال إثراء مكتبة المدرسة بالكتب والمجلات والموسوعات والمعاجم الملائمة؛ التي تجذب الناشئ وتحفزه إلى القراءة والبحث. ثم تشجيع الطالب بصورة مستمرة على ارتياد هذه المكتبة وتعويده البحث فيها وتدريبه على استخدام مالا يتمكن من استخدامه من محتوياتها.

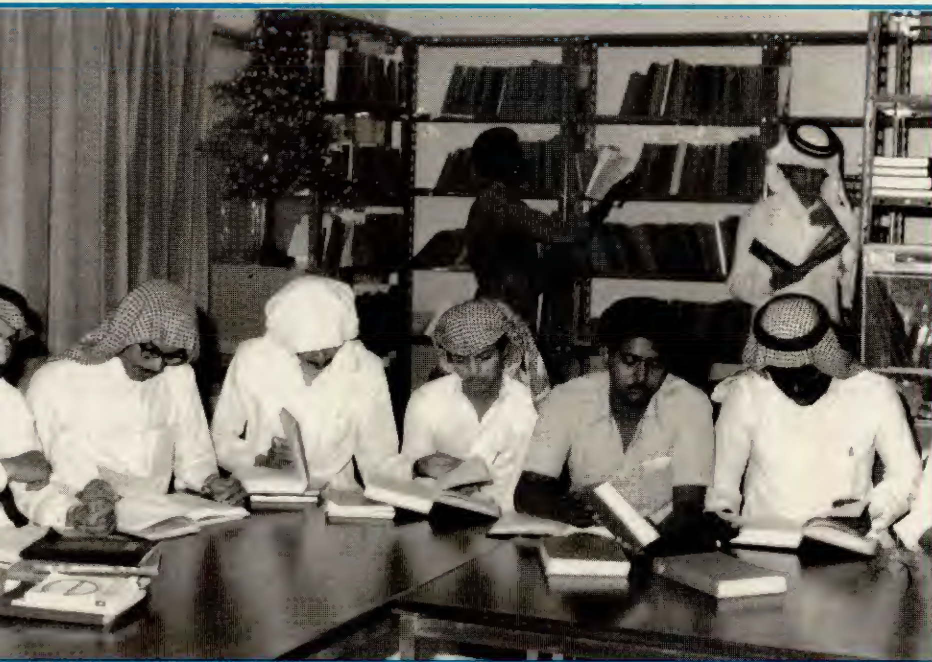
٨- ينبغي أن يكون التركيز في مقررات النحو والصرف على الوظائف الأساسية لهذين العلمين من علوم اللغة، وهي صيانة اللسان من الخطأ في النطق، وضبط الكلمات المنطوقة والمكتوبة، وتأليف الجمل وصياغة العبارات وفق النظام السليم للغة، وتصريف الألفاظ واشتقاقها وفق الأصول الصحيحة، من أجل إنشاء كلام فصيح بعيد من كل ما يشينه أو يخل به. وبناء على ذلك يفترض الابتعاد من كل مايرهق ذهن التلميذ ويثقل عليه وينفره من لغته ومن نحوها؛ مثل القواعد الشاذة أو الغريبة أو المختلف فيها، والموضوعات الشائكة المعقدة التي يحتاج الخوض فيها إلى تفرغ وتخصص، والتركيز على الموضوعات المشوقة التي تجسد قواعد اللغة في شكل محبب جميل، وإثارة الحوارات والمناقشات والأسئلة التي تتلاءم مع أذواق التلاميذ ومستوياتهم العقلية وظروفهم الحياتية. وأخيرًا الاهتمام بكل مايحث هؤلاء التلاميذ على ممارسة ماينمي سلائقهم اللغوية بشكل طبيعي عفوي وحيوي، ويجعلهم يعايشون اللغة كالقراءة والكتابة والفعاليات الخطابية...

٩- يفترض ملاحظة أن العلاقة بين النمو اللغوي والعمر العقلي أشد ارتباطًا وأكثر وثاقة من العلاقة بينه وبين العمر الزمني، وبناء على ذلك ينبغي أن تعطى الموضوعات الدراسية على نحو يتناسب مع النضوج الفكري للتلميذ ومع مقدرته على الاستيعاب والفهم والتذكر، كما يفترض أن تترك لهذا الطالب الفرص الكافية للإمعان والتأمل في النصوص أو الموضوعات المكتوبة وفي سياقاتها المختلفة؛ ليدرك مضامينها ومعاني المفردات اللغوية الجديدة أو الغريبة فيها، ويتصور هذه المعاني أو يتمثلها ويتخيلها في ذهنه بشكل كامل، ويحس بفاعليتها؛ ولهذا كان من المهم تجنب إعطاء الموضوعات أو النصوص الطويلة التي تتزاحم فيها الكلمات الغامضة، والتراكيب اللغوية النادرة الاستعمال التي يصعب على التلميذ فهم معانيها أو تصور مدلولاتها.

١٠- لايمنع من أن يطلب المدرس من تلاميذه حفظ المتون أو يشجعهم على تسميع النصوص التي لايجوز لهم التصرف فيها أو تحريفها؛ مثل الأبيات والقصائد الشعرية والخطب والحكم والوصايا والأمثال، إلا أنه لابد أن تترك لهم حرية التعبير فيما يمكنهم التعبير عن مضمونه، وتجربة قدراتهم الخاصة على الإيجاز أو التفصيل فيه أو في شرحه باستخدام عباراتهم وصيغهم الخاصة، فإنهم بذلك يمارسون اللغة ممارسة فعلية تؤدي إلى إنعاش مخزونهم من مفردات هذه اللغة، وزيادة حضورها وتبلورها وتثبيتها مع مدلولاتها في أذهانهم. كما يحسِّسُهم بحيوية اللغة وبفاعلية ماتختزن أذهانهم من مفرداتها وتراكيبها.

١١- ينبغي أن تفسر الكلمات والتراكيب اللغوية الغامضة بكلمات أو عبارات لايجد الناشئ صعوبة في إدراك معانيها أو تصور مضامينها، كما ينبغي أن لاتتعدد التفسيرات أو يسهب في ذكر المرادفات المكملة المفسرة؛ لاسيما إذا كانت هذه المترادفات ذات معان دقيقة تميز بعضها من البعض الآخر. فالأفضل في مثل هذه الحالة أن يُكتفى بذكر مايمكن أن يتطابق مع الكلمة المفسرة في المعنى أو يبين مضمونها على نحو جلي دقيق، لئلا يُربك الناشئ وتختلط في ذهنه الكلمات المتعددة فينساها كلها، أو تبقى في ذاكرته غير محددة المعاني وغير صالحة للاستخدام، أو أنها تخل بالكلام إذا استخدمت(١).

١٢- إن الكتاب المدرسي من أسهل وأقرب مايمكن أن يرجع إليه التلاميذ للبحث عن معنى كلمة غير مألوفة لديه يواجهها فيما يقرأ أو يسمع من مدرسيه أو غيرهم، لذلك يقترح



المكتبة : الركيزة التي ينطلق منها الطالب نحو إثراء معجمه اللغوي

نحو الارتقاء بدور مناهج التعليم العربية في تنمية اللغة

تزويد الكتب الدراسية، وخاصة مايتعلق منها باللغة والدين والمطالعة، بمجموعات من الكلمات أو العبارات اللفظية مع مايحدد أو يشرح معانيها؛ ليكون ذلك بمثابة قاموس صغير مبسط يرجع إليه الطالب وينمي محصوله اللغوي اللفظي من خلاله. ودعمًا لهذا الجانب يجدر أن توفر المعاجم اللغوية الملائمة وقوائم المصطلحات العلمية في مكتبة المدرسة، أو في مكتبات الأقسام في الجامعات والكليات، ويُعرَّف الطلبة كيفية استخدام المعاجم المتوافرة ويُدرَّبوا ويُعوَّدوا على الرجوع إليها باستمرار للبحث عن معاني المفردات اللغوية الغريبة.

١٣ـ لقد ثبت أن الأطفال، وربما الناشئة عمومًا، لايتعلمون ببساطة مانقوله ومانشرحه لهم، مما أدى إلى ضرورة التجربة الحسية والاتصال المباشر مع الأشياء والأحداث الحقيقية واستخدام التمثيل وجميع الوسائل التعليمية الممكنة. ومن هنا كان على المدرس، ومدرس اللغة بالخصوص، أن لايكتفي بالحديث التجريدي عن معاني المفردات اللغوية والتوضيح النظري لها، وإنما يجعل هذه المفردات حية نابضة في أذهان تلاميذه من طريق ربطها بحياتهم العلمية الفعلية وبالواقع الذي يعيشونه، بمواقفهم النفسية أو العاطفية، بتصرفاتهم وأعمالهم، وبالأحداث التي تدور بينهم أو حولهم، لتتجسد لهم مدلولات هذه المفردات. ينبغي أن يثار في التلميذ الاستعداد اللغوي أو مايسميه جون ديوي (غريزة اللغة)، وأن تجذب اللغة إلى هذا التلميذ بطريقة اجتماعية. ليتحقق اتصالها المستمر بالواقع. ومن طريق هذا الاتصال تثبت لديه فاعليتها، فيتجه إليها طوعًا. إن عملية ربط اللغة بالواقع العملي وتجسيد عناصرها يمكن أن يقوم بها مدرس اللغة ومدرس الأدب، ومدرسو المواد الأخرى أيضا.

١٤ـ ينبغي أن يتم إخراج النصوص أو الموضوعات في الكتب المقررة في طباعة سليمة جميلة بارزةالحروف مُشكّلة، وفي ورق صقيل محبب وخطوط متناسقة، على نحو يجذب الناشئ إلى مايقرأ، وترتسم الكلمات والعبارات في ذهنه في صورتها الصحيحة، وتستحضرها مخيلته في يسر. ولاننسى أن المظهر الجميل من كل شيء يترك أثرًا جميلاً في النفس ربما يطول أمد رسوخه في الذاكرة ورسوخ مايتعلق به.

١٥ـ أن تتوافر في المدرسة كل الوسائل الإعلامية والتثقيفية الممكنة؛ كالإذاعة والتلفاز التعليمي والحاسب الآلي ببرامجه التعليمية المتنوعة.(٢) وأن تقوم المدرسة بكل مايمكن من نشاطات ثقافية وفنية؛ كالنشاطات الخطابية والمسرحية وحلقات الحوار والمناقشة، والتعليق على برامج تلفازية وإذاعية معينة والمسابقات الثقافية في أشكالها وموضوعاتها المختلفة، فذلك يشعر الطالب بحيوية اللغة وبفاعليتها وشدة ارتباطها بالواقع العملي، ويجذبه إليها ويحسسُهُ بأهميتها فيتجه لاكتساب المهارات فيها ويسلس له قيادها ويشتد تعلقه بها.

١٦ـ يقترح أن لايتركز الاهتمام في الامتحان فقط على مافي المقررات الدراسية من نصوص ونماذج تطبيقية وأسئلة، وإنما تجعل النماذج الموجودة في الكتب المقررة منطلقات لمجالات أوسع تطبق فيها القواعد التي يتعلمها الطالب: فيدرب هذا التلميذ على تطبيق هذه القواعد فيما يقرأ من موضوعات في المواد الأخرى، ومايختاره هو نفسه أو يُختار له من نصوص وقصص ومقالات خارجية من الكتب والمجلات يقرؤها بعيداً من حدود الكتب المقررة وجدران الفصل وروتين الدراسة. بل فيما يتحدث به هو مع زملائه أيضا. ويكون اختباره من نوع هذا التطبيق، لتتجسد اللغة وقواعدها وأصول بلاغتها وبيانها في حياته، ولايحس بأنها محدودة بحدود كتبها ومقرراتها ينتهي اهتمامه بها بمجرد انتهاء المرحلة الدراسية أو انتهاء المقرر الدراسي.

هذه بعض المقترحات التي يمكن أن تطرح في مثل هذا المجال، لا أدعي أنها تعالج جميع المشكلات التي تواجهها مناهج التعليم العربية في تقريب اللغة إلى ناشئتنا أو في تطوير مهاراتهم فيها وتقوية ارتباطهم بها. وكيف لي أن أدعي ذلك وأنا أعلم أن المشكلات المذكورة تعتبر مشكلات نسبية، وأن كل بيئة اجتماعية لها أوضاعها الخاصة، وأن كل جانب من جوانب المناهج الدراسية، بل كل كتاب دراسي ربما يحتاج إلى فحص وتقويم خاص. إن المقترحات المطروحة هنا يمكن أن تشارك في حل طائفة من المشكلات المتعلقة بالمقررات الدراسية على نحو عام، والمقررات الخاصة بتدريس اللغة العربية على نحو خاص. ولا أزعم كذلك أنني سابق إلى طرح كل هذه المقترحات أو متفرد في إدراكها، فلاشك أن الكثيرين ممن مارسوا مهنة التدريس مثلي قد أدركوا بعض المشكلات التي سبق الحديث عنها إن لم يدركوا غالبها وسعوا إلى حلها، كل على شاكلته. ولاريب أن هناك مساع حميدة ماتزال تبذل لحل مشكلاتنا مع لغتنا، ولا أقول مشكلات لغتنا معنا، لأن لغة حماها الله وأراد لها الخلود لاتهن ولاتتراجع ولاتعاني من الضعف بقدر مايعانيه أهلها، ولغة استطاعت أن تكون يومًا ما سيدة بين لغات العالم، واستطاعت أن تجسد حضارة من أعظم الحضارات لاتواجه في ذاتها مشكلات، وإنما هم أهلها الذين لم يوفقوا في التعامل معها، ولم يكونوا بارِّين بها كما كان أجدادهم. إن قوة اللغة من قوة أهلها وحضارتها من حضارتهم، بل إنها مرآة لحضارتهم الصافية.

الهوامش:

١ـ لمزيد من التفصيل حول هذا المقترح وما سبقه، انظر: د. أحمد محمد المعتوق: «ظاهرةاللفظية: أسبابها، نتائجها، وسائل علاجها»، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الخامس، الآداب(٢)، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ص ٤٩٩ ـ ٥٣٨.

٢ـ حول الوسائل السمعية والبصرية التي يمكن أن تستخدمها المدرسة لتنمية المهارات اللغوية للطلبة، انظر: د. أحمد محمد المعتوق: «دور وسائل الاتصال السمعية والبصرية في تنمية الحصيلة اللغوية»، رسالة الخليج العربي، العدد السابع والأربعون، السنة الرابعة عشرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ص ٨١ ـ ٨٣.

الخيال العلمي..
أدب القرن العشرين



يوسف الشاروني

منذ أكثر من نصف قرن أطلق المفكر اللبناني أمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠م) صيحته الشهيرة: "أنا الشرق عندي فلسفات من يبيعني بها طائرات"، يقصد بذلك أن العرب لايهتمون بالعلم والأمور العملية قدر اهتمامهم بالكلام، وأن القوة لدى من بيده العلم. والواقع أنه من الملاحظ - على مر التاريخ - أن الأمم الكبرى تزدهر بأدبائها وعلمائها على السواء، أما الأمم الضعيفة فهي فقيرة في كليهما. لهذا فإن من دلالات القوة أن نهتم بالعلم قدر اهتمامنا بالأدب، لا ننصرف إلى أحدهما على حساب الآخر. ولعل الخلل الذي كنا نشكو منه - والذي لاحظه مفكر مثل أمين الريحاني - في منطقتنا العربية في التوازن بين العلم والأدب آخذ في الانكماش، وإن كان انكماشا بطيئا بسبب هجرة كثير من علمائنا إلى الدول الأغنى والأقدر على إتاحة الفرص والإنفاق بسخاء على الأبحاث العلمية. من هنا كانت ضرورة التنبيه المستمر على أهمية العلم في حياتنا، نظريا وتطبيقيا. ومن هنا - أيضا - كانت ضرورة الاهتمام بهذا اللون الأدبي الجديد الذي يُطلق عليه اسم "أدب الخيال العلمي" كوسيلة من وسائل إشاعة الروح العلمية بين جماهيرنا العربية.

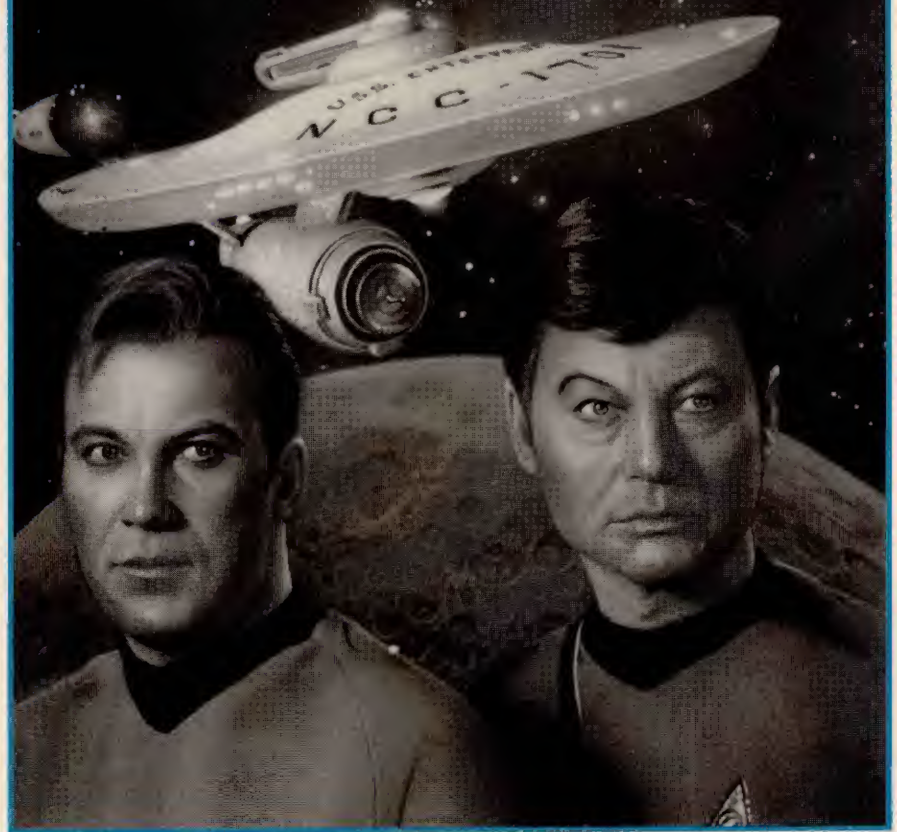
ولقد صدر - مؤخرًا - للأديب النشط محمود قاسم كتابه العاشر "الخيال العلمي، أدب القرن العشرين" (الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٣م). وهو فضلاً عن كونه من الكتب الرائدة في هذا الموضوع بالعربية، فلعله يتميز عليها بهذا العرض الشامل لهذا اللون الأدبي سواء في الغرب أو في أدبنا العربي الحديث.

وقد عرض المؤلف في المقدمة لمنهجه في الكتاب. فمن الناحية التاريخية التزم تقسيم الكاتب الفرنسي رولاند لاكورب، فقسم تطور أدب الخيال العلمي إلى ثلاث مراحل: الطلائع أو الأجداد الذين ظهروا قبل القرن العشرين ثم الكلاسيكيين؛ أما الحقبة الثانية فقد وُلدت في الولايات المتحدة الأمريكية في الثلاثينيات وتُعرف باسم سنوات النشاط المحدود، وأخيرا الحقبة الثالثة وتبدأ بظهور مجلات أدب الخيال العلمي عام ١٩٣٨م. ثم تناول الأقسام الفرعية لأدب الخيال العلمي مثل الفانتازيا العلمية وأدب الظواهر العلمية الخفية وأدب الخيال السياسي. واختتم الكتاب بفصلين، أحدهما: عن أدب الخيال العلمي عند العرب - وإن كان لم يتناول إلا أدب الخيال العلمي عند الأدباء المصريين -، أما الفصل الأخير فكان عن السينما وعلاقتها بالخيال العلمي.

بعد ذلك يقدم محمود قاسم أكثر من تعريف لأدب الخيال العلمي، وكان من بين مراجعه بحثي المنشور في مجلة عالم الفكر الكويتية عام ١٩٨٠م، حيث اقتبس قولي إن "أدب الخيال العلمي يجعل الإنسان أكثر إدراكا لوضعه الصحيح في الزمان والمكان". والواقع أن هذا ليس تعريفا لأدب الخيال العلمي إنما هو إحدى نتائجه؛ أما التعريف فقد جاء في بداية البحث "إنه نوع من المصالحة بين الأدب والعلم اللذين يعتقد الكثيرون أن هناك تعارضا بينهما. وهو تعبير عن أحلام البشرية ومخاوفها من آثار التقدم العلمي".

أما المرحلة الكلاسيكية فتتسم بعدة سمات منها: الرحلة، والمغامرة، وأنه أدب رجولي، فأبطاله رجال وكتابه رجال، ثم إنه تطرق إلى ميادين محدودة؛ كالصعود إلى القمر والرحلة حول العالم أو في باطن الأرض أو في الزمن. ومن أبرز كتّابه الفرنسي جول فيرن (١٨٢٨- ١٩٠٥م) والإنجليزي هـ.ج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦م).

وفي المرحلة الثانية - أو سنوات النشاط



غلاف إحدى روايات الخيال العلمي التي أصبحت تصدر بالآلاف في نهايات القرن العشرين

المحدود ـ استطاع أدب الخيال العلمي أن يزحف من الرواية إلى أشكال أدبية أخرى مثل القصة القصيرة والمسرحية والقصيدة والرسوم المتحركة والسينما؛ التي لم تعتمد في معظمها على نصوص أدبية مكتوبة؛ بل على خدع سينمائية لايمكن رؤيتها في كتاب مطبوع إنما على الشاشة فقط. كذلك التصق أدب الخيال العلمي في تلك الفترة بالرواية الجماهيرية لاسيما البوليسية منها، وامتلأت الصحف اليومية بمئات الروايات المسلسلة من هذا النوع. ويلاحظ أن أغلب من كتبوا في الخيال العلمي في تلك الحقبة لم يتخصصوا في كتابته ـ شأنهم شأن أسلافهم ـ بل كتبوا أنواعا أخرى إلى جانبه مثل الكاتب التشيكي كارل تشابك (١٨٩٠ - ١٩٣٨م)، والكاتب الإنجليزي الدوس هكسلي (١٨٩٤ - ١٩٦٣م) وهما أبرز كتّاب تلك الفترة.

أما في مرحلة الازدهار فقد تعرّض كتّابها إلى موضوعات أشمل وأكثر، منها:

- إزاحة الجنس البشري بواسطة جنس مختلف كالقردة أو الحشرات العملاقة أو الكائنات الفضائية.

- استعمار الكواكب، ومحاولة بعث الحياة فيها، ونقل الصراع البشري إليها، أو تحويلها إلى مدن فاضلة.

- الحروب الإعلامية بين المعسكرين الشرقي والغربي، واستخدام الفضاء ساحة لهذه الحروب، وقد تفرع من ذلك نوع جديد هو أدب التجسس.

- ظهور مايعرف باسم أدب الخيال السياسي، ويتناول مصير المجتمعات البشرية مستقبلاً.

- كذلك تناول أدب الخيال العلمي في مرحلته الثالثة موضوع الجنس في القرون القادمة: شكله، أساليب ممارسته، دوره في الحياة الاجتماعية، وعلاقته بالآليات التي يمكن أن تسيطر على هذه القرون.

- الحديث عن وجود عوالم مختلفة عن عوالمنا أو مشابهة لها انحرف ـ والأدق اختلف ـ فيها التاريخ عن مساره بالنسبة لتاريخنا.

- الرحلة بلا عودة إلي تخوم الكون.

- المشكلات النفسية التي يمكن أن تحدث للبشر الذين يقومون برحلات طويلة إلى الفضاء قد تستغرق سنوات وربما قرونا.

- سيطرة العقول الآلية على الإنسان، وتخلي البشر عن دورهم القيادي في زعامة العالم.

- تقديم تصور فكري تربوي يحطم عاداتنا في الحياة وأساليب تفكيرنا، مما يهيئ أدب الخيال العلمي لأن يصبح "أدب الأدب" بعد أن ظل أدبًا هامشيا.

ومن أبرز كتاب مرحلة الازدهار من الأمريكيين راي براد بوري المولود عام ١٩٢٠م، وآرثر كلارك المولود عام ١٩١٨م، والروائي والمخرج وكاتب السيناريو مايكل كرايتون، واسحق عظيموف (١٩٢٠ - ١٩٩٢م)، والفرنسي بيير بول المولود عام ١٩٣٦م، والبولندي ستايسلاف ليم المولود عام ١٩٢١م، والمصري نهاد شريف المولود عام ١٩٣٠م.

وقد تفرع أدب الخيال العلمي في فترة الازدهار فروعًا عدة، وكما اتسع في الكيف اتسع في المكان؛ إذ مارسته آداب لغات أخرى غير اللغات الأوروبية، ومنها أدبنا العربي المعاصر. ومن هذه التفرعات: أدب الخيال السياسي، ويُجمع كتّابه على نقطة واحدة هي أن هناك كارثة رهيبة ستحيق بالبشرية في منعطف العقود الأخيرة من القرن العشرين، وهذا يدل على مدى فزعهم من نظامنا الحالي المعاصر. بينما نتساءل نحن: هل محاولاتنا لتفادي مثل هذا المصير مجرد محاولات عبثية شأنها في ذلك شأن محاولة أوديب تفادي نبوءة الآلهة بمصيره ـ كما تزعم الأسطورة ـ، فكانت النتيجة أنه ـ بمحاولته هذه نفسها ـ

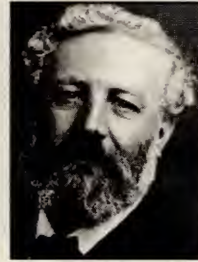
حققها. وهل كل مانملكه هو تأجيل هذا المصير أو زحزحته بضع سنوات إلى القرن الحادي والعشرين، حتى لا نعاصر تلك الكارثة وندع الأجيال التالية ضحيتها؟ لاسيما وأن تلك الكارثة إذا أمكن تفاديها من الناحية العسكرية، فهناك أبدال لتحقيقها؛ مثل الانفجار السكاني، وتلوث البيئة، والإسراف في استهلاك الأرض الزراعية، والاعتداء عليها بحيث تنكمش بينما يزداد البشر، شأنها في ذلك شأن المياه العذبة تتناقص بينما تزداد الحاجة إليها. وقد عبّر عن ذلك موريس سترونج المدير السابق لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة في حديث له عن مخاوفه قائلاً: إن الطبيعة وجدت دائما حلولا جذرية للمشاكل غير القابلة للحل (من وجهة نظرنا).

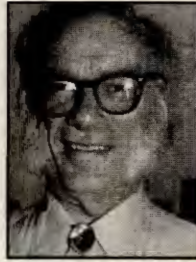
ومن كتّاب أدب الخيال السياسي الروائي الإنجليزي جورج أورويل (١٩٠٣-١٩٥٠م) صاحب رواية "مزرعة النمل" (١٩٤٦م) وروايته الشهيرة "١٩٨٤" (١٩٤٩م)، ومواطنه انتوني بيرجس (١٩١٧ - ١٩٩٣م)، والأمريكي الجنسية الألماني الأصل كيرت نونجوت المولود عام ١٩٢٢م، ومواطنه وليم هاريسون المولود عام ١٩٣٣م، وكذلك إيراليفين مؤلف روايتي "هذا اليوم العظيم" و"طفل روزماري" (١٩٦٦م) والتي حولت إلى فيلم سينمائي، وتنتمي إلى أدب الظواهر العلمية الخفية، وكذلك مواطنه برنارد مالامود (١٩١٤ - ١٩٨٦م)، والفرنسي روبير ميرل.

تفرع آخر لأدب الخيال العلمي ظهر في فترة ازدهاره الحالية هو ماعرف باسم المخيّلة (الفانتازيا) العلمية. ويعرّفها محمود قاسم بأنها تلك الكتابات المتخيّلة (الفانتازيا) الممزوجة بأجواء الخيال العلمي، بمعنى أنها ترتبط بطريقة أو بأخرى بحياة العلماء والعلم في المعامل وحياتهم الخاصة المتصلة بمهمتهم.

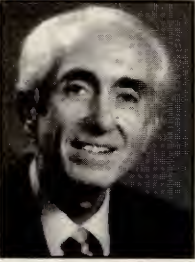
ومن رواد كتابة الفانتازيا العلمية ماري شيلي (١٧٩٧ - ١٨٥١م) زوجة الشاعر الرومانسي المعروف برسي نن شيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢م) مخترعة شخصية فرانكشتاين، ومواطنها روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ - ١٨٩٤م) مؤلف رواية "د. جيكل ومستر هايد"، وهـ.ج ويلز في روايتيه "جزيرة الدكتور مورو" (١٨٩٦م) و"الرجل الخفي" (١٨٩٧م) وبرام ستوكر مؤلف رواية "دراكيولا" (١٨٩٧م). أما الكتاب المعاصرون فلعل أبرزهم الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج (المولودة عام ١٩١٩م) مؤلفة رواية "مذكرات باق على قيد الحياة"، وثلاثية روائية ظهر منها حتّى الآن جزءان هما "شيكاستا" عام ١٩٧٩ و"الزيجات بين المناطق ٣. ٤. ٥" نشرتها عام ١٩٨٠م.

فرع ثالث انبثق من أدب الخيال العلمي الأم في مرحلة الازدهار الحالية، هو ماأطلق عليه اسم "أدب الظواهر العلمية الخفية". ومن سماته اتفاق المؤلفين اليهود لهذا اللون الأدبي - وهم كثيرون نسبيا - على أن هناك عصرًا قادمًا يسمى عصر المسيح المضاد (ربما يقابله عندنا "المسيخ الدَّجَّال") تسود فيه مملكة الشيطان التي تعمل على تدمير المسيحية إلى الأبد وظهور


جول فيرن


اسحق عظيموف


جورج أورويل


نهاد شريف

عصر جديد.

كذلك نجد أن الأبطال الحقيقيين في هذا اللون الأدبي هم الأطفال، وأن رجل الدين هو الشخص الوحيد القادر على رد روح الشرّ وإزالته من الوجود؛ وذلك عن طريق طرد هذه المخلوقات من جسد الطفل الذي تتقمصه، أو التصدي لابن الشيطان، كما أن طارد الأرواح غالبا ما يتجه إلى الشرق لتعلُّم أساليب التصدي للشيطان. كذلك فإن من سمات روايات مايُعرَف بالفانتازيا العلمية وجود مجموعة من المخلوقات بشرًا كانوا أو حيوانات تقوم بخدمة الشيطان وتسيطر عليها روح الشر، ويدفعها الشيطان لمعاونته على تحقيق أهدافه. كما يختلط في هذه الروايات الواقع بالخيال بالحلم بالمنطق العلمي، حيث تمتزج أزمنة كثيرة بأماكن متعددة من الصعب الفصل بينها. وعملا على كسر رتابة هذه الروايات فإن مؤلفيها يفتنّون في خلق أجواء مثيرة للخيال والمشاعر والأعصاب، ويجعلون القارئ في حالة توتر مستمر متسائلا عما يمكن أن يحدث لأبطاله لاسيما وأن معظمهم من الأطفال.

ويُلاحَظ من ذلك أن كتّاب أدب الظواهر العلمية الخفية تناولوا ظواهر أيّدَ العلم وجودها لكنه عجز عن إيجاد تفسير علميّ مقبول لها، تلك هي الظواهر التي اصطُلِحَ على تسميتها باسم "الباراسيكولوجي"، والتي امتزجت بالفلسفة وعلم النفس والطب والسحر والدين والخيال؛ مثل التخاطر وهو انتقال أفكار من ذهن إلى ذهن دون الاستعانة بالوسائل المألوفة، والاستشفاف وهو المعرفة أيضًا بالوسائل غير المألوفة لكن دون اشتراط وجود ذهن آخر، وظاهرة تيليكينسيس Telekinsis وهي القدرة على تحريك الأشياء بمجرد تركيز التفكير عليها ودون المساس بها.

ومن أبرز كُتّاب هذا اللون الأدبي إيرا ليفين في روايته التي أشرنا إليها سابقا "طفل روز ماري"، وستيفن كنج (المولود عام ١٩٤٦م) مؤلف روايات "كاري" عام ١٩٦٧م، و"ساحرات سالم" و"إشراق" و"منطقة الموت" و"عين القط" و"الصامد" و"الرصاصة الفضية" و"شعلة النيران" و"كريستين" وغيرها، ثم هناك وليم بيلاني مؤلف رواية "طارد الشياطين"، وهو كاتب سيناريو وروائي ومخرج سينمائي أمريكي الجنسية لبناني الأصل.

وينتقل محمود قاسم في الفصل الثامن من

الخيال العلمي
أدب القرن العشرين

كتابه إلى "الخيال العلمي في الأدب العربي"، فيشير إلى الدراسة التي نشرها كاتب هذا العرض عام ١٩٨٠م في مجلة عالم الفكر عن هذا الموضوع، ويصفها ـ مشكورا ـ بأنها أوفى الدراسات التي قُدِّمت حول أدب هذا اللون في العالم العربي. وأرجو أن تكون هناك دراسات أحدث تابعت نمو هذا اللون الأدبي في كل أقطارنا العربية. ولعل أهمية الدراسة المنشورة عام ١٩٨٠م يأتي من كونها دراسة رائدة، وأنها أوجدت تاريخا وذاكرة للخيال العلمي في أدبنا المعاصر، حتى ليقول مؤلف الكتاب: إن كاتب تلك الدراسة راح "يفتش عن أية رائحة لهذا الأدب في مصادر متعددة لدرجة أنه اعتمد على الدراما الإذاعية التي تم تلخيصها بعد ذلك في مقالات من أدب الخيال العلمي".

وبعد أن لخص محمود قاسم تلك الدراسة، وقف وقفة مطولة عند نهاد شريف (المولود عام ١٩٣٠م)، والذي يُعتبر أول من كرس نفسه للكتابة في أدب الخيال العلمي باللغة العربية قصةً قصيرة وروايةً ومسرحًا. وتتلخص محاور أدبه في قهر الزمن؛ إما من طريق تبريد الأجسام كما في روايته "قاهر الزمن" (التي نشرها عام ١٩٧٢م)، أو من طريق مدنه الفاضلة التي يحلم بها أبطاله؛ مثل حلم الدكتور حليم صبرون في "قاهر الزمن" أن يطول متوسط عمر البشرية إلى ١٥٠ عامًا. ومن هنا كان المحور الثاني الذي يدور حوله أدب الخيال العلمي عند نهاد شريف هو الطب، حيث يطول عمر الإنسان ـ بالإضافة إلى التبريد ـ بوساطة وسائل أخرى مثل تناول إكسير. وهذا يقودنا إلى محور ثالث هو الحلم بمدن فاضلة تجد حلولا لمشكلات العالم المتعددة مثل زيادة النسل والإسكان والمجاعات والموت والأمراض والحروب. هذا المحور يقودنا بدوره إلى المحور الرابع وهو الصراع بين قوى تستخدم العلم


محمود محمود محمد قاسم

لقهر الإنسان وقوى أخرى تستخدمه لقهر هذا القهر، والانتصار غالبًا مايكون في جانب الخير. فأحلام نهاد شريف هي القضاء على كل ما يؤرق البشرية لاسيما وسائل التدمير الرهيبة التي هي نتاج العلم أيضًا. وكما رفع نهاد شريف رؤوسنا نحو سكان الفضاء سواء القادمون منهم إلى الأرض أو الموجودون في الكواكب المجاورة، فإنه أحناها كذلك نحو قاع البحر باعتباره سيكون مجالا لحل كثير من مشكلات الإنسان مثل الإسكان والطعام كما في روايته "سكان العالم الثاني" التي نشرها عام ١٩٧٧م.

كذلك يحتفظ نهاد شريف بشاعرية الأسلوب، موجدًا بذلك توازنا مع الموضوع العلمي لرواياته وقصصه، حيث يوظف هذا الأسلوب لإضفاء جو الحلم واللمسة التنبُّئيّة على الموضوع العلمي. بالإضافة إلى أن عنصر التشويق من أهم عناصر أدب الخيال العلمي عنده، ويتم ذلك من طريق إضفاء ماإصطلحنا على تسميته بالعربية بالقصة البوليسية، ففي بداية معظم قصصه ورواياته شيء من الغموض يثير رغبة القارئ في متابعة الأحداث إلى أن ينجلي عنها غموضها.

أما رؤوف وصفي (المولود عام ١٩٤٩م) الذي كرس هو أيضًا قلمه للخيال العلمي ترجمة ودراسة وإبداعا للكبار والصغار، فلم يكتب إلا القصة القصيرة من أشكال الإبداع الأدبي، وتدور معظم هذه القصص عن الخيال العلمي من جانبيه المتعلقين بالمستقبل والفضاء، كما أن قصصه تجمع بين الخيال العلمي والرعب، كما يدور كثير منها حول الإشفاق على مصير الحب في عالم المستقبل حيث تسوده الميكنة والعقول الإلكترونية. كما تتميز قصصه من ناحية المعالجة بإجادة استخدام عنصر المفاجأة، فهو يهتم بالعناصر القصصية اهتمامه بمادة الخيال العلمي.

ويختتم محمود قاسم كتابه الرائد بفصل عن السينما والخيال العلمي. فسينما هذا النوع تعتمد أحيانًا على أدب الخيال العلمي المكتوب رواية أو قصة قصيرة، لكنها في أحيان كثيرة تعتمد على نص كُتب لإخراجه سينمائيا مباشرة. ولعل أهم ماينتجه الخيال العلمي لهذا اللون من السينما هو إبراز الحيل السينمائية على نحو مارأينا مؤخرا في فيلم "حديقة الديناصورات".

كذلك تناولت سينما الخيال العلمي موضوعات الإنسان الآلي والغزو الخارجي لكواكب الأرض بوساطة الأطباق الطائرة، وغزو الإنسان للفضاء الخارجي، وغزو المستقبل بوساطة آلات الزمن. كما تعرضت لموضوعات طبية؛ كالاتجار بأعضاء الجسم البشري وتغيير المخ والقيام برحلة داخل شرايين الجسد البشري في كبسولة صغيرة.

كما استفادت هذه السينما من مجلات الرسوم المتحركة لنقل شخصياتها إلى السينما؛ مثل شخصيات سوبرمان والرجل الوطواط والرجل العنكبوت وفلاش جوردن وغيرها.

ثم يطلق محمود قاسم في خاتمة كتابه صيحة تحذير حين يقتبس قول الكاتب الفرنسي "رولاند لاكورب" قائلاً: إن الخيال العلمي كان بإمكانه أن يضاعف من إنذارنا بضرورة توازن العدالة ومساواة الفرص والإخاء الوطني، فالمجاعة أهلكت ستين مليون نسمة في عام واحد تقريبا ـ أي مايوازي قتلى الحرب العالمية الثانية ـ، ونحن نصاب بالقلق لمجرد مرض يصيب حلقنا، فما بالنا والبركان الذي نعيش فوقه ينفجر بالفعل؟.

وأخيراً فإن هناك نقدا قد يُوجه إلى الكتاب أنه أغفل كثيرا من الأسماء اللامعة التي كتبت في أدب الخيال العلمي لاسيما من بين الكاتبات، لكن الرد على ذلك هو أن هذا الكتاب لم يقصد به مؤلفه أن يكون موسوعة في أدب الخيال العلمي، بل هو مجرد بداية وخطوة أولى على الطريق.

البارون عمر إهرينفلز
رباط خفي
جذبه إلى الإسلام

كانت نشأته في بيت علم وحسب ونسب؛ فوالده البارون كريستيان إهرينفلز مؤسس التركيبية الحديثة في مدرسة الجشتالت(*) في علم النفس بالنمسا، وكانت شقيقته إيما شاعرة، وحظي في طفولته برعاية وحنان زائدين لكونه الصبي الوحيد بين مجموعة من الأخوات الإناث.

ومنذ صباه المبكر كان رالف إهرينفلز - وهذا اسمه - يشعر بشيء يجذبه إلى الشرق بعامة، والشرق الإسلامي بخاصة، كأن رباطًا خفيًا يربطه بهذا العالم الذي لم يره، فسّر والداه سببه بما سمعه من حكايات عجيبة عن هذا العالم «الغامض»، أما هو فلم يكن يدري سر هذا الانجذاب، وذلك الرباط الخفي الذي يربطه بالشرق وأهله.

وحين سافر في عنفوان شبابه إلى تركيا ودول البلقان، واختلط بالمسلمين الأتراك والألبان والبوسنيين، كان يجد نفسه كلما رأى الجموع متجهة لأداء الصلاة في المسجد، منساقًا بقوة خفية لأداء الصلاة معهم دون أن يتخلى عن نصرانيته، حتى ظن كثيرون أنه مسلم، أما مَنْ كانوا يعلمون حقيقة ديانته، فلم يبوحوا لأحد بذلك، أملاً في أن يكتب له الله الهداية، وأن يرتوي قلبه من نهر الإسلام الخالد.

بداية المسيرة نحو الهدى

في ضوء هذه الروح السمحة التي استقبله بها المسلمون بالرغم من معرفتهم كونه نصرانيًا، بدأ رالف يعيد النظر في الكثير من أمور عقيدته، وتنكشف أمامه حقائقها المزيفة، وضلال معتقداتها، وبعدها من الجانب الإنساني باتباعها أسلوب العنف في السيطرة على مقدرات الشعوب الأخرى، وإذلالها باحتلال عسكري وحشي باسم المسيح عيسى عليه السلام، وهو براءٌ من أفعال من ادّعو الانتساب إليه .

ومع تنامي شكوكه في صحة عقيدته، بدأ اهتمامه بالإسلام ينمو تدريجيا، فمال إلى دراسته، ليكتشف حقيقته، وبهرته حقائق القرآن الكريم، وما جاء في كتاب الله عن انبثاق الرسالات السماوية جميعها من مصدر واحد، وكونها جميعها دعت إلى مايدعو إليه الإسلام من عبادة الله الواحد الأحد الذي لاشريك له في ملكوته، وبدأ - للمرة الأولى - يفهم أن لفظة «إسلام» تعني التسليم بوحدانية الله، والإخلاص له - عز وجل - في العبادة سرًا وجهرًا.

دراسة علم الإنسان قرّبته من الإسلام

وشدّته روح الأخوة الإنسانية التي نادى بها الإسلام حين لم يفرق بين أمّة وأخرى، أو بين فرد وآخر، تلك الروح التي رفضت وترفض أشكال التميز العرقي أو الاجتماعي أو الحضاري كافة، وتجعل الناس جميعًا سواسية، لامفاضلة بينهم إلا بالتقوى.

وساعدته دراساته في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في معرفة العديد من محاسن الإسلام، فبدأ الإيمان يوقر في قلبه ولسانه، خاصة بعدما قرأ سيرة سيد المرسلين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

اهتمام بالمرأة المسلمة

ولم يكد عام ١٩٢٧م يحل حتى اعتنق رالف إهرينفلز الإسلام، واختار «عمر» ليكون اسمه الجديد، تيمنا بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وبدأ ارتباطه بالمسلمين يزداد توثقًا بعدما صار واحدًا من أبناء الأمة الإسلامية، فزار عام ١٩٣٢م شبه القارة الهندية، وأولى اهتمامًا خاصًا بالمشكلات الحضارية والتاريخية المتعلقة بمكانة المرأة ووضعها في الإسلام، ردًا على مايشاع من دعايات مغرضة بهذا الشأن؛ حيث حرص على أن يبين مدى ماأعطته الشريعة الإسلامية للنساء من حقوق، وكيف أن المرأة المسلمة لها مكانة ووضع مميزان في رحاب الشريعة الإسلامية، حتى

إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أكد أن الجنة تحت أقدام الأمهات.

لقد كان اهتمام عمر إهرينفلز بالمشكلات الحضارية للمرأة المسلمة سببًا في إيضاح حقائق كثيرة أمام الرأي العام الغربي، الذي أوهمته الكنيسة وقساوستها بأن المرأة في الإسلام تعدّ من سقط المتاع، فجاءت دراسات إهرينفلز لتؤكد أنها نالت من الحقوق والاحترام مالم تنله نظيرتها في النصرانية أو اليهودية.

علاقته بالهند

وحين عاد عمر إهرينفلز إلى النمسا كان قد اتجه في دراساته وجهة محددة، حيث تخصص في دراسة المشكلات الأنثروبولوجية للثقافات الأموية في الهند، ولاقت كتاباته رواجًا كبيرًا في أوساط المثقفين، الذين شدّتهم الثقافة الهندية دون أن يدركوا أن لها أصولاً إسلامية، مما حدا بجامعة أكسفورد إلى نشر كتابه الأول في هذا المجال ضمن سلسلة إصدارات الجامعة العثمانية بحيدر أباد.

ثم سافر البارون عمر إلى الهند مرة ثانية بدعوة من السير أكبر حيدري، عقب اجتياح القوات النازية للنمسا عام ١٩٣٨م، حيث أجرى دراسات ميدانية في حقل الأنثروبولوجيا في جنوب الهند، وتوثقت صلته أكثر بهذه البلاد التي أحبها، فترأس عام ١٩٤٩م قسم الأنثروبولوجيا في جامعة مدراس، ولإسهاماته العلمية الأصيلة مُنِحَ في العام نفسه قلادة «روي» من جمعية البنغال الآسيوية الملكية.

دفاع عن الإسلام وحضارته

لقد أسهم البارون عمر إهرينفلز في توضيح الكثير من الأمور التي كانت خافية عن الأوربيين حول الإسلام والمسلمين من خلال دراساته العلمية، التي أوضحت حقائق كثيرة عن أفضال المسلمين على العالم، وكيف كانت بلادهم مشعلاً للحضارة في وقت رزحت فيه أوربا تحت الحكم الكنسي الذي أصابها بالتخلف، وتمكن عبر مناقشاته العلمية من توضيح جوانب كثيرة مضيئة لتاريخ الإسلام الحضاري، أنارت للعديد من المثقفين دروبهم، ومن بينهم أخته إيما، التي تابعته في شغفه بالحضارة الإسلامية من خلال اهتمامها بالأدب الإسلامي، وإسهاماتها في هذا المجال.

وحتى آخر لحظة في حياته كان البارون عمر حريصًا على أن يؤكد لكل من يلقاه سَبْق الحضارة الإسلامية، وعالمية رسالة الإسلام. وحين رحل عن هذه الدنيا كان قد ترك خلفه مجموعة من المؤلفات الإسلامية والعلمية، من أبرزها مؤلفه المصور في مجلدين عن الأنثروبولوجيا الهندية والعامة: «علم الأقوام» الذي طبع في دِهلي عام ١٩٤١م.

رحل عمر إهرينفلر بعد أن أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته القيمة التي ماتزال خير معين لكل باحث في مجال الأنثروبولوجيا، رحل ولسان حاله يردد قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعوله».



من تركيا بدأ عمر إهرينفلز رحلته نحو الإيمان

(*) الجشتالت (Gestalt): مدرسة في علم النفس أنشأها ماكس فرتهيمر، وفولفجانج كوهلر، وكورت كوفكا في ألمانيا كرد فعل للمدرسة الحسية الارتباطية القائلة بأن الظاهرة النفسية تتكون من عناصر. ونظرية الجشتالت (أو الصيغة أو الشكل) تذهب إلى أن الظواهر النفسية وحدات كلية لها خصائص تختلف وتعلو على خصائص الأجزاء. وتُفسر العمليات على أنها إعادة بناء وتنظيم.

طريق الهدى

فضيلة الشيخ :

د. صالح بن سعد اللحيدان

نسك الحج

أريد أن أحج لكن مالي لايتسع للهدي، ولا أقدر على الكفارة، فماذا أفعل؟

ناصر ب ب، الرياض.

نسك الحج ثلاثة: تمتّع وقِران وإفراد. فمن أراد الحج وحاله كحالك فإنه يحج مفردًا بالحج فقط، وصفته أن يقول عند الميقات وبعد لبس الإحرام: «لبيك حجا فيسِّره لي وتقبله مني»، ثم يلبي بالحج، ويدوم على إحرامه هذا إلى يوم النحر (العاشر من ذي الحجة)، فإذا حلق أو قصَّر، وطاف طواف الإفاضة فإنه يحل له كل شيء إلا النساء؛ إلى أن يتحلل التحلل الثاني برمي الجمرة. وليس عليك «دم» أي هدي، فإذا تعجلت ورميت يومي (١١، ١٢) فتخرج من مكة قبل الزوال، وإن تأجلت فتمكث حتى تتم رمي الجمار كلها في أيام (١٠، ١١، ١٢، ١٣) وتخرج بعد طواف الوادع. ولعلك تسأل أهل العلم إذا ندبك أمر ما تحتاج إلى فهم المراد منه.

حج أم طلب الدنيا؟

شخص نوى عن نفسه الحج ولكن يغلب عليه جانب حب السفر.. والمتعة.. وحب صفة الآمر الناهي؛ إذ إنه مع مجموعة من الناس، يخول له موقعه منها مثل هذا الأمر. فهل حجه صحيح؟

س.م.م.أ، مصر.

الحج عبادة بدنية ومالية وشرعية، كما أنه عبادة روحية ونفسيه وعقلية، وعبادة دنيوية، ومجمل هذا كله وجوب حضور النية أن الحج لله قولاً وعملاً دينًا ودنيا، فمن أدخل في نيته أشياء مثل ماذكرت؛ فهذه أمور إن قصدها «أصلا» فحجه غير صحيح، لأنه أراد هذه الأمور، وتلبس لباس الحاج، ولهذا قال تعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومَحْياي ومماتي للّه ربِّ العالمين لاشريك له وبذلك أُمرتُ﴾ (الأنعام:١٦٢).

ومثل هذا أدخل في قصده حب الرياسة والشهرة والقوة - مع ماذكرت في سؤالك من طلب المتعة والسفر - فهذا يدور بين أمرين:

١- تعلقه بالدنيا وحبه لها: مالاً وجاهًا.

٢- جعله العبادة وسيلة لدنياه وجاهه، ولاشك أن هذا فيه خلل في عقليته المركبة. لكن إن استدرك قبل الحج، فحجه صحيح، لكن عليه رد المظالم.

رد المظالم

ماحكم رد المظلمة سرًا؟

ع.ل.ن، القاهرة - مصر.

لابأس برد المتاع المسروق وكذا المال، لأن المقصود رد الحق إلى صاحبه بعينه أو مايساويه مالاً بمال، أو متاعًا بمتاع، وكذا الأراضي والمواشي .. ثم التوبة بعد ذلك؛ لأن صحة التوبة لاتكون إلا بعد رد الحقوق، مالم يتعلق هذا بظلم معنوي فهذا خطِر جدًا، فلابد هنا من الاستباحة لكن بعد رد الاعتبار المعنوي؛ كهضم الحقوق والغيبة والنميمة التي تكون سببا في طلاق زوجين، أو نحو ذلك

معنى صحيح
وإن ضعف سنده

هل صح حديث «إياكم وخضراء الدمن»، وحديث: «فاجتالتهم الشياطين»؟

م.م.م، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة.

الأول لم يصح سندًا ففي سنده مقال، فإن أحد رواته متهم. فالحديث ضعيف، ومعناه أن الفتاة قد تكون جميلة ولطيفة ومهذبة، لكنها تربت تربية خلقية سيئة بسبب بيت سيئ، أو ولي سيئ يهمل أو يتساهل في آداب الشريعة وقيمها. فيخرج بسبب هذه الفتاة (جيل) سيئ بحكم النشأة والاهتمام بالجاه والمظاهر. ومعنى النص صحيح، وإن ضعف سنده.

أما الثاني فهو صحيح، وهو كما ورد: «خلقت عبادي حُنفاء فاجتالتهم الشياطين»، وهو في صحيح مسلم رحمه الله تعالى. ومعناه أن أصل خلق الإنسان أنه مجبول على الخير والفطرة السليمة، لكنه ينحرف بسبب من الأسباب، إما بسبب شياطين الجن، أو شياطين الإنس، ومن تدبَّر الحياة بعين نقادة أدرك هذا بوضوح.

الغازات
ومشقة الوضوء والصلاة

راجعت بعض الأطباء فقالوا إنني مصابة بمرض القولون العصبي، وعندي غازات كثيرة تخرج دائما. وأنا أعاني منها مشقة بالغة خاصة عند الصلاة والوضوء. فماذا أعمل؟

وماهو علاج الغازات في رأيكم؟

ن.س.ع، الرياض.

إذا كانت الحال كما ذكرت، وأن الغازات الباطنية مستديمة ومحسوسة فعلاً، فإنكِ تتوضئين لكل صلاة، ثم تقيمين الصلاة حالاً، ولاتلتفتي للغازات عند خروجها فأنت مثل المستحاضة، ومن به سلس البول. وأرى أن تعرضي نفسك على طبيبة متخصصة، تستطيع أن تشخص الداء، وتصف الدواء الناجع إن شاء الله.

وفي رأيي - حسب اطلاعي - أن الغازات يمكن تخفيفها بعدم تناول الدسم والمأكولات الحارة، وتجنب المشروبات الغازية أوالإقلال من تناولها، وتقليل الملح والطماطم في الطعام.

وعليك بالمداومة على الذكر، والمحافظة على الصلوات، ولايكلف الله نفسا إلا وسعها، وورد في الصحيح: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم».

ومرض القولون العصبي سببه حساسية النفس، وسرعة الاستجابة للمؤثرات الخارجية.

ردود خاصة

الأخ م.م.ن، الرياض - كلية أصول الدين:

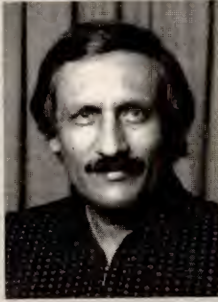
راجع المحلّى لابن حزم جـ٣ ص٦٥ حتى٩٢، والمجموع للنووي جـ٥ ص١٠٥ حتى١٣٠، وفتح الباري لابن حجر جـ٩ ص١٤٠ حتى٢٠٠، وحاشية ابن عابدين جـ٢ ص٤٦ حتى٨٠.

الأخ سليم بن علي، صبيا - جيزان:

يصلك جواب خاص حول المرض النفسي.

من الأدب الروائي المغربي:
رواية: "وعاد الزورق إلى النبع" (*) لعبد الكريم غلاب

توظيف العمل الروائي في الإصلاح الصحي والتعليمي



محمود رداوي

تحكى رواية [وعاد الزورق إلى النبع] لعبد الكريم غلاب قصة شاب حديث العهد بالتخرج من كلية الطب، يُعيّن في إحدى قرى وطنه المغربي (ابن عبو) رئيساً لمستوصف صغير وحيد فيها.. بُعَيْدَ الاستقلال. وتدور جُلّ أحداث الرواية في تلك القرية المغربية، بدءاً بوصول الطبيب الشاب (فوزي) إليها، والتقائه بمسؤول السلطة هناك (القائد) الحاكم بأمره الذي أوصله إليه الفتى (أحمد)، ومروراً بالمستوصف وخادمته (جمعة) شقيقة (أحمد)، وماعترضه من صعاب في عمله الإنساني، وماطرحه من فكر جديد نظرياً وسلوكياً، انعكس على أحمد وشقيقته (جمعة) التي تصبح على يديه متعلمة وممرضة ثم زوجة، وهجرة (أحمد) إلى المدينة عاملاً مسحوقاً هناك.. وانتهاء بعودته إلى قريته بأفكار جديدة عن العمال والمزارعين. قسم من تلك الأفكار استقاها من (فوزي) والقسم الآخر من حياته المدنيّة الجديدة وتجربته القاسية.

ولهذا فالرواية تحكي قصة الصراع الفكري: النظري والتطبيقي بين القرية والمدينة، بين أجمل مافي القرية من صفاء أو براءة حيناً، وجهل وكسل وجمود حيناً آخر. بين الأفكار الجديدة التي يمثلها (فوزي) و (أحمد) والقديمة التي يمثلها (القائد) وجماعته وآخرون أمثال (السهبي) في المدينة وأعلام قروية.

وتلوح في الرواية تباشير الآمال العريضة في آفاق الخيال، وبالتغيير الذي سيعم القرية بمفاهيمها الجديدة التي رسمتها لهم الأحلام، وخيال (فوزي) الذي أصر في نهاية الرواية أن يظل عاملاً فيها، ليسهم في بناء النهضة الزراعية والصحية والتعليمية والاجتماعية.. وأن مهمته ليست في علاج الأجسام فحسب، وإنما في علاج العقول والنفوس مما تأصّل فيها من علل اجتماعية وغيرها، وكأن القرية هي النبع لكل المثل والقيم، ومصدر العطاء، ومصدر الانطلاق، ومنها يبدأ التغيير الشامل في كل شيء. وتصبح كل الاحلام حقيقة، فتستحيل الرواية إلى مشروع بناء لأجيال قادمة. ولذلك فهي فيمايبدو رواية تعليمية إصلاحية، يسعى (الغلاب) من خلالها إلى تغيير الكثير من المفاهيم والممارسات من خلال شريحة قروية صغيرة في رقعتها وسكانها من وطن كبير.

النسيج الفني

قام بناء الرواية، أو نسيجها الفني، على خمسة وعشرين مقطعاً -ولانقول مشهداً- استغرقت مائتين وستّا وثمانين صفحة من القطع المتوسط والحروف الصغيرة. وتخلل كل مقطع العديد من المشاهد.

إن تعدد المشاهد وتواليها في المقطع الواحد ثم تداخلها، وتقارب الأحداث المتباعدة في المكان، والمتلاحمة في الزمان.. ليحافظ على وحدة العمل الفني، ووحدة الانطباع والمشاعر لدى المتلقي. أي إن السياق يخرج دوماً عن مجراه، ويحيد عن مسراه ليتجه وجهة أخرى.. للاسترجاع والعودة للماضي.. ثم استحضاره، وبلورته، والوقوف عند مجريات جديدة تصب حالاً في الواقع والحاضر واللحظة الآنية.. لمتابعة المجرى والمسرى. واسترجاع الماضي وتصويره، يظل في أشكاله محافظاً على دوره في إكمال صورة الواقع والحاضر. أي إن الماضي -في عودته- استمرار للحاضر وشخوصه. فتختلط

الذكريات بالواقع، ويحرك الواقع لواعج القلب، وتستثير مرئيات المشهد، لتنداح في عالم الذاكرة والذكريات وقائع أخرى.. تتحرك، فترسم معالم جديدة تمتزج بمعالم الحاضر والواقع. وإن هذا من أثر فن الشاشة (تلفاز وسينما) على الروائيين.

وهكذا فتداخل الماضي بالحاضر عملية فنية مدروسة، كل ذلك لتظل صورة أحداث الرواية وأبطالها واضحة جليّة في ذهن القارىء لتأخذ مكانها في البناء الروائي. وإن أخرج هذا التداخلُ القارىءَ أحياناً ليضعه في حالة مربكة كما في صفحة ٢٥٠.

ويسعى الروائي الغلاب دوماً إلى توضيح مواقف شخصياته وتكوينهم النفسي والثقافي من خلال:

الحوار والسرد الوصفي: يعتمد الكاتب الحوار والسرد الوصفي أسلوبا لاسترجاع الماضي في لحظات خاطفة، وهو حيال حالة أساسية في المعمار الروائي. ولاتتوقف لحظات الاسترجاع على نموذج شخصي معين، بل يستخدمها مع الأبطال: المحاور والفروع، لأنها في النهاية تضيء جوانب جديدة في أركان الرواية.

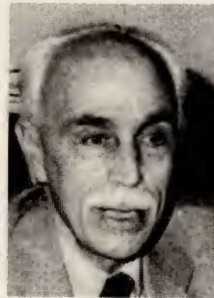
ولابد للحوار أن يسبقه ذلك الاسترجاع أو السرد أو الوصف.. كي تتضح معالم الشخصية، أو الحدث أو الموقف.

والحوار بين الشخصيات المتصارعة -كالحوار بين فوزي والقائد مثلاً- حوار حي متحرك، لأنه مسبوق بوصف نفسي وولوج في الأعماق، وكشف للبواطن.. فضلاً عن تلمس الدقائق التي تبدو صغيرة في وصف الحركات الخارجية، ولكنها تنسجم مع وصف الحركات الداخلية. ولهذا لايحس القارىء بأنه حيال حوار سفسطة وجدل جاف، وإنما هو فكر يجابه فكراً، وموقف يتصدى لموقف.. وقد لايجتمع الفكران أو الموقفان في صعيد واحد ولكنهما منسجمان الواحد مع الآخر متكاملان، في اجماع الضد مع الضد والنقيض مع النقيض. وقد يأخذ الحوار الداخلي طريقه إلى نفس «فوزي» ليحدد له المشكلة الحضارية التي بدأت تفرض وجودها على تفكيره. لذلك انطلق صوت فوزي معترضاً: «أو تريد أن تنقل المدينة إلى القرية أو تنقل القرية إلى المدينة؟!» وتتشابك الأسئلة والأجوبة لدى فوزي.. ويبدو في حالة من الازدواجية المتباعدة «بعقلية المدينة سأعيش في القرية ، الكوخ أم الغرفة؟ ضياء القمر ونار الحطب أم مصباح الكهرباء ونار البوثان؟ اللبن والزبد والحرشاء أم اللحم والخضر والمرق؟»

على أن ذلك الصراع المصطخب في أعماقه عن ذَيْنك العالمين المنفصلين يتجسد بصورة رمزية حية نراه قد «هرب إلى كتاب يتحدث عن المستقبلية عالم مابعد الألفين».

لقد كان الروائي الغلاب يتابع صياغة الحوار، ويقف عند جمله وتعابيره، ويزنها بحسه النقدي والأدبي، ويعرف مدى مصداقيتها في ذهن المتلقي، وقدرتها على التوصيل والصدق الفني، فإن أحس بشيء من الخروج عن الانسابية والمصداقية، أو أن ثمة استغراباً من القارىء لما يقرأ ويسمع، فيلجأ في الحال إلى إصلاح مافسد في اللغة والتعبير والصياغة.

كان الحوار بين (فوزي) و (القائد) يدور دوماً حول قضايا البلاد ومصيرها بعد الاستقلال. ويتناول شؤونا جوهرية في حياة الشعوب كالصحة والتعليم والأمن والاجتماع. ولكل واحد منهما وجهة نظر في طرحه وتصوره. ويظل فوزي يمثل الوجه الجديد الحضاري للعصر، والقائد يمثل الوجه القديم للحياة التي رسم الاستعمار أبعادها وحدودها الضيقة من العصر، كي يقوى على الهيمنة والحكم والسيادة.



عبد الكريم غلاب

الفكر الإصلاحي والتغيير الجذري في الرواية

بدا لنا الكثير من ذلك الفكر الإصلاحي والتغيير الجذري من خلال كلامنا عن الحوار ومواكبته للاستبطان الداخلي والالتفات والاسترجاع وغيرها مما ذكرناه. لأن الرواية تعالج فكراً إصلاحياً وتعليمياً، تحاول من خلاله اقتلاع جذور يراها الروائي فاسدة متأصلة في جوف النفس المغربية. ومن هذا الفكر التعليمي: أسلوب الأطباء في معاملة المرضى، وكيف تتحقق إنسانية الطبيب، وربما كان الأسلوب يتأتى من عنصر فني سابق، هو عنصر الالتفات واسترجاع الذكريات، حالما يمارس الطبيب دوره في علاج المرضى. فقد وقف فوزي وقفات عديدة عند السلوك وهو يعامل مرضاه. فَعَمَّ تمخض الموقف؟ لقد تمخضت ذكرياته عن حالات شعورية نبيلة حددت له التفكير والسلوك. المرضى أمامه، كان طفلاً، ماذا يذكر؟ لايذكر غير مشهد أمه في النزع الأخير وخالته تشد من أزره، ويشهد موتها، وتصبح كلمة (الموت) شاخصة في ذهنه ومتجذرة في شعوره، وتثير فيه أسئلة عديدة لم يجد لها جواباً.. وهو أمام امرأة وجهاً لوجه تعاني آلام المرض، يرى فيها أمه تستنجد به كي ينقذها من آلامها، وتتساءل إن كانت ستعيش وتدعو له: «الله يخليك لأمك يابني».

ولهذا تحدد أسلوب العمل أو المسلك المهني، الذي من أول عناصره: التفاني والحب، ومعاملة المرضى وكأنهم ذويه المقربين.. عندها سينعكس أي سلوك من مرضاه على وجدانه وقلبه؛ فإن أحس بارتياح ورضى مريضه لعلاجه، فكأنه يسمع أمه ترضى عليه. ويعود فوزي من الحالة السابقة إلى الواقع الحسي الذي يعيشه الأطباء في معاملتهم لمرضاهم فيقول: «نحن الأطباء لانتعلق بحالة مريض، نتعلق بمجتمع المرضى، يفرغ سرير، ينتقل صاحبه إلى الشارع أو ينتقل إلى القبر، هي الحياة.. لانسأل عمن غيبهم الباب في أي اتجاه ساروا» ص ٢٣.

ولأن الروائي الغلاب يعرض أفكاراً في شؤون الصحة سواء الإدارية أو الاجتماعية، من السلطة أو القرويين، فقد كان يلجأ إلى أسلوب السخرية بلسان حاله أو بلسان الآخرين، لأنه الأسلوب الأمثل في نقد الدولة والمجتمع، وكشف المساوي. وكانت تلك الأفكار الساخرة تراوده من حين لآخر.. يقول مثلاً: «ربما في وقت قريب ستعلن السلطة الصحية أنها لاتستطيع علاج البطالة في صفوف الأطباء» ص ١٣٧.

العلم منبع التغيير

التغيير الشامل شعار كبير حملته رواية الغلاب، وتردد كثيراً على الألسنة.. ولايقوم التغيير إلا بالعلم.. بالمدرسة، وهي المنبع الذي سيفجر كل وسائل التغيير. ويبدو أن موضوع التعليم هو الأساس في كل تصور وتنظير، وبه يزداد المرء علماً، وبالعلم يزداد ثقافة ومعرفة،

توظيف العمل الروائي في الإصلاح الصحي والتعليمي

وبالثقافة والمعرفة تتسع الآفاق وتتبلور الرؤى، وتتضح الأهداف.. فيبدأ التنظير ثم البناء .

لذلك كان فوزي يحاول بإلحاح شَدَّ الصغار والصغيرات لفكرة التعليم والمدرسة. والكبار في إشعارهم بقيمتهم الإنسانية. وحين أخذ يفكر بأنه من الممكن والضروري أن تتغير وتتبدل (جمعة) من كونها خادمة تتسخ يداها بمسح الأرض إلى ممرضه يدها نظيفة تداوي وتضمد الجروح، أخذ يستجمع القرائن المماثلة التي مرت به هنا في مكانه من المستوصف، ولاسيما قد أصبحت مهمته إصلاحية تغييرية.. بأن يحوّل الفلاح إلى إنسان، وأن يضع أمام (عمي محمد) رأس مال لايفلس بموت بغلته، وأن ينقل (عمي قدور) من رجل يملك ثلاث زوجات، إلى رجل يفكر في الأرض التي يملك، وليس فقط في الأرض التي يملكها سيده (الحاج عبدالله). ولهذا فقد بدت على فوزي فكرة التغيير الشامل.. تغيير النفس الإنسانية إلى الأسمى والأفضل والأمثل. بدأ إحساسه بقيمة الإنسان، وعظمته في رسالته. فظل يسترجع مجموعته البشرية التي تعامل معها، وأصبح بمقدوره انتشالها مما هي فيه، لأن ثقته كبيرة بما عنده وهي المقدرة على أن يصنع لهم شيئاً .. ويسترجع تكوينهم الذي هم فيه، وتكوينهم الذي سيصيرون إليه، وماصاروا إليه فعلاً مثل (جمعة) التي أصبحت ترتدي الملابس البيضاء، وعلى مؤخرة رأسها قلنسوة يتوسطها هلال أحمر، تنتظر تعليماته لتقيس الحرارة والضغط وتحقن المريض وتراقب العلاج.

الصراع: إن مظهر الصراع في رواية الغلاب هو صراع نظري جدلي، وكما قلنا، صراع بين عقليتين مختلفتين في الثقافة والمذهب والموقف. ولهذا اتخذ أسلوب الحوار، كما مر بنا، بين شخوص الرواية، بين القائد وفوزي، وبين السهبي وفوزي، وبين فوزي وكثير من القرويين، وحتى بين فوزي وصديقته الجامعية (ليلى)، فقد كانت فكرة الزواج موضع جدل ونقاش بينهما، هي ترى أن «الرجل دائماً في حاجة إلى سلم يصعد عليه لكي يحقق بعض أهدافه، والزواج أقرب سلم»، ولهذا ينشب بينهما حوار حار، ولكنه يبتعد قليلاً من منطقة الصراع، فقد كان يهمه أن يعود إلى جوهر الموضوع: «الزواج سنة الطبيعة، والذين يحثون عنه يودون أن يحققوا طبيعتهم في أسمى معانيها» ص٦٦. ويقودهما الجدل إلى أن تعرفه بشخصيتها كما تترجمها هي (فإذا هما شخصيتان متناقضتان، ولابد أن ينشأ بينهما مثل ذلك الصراع الشخصي): «لم تعرفني بعد. أنا إنسانة عملية، لا أهيم في الخيال، أو في عالم لايمنحني إلا النظرية التجريدية. لا أحب جمال الماضي ولا إغراء الحاضر. أنا مستقبلية، وإذا لم يقنعني المستقبل أرفض الانتماء إليه هو الآخر» ص ٨٩. ولقد اختفت هذه الشخصية من عالم الرواية بعد ذلك.

لقد ظل صراع فوزي مع (القائد) نظرياً في حدود النقاش والجدل، وعرض وجهات النظر، ومنذ البداية كان فوزي يمارس شعوراً بالتنكر لفكر القائد، ولذلك كان لايريد أن ينهزم، فقد بحث معه عن منطق يعارضه به: «ولكن ياسعادة القائد هم كغيرهم من الناس يتعلمون إذا علمتهم، ويصحون إذا داويتهم، وينتظمون إذا نظمتهم». وضحك القائد وهو يقاطعه في شبه سخرية: «ويضربون إذا ضربتهم ويتحكمون إذا حكمتهم». ص٤٧. وتبقى شخصية فوزي متكاملة -خلال ذلك الصراع النظري- ومتوازية مع مجريات أحداث الرواية، ويظل موقفه مع محاوريه في نقاشه الفكري.. مثلما رأيناه مع المرضى والقائد ووالده إثر زيارته المدينة، حين راحا يتناقشان حول أمور القرويين والرعاة وطبيعتهم.



غلاف الرواية

الموازنة : استحوذ أسلوب الموازنة على اهتمام الغلاب، فأنشأ موازنات عديدة بين عالم الصغار والكبار، وبين عالم القرية وعالم المدينة، والفطرة والتصنع.. وغيرها من أمور تقتضيها فكرة الرواية الأساسية.

ففي عالم الطفولة، وعالم الصغار، وهو عالم استثار فوزي جدا.. بدءاً بالولد الصغير (أحمد) ومروراً بأخته الصغيرة (الضاوية)، وانتهاء بالأخرى (جمعة) والرعاة الصبيان وغيرهم. فمن حواره مع الضاوية فكر في القائد الذي أقفل المدرسة ليترك وروداً صغيرة كادت تتفتح، تذوب تحت الأضواء والعواصف والرياح والشمس اللاهبة. وحين يدعها تمضي في طريقها يترك وراءها لمسة خفيفة، أو شيئاً لاحقاً بها.. لتعكس للغلاب أو فوزي موقفاً جاداً ملتزماً، فيه حسن الربط بين الأشياء الصغيرة والأشياء الكبيرة.. وتصبح شؤون الضاوية من خلال الموازنة، صورة مصغرة للشؤون الكبرى: «الأطفال أيضاً لهم فلسفتهم في الحياة والناس والأشياء. عصا الراعي قانون تسير عليه الرعية، في عصر الرعاة يوجد كذلك بقر وشياه ومعز.. حينما يحرن الثور، حينما تشذ المعزة عن القافلة.. حينما تفر البقرة عن القطيع، ترتفع العصا.. حتى الضاوية تملك عصا هي قانونها، لو ضاعت منها العصا ضاع منها القانون، لخرج القطيع عن الطريق التي يقطعها ذهاباً وإياباً كبندول الساعة» ص٧٥.

وإذا كان في الرواية صراحة نقدية للأوضاع العامة في المغرب، فإن بعض المشاهد تخفف من تلك الصراحة أو الجرأة، حيث يكتشف القارىء أن الرواية تؤرخ لمرحلة زمنية قديمة لعهد الهيمنة الاستعمارية على الوطن المغربي، أي في بدايات الاستقلال. ولهذا تجيء تلك المكاشفة والمواجهة من خلال أسلوب الموازنة أيضاً، ومن خلال لغة المتحاورين.

الرومانسية والإصلاح: الغلاب في روايته ناقم - بإيحائه الفني- على العصر المادي المتمثل بالمدينة، وداعية لعالم المثل والروح والفطرة والبراءة والصفاء المتمثل في الريف. ولهذا اكتسبت روايته طابعها العاطفي (الرومانسي) الحالم، فقد حلّق بأجنحة الخيال والذكريات عبر عوالم فسيحة جميلة، وهي الدنيا التي شغف بها الشعراء الرومانسيون دوماً؛ والتي تبدو مع أحوال الوحدة والانعزال، وهي ماكانت تحاصر فوزي في قريته وحيداً. ومن هنا ظل حالماً رومانسياً، ومغايراً لزميلته (ليلى)، كما رأينا، في

التكوين الشخصي. إن شغف الغلاب بالريف يجره أحياناً إلى المباشرة في عرض أفكاره وتقرير رؤاه، كقوله: « حياة سعيدة لم يدنسها تعقيد حضارة، ولاتكالب على طيبات الحياة، ولاتوتر أعصاب من أجل زيادة مال أو إدراك جاه» ص٩٤. على أن ذلك الموقف المباشر الصريح لابد أن يكلل بروح الموازنة التي امتازت بها الرواية - كما رأينا- وشخصت في الكثير من جوانبها، فهو يهرب من كل ماله صلة بالمدينة وصخبها: «أقفل المذياع. ودّ لو هرب من الجدران، من المذياع، من مصباح الكهرباء.. ليهيم بين الحقول، يهتدي بنار الحطب، نباح كلب، بنهيق حمار، علّه يجد مكاناً في (نوالة) من قصب، يسمر مع السامرين، يشرب غراف لبن، يأكل قطعة خبز جاف» ص٩٤. غير أن هذه السبحات الحالمة لاتدوم طويلاً، فهو صاحب رسالة في هذه القرية، وأهدافه عريضة لاتصنعها الأحلام والخيال والرومانسية، والواقع يلتهم كل شيء، ولايجابهه غير رؤى جديدة، وتغيير جذري: « الهدف أن نزاوج بين حضارة المدينة وحضارة الأرياف.. حيث نبني مجتمعاً متعادلاً» ص١٦١.

ومايريده إذن هو أن يحفظ للحياة طابعها الجديد الذي يتفق مع ماتعطيه الحضارة للحياة وللإنسان الجديد. وقد وجد أن التاريخ ظلم الأرياف وإنسان الأرياف.. والمستقبل يريد أن ينصف هذه الأرياف وإنسانها من التاريخ. وذلك بتحويل الاعوجاج إلى استقامة، أي بالتغيير الذي ذكرناه.

والحقيقة التي يريدها العالم هو أن تستمر الحياة منتجة: يخدمها سكان الريف وسكان الحضر، كل يقدم ماعنده «ومادمنا نيسر لسكان الحضر وسائل إنتاجهم، فلِمَ لانيسر لسكان الريف حتى ينتجوا. العقل الفارغ كالمعدة الفارغة لايقوى على الإنتاج». وكيف ينقل حضارة المدينة إلى القرية؟ «أنقل إليه الماء حتى لاينتقل إلى الماء؛ أنقل إليه المدرسة حتى لاينتقل إلى المدرسة؛ أنقل إليه السكنى حتى لايفر إليها. إذا أردت أن تحتفظ بالذين يحرثون الأرض ولاتجوع المدينة، فأعطهم حظهم من الحياة.. وإلا زحفت البادية على المدينة، كما تزحف الصحراء على الأرض الخصبة» ص ١٦٣.

الهجرة إلى المدينة : تعالج الرواية ظاهرة هجرة أبناء الريف إلى المدينة، وهي ظاهرة عمت العالم المعاصر، وبخاصة المتخلف الذي لم يواكب ريفه مسيرة التقدم الحضاري.

ولهذا كانت الرواية مشروعاً إصلاحياً للحد من تلك الظاهرة، والاهتمام بالريف ومنحه حقه بأن يعيش أبناؤه حياة إنسانية كريمة مثل أبناء المدن.

وكان (أحمد) أحد المهاجرين، فهو رمز للهجرة.. وثمة أحمدون كثيرون أتوا من قرى مختلفة، كلهم أحمد. وكلهم (ابن عبو). لم تحاول قراهم أن تستمد شيئًا من المدينة، لفظتهم.. فرّوا منها بليل إلى أطراف المدن، حيث المداخن السامقة، ودوي الآلة، وضجيج المحركات.

تبدأ حياتهم بتغيير ملابسهم، عاداتهم تأخذ منحى جديداً، لغتهم تمتح من معجم جديد «قال الجيلالي لنفسه وهو يحملق في رأس أحمد التي بدت له تحت طاقيته في وفرة شعرها كما لو كانت فروة خروف، مالهذا الفتى يجالسنا بسرواله الطويل وفروة شعره كما لو أن المدينة ليس فيها حلاقون» ص٢٦٥. وإن هذا التغيير في المظهر والمخبر، في الشكل والأسلوب من الأساسيات الفكرية في الرواية. يقول أحمد: «إذا تعاونا جميعاً سيصبح لنا عمل يشغلنا عن كثرة الكلام» ص٢٦٦.

يلاحظ القرويون التغير على أحمد، يقول أحدهم: «هذا الولد يتحدث عن بينة، أهل المدينة يفهمون، يقولون مايعملون» ص٢٦٧. على أن أحمد حمل معه من المدينة هماً وتمزقاً كبيرين: في المدينة يسألون في باب المعمل من أي مدرسة جئت؟ الذين يتكلمون الفرنسية يلتقون مع الآلة، الذين لايقرؤون يلتقون مع المكنسة وصناديق البضاعة، وإفراغ الشاحنات وملئها.. وظُهْرَ السبت يقف كل من الفريقين أمام شباك خاص. لقد حمل أحمد تجربة مرة لأصدقائه وزملائه في القرية.. المدينة أصبحت صعبة، يدخلها الغريب دون سلاح، كان سلاحه عضلاته، لم تعد العضلات تكفي، اليوم سلاحه عقله قبل عضلاته. «ارتعشت ملامحه وهو يتحدث كأنما يذكر ملامح التجربة التي مازال يتذوق مرارتها.. اغرورقت عيناه بدموع، صدّها عن أن تنساح؛ الرجل لايبكي.. هكذا تعلم منذ كان صبياً». ماالعمل؟ ماالسبيل ليعود الزورق إلى النبع؟ التشبث بأرض القرية، وامتلاكها، الأرض هي حياتك، إذا لم تملك الأرض فسيفر منك أبناؤك يوم تحتاج إليهم. «إذا ذهب عنك أحمد، أبناؤك الآخرون ماذا يعملون؟ ستبلعهم أرض الله الواسعة، وتبقى أنت وحدك غير قادر على العمل، ليعطي الحاج عبدالله الأرض لغيرك» ص١٩٠. يقول فوزي: «عمي قدور؟ أحمد لن يضيع. سيصبح رجلاً، لأنه سيعتمد على نفسه. المهم الآخرون والأخريات. إذا أردت ألا يفروا منك ابْنِ مستقبلهم بأرض تملكها ليحرثوها لك ولهم » ص ١٦٩.

ومع ملكية الأرض، تحقيق العلم، وتعميم التعليم، وفتح المدارس: «علمتني القرية، أن أفر منها. المدينة علمتني أن أعود إليها لأحمل إليها ماتعلمت. تعلمت أن أناضل لكي يتعلم كل أبناء القرية، حتى لايدخلوا المدينة [كالعربي في الشماعين] كما يقولون عنا هناك» ص٢٣٣. هذا المثل يضرب للغفلة والانبهار.

واحتشدت الرواية بمثل هذه الأفكار الجديدة، وإن بدت أحلاماً في ضمير وخاطر شخوصها الذين يمثلون قطاعاً كبيراً على نحو ما «بعض الأحلام تشعر الحالمين بالسعادة ولو لم تتحقق». وإن هذه الأحلام لابد لها من عنصر التنفيذ والعمل. والطرح النظري لايحل المشكلات، وعلى ضوء تنفيذها ستتحقق كل الأحلام. لهذا فإن معركة فوزي في القرية لم تنته بعد. وثلاث سنوات في القرية لم تنجز رسالته ولم تحققها.. فعليه أن يعيش فيها مرة أخرى، سنوات طويلة، بل عمره كله وإلى الأبد. ولهذا في نهاية الرواية يرفض قرار نقله إلى المدينة، ويعجب صديقه (السهبي) ممثل الصحة: «ولكن ثلاث سنوات كثيرة فيما أحسب». «والذين يعيشون فيها عمرهم؟ أليس كثيراً عليهم أن تكون قدرهم؟». قال السهبي وهو يذكر كلمة سمعها من والده: « كلٌ مُيسرٌ لما خلق له»، «وأنا ميسر لما خلقت له». «قرارك النهائي؟». أجاب فوزي مودعاً: «وإلى الأبد» .

هكذا عاد الزورق بفوزي إلى النبع، إلى القرية، إلى التغيير الشامل، والعمل الدؤوب، وفي كل حقول العمل الصحية والتعليمية والزراعية

والاجتماعية. والعودة إلى النبع يتطلب عملاً عظيماً تاريخياً مستقبلياً، لأن نقل المدينة إلى القرية، يستوجب نقل كل وسائل الحضارة الفكرية والمادية إلى القرية، حتى يصنع (القرية المتحضرة)، ويقضي على الانفصام بين مجتمعين: أحدهما يسير أماماً والثاني يسير خلفاً؛ أي تلغى الحدود والفواصل بين المدينة والقرية.

توظيف العمل الروائي في الإصلاح الصحي والتعليمي

رؤية ونقد اجتماعي

تعج الرواية بأفكار أشبه بالحكم، منها ماينهل من صميم أفكار الرواية الأساسية، كالتي مرت بنا، وغيرها كثير متناثر هنا وهناك. ومنها ماهو أشبه بالدروس وتجارب الحياة، والرؤى المستمدة من واقع الحياة الاجتماعية سواء أكانت مجتمعات القرية أم المدينة، وقد ترفد أساسيات الرواية ببعض المعاني والدلالات، وهي كذلك كثيرة تضيف إلى أجواء القصة معاني جديدة وإشارات دالة في الحوار والشخصيات والحدث.. وغيرها من عناصر الفن الروائي.

وتتخذ الرواية أسلوب النقد الاجتماعي من أجل إصلاح المجتمع وتغييره نحو الأمثل. ويتضح هذا النقد من خلال الحوار والمجابهة بين العقول المتباينة. عقول القرويين الذين يسخرون من العلم والتعلم «وهل المدرسة كانت ستعلمك كيف تمسك المنجل، أو كيف تكوي البقرة إذا ألم بها مرض» ص١٦٨. وعقل (القائد) الذي يسعى إلى إقفال أبواب المستوصف، وعامة الناس الذين هم في واد يعمهون وتقاليدهم حيال الموت والمرض والأوبئة، واعتمادهم على السحر في طرد الشياطين من الأجسام. والطبيب فوزي هو من زرع بذور التغيير في أرض مجتمع القرية -ومن بعده الفتى أحمد- بعقليته المتفتحة الجديدة، وعلمه، فهو ابن الجامعة والعلوم والمعرفة. والثقافة التي تطرد شبح التخلف من العقول، والأوبئة من العباد، وتأخذ بالأسباب فضلاً عما يراه من زرع روح المسؤولية في النفوس، سواء في نفوس القرويين أو في نفوس الأطباء الذين عليهم رسالة إنسانية قبل أن تكون طبية، ويعتقدون بما كان يصنعه (ابن سينا) حين كان يعالج النفس قبل الجسد، فعليهم أن يتجهوا إلى نفس الإنسان ليردوا له إنسانيته الضائعة: «مثل أن يتجهوا إلى أمعائه وعضلاته». فعليهم أن يغيروا مجرى النهر، ويفكروا كأطباء في الإنسان لا كما تسجله ورقة وبرنامج عمل وتترك الذين لايتسع لهم برنامج العمل إلى مصيرهم».

الدين والفن

ويجرنا أخيراً هذا النقد الاجتماعي في التغيير، إلى نقد عابر للرواية، ولانختار غير رؤية الغلاب الدينية. فقد ظهرت في بعض مواقفها تُعارضُ -على نحو ما- الرؤية الإسلامية الحقة في بعض الأمور، وبخاصة حينما وظف الرمز الأسطوري (بيجماليون) في التغيير والإصلاح، وبيجماليون الأسطورة، أو الأعمال الأدبية لروائيين عالميين، ترمي إلى تمجيد إبداع الإنسان في الخلق الذي يضارع الخلق الإلهي، فبيجماليون ذاك النحّات الفنان الذي بث في تمثال ملهمته الحياة وراح يعشق ماخلق عبادة. وهكذا يريد الغلاب أن يوازن بين ماصنعه بجماليون في ملهمته، وماصنعه الطبيب فوزي لخادمته (جمعة) في المستوصف. وهي رؤية يظنها معاصرة تخدم الفكر والفن والإبداع، ويحاول أن يلطّف من صياغاته وتعبيره ورؤاه فيقول: «الحضارة تصنعها بنفسك في الأشياء في الأرض، في الإنسان. المعدن في التراب يتحول إلى ذهب، إلى مادة مشعة، إلى طاقة مدمرة أو بانية. الذين صنعوا التماثيل فعبدوها لم يكونوا مغفلين. لم يعبدوا حجرًا، كانوا يعبدون الطاقة الجمالية التي صنعوها وجسدّوها في الحجر أو الرخام» ص١٧٣.

ولنتابع الغلاب، كي نفهم شيئاً من تلك الرؤية: «الفنان يلهث وراء عمله الفني حتى يكتمل، يجهضه إذا ماتوقف في منتصف الطريق. التمثال، اللوحة.. لها عطاؤها، مزيد من العطاء الفني كلما تجاوب الفنان معها إلى أن تنضج» ص١٧٤.

ويستمر الغلاب في كلام مسهب في هذا الصراط. ومااقتطفنا إلا القليل لندلل على أهمية الأسطورة في ذهنه. على أن له رؤية دينية في مواقف أخرى يستشهد فيها ببعض الآيات القرآنية - أليس الغلاب هو مؤلف: صراع المذاهب والعقيدة في القرآن- ليعبر عن بعض شؤونه الدينية التي يفضي بها بلاتحفظ. يقول وهو يسترجع حوار شيوخ القرية والفلاحين: «الخير كان كثيراً. لاأدري لمَ تغيرت الأوضاع فأصبحت الأمطار لاتزورنا إلاّلماماً؟ ذكر كلمات الفقيه صالح: من كثرة ذنوبنا يشح الخير، وتقل البركة، وتبخل السماء بأمطارها. أجاب الفقيه الرحموني -وكان يدعي أنه أعلم من السي صالح- بالآية الكريمة: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة﴾. كان القائد يميل إلى الرحموني.. فالله واسع المغفرة، ولايعاقبنا على ذنوبنا بكف المطر عنا. الله يرحم الفقيه الرحموني: الله لايؤاخذ الناس بظلمهم. مايزال يذكر وجهه السمح. كان يبتسم في وجهه كما كان يبتسم في وجه الله.. لم تكن هناك عداوة بين السماء والأرض، اليوم أصبحت مدافع الأرض تزعج أهل السماء، فيكفون عنا غيثهم» ص٢١٦.

ولكننا نجد الغلاب في ص٢٥٤ يجعل الاتصال بالله أمراً طبيعياً وفطرياً عند القرويين: «وا قدور ..! ارجع لله. كلمة (الله) أعادت السكينة إلى نفسه، أحست أن غضبه بدأ يخف. شجعها، أضافت: أية سرقة؟ أي زواج؟ أي مهر؟ عد لخالقك..».

كما نجده في ص٢٦٠ محافظاً على رؤيته الدينية التي تظل منطلقة من أفواه القرويين: «لامفر مما أراد الله. لاتبتئس، اترك له الأمر فهو القادر على كل شيء»، وكذلك في ص٢٦٤ يقول: «قال قدور؛ أضاف وكأنه اكتشف شيئاً: كلنا مسلمون، نتعاون على الخير. قال الجامعي وقد سُرّي عنه: إذا تعاونا يمكن أن يضع الله البركة.. فتجود السماء وتثمر الأرض».

على أن الغلاب كان يسعى لتوظيف العمل الروائي في إظهار قيمة العلم والوعي والعمل.. وكلها مجتمعة هي التي تقوى على الإصلاح والتغيير الشامل: الصحي والتعليمي وغيره.. كي يعود بنا الزورق إلى النبع.

(*) تمثل هذه الرواية ملمحاً من ملامح الأدب الروائي المغربي. فهي تصور واقعاً وظروفاً وتاريخاً خاصاً بالمغرب، قد ينسحب على بعض الدول العربية.



رسائل كافكا
تُنشر لأوّل مرّة

د. ناول عبدالهادي

فرانز كافكا، الكاتب التشيكي الكبير الذي أثار «الحرب الباردة» الفكرية بين الشرق والغرب، ودافع عنه سارتر، واتهمه النقد الشيوعي.. خلَّف أعظم عملين روائيين هما: "القضية"، و"المسخ"، وتنبأ في الأول بعصر المعتقلات الذي مرت به الإنسانية خلال الحربين، وفيما بعد الحربين بسبب أنظمة الحكم المتعسفة، بينما كانت روايته الثانية «المسخ» من أول الأعمال الفكرية التي ولدت مشكلة القلق الوجودي، وضياع الإنسان، وإحساسه بلا جدواه ولاجدوى أي شيء.

اكتشفت أخيراً رسائل كتبها كافكا إلى بعض رفاقه، وصدرت الرسائل في كتاب. وهي تعتبر مدخلا آخر لفهم كافكا الإنسان وكافكا الفنان.. لذلك نقدم ترجمة كاملة لثلاث من تلك الرسائل.

الرسالة الأولى
إلى أوسكار بولاك..

٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٠٣م..

ربما كنت مغتبطا برحيلك مثلما يجب أن يغتبط الناس حين يرون أحدهم يرتقي أسباب السماء إلى القمر كي ينظر إليهم من عل، لأن حرص الناس على أن يشاهدوا من فوق يجب أن يمنحهم ولو قليلاً من الثقة في أن حركاتهم وأقوالهم ورغباتهم ليست مضحكة ولاعبثا ماداموا لايسمعون للقمر ضحكة.

نحن مهملون كأطفال تائهين في الغابة، فحين تكون قربي تنظر إليّ ؛ ماذا كنت تدرك عن آلامي وأدرك عن آلامك؟ ولو كنت ألقيت بنفسي عند قدميك باكيا؛ أكنت ستعرف عني أكثر مما تعرف عن الجحيم؟ إن علينا نحن الرجال أن نتماسك بعضنا أمام بعض باحترام شديد ووقار وحب كما لو كنا على أبواب السعير.

وحين يقضي علينا الموت مثلك فسيكون من حظنا أن نرى فجأة جلال النور وقبحه وأن نرى جميع الأوضاع الفاسدة التي نكون وسطها، لكنه نفس الشيء الغريب الذي يحدث للأحياء.

بين جميع الشباب كنت أنت الأوحد الذي حدثته حقيقة، فإذا حدث أن كلمت آخرين فلم يكن ذلك إلا عابراً أو بسببك أو عنك أو بواسطتك، وبين كثير من الأشياء كنت لي أيضا نافذة أطل عبرها على الطرقات، وأنا وحدي لاأستطيع، فرغم قامتي الطويلة فإني لاأبلغ العلو الذي أبلغه بمساعدتك.

إن من الطبيعي أن يكون كل شيء تغير بعدك، فأنا أكلم الآن أناسا آخرين باهتمام أقل من اهتمامهم، وألاحظ بغتة أي مكان خلفته هنا. ففي هذه المدينة ـ التي كنت تجدها غريبة ـ أناس جد أذكياء كنت تمثل بينهم شيئاً محترما. إنه عين الحقيقة وإني لأتباهى به إذْ أعلن سروري.

فهل كنت هذا الشيء المحترم لأنك كنت منطويا أو توحي بالانطواء؟ إنني لاأدري، فلئن لم تكن قد رحلت بسبب تلك الفتاة فإن بعضهم يعتقد أنك فررت منهم.

رسالتك كانت وسطا بين الفرح والأسى. فأنت لم تذهب بسبب من تلك الصغيرة؛ وإنما للالتقاء بسهول الغاب، إنك لتراها، أما نحن فلانرى إلا ربيعها وصيفها في أحسن الظروف، لكننا نكاد نكون على علم بخريفها وشتائها علم الله عنا.

اليوم يوم أحد وهو اليوم الذي اعتاد التجار فيه أن ينزلوا «غربان» «وساحة ونسسلاس» رافعين الأصوات معلنين عن راحة الأسبوع، تراهم بوجوههم الغبية ونظراتهم الحمراء وحديثهم الصاخب، وكل هذا عميق الدلالة يشبه طفلا ينوح ويصرخ ويريد أن يعلو إلى السماء لأنهم

رفضوا أن يمنحوه مكانا للعب، ولكنه في قرارته لايود مطلقا أن يصعد للسماء. أما أولئك الذين يتجولون مبتسمين من هذا المنظر لأنهم لايعرفون كيف يقضون نهار عطلتهم فلو كنت أشْجَعَ، ولو لم أكن مثلهم مبتسما لصفعتهم. أنت الآن قادر على الضحك في قصرك لأن السماء هناك - كما كتبت - تقترب من الأرض.

أطالع «فيشنر» و «اكهارت»؛ لكن المطالعة ليست إلا مفتاحا لغرف مجهولة هي غرف قصرنا نفسه.

الأشياء التي سأبعثها لك، وأود منك أن تقرأها، هي قصاصات من كتاب «الطفل والمدينة»، الذي لاأملك منه أنا نفسي غير نتف. ولكي أرسل إليك هذه القصاصات عليَّ أن أنسخها، وهذا يتطلب وقتا، لذا سأبعثها إليك بالتتابع، صفحات منه خلال كل رسالة، وبذلك تستطيع أن تقرأها. وستصلك القصاصة الأولى مع رسالتي القادمة.

وبالمناسبة فقد مر زمانٌ لم أكتب فيه شيئاً، إن الله لايريد مني أن أكتب، لكنني لاأستطيع فعل شيء آخر. إنه تصعيد متواصل وانحدار متواصل ولكن الله أقوى. إن في أعماقي قوى متعددة مشدودة إلى وتد، ولو حُرِّرت فلربما استطاعت أن تكون شجرة خضراء فتفيدني وتفيد الأمة، لكن الرسن الذي يقبض على عنقنا لايسقط بيسر خاصة ونحن نحبه.

هذه بعض الأبيات اقرأهَا في وقت طلق:

إنه يوم قاس بارد
تتجمد فيه الغيوم
والرياح حبال تجر
الناس يتجمدون
والخطوات ترجع صوتا معدنيا
فوق الأحجار النحاسية
والعيون تتأمل البحيرات البيضاء
في القرية القديمة بيوت «نوبل» الخشبية
قمية وضيئة
زجاجها الملون يطل
على الساحة الكبيرة
على الساحة في ضوء القمر
وفي صمت يتابع عابر طريقه بين الثلوج
ظله الطويل يعلو فوق بيوت الخشب
وقد طردته الريح
والعابرون على جسور داكنة قبالة القديسين
يحملون بقايا شموع شاحبة
غيوم تعبر في السماء الرمادية أمام الكنائس
حول حصون الأصيل الكئيبة
إنسان يمر ويداه على الأحجار العتيقة،
فينحني على الحواجز ويتأمل ماء المساء

الرسالة الثانية

إلى ماكس برود

(زور.. منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٧م)

ماكس أيها الأعز، إن ماأعلمه لَشَيء بسيط وطبيعي جداً، ففي مجال المدينة والأسرة والمهنة وفي العلاقات الغرامية (وتستطيع أن تجعل هذه الأخيرة في الصدارة) والجماعات الوطنية الموجودة أو التي ستُخلق.. في هذه المجالات جميعاً لم أبرهن عن نفسي بعد، وهذا أمر يتم بشكل يجعلني أنفرد به ولا ألاحظه في إنسان آخر ممن أراهم حولي، إنه في جوهره رأي صبياني يتلاشى في المستقبل ليخلف مكانا لألم جديد، لكنه رأي يظل مدعما مشدودا مستمرا. لستُ أريد أن أباهي بالضنى الذي يصاحب هذه الحياة اللامعيشة، فهي تبدو جوفاء لامعنى لها أمام ضغط الأحداث التي يجب أن نصمد في وجهها. وكيفما كان الأمر فإنها كانت أكبر من أن تحتمل أو على الأقل أكثر عبثا. إن الخلاص الذي يخطر بالبال أول الأمر - ولربما منذ الطفولة - ليس هو الانتحار بل التفكير في الانتحار. ففي حالتي ليس الجبن الذي يدفع إلى التشييد بدل الهدم هو الذي يبعدني من الانتحار، وإنما فقط التفكير الذي يقود بدوره إلى العبث: «أنت الذي لاتستطيع فعل شيء تريد أن تفعل هذا الشيء



كافكا.. في سطور

روائي وكاتب مقالات من أصل تشيكي (١٨٨٣-١٩٢٤م). من أهم رواياته: «المحاكمة» ١٩٢٥م، و«القلعة» ١٩٢٦م، و«أمريكا» ١٩٢٧م، وقصص «التناسخ»١٩١٦م، و«طبيب القرية» ١٩١٩م. تميز نثره بالوضوح والدقة. يعرض كافكا عالما حقيقيا، وأشبه بالأحلام في وقت واحد، فيه الإنسان محمل بالخطيئة والعزلة والقلق، ويسعى جاهدا ليجد الخلاص. ظهرت «يومياته ١٩١٠ - ١٩٢٣م» بالإنجليزية تحت عنوان «يوميات فرانز كافكا» (١٩٤٨ - ١٩٤٩م)، وحررها صديقه ماكس برود.

رسائل لكافكا
تنشـــر لأول مـــرة

بالـذات؟ كـيف قـدرت على تمثُّل هذه الفكرة؟ لئن كنت مستطيعا إنهاء حياتك فـأنت إلى حد ما لست مجبرا على هذا الفعل...». وإلى هذا التفكير أضيف مع الزمان رأيًا آخر هو أني انصرفت عن التفكير في الانتحـار، إن مـاينتظرني حين أتأمل بوضوح ماوراء عدم الانتحار هو الآمال المبهمة وحالات المتفرد السعيد وغطرسة المتباهين، إن ماينتظرني كان حياة بائسة وموتا بائسا.

أرى الآن خلاصا آخر ماكنت أظنه ممكنا من قبل، ولم أعثر عليه بقواي الخاصة (والسل ليس واحداً من هذه القوى). إنني حـتى الآن لاأزيد على النظر إلى هذا الخلاص أو إيهام نفسي بالنظر إليه ولم أباشره بعد. إنني في النهاية لاأستطيع عمل أي شيء غير أن أخط بآخر نشاطي حدود حياتي المنصرمة، إذ سأقوى على ضبط نفسي والكف عن ضياعي في العبث، والحفاظ على حرية نظري.

هكذا ستكون فكرتي التي حتى لو تحققت ـ وهو مالم يحدث ـ فإنها لن تكون معجبة

في حد ذاتها، لكنها ستكون سمة معبرة. إنك إن أضفت إلى هذه الفكرة صفة الإعجاب فستثني على كبريائي، على حين أدرك، أحسن منك، مايجب عليَّ أن أكون عليه حريصا.

وبعد فإني أرى سبيلك ـ كما يسمح بُعد المزار بالحديث بدل الرؤية ـ سبيلاً ثانية.. إنك تبرهن على كيانك، فبرهِنْ عليه إذن فأنت قادر على إمساك العناصر ذات المصادر المختلفة، أما أنا فغير قادر، الآن على الأقل. إن صداقتنا الحميمة تدفعني كثيرا إلى الشعور بالثقل نفسه الذي تَنُوءُ به.

الرسالة الثالثة :

إلى أوسكار بوم...

(بلانا ٤ يوليو (تموز) ١٩٢٢م)

عـزيزي أوسكار. كم أنت طبيب مخلص ذو فراسة، إن كل ماهيأته لي ومانصحتني به ضروري وجميل. سأقدم إذن لا في الخامس عشر من الشهر، لكن قبل العشرين على الأرجح، فعمّي أخطرنا بمجيئه في شهر "أغسطس" دون تحديد للتاريخ، لذا فسأدخل "براغ" حوالي العشرين بعد أداء واجب رؤية العم. فإن تستطع ـ علاوة على ماتحملت ـ أن تحادث المستأجرة في شأني؛ فسأرسل إليك برقية لتحديد يوم قدومي بالضبط بين ١٥ و ٢٠، هذا التاريخ يروقني لأسباب أخرى، ذلك لأن فيه ستمتلئ هذه الأمكنة حيث أنا الآن، بالناس. على حين أنا في أحسن الأحوال هنا مع أوتلا رغم أنني منعزل عن السابلة بعض الشيء. أوتْلا ستمكث غالبا حتى آخر سبتمبر (أيلول).

لعلك تلاحظ أني أتحدث عن المهم والتافه، ولذلك أسباب مقنعة وأخرى سخيفة، فإذا تركنا مايجذبني إلى «جورجنتال»: سروري بالعيش قريبا منك بعض الوقت، واقترابي من مكان عملك، والحبور لوجودي «بزور» المدينة التي اختفت عني في الأفق البعيد مع كل ماكنته في الماضي، ورؤيتي العالم، وإقناعي نفسي بأن الهواء النقي ـ حتى لرئتيَّ ـ مازال هناك، وملاحظتي التي تجعل العالم أفسح مما هو عليه (لكنها تجعله مطمئنا لرغبة محرقة أجهل نوعها)، ووراء هذا كله، فإن لي سببا يلح في دفعي للرحيل، ذلك هو الخوف.

إنك تستطيع تصور هذا الخوف بشكل أو بآخر، ولكنك لن تقوى على النفاذ إلى غوره، فأنت أشجع من هذا. ولأكون صريحا فإن خوفا فظيعا يتملكني من السفر، ليس من هذا السفر بوجه عام، ولكنه خوف يعتريني من كل تغيير. ومن اليقين أن خوفي يكبر مع كبر التغيير، لكن هذا الأمر بدوره نسبي. فلو حصرت التغيير في أبسط الأشياء فإن تغيير طاولة في غرفتي من مكان لآخر لن يكون أقل إرهاباً من سفري إلى جورجينتال، وليس السفر إلى جورجينتال وحده هو المرعب، بل إن مغادرتها للرجوع أفظع. وإذا حللنا هذه الظاهرة وجدنا أن الخوف من التغيير في صميمه ليس إلا خوفا من الموت، فإذا استمرت حياتي في هذه الغرفة فإن الأيام ستتوالى وتتجمع بانتظام، ومن الطبيعي أن أحذر نفسي هي الأخرى، إلا أن الأمر سَائرٌ في حتميته، إنه شيء رائع ... شيء رائع، أن نعبر دون أن يرانا أحد.

أما بعد، فلأن يغادر الإنسان كل هذه الأشياء، ويتجه إلى المحطة ببضائعه، ويكون حرا طليقا تحت السماء المترامية مثيرا الفوضى في العالم، وهو مالانلاحظه لو كان فوضى داخلية في نفوسنا.. كل ذلك مرعب رهيب، ومع ذلك فلابد من إنجازه فمن دونه سأنسى الحياة تماما.

موعدنا إذن بين ١٥ و ٢٠، تحياتي للجميع وشكرا لسكرتيرتك. ما أجمل أن أكون المساء نفسه في جورجنتال، أما مقامي فسيكون في «جورجنتال ـ أور» دون شك.

أكرم الزاد القرآن العظيم

يوسف فجر رسلان

إلى زمان غير بعيد كانت الهجرة من الريف إلى المدينة مسلكا عربيا ملحوظًا مؤسسا على أسباب شتى، اقتصادية، وحضارية، وتعليمية، ومن الأخيرة أبدأ:

دام السِّجال بين والديّ، يرحمهما الله، صيفا كاملاً يتأرجح بين الحوار والإقناع والثورة والرفض والتخوف، ومارأيتهما يختلفان في قضية اختلافهما في هذه : أمي تريد بقاء الأسرة في القرية، حيث الأرض والملك والدار وملعب الصبا، وأبي يريد الرحيل بنا إلى المدينة لتعليم (الأولاد) في مدارسها. لم تكن أسباب أمي هينة على أبي، ولا مسوّغات أبي هينة على أمي. وأخيرا هدى الله، فرأيتهما يتخليان عن كل مانملك ، غلَبت أمي تعليم أبنائها على كل شيء. صحيح أني ماوجدتها حانقة ولاغاضبة، لكني لن أنسى ماحييت مَسحة الحزن والتخوف التي كنت أقرؤها على قسماتها الوادعة الراضية. كان ذلك عام ١٩٤٧م وأنا إذ ذاك في الثامنة من عمري.

التجربة الأرفع: أول ابتسامة العمر مصحف الكُتّاب

كنت قبل الرحيل إلى المدينة قد ختمت القرآن في كُتَّاب القرية، فراح أهلها يباركون لي ولوالدي هذه النعمة. وكان ذلك تقليداً طيبّا وأصيلا في طباع المسلمين وسلوكهم، تقليداً لأسلافنا وآبائنا وأجدادنا. إذ كانوا يحتفلون وينحرون لمثل هذه المناسبة الكريمة.

ولا أدري ماحل بهذا التقليد، أو بطباعنا في ضوء التربية المعاصرة، ومن أجل ذلك ذكرتها.

يوم التحقت بكتَّاب الشيخ نور الدين كان (الفوج) قد تعلم الحروف قراءة وكتابة وعددا من السور القصيرة؛ فما خطر ببال والدي أول الأمر أن يكون ابنه الصغير قادرا على مواكبة من يكبرونه بسنين. ولعل الآباء يُفيدون من هذه التجربة، فيستشرفون ملكات أطفالهم بحب وسعادة وأمل واعد. ومن أجل ذلك أذكرها وأتابع فيها : كنت قبل أن يضمني الكُتّاب ألاحقهم حيثما ذهب بهم الشيخ، فما من مكان ثابت لتلك المدرسة، ويذكرني هذا بالمدرسة الألمانية المعاصرة المنادية بتعليم التلاميذ في الأجواء الحرة المفتوحة.

وها أنذا بعد سبع وثلاثين سنة من العمل في ميادين التربية المتنوعة، أكتشف أن الشيخ نور الدين كان أسبق بحداثته من علماء التربية الألمان.

في الأيام الأولى من التحاقي بالكُتّاب بكيت وبكيت، أنا في الحروف، ورفاقي في السور، صحيح أني كنت قادرًا على ترديد السور، لأن صداها وترجيعها موجودان في سمعي وفي نفسي، لكن هذا مشافهة وعن ظهر قلب. أما كلماتها المكتوبة فلا أعرف منها شيئًا.

وكان بينهم أخي الذي يكبرني بخمس سنين، التفت إليّ في البيت، وجعل همه أن يمسح دموعي، سهر عليّ أياما، تحفزه عاطفة رفيعة واستجابة سريعة. حتى أوصلني إليهم، ثم تقدمت على الجميع.

لاأدعي ذكاءً أو عبقرية، ومعاذ الله أن أكون مغرورا، وإنما أردت التذكير بقوله تعالى: ﴿وأمّا بنعمة ربِّك فحدِّث﴾ (الضحى:١١). أجل، إنها لنعمة الله، ثم فضل كتابه العزيز وقد شَغَف قلبي ووجداني، واعتلقَتْه روحي، فشفَّتْ به ملكاتي، واندفعتُ بجهدي الطفولي أرشف الحلاوة والطلاوة والعذوبة لايعوقني عائق. لقد شرح القرآن صدري، ويسر أمري، وحلّ عقدة لساني: ﴿ذلك فضلُ الله يُؤْتِيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (الحديد:٢١). وماهذه بالتجربة المفردة، فما غمرت محبة القرآن نفسَ طفلٍ في أمة المسلمين إلا وأنطقتْه.

ابن فلاح يقرأ القرآن كله!! وجدوها معجزة

أسوق هذه التجربة توجيها وتصويبا لمن ينظرون إلى أهل الريف نظرة استعلاء. استمر التقليد الذي استنَّه والدي مذ كنا في القرية، وهو أن نقرأ صباح كل يوم في القرآن، وكان ذلك واجبا يوميا لامحيد عنه يحدده بالسور أو الصفحات أو الزمان. بل كان ثمة واجبات

إضافية خلال أوقات مختلفة من اليوم، كان - يرحمه الله - متشددا علينا في هذه، فما رآنا نلهو - وذلك حق لنا كصبيان - إلا انتهرنا قائلا: أليس من الخير لكم أن تنتفعوا بكتاب الله؟ لم يكن في قريتنا كلها مذياع واحد، أما في المدينة فقد اقتنيناه منذ وصولنا إليها، ومع ذلك فما كانت التلاوة الصباحية منه لتعفينا من القراءة.

ولعلي أدرك اليوم ذلك السر التربوي الذي كان يبتغيه أبي، ألا وهو التشبع - تربويا - بروح القرآن، والتزود - علميا - بلغته وأسلوبه وبلاغته، لأن من يقرأ غير من يسمع.

تجاوزت لي إدارة المدرسة التي انتسب إليها الصفين الأول والثاني الابتدائيين، ولكن بعد فحص وجدته هينا، ووجدوا فيه معجزة: أخذ المدير وبعض المعلمين يقلّبون في مواضع كثيرة ومتباعدة من المصحف الشريف، فما تلكأت، ولاتوقفت، وما أوقفوني على غلطة واحدة، وحتى لاتفوتني هذه - ومن أجل مدلولها الاجتماعي - أذكر أن المدير الكهل الوقور استدعى جميع المعلمين من صفوفهم وهو يقول مستغربًا، أو متعجبًا: تعالوا تفرجوا، ابن فلاح يقرأ القرآن كله. فلا يخطئ ولايتعثر (وربما كان يريد لومهم).

وكانت لفظة فلاح آنذاك في عرف أبناء المدينة - سامحهم الله - توحي بشيء من إنقاص القدر والقيمة الاجتماعية. لكني رأيت والدي شامخًا معتزًا بأنه فلاح. وبأن ابنه الصغير يقرأ القرآن كله، فيما لايقدر عليه أحد من تلاميذ تلك المدرسة. وإلا لما اجتمعوا واعتبروها أعجوبة. وقد ظل والدي يروي الحادثة للآخرين وعلى مسمع مني، ولعله كان يريد مانسميه في علم التربية بالتعزيز، وهو أسلوب تربوي ناجع، ولعل الآباء يستخدمونه في التعامل مع أبنائهم وإنْ خارج المدرسة. ولكن على خلفية واقعية وصادقة، ومن دون ابتذال.

كان معلمي من أسرة إقطاعية، تملك وحدها قرية كاملة. وذات يوم قال لي: سأشتري لك إذاعة مدرسية. جاء المصطلح جديدا عليّ، ماأذكره أنه كان يطلب مواضيع الإنشاء بالسطور. أما أنا فكنت أقدمها بالصفحات، أنساق مع خواطري وأكتب على سجيتي، وأحلّي مواضيعي بكل حلْية قرآنية مناسبة مجترئا على شرحها أحيانا، أو علَى ماكنت أظنه شرحا لها.

التجارب الصغيرة جذور راسخة

قد تبدو التجارب التالية صغيرة. وهي كبيرة، وقد تبدو شخصية مع أنها قابلة للتعميم. وماأسوقها عبثًا، بل من أجل ألايستهين الآباء بملكات أطفالهم ومحاولاتهم الكتابة والتعبير عن خواطرهم وأفكارهم، بل أوجه الآباء - بالخبرة التخصصية في التربية والكتابة - إلى تكليفهم كتابة مواضيع إضافية في مناسباتها، خاصة أن مناهجنا الرسمية المعاصرة تميل إلى التخفيف عن الصغار بدعوى عدم إرهاقهم (كرة القدم لاترهقهم مهما صرفوا لها من وقت، أما الدروس فترهقهم!). ولقد وجدت زملائي الموجهين - عملا بالطرائق الحديثة - يلومون أويعاقبون المدرسين إذا أكثروا على التلاميذ. لكني أقول دائما لمن أشرف عليهم: زيدوا ولاتخافوا، إنه حمْلٌ في الرأس لا على الرأس. وأعرف أن أقلامًا (تربوية) ستنبري (للدفاع) عن التلاميذ وكرة القدم.



مصطفى لطفي المنفلوطي

رُكِّبت الإذاعة المدرسية، وصار على الصبي أن يكتب كل يوم، ليذيع على التلاميذ صباحًا.

شاركني غيري في أوقات متباعدة، لكن أستاذي ظل يفخر على المعلمين، وظلت الإذاعة لابن الفلاح. لم تكن تلك الثقة سهلة على طفل رباه أبوه على الجدية والصبر والتحدي، كنت أختار موضوعي وأنشغل به، أكتب وأشطب، وكأني في طريقي إلى مقال لا إلى خاطرة أو خطبة موجزة. همٌ ثقافي كبير ألقي على طفل صغير، لكنها الثقة والتحدي، المراقبون معلمون، همْ مَنْ حملتُ همهم، أما التلاميذ فما كانوا بحسباني أبدا، إلا في أن أقدم لهم ما أقدمه واضحا مفهوما. وقد وجدت جذور هذا الوضوح تمتد إلى حياتي الفكرية والأدبية فيما بعد: من هنا وجدت نفسي أمقت اللامباشرة واللامباشرين من صنائع الحداثة الكسيحة، أمقته مصطلحا فظا مفلطحا، سَمْتي وهدايتي في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: حدّثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟! أجل وينسحب الحديث الشريف على كل مقام. تعبت في بداياتي كثيرا، ولم تبق لي فرصة للعب والتسلية إلا لمامًا. أعرف الآن أن تلك البدايات الصغيرة الكبيرة هي التي علمتني الصبر والجد في أي موضوع أتناوله، وهي التي أهّلتني للعراك الصعب فيما بعد مع أشد الكتب الفلسفية تعقيدًا.

تلك كانت جذوري الأدبية والفكرية، وقد رسخت بلا فكاك، رسخت بعشق وَهوى، فكيف الفكاك؟ إنها جذور قرآنية، وجذور ريفية:

فما أزال - بعد مرور نصف قرن على توطني في المدينة - أستخدم اللهجة الريفية، لأن لغة الريف قدمت معي بدمي وأعصابي، ولأنها الأقرب إلى لغة القرآن.

وها أنذا منذ شبابي وحتى خريفي وكهولتي لا أتوجه إلى الكتابة إلا وترود أعماقي طيوب القرآن والحديث والسيرة الشريفة، فأغتذي منها، وأقْبس من هداها. إنها جذور متداخلة، فما تزال صورة الشيخ نور الدين ماثلة في ذهني، وكأنه أمامي حي يرزق، وقد تأهب للتلاوة، فأخذ لها هيئتها من المهابة واليقظة والتفرغ والخشوع، مايفرِّق في ذلك بين التهيؤ للتلاوة أو الصلاة.

تجربتي شابا مع الفكر والأدب

لعل الشباب يُفيدون من هذه التجربة، فيكوِّنون موائدهم الثقافية بتبويب واختيار، لأن ذلك يعصمهم من التشويش الثقافي. وإلا كانوا كمن يخلط ركاما من الطعام في طبق واحد،

فلايكاد يميز طعما من آخر. فما وصل إلى مجاهل الإلحاد والتهتك والضياع والتغريب إلا من قرأ معا ربع الفلسفة وثلث الأخلاق وخمس الوجودية ومهيار أدونيس والحي اللاتيني، فمثل هذه القراءات المتداخلة تقود إلى التشويش، وتشكل شخصية ثقافية مهزوزة تنصدع لأول هزة. وتنسحب على هذه الحال مقولة في علمي النفس والتربية تسمى «الإقحام»، ومفادها بإيجاز أن الانتقال من نشاط سابق لم يختمر أو لم يترسخ بعد إلى نشاط لاحق يؤدي إلى التشويش بين معلومات النشاطين، ويكون الضرر أوسع وأبعد مدى إذا كان الانتقال بين أنشطة متعددة.

تنسحب تجربتي الثقافية في سنوات الشباب، وأعني بها المطالعة، إلى صيف ١٩٦٠م فقبله لم أنشر شيئا. كنت أعد المائدة، ولقد وضعت على كل سماط زادا، ووجدت أن التبويب ضروري وممكن: فزادٌ أدبي، شعريٌّ، ونثريٌّ. وزاد فكري، وزاد علمي، وأعني هنا العلوم الدينية، والعلوم الإنسانية: النفس والاجتماع والتاريخ، رفدتها فيما بعد بعلم التربية، حيث انتهجته، وعلمَ النفس، طريقًا لحياتي العملية.

من هذه الطيوب والأطياب جميعا شكلت مائدتي الثقافية المنظمة، وغير المشوشة، وكان أكرمها كتاب الله العظيم. وهاكم بعضها فالكل مستحيل:

لقد كان القرآن منذ طفولتي - كما رأيت - أول الزاد وأطيبه وأزكاه، بل كان له الفضل على أي زاد آخر. إنه المعادل العام في جميع أجناس مائدتي الثقافية.

مررت على كلٍّ أو جُلِّ ماكان مطروحا من القصص والروايات والكتب، مايذكره قرناء عمري «في تجاربهم»، قد أكون زدت عليهم في قراءة المطبوع العربي، وقد يكونون زادوا عليَّ في قراءة المطبوع الأجنبي، فغالبا ماتُنفِّرك الكتب الأدبية المترجمة إذا كنت مسكونا بروح لغتك العربية. أما الكتب العلمية فلا مناص لك منها.

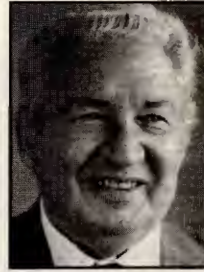
كان أشهى الزاد القصصي عندي: «بعد الغروب» للأديب المتميز محمد عبدالحليم عبدالله، وقد تابعته في كل ماأنتج، وظلت هذه القصة أطيب ماتذوقت من ذلك الصنف.

تلتها في الطعم الأدبي «مجدولين»، ولو لم يكتبها المنفلوطي بتصرف، أي بلغة عربية أصيلة، لما حفظت نكهتها إلى اليوم.

طه حسين والعقاد لم يطعما نفسي أدبا، زوّداني بلغة دقيقة رصينة موثوقة، لكنها فجة، كنت أزدرد نتاجهما ازدرادا.

كلهم روى عن الريف، وظل محمد عبد الحليم عبدالله أعذب رواء. ظل غروبه أصيلا، وريفه ظليلا.

نجيب محفوظ وجدته مسهبا مطنبا في تفصيلات صغيرة يريد القارئ أن يتجاوزها ليصل إلى الحدث التالي، أو إلى بقية الحدث، فكثيرا ماكان يقصم ظهر الحدث الواحد بمثل تلك التفصيلات. ماكان مملا في رواياته، وماضخمها أو ورَّمها، غير ذلك، لقد وجدت قصصه القصيرة - وهي في الواقع متوسطة - أكثر جاذبية وتشويقا. مع التنويه بأني أعترض على تلك التفصيلات فقط، وإلا فابن محفوظ هو نجيبنا ومبدعنا في ميدان الرواية، قد تكون التفصيلات ضرورية في بعض مواقع الرواية. أما هو - في رأيي - فأكثر منها وأسهب وأطنب فيها.


إحسان عبد القدوس

وكنت أعيب - منذ تلك المرحلة - على إحسان عبد القدوس استخدامه العامية، وأفسر ذلك برغبته في الكسب، فالأمية الثقافية آنذاك تضرب أطنابها في طول الديار العربية وعرضها، ومثل هؤلاء يستمرئون السهل. وإن كان ضارا، ويكرهون مايرونه صعبا، وإن كان مفيدا، «والناس أعداء لما جهلوا»، أضف إلى ذلك تلك العناوين الصارخة التي استخدمها مدغدغا بها رغائب المراهقات والمراهقين، كانت المراهقات ينهبن «أناحرة» و«لاأنام» من (الأسواق)؛ فما بالك - يرحمك الله - «بالوسادة الخالية»؟

كنت أولا أعيب عليه غرضه التجاري. حتى إذا اشتدت الحملة الأدبية واللغوية على سعيد عقل وشلته وأضرابه، وراح النقاد الأصلاء الجادون يعرُّون رموز التآمر الثقافي، تساءلت: وهل يفعل هؤلاء المجندون في دوائر الغزو الثقافي أكثر مما يفعله عبدالقدوس؟.

أما في الشعر فما كنت أسمي شاعرنا (الضخم) نزار قباني إلا «شاعر النِّسوان» ولاأعني بذلك غير صنف منهن.

ولابد من التنويه بأن الرجل شاعر. وبأني آخذه من الزاوية الأخلاقية؛ وأعني بها تحديدا شعره الفاضح المكشوف الذي يمس الأخلاق العامة ويفسد الناشئة. ولاتعفيه قصائد لاحقة.

ولعل القراء لايؤخذون بالشهرة والرأي الشائع؛ ففي شعر القباني كثير من الكلام العادي والمسطح، مما لايرقى إلى مستوى النثر الهابط، والشعر يجب أن يظل دائما كلاما فوق العادة.

بدأت رحلتي في هذه المرحلة مع الفكر بكتيب لأنيس منصور عنوانه «الوجودية»، ثم انتقلت إلى ماهو فكر وفلسفة على الحقيقة، فاخترت «قصة الفلسفة الحديثة» لأحمد أمين وزكي نجيب محمود. درست الكتاب كما لو كان مقررا جامعيا. وأنا ماأزال في أواخر المرحلة الثانوية. من هنا أنصح الشباب بالصبر والمثابرة وحسن الاختيار وعدم الاختلاط والتشويش. وأتمنى عليهم أن يتذكروا دائما أن الفكر حمل في الرأس، لاعلى الرأس.

لقد أشبع الكتاب بعض فضولي الفكري والمعرفي، نقلني إلى حيوات وترجمات عدد كبير من الفلاسفة الأوربيين، وزجني في عالم متلاطم من الأفكار والنظريات.

فتشت عن ثالث يُغني ويَزيد، فكانت ضالتي عند شاعر يكتب الفلسفة، أو فيلسوف يكتب الشعر. إنه بولس سلامه، أما كتابه فهو «الصراع في الوجود».

قدم لي الكتابان معلومات غزيرة ضافية من كل نظرية ومذهب، منهما عرفت المعاني الدقيقة لمصطلحات كان كثير من المثقفين يطرحونها تبجحا من مثل المادية؛ المثالية؛ التصورية، والديالكتيك، والوجودية.

إذن، كان الزادان الأدبي والفكري متكافئين على مائدتي الثقافية. وقد أضفت إليهما باهتمام مماثل علم النفس، حيث درست فيه كتبا متعددة مختارة، أذكر منها «سيكولوجيا الضمير» لمحمد كامل النحاس، و«شفاء النفس» ليوسف مراد. كما أضفت باهتمام أقل شيئا من علم التاريخ، فقرأت كتابين وحسب هما «فلسفة التاريخ» لغوستاف لوبون، وأيضا «فلسفة التاريخ» لبليخانوف. خاصة لأن الفلاسفة يسمون المؤرخ «جامع الرقع»، عذرا من المؤرخين، فلهم احترامي.

أول القطاف الأدبي

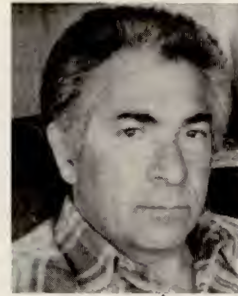
لم أكن عابثا أو مُستحْليا عندما حدثتك عن الإذاعة المدرسية التي ابتاعها المعلم لتلميذه الصغير ابن الفلاح. فمن تلك الإذاعة بدأت كاتبا، ومنها ومن مثل تلك التجارب الصغيرة الكبيرة يبدأ أي كاتب. كانت البدايات صعبة، ثم صارت الكتابة عشقا، وعندئذ فقط رغبت بالنشر:

تجرأت أولا على القصة القصيرة، كتبتُ ثلاثا، ونشرتها ثلاثا. وكان ميدانها جريدة«النصر» السورية صيف ١٩٦٠م. وهي «جري في نصف ساعة»، «نساء وراء الجريمة»، و«الصخرة والمحراث»، فكانت أول القطاف. هي ثلاث وحسب، وتكون أربعا إذا وجدت هذه المقالة بثوب قصة.

بعد ذلك وجدت القصة زادا أدبيا متواضعا - وليعذرني الإخوة على هذا الدرب -. كنت كمن في ذهنه حكّة: قرأت فلاسفة الشرق والغرب. وكان ممن قرأت هرقليط، وكيركجورد، وسارتر، ثم هيجل ونقيضه ماركس، فهاهي ذي «الوجودية» واضحة عندي، وكانت بدعةُ المرحلة، يتشدق بها أرباع المثقفين، ولايعرفون عنها ومنها شيئا، فلو عرفوها لما ادّعوها. وكان سارتر زعيمَها العالمي بلامنازع، ولعالميته شدّوا إليه (ألبير كامي) حشرا وقسرا. والمسكين يطلق الصراخ تلو الصراخ: ياناس أنا لست وجوديا. أجل (كامي) رفض أن يكون وجوديا، ومثقفون عرب ومسلمون قبلوا بها.

صارت لي أفكاري الانتقادية الخاصة حول جميع النظريات والمذاهب الفلسفية، أعود إليها الآن بعد أكثر من ثلاثين سنة؛ فأجدني وقد بَرقشْتُ بها هوامش مقتنياتي من الكتب الفلسفية بالرصاص قليلاً، وبالحبر قليلاً، أراجعها فلا أراني نادما عليها. كنت أشُد الأفكار الواحدة والمتشابهة من كتاب إلى كتاب، حتى لترى على هوامش الكتاب كتابا آخر.

أول القطاف الفكري


أنيس منصور

تخليت عن القصة لأنشغل بهاجس ملحٍّ؛ هو أن أُخرج إلى النور أول مقال فكري، وليس أصعب من التجربة الأولى في هذا الميدان خاصة. سألت الجريدة نفسها إن كانوا يستقبلون مقالات فكرية، فأجابت بأنهم يستقبلون كل كتابة جيدة، كتبت وأطلت، إنها الوجودية صرعة العصر، وسيقرؤني كُتّاب ومفكرون، وأنا قبل الشهادة الثانوية بعام واحد. إنهم يشترطون أن تكون الكتابة جيدة، ولست أقبلها إلا كذلك، هنا برزت أهمية التجارب الصغيرة الكبيرة:

كتبت ماحسبته مقالة، فإذا هو بحث بعُنوان «شيء عن الوجودية». لم يعتذروا لطوله، ولم يفرطوا فيه، بل نشروه بحلقات ثلاث. وعدت لأفعلها، وتفعلها الجريدة ثانية، فظهر إلى النور بحثي الثاني بعنوان «مراحل نشوء النفس» في ثلاث حلقات أيضا.

قد تعوِّق الحاجة الحياتية ملكات الشباب، لكنها لايجوز أن تقتلها، كان علي أن أصرف بعد الشهادة الثانوية عامين في مؤهل تربوي للتثبيت في الوظيفة، وعاما ثالثا في التدريس بمحافظة نائية، مما أخر انتسابي إلى الجامعة حتى عام ١٩٦٤م.

كنت حائرا بين أن أختار الفلسفة أو الأدب العربي، فتخيرت الأولى؛ لأنها الأشمل والأعمق مما يشغل اهتمامي جميعا. كان يغلب على منهاج السنة الأولى طابع علم الاجتماع، والسنة الثانية علم النفس، والثالثة المنطق. أما منهاج السنة الأخيرة فكان عاما، عشت فيه بمنهجية جامعية هذه المرة مع الفلاسفة الغربيين والشرقيين والعرب فلاسفةً وعلماءَ كلام ومدارسَ دينية. ولمثل هذا التنوع سمي الفرع «قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية»، وليس في الجامعات السورية غيره حتى الآن، تلك (كانت) جامعة دمشق.

قد تبدو لك التجربة التالية شخصية، وماهي كذلك؛ فأنصارها في الوطن العربي كثيرون: انشغلت بالسياسة زمنا، فوجدتها مناقضة لطبعي وسجيتي، فتخليت عنها، ووجدتني خلال انشغالي بها ناكسا عن اهتماماتي الفكرية والأدبية، تلك التي لايجوز أن يفرط بها الشباب، ثم إنه لاضير على السياسة إن خلاّها أديب أو مفكر، خاصة إذا كانت بأيد أمينة، فضلا عن ذلك فأنت تعرف أنْ «كلٌّ ميسَّر لما خُلق له»، ولما كنت، فيما أعلم من طبعي، مخلوقا للفكر والأدب، فإن اجترائي على السياسة كان خطأ من أساسه.

في تجربتي مع الشعر عشقت حتى آخر المفاصل. ولما تقطّر الحب من يراعتي مررت على كل الصبايا والحسان اللواتي مررن بي، أديت ماعلي من دين: وصفت وماأفحشت، فأنا لست شاعر نسوان: أسهلُ الشعر وأهينه وصف نسوانيّ وذُكرانيّ حسّيّ فاضح، لكنه أهونه وأوضعه وأقمؤه، إنه إيدز الشعر. من العلوم الدينية والأخلاقية، ومن علم النفس

أيضـا (تبعـا للأنا الأعلى والأنا الأدنى) أن الأحاسيس والرغائب الدافعية لاتكون مشروعة بالقول والفعل، إلا في مواضعها المشروعة. ولست أدري ما الذي يُحوج بعضهم إلى فضح نفسه ومن يحب! أَمن أجل الشهرة بالشعر؟ لا كانوا شعراء، ولا كان شعر يفسد النشء. فيهتك الأخلاق ويخدش الذوق العام. فليحافظ الشباب على نظافة قرائحهم وأقلامهم.

لعل القراء تابعوني في الفيصل، وفي دوريات عديدة أخرى، ناقدا للحداثة المقلدة المزيفة، ولعل المجال، ومنهج الزاوية، يسمح بأبيات من نقدي لها شعرا:

ونبذتُه شعراً دَعِيَّ حداثة
جهضاً تمخَّضَ عن شوارد مزقةِ
خافوا السباحةَ في (بحور) جدودهم
فاستبدلوا بالبحر شتى الحُقْنةِ
جَزَرُوا مشاعرهم فخاسَ مذاقُهم
وتأوَّلوا فيْضَ القصيد بزفرة..
ماذا (بليلى) من عتيق فاسد
وحروفُه لانتْ كهُدبْ الزهرة؟!

أما منهجي الشعري فتحدده الأبياتُ التالية، وأريد بالبداوة أصالة الشعر العربي لآخر الأسناخ:

بدويةٌ عندي القوافي حرةٌ
تنساب لا أدري رفيفَ الخُطوةِ
كُرْمى لعبلةَ والعشيرةِ كلِّها
عبسٍ وذبيان جُهينَ وعُذْرة
قسَمًا بمِربَدنا وروض عُكاظنا
وكناسة، وبقُرطُبٍ والرُّطبةِ
شعري لأسكبه صُراحًا باذخا
دَفْقَ الكهارب مَن سواد ضفيرةِ
بدويةٌ جنِّيتي بغدائر
كالليلِ مَجْموراً إطارَ صبيحة

لست معنيا بأن أُسمى شاعراً، وليس هذاَ هاجسي. هاجسي أن يظل الشعر عربيا.

أحسبُني بنعمة الله ثم بالزاد القرآني الكريم متمكنا من لغتي، أشد وِثاقها إلى حيث أريد، أغار عليها بحساسية مفرطة، أتعصب لأصولها وقواعدها حتى ماأقبل من المعلم والمعلمة أن تكون إيعازاتهما في درس الرياضة.. في الملعب.. في الفلاة، بغير الفصحى، وإن كانت لهذا المقام مبسطة، أشد وثاقها حتى ما أقبل في الجداول المنسرح قطرة تَعقٍ، أو قَشَّةً تركب الحافة، أجل - وخطابي هنا للشباب - بمثل هذا الحب والغَيرة والتعصب المشروع تحافظون على لغتكم وأصالتكم، فلا تَسْتَسهِلُوا، بل اجهدوا واتعبوا تأتكم طوعا بغير أعنة وتنسرحْ ملكاتكم وقرائحكم ليس فيها عُسْرٌ ولا مَدْر.

توقفت مؤقتًا عن كتابة الشعر لأتفرغ لرسالة أكثر إلحاحا في ظروفنا الراهنة، رسالة يندرج فيها نقد الشعر مع مايندرج من مشكلات الاختراق الثقافي الذي تمرره الدوائر الغربية إلى تراثنا وقيمنا وأسسنا الروحية.


محمد عبد الحليم عبدالله

فمن أجل أن أكون مع الذائدين عن مُحددات شخصيتنا وهُويتنا - أعني التراث - تفرغت للدراسات الفكرية والأدبية، والعمر يسمح بذلك، بل كل عمر يسمح بذلك، ولعل الشباب يبدؤون من الشباب: لعلهم لايُرجئون حتى تشْهبَ الأصداغ، وتصْهَبَ اللِّمة، وتهدأ الأضلاع، وتبرُدَ الهمَّة.

إنه لَمن أسف وعجب أن تجوز أساليب الخرق الثقافي - وبوتيرة متسارعة - إلى ديار عربية تطرح شعار الهُوية والوجود: إنهم المتآمرون، وإنهم المجوَّفون الصغار - باسم التحديث والمعاصرة - يَخْتُلون (الكبار) حتى يظلوا في الساحة الثقافية، يروِّجون الزَّيف والمروق والبَوار، ويسوِّقون الخراب واليباب والعثار.

وإنه لمن آلائه تعالى - حيالَ هويتنا وتراثنا وأهليتنا العربية الإسلاميةَ - أن يظل فينا من يحب، ويغار، ويتشدد، ويتعصب، وأعني هنا المؤسسات الثقافية الجادة في مجتمعاتنا العربية الأصيلة.

تلك هي عصارة الحياة الفكرية والروحية مؤسسةً على تجارب الطفولة (وقد توسعت فيها عامدا)، أكرِّسها في هذا الزمان العسير للذود عن أهليتنا العربية الإسلامية الصُّراح، ولا أعني بالصراح، ولا بالتشدد والتعصب، رفض الحداثة؛ بل نحن جميعا نسعى إلى الحداثة الحقة، ولاتكون كذلك إلا إذا ظلت مشدودة إلى أسناخنا، صادرة منها صدور الماء من النبع.

والشباب مدعوون إلى أن يُلقوا حتى بالثمرة، إذا كانوا لايعرفون نوعها وأصلها وروحها، فما بالهم إذا عرفوها سامة مسمومة؟!

ماكنت أريد أن أختم بالحديث عن الشعر؛ لولا أنه الأجلى في ساحة الصراع مع الحداثة المزيفة، لكنه مثال ينسحب على كل جنس ثقافي:

لقد ركَّبَ المغرِّبون لأنفسهم أجنحة أوربية أو مهجنة، وما بهذه تَشيل القرائح، وتُقلع الملكات، وتُحلِّق أسراب القوافي، إنها مَخابطُ لا أجنحة، وما لهذه يَرقُّ النسيم العربي.

خمسون عامًا مرت على هذه الحداثة، وصنائعها مايزالون يُقَبْقبون زَحْرًا وطَحْرًا، فلايرتفع منهم نسر، ولايطير لهم ذكر، إلا أن يكون في الجرش والهُجْر والهَذْر والنُّكْر. فهلاَّ اكتفَوا بمثل هذا الهيْض والعُسْر.. والزَّجْر!!

المعاني:

- **قبقب الرجل: خلط وهذر.**
- **طَحَرَ: زحر نَفَسُهُ وعلا للضيق أو الثقل.**
- **النُّكر: الأمر المنكر.**
- **الهذر: التكلم بما لاينبغي.**
- **الهُجر: الهذيان والقبيح من القول.**
- **الجرش: صوت يحدث من أكل الشيء الخشن.**
- **الهيض: هاض العظم هيضاً كسره.**

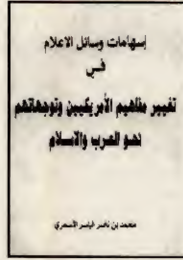
العنوان: إسهامات وسائل الإعلام في تغيير مفاهيم الأمريكيين وتوجهاتهم نحو العرب والإسلام.
المؤلف: محمد بن ناصر الياسر الأسمري.
الناشر: مطابع الكاتب التجارية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، (٢٢١ص).

يود الباحث محمد بن ناصر في بحثه «إسهامات وسائل الإعلام في تغيير مفاهيم الأمريكيين وتوجهاتهم نحو العرب والإسلام» أن ينقل الوجه المشرق للعرب والمسلمين أيام عصورهم الذهبية، فيما قدموه للبشرية والحضارة الإنسانية، ينقله إلى العالم الأمريكي؛ كي لاتظل الرؤية الأمريكية مشوهة عن العرب والإسلام. ولاسيما أن ثمة عقولاً، وبخاصة من الشباب الأمريكي، تتقبل مايطرحه الإعلام ويقدمه، من أي جهة كانت. وإذا كانت الصهيونية لها دور كبير في ذلك التشويه، فإن على الإعلام العربي أن يمارس دوره - هو الآخر -، ويغزو الفكر الأمريكي في عقر داره.

وقد قدَّم الباحث هذا البحث لجامعة ولاية «ميتشجان» الأمريكية، لنيل درجة الماجستير، فكانت مادته العلمية والميدانية مستمدة من واقع حياته ودراسته هناك طيلة الأعوام الأربعة، أو أكثر، التي قضاها في ربوع أمريكا، ولهذا وجدناه يضمِّن بحثه نصوصا كثيرة لباحثين وأساتذة أمريكيين وعرب هناك؛ تدعم مفاهيمه ورؤاه وحقائقه التي عرضها، وقام عليها موضوع بحثه في مقدماته ونتائجه. فضلا عن رؤيته الخاصة والذاتية التي تنطلق من حبه لعروبته وإسلامه، مما قاده إلى بعض المقترحات والتوصيات الموجهة لأصحاب الشأن والأمر ممن يعملون في السلك العربي الدبلوماسي في أمريكا، أو في المواقع الأخرى الإعلامية والتعليمية؛ من طلبة وعاملين في مؤسسات الجامعة العربية وغيرها. عسى أن تسهم مشاركتهم جميعًا في تغيير الصورة العربية الإسلامية المشوهة في المجتمعات الأمريكية.

وإذا كان الأسمري قد أنهى بحثه عام ١٩٨٤م، ودراسته ١٩٨٥م، فإنه لم يطبعه إلا في عام ١٩٩٣م.

ولهذا وجدنا الأسمري يذكر، في «إفصاحه» أو مقدمته، التي سطرها في رمضان ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، إشارة جديرة بالتنويه عنها، وهي عما نشرته مجلة الدعوة (١٤١٣/١١/١هـ) عن إنتاج فيلم سينمائي عن الداعية الإسلامي مالكوم إكس (مالك الشباز)، كلّف أكثر من أربعين مليون دولار. وقد أثار موجة هائلة من الإعجاب في أمريكا،



فضلاً عن التظاهرة التي كانت نتيجة لأثر الفيلم، في العقول والنفوس، في الأوساط الأمريكية؛ حيث تكشفت لهم قيم ومبادئ ومواقف مثلى عن الإسلام والمسلمين. وكذلك أشار لفيلم عمر المختار، وانعكاسه على الغرب عامة في تفهم «سمو الخلق لدى الإنسان العربي المسلم، وإيمانه بالله وثقته بنفسه، في محاربة الغزاة والطامعين، كما كان حال المجاهد العربي المسلم الفذ عمر المختار في ليبيا».

وقد ركز الباحث على دور الشاشة المرئية في عملية التوصيل والتأثير. ومن هنا بذل جُلّ مسعاه - وهو يعد بحثه في أمريكا - مع السفراء العرب للحصول على فيلم يسجل روعة الحضارة العربية والإسلامية، بلا جدوى. ولهذا يقول: «وإزاء هذا الفشل في العثور على الفيلم المطلوب تغير حال الدراسة، من إجراء تجربة إلى توزيع استبيان. ومن هنا جاءت معقولية تقديم الأسئلة والفرضيات التالية كأساس ومنطلق لهذه الدراسة». من تلك الأسئلة:

- كيف يقوِّم الأمريكيون سياسة الولايات المتحدة تجاه الدول العربية؟!

- ماأهم قناة أو وسيلة إعلامية يعتبرها الأمريكيون مصدرًا من مصادر المعلومات عن العرب؟!

- هل يضايق الأمريكي وجود تقارير أو عروض سلبية عن العرب في وسائل الإعلام؟

- هل من الممكن أن يتخذ الأمريكي صديقًا من العرب؟

- كم هي نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون أن تغطية وسائل الإعلام للعرب وعرضها كانت:

أ- مضللة للمتلقين. ب- تقدم معلومات هازئة. جـ- انحيازية ومفبركة. د- تعطي وتقول الحقيقة

على أن الباحث يجد أن صورة العالم العربي قد تغيرت على المستوى الدولي، «فارتفع صوت العرب، وأصبح مسموعًا في المنظمات الدولية في الأمم المتحدة، واليونسكو، والبنك الدولي، والأوبك». بعد أن كانت العطاءات العربية، ومواقف العرب في المشاركات الاجتماعية العالمية والإنسانية، تقابل بشيء من النكران، وقلب الحقائق من قبل أجهزة (الإعلام) الغربية، وبخاصة الأمريكية.

لذلك - كما يقول المؤلف - فقد خلّفت وسائل الإعلام الأمريكية صورًا مشوهة للعرب وللعربي في مخيلة الجمهور الأمريكي المتلقي، الذي ارتبطت بذهنه صورة جديدة من خلال مايقدَّم كل يوم من إساءات ومعلومات غير صحيحة.

ومن هنا يجيء بحث الأسمري، لتغيير تلك الممارسات الإعلامية الأمريكية، فيما يمكن أن يقدَّم للمواطن الأمريكي من معلومات حقة وصحيحة عن الناس - وبخاصة العرب - خارج أمريكا. وكذلك فيما يجب أن يقوم به المثقفون والمفكرون العرب من خلال الحوار الموضوعي المتزن، لبلورة الصورة المثلى للعرب والمسلمين، وحقيقة وجودهم، ودورهم الحضاري القديم الذي قدموه للإنسانية عامة. ومافي جذوة الإسلام وقيمه الروحية التي تظل توقد عطاءات المسلمين بالخير والحق والمثل العليا، وإصلاح العباد في سائر أصقاع المعمورة، مثلما كانوا في عطاءاتهم السالفة.

وقد وقف الأسمري عند الكثير مما قيل عن العرب والمسلمين بأقلام الغربيين، وأشار لأصحابها الذين تحروا الحقيقة، وقول الصدق. فنقل لنا شيئا من تصورهم ورؤاهم.. منها قول لانداو LAND-AW (١٩٥٨م):

«مع أن المسلمين ليسوا كلهم من العرب، وليس كل العرب مسلمين، فقد امتزجت العروبة بالإسلام في تكوين حضاري، نطلق عليه الحضارة العربية. فالإسلام قدم للحضارة القاعدة الروحية، والأخلاقيات، والمثاليات الرائعة. وأعطت العروبة للدين الإسلامي وحدة اللغة، وشمولية التوجه، والتوحد العقدي».

وممّن رد على كتابات الغربيين أيضا - ولاسيما المؤرخين الأمريكيين الذين يرون أن العرب عاشوا خارج التاريخ - المؤرخ (ليتشنجبرج) الذي يصف العرب بقوله: «فالعرب قبل وبعد كل شيء قد قدموا بل طوروا حضارة راقية منذ ٢٥٠٠ سنة، قبل إبحار كولمبس إلى العالم الجديد». كما أن الأسمري، في الوقت نفسه، قد بيّن مواقف أولئك الذين شوهوا تاريخ العرب، وعلى رأسهم (مارك توين)، في كثير من كتاباته الثقافية والمسرحية، التي كان لها دور كبير في ترسيخ الصور الواهية عن العرب مازالت

عالقة بأذهان الأمريكيين إلى اليوم.

وإذا كان الأسمري قد وقف عند وسائل الإعلام الأمريكية التي تمارس دوراً خطيراً في تشويه الصورة العربية في عيون الأمريكيين، فإنه كان يشجب الكثير من ادعاءاتها وإسهاماتها المشوّهة المغلوطة، ولاسيما القناتين الإعلاميتين؛ الصحافة - والتلفاز. وعلى سبيل المثال، فقد ضرب لنا بعض الأمثلة عن ذلك، من خلال القرائن عندنا وعندهم... كل ذلك يثبت عدم حيادية وسائل الإعلام، ولاسيما الصحافة. لأن الأسمري لم يجد أية وسيلة إعلامية في الولايات المتحدة قد أطلقت لفظ (الإرهابي) على أي عمل عدواني تمّ ارتكابه في أمريكا، وقام به غير العرب، فمثلاً:

- أعمال الجيش الإيرلندي الإرهابية في بريطانيا، لم تصفها الصحافة بالإرهاب، في حين يطلق الوصف على الفلسطينيين لأي عمل يقومون به.

- محاولة اغتيال الرئيس الأمريكي (ريجان) سنة ١٩٨١م، لم توصف بالإرهاب، ولامرتكبها بالإرهابي. لكن حين اتهم رجل مسلم تركي بمحاولة الاعتداء على حياة البابا بولس الثاني، ألصقت وسائل الإعلام به كل صفات الإرهاب والعدوانية، بل لقد عزت سلوكه إلى الإسلام.

- عندما قام طبيبان من إسرائيل بتخدير سياسي نيجيري يعيش في المنفى في بريطانيا، ونقله في نعش إلى إسرائيل، فقد أدين العمل، لكن لم تذكره وسائل الإعلام الأمريكية.

كما أورد الأسمري بعض الأمثلة والنماذج من صور تشويه العرب في التلفاز الأمريكي، ومن خلال دراسات قام بها بعض الباحثين العرب.

كل ذلك يلقي في روعنا خطورة القضية، والدأب الذي يجب أن يمارسه العرب بجدية وصدق لمجابهة تلك الوسائل الإعلامية المضادة الخطيرة. ولهذا يرى الباحث أنه كان بمقدور العرب أن يكون لهم وجود إعلامي أفضل في أمريكا من خلال الجامعة العربية، أو على الأقل من خلال شركة للعلاقات العامة، أو من خلال عمل استثماري إعلامي ضخم. وإن القنوات التلفازية العربية، التي تبثها الأقمار الصناعية اليوم - سواء أكانت تنطلق من المواقع العربية أم من خارج الحدود العربية - يمكن لها أن تقوم بذلك الدور الإعلامي الكبير في المجابهة؛ لو اتجهت إسهاماتها في مخاطبة الأجانب أنفسهم بلغتهم، مثلما تخاطب العرب بلغتهم. لأن بعضها أصبح وسيلة إعلامية عربية للغرب وإنجازاته الحضارية، وتخاطب بها العرب أنفسهم.

العنوان: مواجع قلب.
المؤلف: الشاعر عبدالله الزمزمي.
الناشر: نادي أبها الأدبي،
١٤١٥هـ/١٩٩٤م، (٥٢ص).



ثمة مواهب شعرية تبدع في عالم الشعر بخفاء، فتظل إبداعاتهم مغمورة. ولايمكن أن يظل الشاعر من هؤلاء مغموراً؛ لذا لابد أن ترعاه أقلام الدارسين، وأذواق الناقدين.

ومهما يطل انتظار الكشف، فسيشرق نور شعرهم. وهذا أحدهم، يطالعنا بديوانه الصغير: (مواجع قلب)، نقرأ شعره لأول مرة.. هو: (عبدالله الزمزمي).

ويبدو أن الديوان باكورة إنتاجه، وقد قدمته إدارة النادي الأدبي في أبها.. بأنه«لايحب الظهور.. شأن أمثاله من الشعراء مرهفي الأحاسيس، إلا أن النادي بجهود مضنية استطاع إقناعه أولا للبروز من خلال نشاطه المنبري، وثانياً في تقديم هذه المجموعة للطباعة».

وبلغت هذه المجموعة الشعرية ثماني وثلاثين قصيدة ومقطوعة.. وأطول قصيدة فيها ثمانية وعشرون بيتًا، وأقصر مقطوعة أربعة أبيات.

وموهبة الشاعر الزمزمي تتجلى بملكته التعبيرية، وصناعته الفنية التي تقوى على استيعاب تجربته، ومعاناته الوجدانية والعاطفية والاجتماعية والفكرية؛ فيطوّعها شعره بسهولة ويسر. وهذا مايجعل القارئ يتجاوب معه، فيشاركه لحظات النبض، والانفعال الجمالي والنفسي.. حيث تبرز شخصيته الشعرية والتعبيرية والموضوعية بجلاء.. وهو يتخذ المواقف إزاء قضاياه الذاتية الخاصة والعامة معًا. وإن تعثرت تلك المواقف أحيانًا، وخانته عدته ووسائله، ولكنها حالات عابرة، وقليلة.. قياسًا للأخرى المبهرة.

وأفلح الزمزمي منذ بداية إهدائه أن يبدو للقارئ: بشفافية عذبة.. تفصح عن مكنون قلبه وحبه للآخرين:

من واحة الحب في قلبي وأعماقي
أهديك باقات إحساسٍ وأشواق
سالت على شفتي لحنًا مدائنه
تشع بالنور من أهداب أوراقي
أنا وأنت رعيناها فما ذبلت
وكيف تذبل في ظل الوفا الراقي

وشاعر هذا إحساسه بالآخرين بتلك الرقة والشفافية والرهافة.. لابد أن يتعامل مع الكون والحياة الطبيعية والناس بروح مثلى، وتطلع سام. وحين تابعنا مسيرته الشعرية، عبر تسلسل قصائده ومقطوعاته، وجدناه في تعامله - وبخاصة مع الطبيعة ومايتوجها من جمال أنثوي، وما يحف بها ويتناهى من غناء الطيور، وأطايب الزهور - شاعراً رومانسياً؛ في رؤيته للعالم، في حس الطبيعة الناطق، المتناغم في أعماقه بذاك الحلول الرومانسي؛ والمحاورة المشخصة:

أبادل طيراً إذا ماشدا
فتهتز للشدو منا الورود
أرى فيك ياورد روح الوفاء
وفيك من الحسن معنى فريد
براءة نفسٍ ورقة حس
وحب به يستنير الوجود
فكن لي سفيراً لدى كل قلب
غدا عاشقا للعلا لايحيد (ص٩).

ويستمر الزمزمي بمحاوراته المتعددة مع طيوره وزهوره، وبحره وحمامه؛ فالطبيعة بمظاهرها الناطقة والحية والجامدة، عالم يجد فيه غاية سعادته وهنائه وتألقه ومثله.. وراحته في بث أحزانه. يقول محاوراً الهزار:

ياهزاراً نشيده
زاد وجدي وألهبه
هل تجاهلت أن لي
نغمة فيك متعبة
وجراحات موجع
هده الحزن عذّبه (ص٢٩).

وتسمو شاعرية الزمزمي في محاورته مع شجرة، كانت تزهو بشموخها، وكان يرمي إليها همومه ومسراته. وحين زارها بعد غياب، وجدها تغالب الفناء لما اعتراها من جفاف وبياض، بعد أن كان الربيع يجلل أوراقها اخضراراً وبهاءً:

ماالبياض الذي اعتراك؟ لماذا
تنكأين الجراح في أعماقي؟
فأجابت حضارة القوم تجني
كل يوم دوافعًا لاحتراقي
غاب عني لون الربيع لأني
نحو درب الفناء شدّ وثاقي (ص٣٢).

وقد يتجه حواره إلى القلم، رمز عطائه وإبداعه، وسكب هواجسه وهمومه، ونزيف أساه. ويستحيل الخطاب إلى صورة ناطقة لشاعريته، وشخصيته في ميدان التعبير والإبداع:

يارسولي إلى قلوب رفاقي
وطبيبي في لوعتي واحتراقي
ونديمي ومن يكون نديمي
حين أمضي لغربتي واشتياقي
قلمي ياصدى المآسي بقلبي
ونجي الهموم والأشواق
رائع أنت حين تغدو سخياً
بنزيف الأسى على الأوراق (ص٤٧).

كما أن الزمزمي قد يتجه أيضاً إلى قلبه.. ويناجيه، ويبثه بعض لواعجه.. فيرسم لنا صورة ذلك القلب، وهو الشاعر نفسه.. فيما يعانيه ويقاسيه في مركب الأيام، وسفين الغرام.. وفي ذلك الخطاب سلوان ينشده للتخفيف من وطأة التجربة الشعرية التي يصوغها شعراً وجدانياً رومانسياً:

وياقلبي تقطّعك الحنين
ومثلك بالجفا لايَسْتَهين
عرفت هموم كل الناس لكن
همومك ليس يعرفها القرين
أراقب مركب الأيام يجري
ويبقى لي من الذكرى الحنين
يسافر بي إلى بحر اشتياق
فأركبه ويضطرب السفين
فلاتحزن أيا قلبي فإني
عرفتك للأسى لاتستكين (ص٢٦).

وهكذا يظل الزمزمي، مثل غيره من شعراء النجوى والرومانسية، في مناجاة الطبيعة، حين ينعكس مافي أعماق قلبه على وجه الطبيعة الذي يظل مرآة لتلك الأعماق. فالبحر والسماء والقمر والنجوم، مما تزيّن ذلك الوجه الذي يظل صدى لحس الشاعر كما ذكرنا. وقد يستوحي بعض الصور الفنية من الشعر العربي القديم، كالبحتري مع الربيع.

يقول الزمزمي من قصيدته (بحر وسخاء):

عجباً أرى: بحر يداعب أنجما
فتخر في شوق إليه من السما
وكأنها تهفو إليه بلوعة
تروّي فؤاداً قد تقطّعه الظما
والبدر يضحك في السماء كأنه
يفضي بسرٍ كان قبل مكتما
يابحر أشواقي إليك تشدني
فلأنت من بعث القصيد وأحكما (ص٢٧).

على أن للشاعر الزمزمي اتجاهاً متقلباً في تمثل الحب والغزل، وتقلب القلوب. وهي طبيعة الشعراء الغزليين العرب. حيث لاتستقيم شخصياتهم الغزلية في موقف ثابت لايتزعزع مثلما هو حال شعراء الغزل العذريين. وإنما تتأرجح رؤاهم وأحاسيسهم بين مد وجزر، بين الحب الخاص الذاتي، والحب العام الروحي.

فنرى الزمزمي يرفض الحب المتداول المتعارف عليه بين شعراء الغزل في الزمن المعاصر، ولاسيما أن حبهم قام على المغامرة والنزق، والممارسة المعيشية اليومية.. خلافاً لما يقولونه.. فهم يعيشون الزيف، لأنهم ينادون بمُثل الحب، وهم بمنأى عن دنياه. ومن هنا فهو يرفض ذلك الحب، ويتوق إلى حب أكبر.. حب العالم والكون والناس أجمعين.. حب سام يرسمه لمدينته الفاضلة:

قالت: متى نلتقي فالبدر مؤتلق
متى سنمضي لروض الحب نستبق؟
قلت: اعذريني فمعنى الحب في خلدي
بأن أعيش لحب مابه نزق
حب بقلبي لكل الكون أحمله
يسري إلى الناس من أزهاره العبق
فالحب يا سوسني معنى أظل به
أعيش في عالم دنياه تأتلق
ماعاد يأسرني جيد ولاخفرٍ
ولا يمر بعيني منهما الأرق
أما ترين دعاة الحب في زمني
لما أرادوا دليلاً للوفا سرقوا (ص١٠).

ويعبر عن هذا العشق الكوني بصورة أخرى، يتجلى فيها ذلك العشق السامي.. عشق روحي وسماوي ومعنوي:

أنا عاشق ولروحي رؤى
تتوق إلى المجد ترمي النظر
وقاموس عشقي له أحرف
تضيء الدروب تسد الحفر
أنا عاشقٌ لدروب العلا
وعشق المعالي يذيب الخطر
أريني فؤاداً لغير الإله
غدا حبه شامخاً واستقر
عجبت لداعي الغرام الذي
أراد الشموخ به فانحدر (ص٣٣).

على أن الشاعر الزمزمي، يلجأ من حين إلى آخر إلى المواقف الملتزمة بالمثل والقيم الروحية والعربية الأصيلة، وقد يتكئ على التاريخ وبعض أفذاذه، ليعبر عن رفضه لواقع معاصر.. ومن خلال الحوار الشعري، مثلما اتجه به إلى عمر بن الخطاب.. لعل الحوار معه يخفف عنه شيئاً مما يقهره، ويكوي قلبه ووجدانه. ويكون له خير العزاء والسلوان. ومما يرفضه الزمزمي ويحزنه انقلاب الموازين في هذا العصر وتغيرها:

في زمان غدا الكريم لئيما
ولئيم الطباع شهم الجناب
عذرنا ياحبيبة القلب أنّا
قد فتحنا لذلنا كل باب
عمر! لو رأيت مأساة قومي
لتناسيت طعنة المحراب
قد تموت الجراح في الصدر لكن
سوف تبقى آثار طعن الحراب (ص ١٢، ١٣).

وهذا المنتجع الروحي التراثي الذي يرتاده ويتكئ عليه، ويتنفس في أجوائه العزاء والسلوان.. لعله يمتص منه بعض مرارته وآلامه، ويثبت أقدامه، ويحدد التزامه بمبادئه واستنباط العبرة:

ودواء الروح إيمان وإخلاص وتقوى
يركض الإنسان في جهل وهذا العُمر يطوى
(ص١٦)

كما أنه يستهجن بعض الصور الاجتماعية، من تلك النماذج البشرية، الموسومة بالغرور والصلف والادعاء، ويحجب مركب النقص بسلوك وحركات تفضح سريرة صاحبها وتكشف شخصيته.. وقد عبر الزمزمي عن ذلك بقصيدته (صور غريبة)، يقول فيها:

يمشي ويثقله في خطوه الفشل
كأنه بحديد الأرض ينتعل
يمشي يراقب كل الناس منشغلاً
ويحسب الناس من جهل به شغلوا
يمشي ببطء كأن الأرض قد صدعت
من تحت رجليه فهو الفارس البطل
يرنو إلينا بنصف العين في صلف
فلست أدري أطبع ذاك أم حول
إذا تكلم مات الحرف مختنقاً
كأنما قد سرى في نطقه الشلل (ص٤٤)

ولهذا كله، تظل المثالية بكل صنوفها: الاجتماعية والروحية والوجدانية.. ديدن الزمزمي، متناثرة هنا وهناك في قصائد ومقطوعات هذه المواجع القلبية.

ومن مثله، ورؤاه، هذان البيتان اللذان يختم بهما قصيدته (في محكمة الحب)، وفيهما يبرز تقويمه للمحبين وغيرهم.. وكأنه يرسم لهم الصورة المثلى لما يجب أن تكون عليه العباد وقلوبهم:

أحلى من الصد صفو النفس يا أملي
وأسوأ الخلق قلب دون تحنان
ما أرخص المرء إن سار الغرور به
إلى تجاهل أصحاب وإخوان (ص٢١).



العناكب تغزل وتنسج أيضًا!

د. منير مصطفى البَشْعان

هل فكَّرت عزيزي القارئ يومًا كيف تعيش العناكب، وكيف تجدل خيوطها وتنسجها بنظام هندسي عجيب؟ أو هل خطر ببالك مرة كيف تتغذى وتعمل؟، فإن كنت لاتعرف شيئًا من خفايا حياتها وأسرار معيشتها، أو تجهل ماهيَّتها، فتعال معنا لتعرف، ولو شيئًا بسيطًا، عن هذه المخلوقات العجيبة، التي تنسج أوهن البيوت، بكل الجد والنشاط والهمّة، وبشكلٍ يندر وجوده في عالم الحيوان.

فالعناكب تختلف عن الحشرات لامتلاكها أربعة أزواج من الأرجل (بينما الحشرات ثلاثة أزواج)، ومنطقتين جسْميتين (بينما الحشرات ثلاث مناطق جسميّة)، كما أنَّ لها عادة (٨) عيون. وتنتمي كالعثَّات mites والعقارب Scorpions والقُراد، إلى شعبة مفصليات الأرجل Arthropoda وتَشتمل العناكب على نحو (٤٠.٠٠٠) نوعٍ وتعيش في مجموعات مختلفة واسعة، ومواطن عديدة بدءًا من شواطئ البحار حتى قمم الجبال، وتستطيع العناكب أن تنسج وتغزل خيوطًا تشبه خيوط الحرير، وذلك بوساطة مغازلها الموجودة في قمم بطونها. وللخيوط التي تنسجها العناكب وظائف مهمة: فهي تُستخدم لتطويق وحبس بيوضها، ولاصطياد طعامها في النُسج أو الأشراك التي تعملها. وتستعمل صغارالعناكب (من أنواع كثيرة) خيوطها من أجل نفخها

ونشرها في الربيع.

وللعناكب قدرة على التسلق والصعود إلى الأماكن المرتفعة، كما تقوم هذه الكائنات بنسج جديلة أو أكثر من الخيوط، وتنشرها بعد ذلك بوساطة الريح، وقد تنتقل هذه الخيوط إلى مئات الأميال، وإلى أماكن بعيدة جداً.

وتقوم معظم العناكب بوضع بيوضها في كيس البيوض، أو مايُسمى بالشَّرْنقة Cocoon، ويوجد في بعض هذه التكوينات بضع جدائل من الخيوط فقط، وقد تكون هذه الجدائل جيدة التشكُّل، متينة القوام، ذات نسيج ورَقي. أما الشرنقات فتضعها العناكب تحت الألواح الخشبية أو الأحجار أو في شقوق لحاء الشجر، ويمكن أن تحملها الأنثى معها. وتضع بعض العناكب بضع بيضات فقط، وبعضها عدة مئات. وفي بضعة أسابيع يبرز العنكبوت الصغير من البيضة، لكنه يبقى هادئًا ساكنًا في الشرنقة قابعًا فيها. وكثيراً ما يشبه العنكبوت البالغ ولكن تنقصه الأشواك Spines والأشعار، ويكون لونه باهتًا.

وتُبدِّل جميع العناكب أشعارها مرة واحدةً على الأقل قبل مغادرة الشرنقة، وبعضها مرتين أو ثلاثًا. وتعيش العناكب الصغيرة على مُحِّ البيض الباقي إذا ظلَّت في الشرنقة، لكنها بعد أن تترك الشرنقة يمكن لبعضها تبديل أشعارها عدداً من المرات قبل النضج.

وتتغذى العناكب على الحشرات، فهي تفترس في المقام الأول هذه الكائنات، أما كيف تتم تهيئة ضحاياها من أجل الغذاء فذاك أمرٌ يثير الدهشة؛ حيث تقوم العناكب بزَرْق إنْظيماتها enzymes التي تعمل على إذابة نُسُج الفريسة وتحليلها، ثم تقوم بامتصاص الكتلة السائلة تاركة القشرة الجافة فقط.

أنواع العناكب

١ـ العناكب الذِّئبيَّة Wolf Spiders: تُوجد بشكل شائع في الأماكن الرَّطبة؛ وبخاصة تحت الأحجار أو أوراق الشجر. وتُعَدُّ من العناكب الصيَّادة، فهي عناكب نشطة ورشيقة تطارد فريستها حتى تلتهمها. وتبني أنواع منها أنفاقًا أو جحوراً، كما أنَّ بعضًا منها ينسج نسيجًا، ولكن هذه الأنواع تُعدُّ استثنائية.

٢ـ العناكب الوثَّابة Jumping Spiders: وهي كائنات ساطعة اللون، تُعد من الصيَّادات الرشيقة والنشطة التي تُشكِّل إحدى أكبر مجموعات العناكب، وغالبًا ماتُرى هذه العناكب تتسلق وتصعد على جوانب الأبنية أو الأشجار أو الأعمدة، بحثا عن فريستها. ويمكن لبعض أنواع هذه العناكب أن تَثِب مسافة تُقَدَّر بعدة أضعاف طَول جسمها.

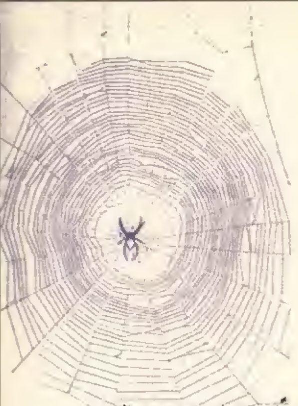
٣ـ العناكب السرطانية (العناكب الشبيهة بالسرطان) Crab Spiders: وهي عناكب لها أجسام عريضة، وتُبقي أرجلها في وضع يشبه السرطان، كما أنه يمكنها التحرُّك مثل السرطانات Crabs



«المحدّق» عنكبوت ضخم يصل طوله من ١٠-١٢ بوصة، وثبته تشبه الطيران



مراحل بناء النسيج العنكبوتي

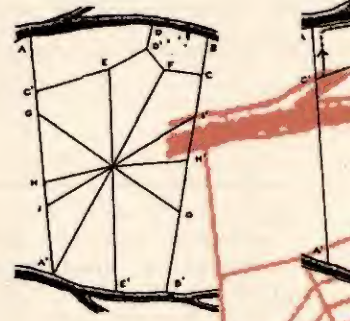


جانبيًا وخلفيًا. ومعظم أنواع هذه العناكب صيَّادات ولا تنسج نسيجًا، وتختبئ أعضاء المجموعة الواحدة منها بين الأزهار، لتقبض على الحشرات وتجذبها من أجل التغذي عليها.

٤ـ عناكب الأرملة السوداء Black Widow Spiders: ربما يكون عنكبوت الأرملة السوداءالأكثر شهرة في جميع العناكب، لكن عناكب هذا النوع تبقى مثل معظم العناكب جَبَانة ولاتستطيع العض واللدغ ما لم تُهَدَّد أو تُضَايَق من قبل الأعداء. ونظرًا لحبها للسِّلم وكراهيتها للعراك، فإنها عندما يُفرِّق عدوٌ نسيجها ويُبعثره، تحاول الاختفاء، مفضلة ذلك على الهجوم والمشاجرة والقتال. وهذا النوع من العناكب يتوزع بشكل واسع في الولايات المتحدة، وبخاصة في الولايات الجنوبية والغربية. أما كيف أُطلق على هذا النوع من العناكب اسم الأرملة السوداء، فهذا مَرَدُّه إلى اعتقاد بعضهم، أنّ الأنثى تأكل الذكر دائمًا بعد التزاوج، وحقيقة الأمر أنَّ هذه الأنثى تقوم بهذا العمل فقط إذا كانت جائعة. وقد تأكل أنثى عناكب أخرى رفاقها، وفي حالات نادرة، قد تأكل الذكور الإناث. ويوجد على الجانب السفلي من بطن أنثى عنكبوت الأرملة السوداء علامة حمراء اللون بشكل الساعة الرملية، أما ذكور هذه الإناث فيكون حجمها أقلَّ من نصف حجم الإناث، ولا تمتلك علامات حمراء مميزة بشكل الساعة الرملية. ومن جهة ثانية يمكن أن تُؤذي إناث هذه العناكب الناس الذين يتعرضون للدغاتها، وتُسبب لهم مرضًا في بعض الأحيان، ونادرًا ماتسبب لهم الموت.

٥ـ أنواع العناكب الأخرى:

هناك أنواع عديدة من العناكب، منها العنكبوت الصغير الأسمر الذي يتواجد في المنازل، وعناكب الحديقة السوداء والصفراء. وتُعتبر المناطق الاستوائية المكان الذي تتجمع فيه ـ بشكل كبير ـ معظم العناكب. وتنتمي إلى عناكب المناطق الاستوائية خاصّة، العناكب الذئبية الكبيرة، والعناكب المسمَّاة بـ trapdoor Spiders، وتتواجد العناكب الأخيرة في مناطق الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية الغربية، إضافة إلى وجودها في المناطق الاستوائية. وتبني تحت الأرض جحورًا ومخابئ تفتح إلى السطح، وتُعد العناكب الذئبية الاستوائية من أكبر العناكب، ويصل امتداد أرجل بعضها تقريبًا إلى (١٠) بوصات، وطول أجسامها أكثر من(٣) بوصات. ويمكن أن تستخدم بعض أنواع العناكب الذئبية الصغيرة والدبابير (الزنابير)، كطعام لها. وعلى العموم تُنْتِجُ جميع العناكب سُمًّا Venon تزرقه في ضحاياها من خلال فتحات في قمم أنيابها التي تشبه المخالب، وغالبًا ما تُخفي

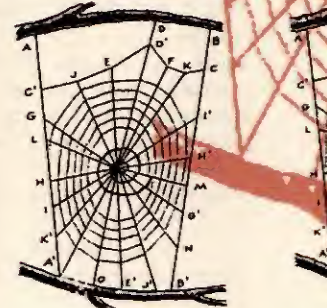




أحد أنواع العناكب الموجودة في جامايكا ، شكله يشبه الكمثرى بألوان جميلة.. لكنه شديد الخطورة



«العنكبوت الأنيق»، يتميز بألوانه الجذابة، ويكثر في أستراليا





عنكبوت «السيدة المختبئة» موطنها شمال أمريكا



«ثيودينا سيلفانا»، عنكبوت طائر ينقض على فريسته بشكل ارتدادي



العناكب - التي تنسج نسجًا - فريستها وتُقيِّدها وتغطيها بخيوطها قبل أكلها.

ومن ناحية ثانية فإن العناكب لاتستطيع أكل الطعام الصلب أو الجامد، لذا تحقن (تزرق) سائلاً هاضمًا في جسم فريستها، ومن ثمَّ تمصُّ عصارتها. وغالبًا يتغطى النسيج أو المنطقة التي حولها بالأجسام الفارغة لكثير من الحشرات التي تقع ضحية في شراكها. وعندما يكون الطعام قليلاً فإن العناكب يمكن أن تصوم وتقاوم لفترات طويلة.

أنماط النسيج العنكبوتي وأشكاله

تنسج معظم العناكب نسيجًا، لكي توقع فريستها في شراكها. وغالبًا ماتكون أنماط هذه النُسُج وأشكالها مميزة لمجموعات العناكب المختلفة. فالعنكبوت الصغيرة التي يكون لونها ضاربا إلى السمرة، تُوجَد غالبًا في البيوت وتنسج نسيجًا غير منتظم، في زوايا البيت أو تحت الأثاث. أما عنكبوت الأرملة السوداء فتصنع أيضًا نسيجًا غير منتظم، في حين تبني بعض العناكب - المسماة بالعناكب الناسجة - نسيجًا صفيحيًا أي شركًا يكون بشكل الصفحة الحريرية ومُقبَّبًا (بشكل القبة)، وتنتظر هذه العناكب فريستها عادة في السطح السفلي. وهناك عناكب تنسج نسيجًا قمْعيًا أو أُنبوبي الشكل، حيث تعمله في البداية بشكل يشبه الصفحة، ثم تقوم برصد فريستها وانتظارها في أنبوب أو قمع على جانب واحد حتى تسقط الحشرة على الصفحة.

وهناك نوع من العناكب تنسج نسيجًا دائريًا، ومجموعة أخرى تنسج نسجًا ذات تصاميم واضحة ومميزة. وممَّا يجدر ذكره أن عناكب الحديقة السوداء والصفراء (من هذه المجموعة) تبني نسجًا كبيرة - وبشكل شائع - في الأماكن العامة المكشوفة والمضاءة.

بنية نسيج العنكبوت المنسوج دائريا

تبني العنكبوت نسيجها الدائري وفق الخطوات التالية:

١- تبدأ العنكبوت النسج بإنزال خيط من النقطة (A) على قمة الغصن العُلوي إلى النقطة (A1) على الغصن السفلي. ثم تصعد وتتسلق باتجاه الخلف وللأعلى على ذلك الخيط وعلى طول الغصن العُلوي وحتى النقطة (B)، وتُنزل خيطًا إلى (B1)، ثم تعود على طول هذا الخط وتبدأ بعمل خيط جديد آخر في النقطة (C). وتنشر العنكبوت هذا الخيط عندما تصعد للأعلى وتقطع الغصن العلوي مُنْزِلةً خيطًا يقطع الخيط (A-A1) في (C1).

٢- تصعد العنكبوت باتجاه الخلف وحتى الغصن العلوي، وتُنزل خيطًا جديداً في النقطة (D)، ويفيد هذا الخيط في تمتين وتثبيت ماحول الخيط (C-C1)، ثم تسحبه بإحكام.

٣- من الخيط (C-C1) تُنزل العنكبوت خيطًا إلى الغصن السفلي لعمل الخيط نصف القطري الأول، ومن ثم تنسج بقية الخيوط نصف القطرية الأخرى.

٤- بعد إكمال عمل المجموعة الخيطية نصف القطرية، تبدأ العنكبوت بتكوين خيط حلزوني رئيس، أو خيوط متعددة في مركز النسيج، بحيث إنَّ هذه الخيوط لاتكون لزجة ودبقة.

٥- بعد ذلك تعمل العنكبوت خيوطًا لزجة ودبقة، تبدأ بنسجها من الخارج قرب مركز النسيج الأساس.

٦- عندما تقترب العنكبوت من مركز النسيج تخرِّب الخيط الحلزوني الرئيس (الابتدائي) وتنسج بدلا منه خيطا دبقا.

٧- في النسيج الكامل تزيل العنكبوت الخيط الابتدائي تاركةً بنيةً داعمةً وخيطًا بشكل حلزوني دبق.

بعد استعراض هذه المعلومات الموجزة عن كائنٍ حيٍ نجهل الكثير من أسراره، حَريٌّ بنا أن نتفكر ونتدبَّر، كيف ألهم البارئ سبحانه وتعالى هذا المخلوق العجيب القدرة على صنع بيت هو في حقيقة الأمر أوهن البيوت وأضعفها، لكنه دقيق البنية محكم الهندسة، وصدق تعالى حين قال: ﴿مَثَلُ الَّذين اتَّخذُوا من دُون اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوت لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

المراجع:

1-Dhami, P.S & Dhami, J.K.,1980. Invertebrate Zoology. Fifth Edition (Reprinted), R. chand & Co. Publishers - New Delhi -2, P.262.

2- EL- Banhawy, M.A., Demian, E.S., Shalaby, A.A.A., Roshdy,M.A., Saoud,M.F.A & Said,. E.E.,1975. Text - Book OF Zoology, Faculty of Science, Ain Shams university, Third Edition, Dar AL - Maaref, Cairo. PP.296 - 302.

3- Prasad, S.N., 1980.Life of Invertebrates. Vikas Publishing House PVT LTD, India,PP. 578-586.

4- Soulsby, E.J.L., 1982. Helminths, Arthropods and Protozoa of Domesticated Animals. Seventh Edition, Bailliere Tindall, London, PP.502-504.

5- The Hamlyn Children's ANimal World Encyclopedia in colour. Thirteenth impression, The Hamlyn Publishing Group Limited, London, PP.448 - 451.



الشراك الحريرية لأحد العناكب.. كأنها منديل موشّى لدقته وروعة تصميمه



الأسماك المصادة قد تكون مصدراً للموت لا للحياة إذا احتوت على ميثيل الزئبق

د. فوزي عبدالقادر الفيشاوي

* الزمان: أحد أيام شهر أبريل من عام ١٩٥٣م.

* المكان: شاطىء خليج "ميناماتا" في اليابان.

ثمة حدث غريب يتناقله الصيادون، في صباح ذلك اليوم.. فقد أصيب فجأة، عشرات من زملائهم الصيادين، وبعض من أفراد عائلاتهم، بأعراض تسممية وعصبية غريبة. وبعد حين جاءت الأنباء عن موت بعضهم، على إثر إصابتهم المفاجئة. وهكذا لم يجد الصيادون بداً من طلب العون، وطلب النصح والعلاج من رجال الصحة المسؤولين بالمنطقة. وعلى الفور بدأ فريق من الباحثين والأطباء في تقصي تلك الظاهرة..فراح بعضهم يُشَرِّح جثث الضحايا ويحلل أنسجتها.. وعكف آخرون على فحص أنسجة الأسماك، التي صيدت من الخليج.. وهي طعام الصيادين اليومي. وكان لابد -أيضاً- أن يقوم فريق آخر بتحليل عينات من قاع الخليج وطميه، حيث تعيش تلك الأسماك، وتركن إليه بين الحين والحين.



طائر البنجوين، ضحية أخرى من ضحايا التسمم بالزئبق

وتمضي الأيام ثقيلة، حتى جاء ذلك اليوم الذي اكتملت فيه الصورة، وبدأت أصابع الاتهام تتجه شيئاً فشيئاً الى ذلك العنصر الفضي الصامت.. أعني عنصر الزئبق. أجل.. فقد عثر عليه الباحثون في قاع الخليج وطميه، وفي مياهه بتركيزات غير مألوفة.. كما وجدوه مركزاً في أنسجة الأسماك التي صيدت منه. وكما كان متوقعاً تماماً، فقد أبانت نتائج تحليل أنسجة الضحايا، عن وجود العنصر الفضي الصامت بتركيزات قاتلة.

وبالبحث عن مصدر هذا الوباء، تبين أن هناك مصنعاً للبلاستيك، يستخدم كلوريد الزئبقيك كعامل مساعد في الصناعة، كان يلقي بمخلفاته المحملة بالزئبق في مياه الخليج، دون معالجة. وهكذا كان الزئبق يتسرب إلى المياه خفيفاً رشيقاً، لتلتقطه ملايين الملايين من الكائنات المائية.. من طحالب وقشريات ومحاريات ورخويات وأسماك.. ثم يأتي الصيادون ليصيدوا بشباكهم الأسماك الملوثة، ليطعموا منها، وهم لايدرون مايفعله الزئبق في أجسامهم من تخريب، حتى كانت المأساة.

تلك كانت البداية.. فمنذ أن عرف الناس مأساة خليج "ميناماتا"، وهم يطلقون على أعراض التسمم الناتجة من الزئبق ومركباته، اسم ذلك الخليج المنكوب، وبدأ الأطباء والعلماء يتحدثون عن مرض الميناماتا Minamata disease، وعن الخطر الفضي الصامت!.

وباء يجتاح الأنهار

مرة أخرى، ظهر الوباء حول خليج ميناماتا، في عام ١٩٦٠م. وفيما بين عامي ١٩٥٣، و ١٩٦٠م، ظهرت مئات الحالات التسممية، كما توفي ٤٣ شخصاً. وللمرة الثالثة، أجري إحصاء عام ١٩٧١م، تبين فيه أن هناك أكثر من ٧٠٠ حالة تسمم بالزئبق تم تسجيلها في المنطقة نفسها، وفي مدينة يابانية أخرى تدعى "نياجاتا" ظهر الوباء وعمّ، فيما بين عامي ١٩٦١م و ١٩٦٤م. ولقد تسبب هذا الوباء في إصّابة مايزيد على ٥٠٠ شخص بأعراض التسمم. ولقد عزي ذلك إلى تلوث مياه نهر "أجانو" بنياجاتا، بمخلفات بعض المصانع، مما أدى إلى زيادة نسبة الزئبق في لحوم الأسماك التي تعيش في هذه المياه، وأصبحت خطراً على حياة آكليها. ولقد قام فريق من الباحثين بإجراء عدة تحليلات على أنسجة الأسماك المصادة من المناطق الملوثة في خليج ميناماتا ووجدوا بها كمية عالية من الزئبق، بلغت ١١-٣٦ ملليجراما/كجم، بينما وصلت في أسماك نهر "أجانو"، وقت الوباء إلى ١٠ ملليجرامات/كجم. فإذا علمنا أن الكمية المسموح بها عالمياً في المواد الغذائية، يجب أن لا تتعدى بأي حال من الأحوال ٥ر٠ ملليجرام/كجم، لتبيّن لنا حجم المأساة الحقيقي.

وثمة فاجعة أخرى، أثارت اهتمام العلماء في كل من الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا في عام ١٩٦٩م، حينما اكتشفوا وجود الزئبق، في أجسام أسماك بحيرة "سانت كلير" بتركيزات غير مقبولة، وكان لابد من دق نواقيس الخطر، صوناً للصحة العامة، وحرصاً على سلامة الآكلين.

وكارثة أخرى أصابت بحيرة "أونتاريو" في عام ١٩٧٠م، وشغلت المعنيين بسلامة البيئة في كل من الولايات المتحدة وكندا. فقد أوضحت التحليلات التي أجريت على أسماك البحيرة، ارتفاع نسبة الزئبق فيها إلى نحو ٧ ملليجرامات/كجم، أي إن كمية الزئبق قد وصلت إلى ١٤ ضعفاً للكمية المسموح بها. وفي أمريكا أيضاً، وجد الباحثون أن هناك نوعاً من الأسماك يسمى "سمك السيف" له قدرة هائلة على الاحتفاظ بتركيزات مميتة من الزئبق داخل أنسجته. ولهذا السبب، أصدرت السلطات الصحية تعليماتها، بمنع صيده وتداوله في الأسواق. ولم يكتف رجال الصحة بذلك، بل قاموا بجمع مئات العينات من الأسماك المعلبة، وأعادوا تحليلها، وما إن تبين وجود الزئبق في بعض عبوات أسماك التونة، حتى أصدروا تعليماتهم بسحب هذه المنتجات من الأسواق. وفي سويسرا تنبه العلماء لخطورة مشكلة التلوث بالزئبق في عام ١٩٧٠م حينما اكتشفوا وجود هذا العنصر في مياه وأسماك بحيرة "ليمان" Leman بتركيزات تفوق المسموح بها دولياً. وقد تبيّن لهم، أن بعض مصانع الكيماويات، المقامة على شاطىء نهر "الرون" تلقي بمخلفاتها المحتوية على الزئبق في مياه النهر، الذي ينتهي به المطاف إلى البحيرة. وفي انجلترا، وجدوا الزئبق في العديد من المجاري المائية، خاصة في المناطق المزدحمة بالمصانع. وفي فرنسا، أكدت دراسات المعهد الفرنسي القومي

"ميناماتا" .. والخطر الفضي الصامت!

للبحوث الصحية، أن هناك ١٧ نوعاً، من بين ٣١ نوعاً من أسماك البحر المتوسط، تحتوى على مستويات غير مقبولة من الزئبق. ونقرأ عن تحذيرات المعهد الفرنسي لطب المحيطات، لآكلي أسماك البحر المتوسط، من مغبة إصابتهم بعلة مزمنة، في خلال سبع سنوات، في حالة تناول كيلوجرامين، من هذه الأسماك اسبوعياً. ولقد قدر باحثو المعهد، أن تناول الفرد نحو ٣٠٠ جرام أسبوعياً منها، كفيل بإصابته بأعراض مرضية خطيرة، ربما لاتظهر آثارها إلا بعد عدة سنوات. وفي مصر، رصد الدارسون مستويات عالية من الزئبق، في مياه الساحل الشمالي وأسماكه، خاصة في منطقة "المكس" بالإسكندرية. ففي هذه المنطقة يتم صرف مخلفات مصانع كيميائية، تستخدم الزئبق في وحدات التحليل الكهربائي لملح الطعام، بغية إنتاج الصودا الكاوية والكلور. ولكن المثير حقاً، أنهم وجدوا في أسماك هذه المنطقة، وفي رواسبها البحرية مستويات من الزئبق، تفوق نظيرتها في بلاد أخرى كثيرة، فإذا كانت جرعة الزئبق الأسبوعية المقبولة لشخص بالغ يزن ٧٠ كيلوجراماً، لاتتعدى ٣ر٠ ملليجرام، إذن لاينبغي بأي حال، تناول أكثر من ٢٢٥ جراماً من أسماك المكس، أسبوعياً.

من أين يأتي التلوث؟

ربما يدهشك أن تعلم، أن نحو نصف مايستهلكه العالم من الزئبق سنوياً، وهو مايربو على العشرة آلاف طن متري، يتسرب إلى البيئة، فيصيبها بالتلوث. بل إن كل الصناعات التي يستعمل فيها الزئبق، تعد مسؤولة عن التلوث، خاصة حينما تصرف مخلفاتها الصناعية في مجارى المياه، وكذلك حينما تطلق مخلفاتها مباشرة في الجو. ولعل الكثيرين لايعلمون، أن للزئبق -في الصناعة- دوراً لايستهان به حيث تزيد استعمالاته الصناعية على ثلاثة آلاف من المنتجات الحيوية.

وتأتي مصانع الصودا الكاوية، والكلورقلويات، في المقدمة، إذ تستهلك نحو (٢٥٪) من جملة مايستهلكه العالم سنوياً من الزئبق. ويلي ذلك صناعة المعدات والأجهزة الكهربائية (٢٠٪)، ثم صناعة الدهانات (١٥٪) ، وتستهلك أجهزة القياسات والمعايرة نحو (١٠٪)، وفي المجالات الزراعية المختلفة يستهلك نحو (٥٪)، أما النسبة الباقية (٢٠٪)، فتستهلك في مئات الاستخدامات المدنية والعسكرية الأخرى. ومع كل استخدام صناعي للزئبق، لابد أن تتخلف عنه كمية من المخلفات. ففي صناعة الصودا الكاوية - على سبيل المثال- يصاحب إنتاج طن الصودا الكاوية تسرب ٣ر٠-٥ر٠ رطل زئبق، إلى البيئة. وليست مخلفات الصناعة التي تُلقى في المجاري المائية، هي وحدها مصدر التلوث بالزئبق، فإن بقايا المبيدات التي تحتوي على الزئبق، تمثل مصدراً آخر لايقل خطورة. فالمعروف أن المزارعين كثيراً مايعالجون محاصيلهم كالقمح والأرز والذرة والشعير ببعض المبيدات، صوناً لها من هجوم الفطريات. وهي مبيدات يدخل الزئبق ضمن تركيبها الأساسي. إذن، فكثيراً ماتتلوث التربة ببقايا من هذا العنصر الذي يبقى فيها لأمد طويل، دون أن يتحلل. وفي الوقت نفسه، فإن قدراً من هذا المبيد، ربما تجرفه مياه الأمطار، ومياه الري، ليصل إلى المياه الجوفية، وإلى الأنهار والبحيرات، ليصيبها بلعنته. ولعل الأحداث التي ألمت ببعض دول العالم، في السنين الأخيرة، خير دليل على صحة هذا القول. ففي نهاية عقد الستينيات، رصد الباحثون، في السويد، تزايداً في معدلات موت الطيور آكلة الحبوب، كما لاحظوا شيوع حالات العقم فيما بينها، حتى تناقص عددها بدرجة كبيرة. وفي الوقت نفسه، لاحظوا أن كل هذه



رش المزروعات بالمبيدات قد يكون وسيلة أخرى لنقل العنصر السام إلى أجسادنا

الأحداث قد تزامنت مع موسم زراعة حبوب، سبق معالجتها بمبيد فطري يحتوي على ألكيل الزئبق. فحينما كانت الطيور تلتقط الحبوب الملوثة بالزئبق، كانت تظهر في أجسامها، وفيما تنتجه من بيض، كميات قاتلة من هذا العنصر السام. وفي العراق، حدثت خلال عامي ١٩٧١، ١٩٧٢م أوبئة تسممية خطيرة، وكان السبب خبزاً، صنعه الناس في بيوتهم، من قمح مستورد تمت معالجته بمبيد فطري يدخل الزئبق في تركيبه. وقد دلت نتائج التحليلات على وجود مستويات عالية من ميثيل الزئبق Methyl Mercury في الخبز، بمتوسط ٨-٩ ميكروجرام/جرام. وفي دراسة وبائية أجريت بإحدى مناطق العراق الريفية، تبين أن نسبة التسمم بميثيل الزئبق، وصلت إلى ٧٣ لكل ألف شخص، بينما وصلت نسبة الوفيات فيما بينهم إلى ٢٢٪. وقد لوحظ أن الأشخاص الذين بدت عليهم أعراض التسمم بمادة ميثيل الزئبق، بصورة حادة، هم هؤلاء الذين تناولوا في طعامهم نحو ١٣٠ ميكروجراما/كجم، من هذه المادة بصفة يومية. وفي بقاع عديدة من العالم، مثل الباكستان، وجواتيمالا وغيرهما، نقرأ كثيراً من التقارير عن حوادث وبائية مماثلة، تشير بقوة إلى ذلك الخطر الفضي الصامت، وتكشف عن ضراوته.

أوراق ترشيح الزئبق

ثمة معتقدات خاطئة، يعتقدها البعض بشأن التلوث بالزئبق.. لعل في مقدمتها، مايقال عن ضآلة كميات الزئبق التي تتخلف في مياه الصرف الصناعي، بحيث يصعب تصور أي ضرر يمكن أن ينتج منها، اذا ماتسربت إلى المجاري المائية. وهؤلاء يحاولون التدليل على صحة مايرون، فيضربون لك مثلاً، بالمخلفات السائلة لمصانع التحليل الكهربائي. فهذه لايزيد مستوى الزئبق في المتر المكعب منها على ملليجرام واحد. ناهيك عما يحدث لهذه الكميات الضئيلة، من تخفيف شديد، حينما تنتشر في مياه الأنهار والبحيرات. والحق، أن هذا الرأي يبدو للنظرة العجلى منطقياً إلى حد كبير، ولكن حقائق العلم تقول غير ذلك. أجل، فالثابت علمياً، أن للكائنات الحية التي تعيش في المجاري المائية مثل الطحالب، والأسماك، قدرة هائلة على التقاط الآثار الضئيلة من الزئبق، ثم تركيزها داخل أنسجتها، بتركيزات تبلغ أضعاف أضعاف تركيزاتها في الماء. ولعل من غريب الإحصاء، ماذكره الباحثون من أنهم وجدوا، في أجسام بعض الأسماك، كمية من الزئبق تعدل نسبتها ثلاثة آلاف ضعف، لما هو موجود بالفعل في الماء المحيط. إنها لحقيقة مثيرة حقاً، أن تقوم الأسماك -كما لو كانت أوراق ترشيح- بحجز معظم الزئبق في أنسجتها. ولكن الأكثر إثارة، أن لها قدرة مدهشة على تخزين هذا الزئبق، لا في صورته المعدنية (قليلة الامتصاص، قليلة السُّمية)، ولكن في صورة مركب عضوي شديد السمية، هو «ثنائي ميثيل الزئبق»، الذي يرتبط - من طريق ذرات الكبريت- بجزيئات البروتين. ورُبّ سائل يسأل: ومامعنى هذا؟ ونجيب: لقد أثبت الباحثون، أن الزئبق، وهو في صورته المعدنية، لايتسبب من ابتلاعه أي تسمم.. لماذا؟ لأنه -ببساطة- قليل الامتصاص من الجهاز الهضمي (حيث لاتزيد نسبة امتصاصه على ١٪). ولكن الصورة العضوية للزئبق (خاصة ميثيل الزئبق)، تعتبر أكثر ضراوة وأعتى تأثيراً، بسبب ارتفاع معدل امتصاصها من القناة الهضمية (تزيد نسبة امتصاصها على ٩٥٪).

إنها الحقيقة العلمية التي عرفها الباحثون، وعرفوا كذلك أن خطر التسمم يشتد حدة وضراوة، في حالة الأسماك الكبيرة، والأنواع المفترسة مثل الماكريل والتونه، موازنة بأنواع الأسماك الأخرى الصغيرة كالسردين مثلا. وعلة ذلك لاتخفى على لبيب، إذ إن الزئبق ينتقل رويداً رويداً، خلال الهرم الغذائي في الماء.. فهو يتحول أولاً من الصورة المعدنية الى الصورة العضوية، بفعل الأحياء المائية الدقيقة. وتحدث الخطوة الثانية حينما تتغذى بعض الكائناتت المائية الدقيقة مثل


المخلفات الصناعية المصدر الرئيسي لخطر التسمم بالزئبق

الطحالب على ماسبقها من مجهريات.. ثم تتغذى الأسماك الصغيرة على الطحالب. وتأتي الأسماك الكبيرة فتلتهم الجميع، وتختزن في أنسجتها، كل ماكان فيها من زئبق. أضف إلى ذلك، أنها - طوال يومها- تمتص كميات أخرى من الزئبق، من طريق رشح كميات كبيرة من المياه الملوثة، عبر خياشيمها. زدْ على ماسبق، ماتمتاز به هذه الأنواع من عمر طويل، فتزداد في أجسامها -مع تطاول الأيام- كميات من الزئبق قاتلة، تكفي تماما لإصابة الآكلين بضرر مبين.

في القطب الشمالي، وفي الأعماق

تعثر الأوساط العلمية، بين الحين والحين، على كشوف غريبة ومهمة، فمنذ وقت قريب كشفت دراسات العلماء، على حيوانات القطب الشمالي مثل الدب القطبي وطائر البنجوين، عن وجود تركيزات ملحوظة من الزئبق في أجسامها. ولعل المثير في هذا الكشف أن تلك الحيوانات ظلت طيلة حياتها لاتغادر هذه المنطقة النائية، البعيدة تماماً من العمران، والبعيدة أيضاً من مصادر التلوث الصناعي، كما لم يسبق أن

"ميناماتا" .. والخطر الفضي الصامت!

استعملت بها أي من المبيدات الفطرية المحتوية على الزئبق. فمن أين جاء هذا العنصر؟ لقد أثارت هذه الظاهرة كثيراً من الدهشة والعجب، في بادئ الأمر، ولكن ذلك لم يطل كثيراً، إذ عثر العلماء مؤخراً على تفسير مقبول، يعتمد على «طبيعة الهرم الغذائي»، أو السلسلة الغذائية، المعروفة في مياه الأنهار والبحار. فالطحالب البحرية كثيراً ماتمتص الزئبق من الماء. هذا حق! ولكن القشريات، ماتلبث سريعاً حتى

حلقات السلسلة الغذائية، زيادة في تركيز العنصر الفضي الصامت. وهكذا يمكن القول بأن الأسماك الملوثة، هي المسؤولة عن نقل الزئبق من مناطق العالم الصناعي الملوثة، إلى تلك المناطق القصيّة، التي كانت يوماً ما تزهو بنقائها. شيء آخر لابد من ذكره، فالكائنات المائية من طحالب وقشريات وأسماك ونحوها، إذا كانت قد أسهمت -بدرجة ملحوظة- في نقل التلوث الزئبقي، على طول أنهار العالم وبحاره، فهي



تتغذى على عشرات من هذه الطحالب، ثم تقوم الأسماك بالتغذي على عشرات من القشريات. وبالقرب من قمة الهرم الغذائي، نرى الدب القطبي، وأسراباً من طائر البنجوين، وهي تنقض على عشرات من الأسماك الملوثة بالزئبق. وبديهي -إذن- أن يصحب كل حلقة من

كذلك، قد أسهمت في نقل هذا التلوث البغيض، إلى الأعماق. فالكائنات الملوثة، لابد لها يوماً أن تموت. وسوف ترسب أجسادها في القاع، وتبدأ في التحلل. وفي النهاية، يتحرر ماتحويه أجسادها من زئبق. وهنا يكمن خطر جديد.. فعند العلماء أننا حتى إذا نجحنا في

السيطرة على كل مصادر التلوث بالزئبق، فإن مخلفاته، التي ترقد في رسوبيات قيعان البحار والمحيطات، لن تفقد سُمّيتها قبل خمسين أو مائة عام. ناهيك عن أننا لانستطيع التنبؤ بالوجهة التي يمكن أن تقصدها تلك الرسوبيات الخطرة. تلك هي الصورة التي لاينبغي التغافل عنها. ولعل واجب الصراحة التامة يقتضي أن ننبه إلى أن تحليل ماء البحر، لايمكن أن يعطينا مطلقاً صورة حقيقية عن مدى تلوث البحار بالزئبق. لماذا؟ لأن الزئبق -ببساطة- غير قابل أصلاً للذوبان في الماء. وبالتالي، فهو عادة مايرسب في القاع، ويربط نفسه إلى الحبيبات الصغيرة في الرسوبيات. وأحسبك -بعد هذا العرض المقتضب- توافقني على أن الطريق الأمثل للكشف عن ذلك العنصر، والإمساك به، هو تحليل رسوبيات القاع، لاتحليل المياه فقط. وتلك معضلة أخرى، تزيد الأمر تعقيداً على تعقيد.

حذار من هذه الأسماك وأخواتها

هناك حقيقة مزعجة، ولكنها مع ذلك صحيحة على نحو قاطع، وهي أن معظم الزئبق الذي يلوث طعامنا، يوجد في صورته العضوية الكثيبة المسماة «ميثيل الزئبق». ولكن لحسن الحظ، فإن كثيراً من أطعمتنا تقل فيها تركيزات هذه المادة بدرجة ملحوظة، إذ لاتتعدى -بوجه عام- عشرة أجزاء في البليون. فاللبن -على سبيل المثال- يقل فيه تركيز الزئبق بدرجة واضحة، موازنة بتركيزه في لحم الحيوان. والسر في ذلك، أن اللحم نفسه يعد بمثابة مرشح يحتجز معظم المعادن الثقيلة، ويقلل بالتالي من فرصة وصولها إلى الحليب الناتج. غير أننا نشير إلى أن بعض الباحثين قد رصدوا تركيزات مقلقة، من هذه المادة في ألبان حيوانات غذيت بحبوب معاملة بمضادات فطرية تحتوي على الزئبق. ولكن الذي لاريب فيه، أن الأسماك وأخواتها من المحاريات والحيوانات البحرية، تعد أكثر أنواع الأغذية تعرضاً للتلوث بالزئبق، خاصة إذا كانت تعيش في مياه ملوثه بمخلفات المصانع. وهناك دراسة أُجريت في النرويج، تبين منها أن الأسماك التي تعيش قريباً من مخارج صرف مخلفات المصانع، تحتوي على كمية عالية من الزئبق، تتراوح من ٣٫٦ إلى ٤٫٩ جزء في المليون. أما الأسماك الأخرى، التي تعيش بعيداً من هذه المخارج، فلايزيد تركيز الزئبق في أجسامها على ٠٫٢-٠٫٣ جزء في المليون.

وفي دراسة أُخرى أُجريت في الدانمارك، خلال أعوام ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠م في منطقة مقفلة، بأحد الأنهار الملوثة، تبين أن مستوى الزئبق في الأسماك، يتراوح مابين ٦ إلى ١٣ جزءا في المليون. فإذا علمنا أن الحد الأقصى المسموح بتواجده من الزئبق، في الأسماك هو ٥٠٠ جزء في البليون (أي ٠٫٥ جزء في المليون)، لبدا أمامنا حجم القضية الحقيقي، وعرفنا أن الأمر جد، لاهزل فيه. وإذا علمنا أن التشريعات الغذائية تنص على عدم تجاوز حد ٠٫٣ ملليجرام زئبق، في الغذاء أسبوعياً، لظهر لنا بجلاء أن ثمة خطورة محققة، في حالة تناول أكثر من نصف كيلوجرام من السمك أسبوعياً، اذا احتوى على ذلك الحد الأقصى المسموح به. إنها حقائق لابد من معرفتها ولابد من تداولها، لئلا يغفل الناس عن أخطار تتخفى في زي فضي لامع!

وماذا يصنع في الأجسام؟

بعد أن عرف الباحثون الكثير

"ميناماتا".. والخطر الفضي الصامت!

عن الزئبق، وعن تحولاته عبر الهرم الغذائي، ودرسوا طبيعته، وانتشاره في بعض مانأكل من طعام، عَنَّ لهم سؤال مهم، هو: على أي نحو يدخل هذا العنصر في الأجسام، وعلى أي نحو يؤثر في الحياة العادية للخلايا؟ والحق أنه من دون هذه المعرفة، لايمكن أن يكون هناك مجال للحديث عن مواجهة لهذا السم الخطير، ولا عن علاج يرجى منه شفاء. وللإجابة عن مثل هذه الأسئلة وغيرها، أجريت على حيوانات التجارب دراسات كثيرة. وهي تجارب عادة ماتشير إلى اتجاهات مهمة يمكن تطبيقها لدى الانسان. وفي الوقت نفسه، عكف الباحثون على رصد الأعراض المرضية، التي ألمت بمئات الأشخاص الذين تعرضوا لهذا النوع من التسمم، في أماكن عديدة من العالم، منذ حدثت مأساة "ميناماتا" الشهيرة. ولقد خلصت هذه الدراسات إلى جملة من حقائق مهمة، نذكر منها: إنه بمجرد امتصاص مركب «ميثيل الزئبق» من القناة الهضمية، يبدأ على الفور بامتصاص كمية من الماء في الخلية، مما يؤدي إلى تشبع الأوردة الشعرية بماء كثير، بسبب تدفق السوائل فيها. وهنا تضيق الشرايين الشعرية، حتى تحتقن أعضاء إفراز السوائل بالجسم، وتلتهب، وتصاب عادة بالتقرحات، اذ يتركز فيها الزئبق، كما يتركز كذلك في الكلى والأمعاء. ولكن التأثير الأشد يتمثل في إتلاف النخاع الشوكي، وإتلاف خلايا المخ الحيوية. هذا إجمال مايحدث في الأجسام، فماذا ياترى تظهر عليها من أعراض؟ لعل من أهم أعراض التسمم بالزئبق، مايظهر في لثة المصاب من تقرح واحتقان، ومايستشعره -في فمه- من طعم معدني، وخروج الروائح الكريهة منه، مع إفرازات لعابية غزيرة. وهو كثيراً مايصاب بقيء دموي ، كما يشكو مر الشكوى من آلام في معدته، وفي المريء. هذا علاوة على مايحدث للغشاء المخاطي المبطن لأمعائه الغليظة من اضطراب والتهاب.

وتتركز خطورة التسمم بالزئبق، في أنه يتسبب في زيادة إدرار البول أولاً، ولكنه لايلبث أن ينتهي بحبسه، فلايخرج من الجسم، فيتسمم به، ويموت صاحبه في خلال ٥-١٠ أيام. ذلك حال المرض، في صورته الحادة. وهذه تختلف عما لو كانت الحالة متوسطة، حيث يعاني المصاب من حدوث شلل في أطرافه، مع اضطراب واضح في حركته، فيسقط المرة تلو المرة، كما يشكو من ضعف سمعه، ويحس بثقل في رأسه وصداع، وتختلط صور الأشياء في ناظره، ويصحب كل ذلك طفح جلدي مؤلم يقض مضجعه. وتتمثل أعراض التسمم الخفيفة بالزئبق، في تغيرات تحدث بالجهاز العصبي للمصاب، تسلمه إلى رعشة تهزه، وتهيج عصبي يجتاحه، وصداع مؤلم في رأسه، كما يصاب بإعياء واضح وكلال. ولعل من أخطر مايسببه الزئبق، مايحدثه في الأجنة من ضرر.. فقد بينت دراسات الباحثين، على نساء حوامل تعرضن لهذا التسمم، أن له قدرة هائلة على اختراق جدار المشيمة الذي يحيط بالأجنة، والوصول إليها، ثم إحداث تلف في المخ. وعلى النساء المرضعات أجريت دراسات أخرى، أكدت على أن مركب «ميثيل الزئبق» كثيراً مايجري إفرازه في ألبانهن، والوصول بالتبعية إلى أجسام أطفالهن. وبالفعل فقد لوحظ أن بعض الأطفال الرضع، في وباء العراق، قد احتوت دماؤهم على أكثر من ١٠٠ ميكروجرام زئبق، في كل سنتيمتر مكعب من هذه الدماء.

في المواجهة

والآن، بعد أن ذكرنا من أمر هذا الداء.. داء "الميناماتا"، ومن أصوله، وسبل انتقاله، يمكن أن نتداول معاً، بعض سبل العلاج والوقاية منه. وأول ذلك، إجراءات يلزم اتخاذها سريعاً، توسلاً لوقف امتصاص الزئبق، وتخليص الأجسام منه. وهنا تبدو الحمامات البخارية، إحدى الوسائل السريعة التي تضمن طرح الزئبق مع العرق المنسكب. وكذلك يفيد غسل المعدة والأمعاء، بمحلول يحضر من سلفات الماغنيزيا، في المساعدة على التخلص من بقاياه، التي لم تمتص بعد. ويقترح الباحثون سرعة إعطاء المصاب قدراً من مخلوط يحوي، إلى جانب اللبن الفرز، نحو ثلاثة جرامات من زلال البيض، وخمسين جراماً من السكر، وعشرين جراماً من بيكربونات الصوديوم. إن بوسع هذا المخلوط البسيط ، أن يربط الزئبق سريعاً، ويوقف امتصاصه من قناة الهضم.

هذا كله ضروري ومفيد، في مواجهة هذا الداء ومحاصرة آثاره الضارة سريعاً.. أما سائر العلاج فللطبيب المختص، يصرِّفه حسب حالة المصاب، إذا حضر. ولابد من استدعائه على عجل.

أهم المراجع:

١- أبو السعود، ع: إيتاي.. إيتاي.. إنه مرض مؤلم،العلم ٤٤، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢- إسلام، أ: التلوث مشكلة العصر، عالم المعرفة ١٥٢، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٠م.

٣- الحسيني، أ. - أبوالعلا، ص: أساسيات تغذية الدواجن، الجزء الثاني، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.

٤- السكري، أ: تلوث مدينة الاسكندرية بالزئبق، مجلة الجامعة والصناعة، يونيو ١٩٨٣م، مركز الدراسات العليا والبحوث، جامعة الاسكندرية.

٥- السيد، د: الحرب ضد التلوث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.

٦- الفيشاوي، ف: غذاؤك في خطر، مجلة الدراسات البيئية، ص ٧٧-٩٨، مركز الدراسات والبحوث البيئية، جامعة أسيوط، ١٩٩٣م.

٧- بشارة، ع: دراسات في بعض مشاكل تلوث البيئة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

٨- عسكر، أ. حتحوت، م: الغذاء بين المرض وتلوث البيئة، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨م.

٩- محمد، أ: السموم، العلم ١٩٩، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٠- نوفل، م: الطريق الى الغذاء الصحي، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.

11- Doglas M. Considine, Chemical and Process Technology Encyclopidia, Mc Graw Hill, New York, 1979.

12- Katsuna, M. Minamata Disease. Kumanoto University, Japan, 1968.

13- Pollution Control, Plant Engineering Library, Technical Publishing, Dun & Bradstreet Corporation, U.S.A, 1979.

P14- Sax, Dangerous Properties of Industerials, Fifth Edi Van Nostrand Reinhold, New York, 1979.

15- Takeuchi, T. In "Environmental Mercury Contamination" (R. Hartung and B. D. Dinman, eds), pp. 247-289.

16- Waldron, H. A. Metals in the Environment. Academic Press, London, New York, Toronto, Sydney, San Francisco, 1980.

17- World Health Organization. Evaluation of Certain Food Additives and the Contaminants Mercury, Lead and Cadmium. Technical Report Series No. 505, 1972.

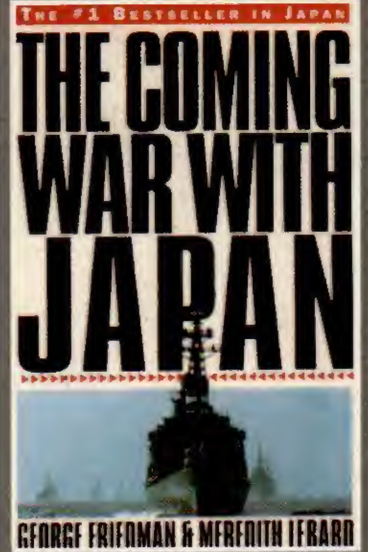
18- Word Health Organization. The Use of Mercury and Alternative Compounds as Seed Dressings. Technical Report Series No. 555,1974.

الحرب القادمة مع اليابان

٢

في العدد الماضي ذكر د. محمد عبد العليم مرسي قصة كتاب «الحرب القادمة مع اليابان»، واستعرض أجزاءه وفصوله استعراضا سريعا، كما قدم رأي المؤلفيْن في نشأة العلاقة بين اليابان وأمريكا بُعيد الحرب العالمية الثانية، وماقدمته أمريكا من مساعدة لليابان في المجال الاقتصادي حتى أصبحت عملاق الصناعة والاقتصاد في العالم؛ إلى الحد الذي مال فيه ميزان المدفوعات التجارية بين البلدين لصالح اليابان بمبلغ ٦٠ مليار دولار.

وفي هذا العدد يكمل د. مرسي الحديث عما بدأه في العدد الفائت.



تأليف:
جورج فريدمان
ميريديث ليبارد
عرض وتحليل:
د. محمد عبدالعليم مرسي

الثأر القديم

وبالإضافة إلى ماسبق فإن اليابان قد قدمت لأمريكا خدمات لاتقدر بثمن حين وفرت لها مخازن هائلة للسلاح والذخيرة خلال الحرب الكورية، بل إنها أقامت - أي أمريكا - هناك مصانع هائلة لإنتاج المستلزمات العسكرية التي احتاجتها تلك الحرب، ولهذه الأسباب كلها أقامت الولايات المتحدة الأمريكية علاقات متينة وحميمة مع اليابان، ولقد وقفت كل هذه الأسباب ضد الأمريكيين الذين كان من رأيهم تحطيم اليابان تماما حتى لاتقوم لها قائمة، وحتى لاتفكر في الأخذ بالثأر من الأمريكيين والانتقام منهم، وانتصر رأي الذين قالوا بالتحالف مع اليابان والاستفادة من موقعها وقواعدها، وطاقاتها الصناعية، ولقد حسم الأمر لصالح أصحاب الرأي الأخير خاصة بعد الحرب التي اشتعلت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فيما عرف باسم «الحرب الباردة».

ولقد قوبل قرار أمريكا بإعادة تصنيع اليابان بالترحيب من جانب رجال الأعمال اليابانيين، وكان من المصلحة أن تصبح جزءاً من العجلة الصناعية الأمريكية، وأن تكون امتدادا لها في الشرق الأقصى خلال فترة الحرب الكورية، وسمح هذا الوضع لليابان بأن تحصل على كميات هائلة من المواد الخام التي تطلبها الصناعة، والتي كانت تحت السيطرة الأمريكية دون أن تبذل جهدا يذكر في تأمينها من مصادرها، أو في حمايتها في البحر حتى تصل إليها حيث تولى الأمريكيون ذلك عنهم.

وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأنه كان هناك تعاون متبادل بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، قائم على أساس المصالح الاقتصادية اليابانية والمصالح السياسية الأمريكية، وهذا التعاون كان مهما جدا بالنسبة لأمريكا لدرجة أنها - في سبيل مصالحها الاستراتيجية - مستعدة لتقبل المنافسة الاقتصادية من جانب اليابان، بل التغاضي عنها، ولقد أثبتت أنها نافعة لأمريكا حقا في مجال مقاومة أهداف الاتحاد السوفييتي في الإقليم، وربما لهذا السبب تقبلت أمريكا تفوق اليابان الاقتصادي، وساعدت عليه، وهو شيء قد يبدو غريبا، خاصة بعد الهزيمة القاسية لليابان واستسلامها دون شروط.

والواقع أنه لولا ظروف العداء والتحدي التي سادت بين أمريكا والاتحاد السوفييتي؛ فإن التقدم الاقتصادي الياباني كان من الممكن أن يجهضه

الأمريكيون في أي لحظة؛ لولا خوفهم من أن تُرمى اليابان في أحضان الاتحاد السوفييتي، أو حتى خوفهم من التقلبات الداخلية في اليابان وعدم الاستقرار فيها، مما كان سيعقد الأمور بلاشك أمام التواجد العسكري الأمريكي في تلك المنطقة من العالم.

إن هذا الوضع يقودنا إلى سؤال مهم هو: ماذا كان يمكن أن يكون الوضع بالنسبة للرفاهية الاقتصادية لليابان لو لم يكن هنالك ذلك الصراع بين أمريكا وروسيا..؟ ولقد أجيب عن هذا السؤال في الماضي، حيث كان الصراع بين القطبين الكبيرين هو الأساس الذي استفادت منه اليابان في علاقتها مع أمريكا، كما كان هذا الصراع هو الأساس في النظام العالمي كله الذي ساد فترة الحرب الباردة كلها مدة أربعين عاما، ولكن بعد ظهور «الجلاسنوست»(١)، بدا أنه لا مناص من وجود علاقات جديدة تماما على المستوى العالمي.

ففي فترة قصيرة جدا من الزمن انهار الاتحاد السوفييتي؛ ليصبح الرجل المريض في العالم(٢) «THE SICK MAN OF THE WORLDå، بعد أن كان القوة العظمى الثانية التي كانت تناطح الولايات المتحدة الأمريكية، وتنافسها على مركز الصدارة بين دول العالم. والسياسة الخارجية الأمريكية في الوقت الحاضر تعد نفسها للتعامل مع حالتين لا ثالث لهما، أو مع (سيناريوهين) محددين على مسرح الأحداث العالمية، الأول هو أن يفيق الاتحاد السوفييتي من الكارثة الرهيبة التي ألمت به، ومن ثم يستعيد مركزه العالمي وسطوته التي كان يتمتع بها من قبل، وإن كان هذا الافتراض بعيدا من التحقيق والحدوث. أما الثاني فهو أن الاتحاد السوفيتي سوف يستمر في حالة التدهور والانحدار التي دخل فيها بحيث يختفي تماما كقوة فاعلة على المسرح السياسي الدولي، ويبدو أن ذلك هو الوضع المنتظر الذي يتمشى مع مجريات الأحداث.

ولقد كان عجز الاتحاد السوفيتي عن منافسة أمريكا في سباق التسلح، وعدم استطاعته الخروج من دائرة الاحتواء التي فرضتها عليه أمريكا منذ الأزمة الكوبية عام ١٩٦٢م، على الرغم من إنفاقه الرهيب على مقتضيات التسليح، كان هذا العجز وراء سياسة «الجلاسنوست» التي خرج بها «جورباتشوف» على العالم، التي عبرت حقيقة عن حالة الاتحاد السوفيتي الذي أرهقه المشوار الرهيب الذي أخذته فيه أمريكا في سباق التسلح، حتى خرّ - فعلا - على ركبتيه، بعد أن بدا له أن إكمال السباق من المستحيلات، ولم يعد الروس يمثلون أي تهديد بالنسبة للأمريكيين.

وينبغي الاعتراف بأن المجال الوحيد الذي استطاع فيه الروس أن ينافسوا الأمريكيين فيه بنجاح كان مجال «الأسلحة النووية الاستراتيجية»، وإن كان ذلك النجاح لم يساعدهم كثيرا في تحسين مركزهم عالميا، خاصة وأن قواتهم البرية لم تكن متفوقة على قوات الصين، أو قوات حلف شمال الأطلسي، كما أنهم بطبيعة الحال لم يصلوا إلى مستوى قوة أمريكا في البحر.

لقد كان تفوقهم في مجال الأسلحة النووية غير كاف لتعويضهم عن النقص في مجال السلاح التقليدي، وعلى الرغم مما يجري في الاتحاد السوفيتي من قلق داخلي وعدم استقرار داخل أجزائه؛ إلا أنه لايزال يحتفظ بترسانة هائلة من الأسلحة النووية، وهذا الوضع لاينبغي أن يغيب عن أعين واضعي الاستراتيجية العالمية.

دروس العزلة

ويبيّن الكاتبان كيف استفادت الولايات المتحدة الأمريكية من درس عزلتها القاسية التي فرضتها على نفسها بين الحربين العالميتين، لقد كانت تلك العزلة درسًا تعلمت منه الكثير، فخرجت من الحرب العالمية الثانية لتحيط نفسها بعدد كبير من الحلفاء في كل مكان، ولتغدق عليهم من قوتها الاقتصادية الهائلة، وكان من بينهم عدد كبير من الدول المعادية للاتحاد السوفيتي، ولقد اعتمد نظام التحالف الأمريكي مع هذه الدول على ثلاثة مبادئ أساسية، هي: العداء للاتحاد السوفييتي، الأمن الجماعي، والتجارة الحرة.

أما بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية في آسيا فإنها اعتمدت محورين: الأول أنّ أمريكا أرادت أن تكون لها سيطرة واضحة على الأرض الآسيوية ذاتها MAIVLAND ASIA بحيث توجد توازيا أرضيا يعادل وزن الصين ذاتها، وكانت كوريا الجنوبية، فيتنام الجنوبية، تايلاند، وماليزيا هي طرف المعادلة الذي اعتمدت عليه أمريكا في تلك الاستراتيجية، أما المحور الثاني فكان السيطرة على المياه المحيطة بآسيا، وكذلك السيطرة على الجزر الشاطئية القريبة من القارة الآسيوية، ولقد تمثلت



تنامي القوة الدفاعية لليابان.. هل يمكّنها من حماية اقتصادها؟

هذه الجزر في حلقة كبرى ضمت أندونيسيا، الفلبين، تايوان، أوكيناوا، ثم اليابان، وقد شكلت هذه الجزر نطاقا يحيط بآسيا ذاتها، وكان الهدف الاستراتيجي الأمريكي من هذا النطاق هو ألا يسمح بعبور الشيوعية بعده أو وراءه، كما أنه شكل قواعد متقدمة للانطلاق الأمريكي والمغامرات الأمريكية ناحية آسيا.

ولقد كان الهدف الواضح من كل تلك القواعد الأمامية هو منع البحرية الشيوعية من أن تنطلق في المحيط الهادي بحيث تكوّن تهديداً للأسطول الأمريكي هناك، كما كان الهدف الثاني هو السيطرة على تدفق المواد الخام وغيرها الداخلة والخارجة من قارة آسيا وإليها والتحكم فيها، ولقد أثبتت قاعدة «كلارك الجوية CLARK AIRBASE» في الفلبين فعالية كبرى في هذا المجال خلال حرب فيتنام، كما قامت اليابان بالدور ذاته خلال الحرب الكورية. وخلال هاتين الحربين استخدمت اليابان كقاعدة استراتيجية كبرى حققت أمريكا ـ عن طريقها ـ الكثير من أهدافها.

وبجانب كل ماسبق فإن اليابان بوضعها الجغرافي الذي ينحني أمام الأرض الأسيوية على شكل هلال قد حرم البحرية السوفيتية مما كان يمكن أن تقوم به في مياه المحيط الباسيفيكي، خاصة أن ميناء فلاديفوستك الروسي يواجه الأرض اليابانية، ولكن الطرق البحرية الخارجة منه كان من السهل جدا إغلاقها من قبل اليابان حينما تأمر الولايات المتحدة بذلك. ومن هنا فإن كل العمليات السوفيتية البحرية في المحيط الهادي كانت تحت سمع وبصر الأمريكيين، وكان إجهاضها أمرا سهلا من الأراضي اليابانية. ولكي يخترق الاتحاد السوفييتي ذلك النطاق الصعب كان عليه أن يخوض حربًا ضد اليابان، ولم يكن ذلك بالمغامرة المأمونة لأن أمريكا كانت هناك بقواعدها الأرضية، بالإضافة لإمكاناتها البحرية الهائلة في المحيط الهادي بجزره وأساطيله.

تسهيلات أمريكا لليابان

ويحدثنا الكاتبان، بعد ذلك، عن خوف الولايات المتحدة الأمريكية من الأوضاع الداخلية في اليابان، حيث كانت اليابان عرضة لأن تنقلب بين لحظة وأخرى لدولة مشايعة للروس، بسبب الكراهية الكامنة لدى اليابانيين لمن ضربوهم بالقنابل الذرية وأذلوا إمبراطورهم، فقد كانت هناك أحزاب يابانية تسعى لتأليب الرأي العام الياباني ضد الأمريكيين، وفي الوقت نفسه كانت هناك حركات سياسية في الاتجاه المعاكس، أي إنها كانت مع الأمريكيين، وخاصة رجال الأعمال اليابانيين الذين وجدوا في التحالف معهم فرصة كبيرة للثراء الشخصي لهم، وكذا لانتشال اليابان من الأوضاع المتردية التي انهارت إليها بسبب الحرب.

ولقد حسمت هذه القضية لصالح الميل نحو الأمريكيين، خاصة حين فتحت أمريكا الباب أمام اليابان لتحصل على المواد الخام اللازمة لتنمية صناعاتها بأرخص الأسعار، مما أعطى الاقتصاد الياباني دفعة هائلة للأمام وللتطور، ورغم أن هذا البعد هو في أساسه بعد اقتصادي إلا أنه كانت له آثار سياسية كبرى في اليابان حيث قضى على المعارضة التي كانت قائمة ضد التحالف مع الأمريكيين، وزاد هذا الأمر رسوخا حين فتحت أمريكا أبوابها أمام الصادرات اليابانية دون عوائق تذكر، وفي المقابل أصبحت اليابان حليفا بالغ الأهمية للولايات المتحدة الأمريكية في هذا الركن من العالم.

وبظهور سياسة «جورباتشوف» في الاتحاد السوفييتي، والمعروفة بمصطلح «الجلاسنوست» فإن الأوضاع السابقة ستتغير، إذ إنه مع اختفاء الاتحاد السوفييتي بوصفه عدواً (راديكاليًا) للولايات المتحدة الأمريكية؛ فإن التحالف مع اليابان يصبح موضع تساؤل جديد وخطير، ويبدو أن الأمريكيين هم الذين سيبدؤون في التحلل من مستلزمات ذلك التحالف، بينما ستحاول اليابان ـ جاهدة ـ الحفاظ عليه، ولكن الحسابات في الاستراتيجية الأمريكية تبيّن أن العلاقات بين أمريكا واليابان سوف تفقد بريقها، بل سيعاد النظر فيها بعد أن انتهى عصر الحرب الباردة.

مشاعر عدائية جديدة

ويقدم الكاتبان تفسيرات علمية تستند إلى أسس اقتصادية متينة تبيّن أن هذا هو الاتجاه الحالي في أمريكا، حيث بدأ الحديث عن الثمن الباهظ الذي دفعته، أو اعتادت أن تدفعه الولايات المتحدة نظير بقاء اليابان في ذلك التحالف، فهما يقولان إن أمريكا قد سمحت لليابان أن تغلق أسواقها في وجه الشركات الأمريكية، بينما فتحت هي أسواقها أمام منتجات الشركات اليابانية، ولقد نتج من هذا الوضع أن أصبح العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي لصالح اليابان مبلغا قدره ٥٢ بليون دولار عام ١٩٨٩م. ويبين الكاتبان أن الإنفاق العسكري في المحيط الهادي، الذي كان يصرف على البحرية الأمريكية التي تحمي طرق الملاحة فيه، وتؤمن سير السفن اليابانية ـ سواء بالمواد الخام، أو بالمواد المصنعة ـ، هذا الإنفاق العسكري لاشك كانت تدفعه الأمة الأمريكية، وهو على وجه اليقين جزء أساس من ذلك العجز الفلكي في ميزان المدفوعات الأمريكي.

الحرب القادمة مع اليابان

THE COMING WAR WITH JAPAN

GEORGE FRIEDMAN & MEREDITH LEBARD

وللتدليل على المشاعر العدائية الجديدة والمتزايدة في الولايات المتحدة الأمريكية ضد اليابان يقول الكاتبان بأن نغمة جديدة بدأت ترتفع ضد اليابان، وتنادي بالتخلص من الأعباءالتي تتحملها أمريكا، وبالتخلص كذلك من التدليل الأمريكي للمنتجات الصناعية اليابانية. وفي حملته الانتخابية للمنافسة على البيت الأبيض جعل «ريتشارد جبهارت RICHARD GEPHARDT» هذه القضية محور تلك الحملة، والأخطر من ذلك فإن الاستفتاءات التي تجرى كثيرا في المجتمع الأمريكي أخذت تثبت ـ استفتاء وراء الآخر ـ أن المجتمع الأمريكي قد بدأ ينظر إلى اليابان على أنها عدو للولايات المتحدة أكثر من الاتحاد السوفييتي..!!

إن تنامي هذا الشعور بين طوائف المجتمع الأمريكي وأفراده، يضع أحمالاً ثقيلة على أكتاف الحكومة الأمريكية، التي تحاول جاهدة أن تقف في وجه الصادرات الصناعية اليابانية، ولكن يحول بينها وبين ذلك أنها تؤمن بمبدأ «حرية التجارة»، كما أنها تحاول جاهدة كذلك أن تفتح الأسواق اليابانية أمام المنتجات الأمريكية، ولكن نجاحها في هذا المجال يبدو محدودا للغاية كذلك. وباستمرار الضغط الداخلي على الحكومة الأمريكية فإن اليابان تفكر الآن(٣) في قضية مهمة هي قضية «التصدير».

المعادلة الصعبة في اليابان

إن اليابان من المحتم عليها أن توالي عمليات التصدير لكي تظل محتفظة بمعدلات نموها العالية الحالية، كما أنها يجب أن تنمو لكي تظل محتفظة

بنظامـها التـمـويلي الخاص بهـا، وفي الوقت الذي يمكن أن تعتـمـد فـيـه رفـاهيـة اليـابان على التـصـدير إلا أن حيـاتهـا ذاتهـا تعتـمـد على الاستيراد، وبتعبير الكاتبين الرائع نقرأ:

WHILE THE PROSPERITY OF JAPAN MAY DEPEND ON EXPORTS, JAPAN,S VERY LIFE DEPENDS ON IMPORTS ثم إن اعـتـمـاد اليـابان علـى الولايات المتـحـدة الأمـريكيـة بـشأن مـوضـوع الاستيراد هذا هو أكبـر بكثير جدا من مـوضـوع التـصـدير، إذ إنه في الوقت الذي كـان فيـه الجميـع ـ تقريبـا ـ في الولايات المتحـدة مهـتمين ومشـغولين بقـضـيـة الصـادرات اليـابانيـة، كـان اليـابانيون مـشغولـين أكثر بمـدى وفرة المعـادن التي عليـهم اسـتيـرادها كي يستطيعـوا البقـاء أحياء، بل إنـه صـار متـرسـخًـا في ثـقـافـة اليـابانييـن أن الاستيراد من الخارج يمثل أمرا حيويا بالغ الخطورة في حيـاتهم، ومعـروف أن أشـياء كـثيـرة مما تسـتورده اليـابان تعتمد فيه على الولايات المتحدة، وإذا تذكرنا الإحساس المتنامي مـن العداء الأمريكي ضـد اليابان أدركنا خطورة هذا الأمـر، خاصـة إذا وضعنا الأرقـام التـاليـة في حـسـاباتـنـا، كـمـا يـبـينهـا الجدول الآتي:

جدول يبين نسبة البـضائع المعدنية التي تستورد ها اليابان عام (١٩٨٧م)

المعدن	نسبة الاستيراد٪
الفحم	٨٧,٦٦
البترول	٩٩,٧٢
الغاز الطبيعي	٩٩,٩٤
خام الحديد	٩٩,٧٦
النحاس	٩٩,٢٠
النيكل	١٠٠,٠٠
البوكسيت	١٠٠,٠٠
الرصاص	٩١,٣٦
الزنك	٨٥,٤٦
المنجنيز	١٠٠,٠٠
الموليبدنم	١٠٠,٠٠
الكروم	٧٩,٣٩
التنجستن	٨٢,١٨
التيتانيوم	١٠٠,٠٠

إن هذا الجـدول يبين بوضـــوح شـديد أن اليـابان ـ أكـثـر من أي أمـة أخـرى ـ تعـتـمـد على واردتهـا من المعـادن الـتي تعتـبـر شـريان الحـيـاة LIFEBLOOD بالنسـبـة للاقتـصـاد اليـاباني ، والرفـاهيـة اليـابانيـة كلهـا. ولايحتاج الأمر لذكاء كـثير كي يفهم الإنســان أن قطع هذه الـواردات عن اليـابان يمكن أن يؤدي فـورًا إلى وقف سيل صادراتهـا إلى الخـارج(٤)، وفي شهورقليلة..!!

ويبين المؤلفـان أن هذه الحـقـيـقـة لاتغيب عن حـصافة اليـابانيين، ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا أكثر من تخزين بعض هذه المعـادن لفـتـرة من الوقت (١٤٢ يومًا مثلاً في حالة البترول)..؟ إن قطع إمـدادات المعادن عن اليـابان، لو حـدث، سـوف يـوقف الصناعـة اليـابانية بالفـعل، ومن ثم سوف يمحو قوتها الصناعيـة عن أن تهدد الولايات المتحـدة الأمريكيـة.إن هذا الوضع هو بالتأكيد نقطة البداية في جـميع أنواع التـفكير في اليـابان، فـالجـميع هناك متـأكدون أنه في حالـة توقف أمريكا عن اعتـبارها اليابان حليفـا استراتيجيا لهـا فـإن ذلك سوف يتـلوه بالتـأكيـد معـاملة اليابان على أسـاس هذا المنطق الاقـتـصـادي البـحث، الذي سـتكون قاعـدته الأساسيـة عسكرية. إن الواقع الفعلي الآن يقول بأنه هناك الكثير مما يفـرق بين حليـفيْ الأمس أكـثـر مما يجـمـعـهـمـا. إن الولايات المتـحـدة الأمـريكية يمكـنها أن توقف إمـدادات المواد الخام الذاهبـة إلى اليابان مبـاشرة إذا اختـارت أن تفعل ذلك باسـتخدام القوة المسـلحة، أو بشكل غير مبـاشر بوساطة الإيحاء للدول التي تمد اليابان بتـلك المـواد المطلـوبة لـلصنـاعـــات اليابانية.

وينتـقل الكاتبان إلى بعـد سيـاسي جديد بدأت أعـراضه تظهر واضحـة ـ وبشـدة ـ على العلاقـات بين البلدين، وقد مسّ هذه العلاقـة بوضوح ـ كـما يقـولان ـ كتـاب ظهـر في اليابان من عدة سنوات قريبـة جدا بعنوان «اليابان التـي يمكنـهـــا أن تـقـــول لا.. أو أن تتحدى، بمعنى أصح THE JAPAN THAT CAN SAY NOå (انظر العـــدد ١٩٦ـ شـوال١٤١٣هـ، من الفـيـصـل)، حيث يقـول مـؤلف ذلك الكتاب إن اليابانيين لاينبغي أن يقنعوا بأقـل من دور الشـــريك مع الـولايات المتحـدة الأمريكيـة، وليس دور التابع، ولكن أداء الدور الجديد سـوف يجعل الولايات المتحدة الأمـريكية تطلب من اليابان تحمّل نصيبـها في أعبـاء الدفاع العسكرية، مما سيـجعل اليـابان تدخل في مرحلة تسليح غـير هينة، ومن ثم ـ وللسخـرية ـ سوف تعتبرها أمريكا قد تسلحت أكثر مما ينبغي، ومن ثم فلابد من وضع حد لقدراتها العسكرية حتى لا تخل بميـزان التـسـلح في المحـيـط الهادي..!!! وإذا نظرنا للمـوضوع من وجـهة النظـر الأخرى، أي من جـانب اليـابان فـإنه ليـست هناك قـوة كـبرى يمكنهـا أن تتـحمل مـوقـفا يـكون فيـه شريان حياة مجتمعها واقتصادها تحت رحــمــة أيـة قـوة أخــرى. إن اليـــابان لايمكنهـا ـ مطـلقـا ـ أن تشـعـر بالأمن والطمــأنينة بسـبب سـيطرتهـا على مقدراتها، بل ولاتحكمها في مصيرها، اللهم إلا أن تمتلك القدرة على التحكم في مـصادر المعـادن التي تحتاج إليهـا، وكـذا أن تكون لديهـا القـدرة على التـحـكم في طرق المواصـــلات التي تسـلكـهـــا تـلك المعادن والمواد الخام الأخـرى اللازمـة لصناعتها، كـما أنها ـ في الوقت ذاته ـ لايمكنها أن تضـمن رفاهية مـجتمعـها حتى تستطيع أن تضمـن الوصول إلى أسـواق العـالم لـتصريف منتجـاتهـا، بالإضافة إلى أمن وضمان استثماراتها في تلك الأسواق.

وحـيـنمـا كـان لـدى الولايات المتحدة الأمريكية أسبابها الاستراتيجية في دعم اليابان فـي الماضي القـريب ـ خاصة حين كانت محتاجة إلى اليابان بشدة ـ وكانت اليابان ـ آنذاك ـ لاعبا ضعيفـا في الميدان السياسي العالمي، كان ذلك محتملا ومتقبلا من جانب أمريكا إلى حد ما، ولكن مع التغيرات الاستـراتيجية الهائلة الحـادثة اليوم في المسرح العـالمي، ومـع وصـول اليـابان لمكانـة عظمى بين الدول فـي مـجـال الاقـتـصـاد العـالمي؛ فـإن اليـابان ـ بالضـرورة ـ سـوف تحتـاج لـلسيطرة والتـحكم فـي العــوامل التي تحكم حياتها ذاتها.

كـما أنه ليـست هناك أمة يمكنهـا التـحكم في مـصيـرها دون أن يكون لديهـا قوة عـسكرية توازي حـاجتهـا لحماية ذلك المصـير، وخـلال سني الحرب الباردة أمدت الولايات المتحدة اليابان بقوات عسكرية كـافية؛ بحيث لم تكـن اليـابـان في حـاجـة لتكوين قواتها العسكرية الخاصة. وفي حقيقة الأمر فإن الفقرة رقم (٩) من الدستور اليـاباني تحظر التسلح وتكوين جيش ياباني، ولكن الحقيـقة التي قـد تكون مـفاجئة لكثـيرين هي أن اليـابان تنفق اليوم على التسليح أمـوالاً طائلة أكثـر من أية أمـة على وجه الأرض باستـثناء الولايات المتـحـدة الأمريكـية والاتحاد



THE COMING WAR WITH JAPAN

الحرب القادمة مع اليابان



السوفييتي. إنها تنفق ـ في هذا المجال ـ أكثر من الصين، وألمانيا وبريطانيا وفرنسا. وعلى ذلك فإن السؤال المطروح الآن لم يعد هو ما إذا كانت اليابان ستتسلح أم لا، ولكن أصبح السؤال:إلى أي حد، ولأي هدف..؟ وذلك ـ بالتأكيد ـ ماسوف تقرره حاجات اليابان الاستراتيجية.

ونصل إلى أخطر ماتوصل إليه المؤلفان في كتابهما من استنتاجات منطقية لاتدع سبيلاً أمام البلدين سوى الحرب.

تفكير هنا وتدبير هناك

عند الحديث عن استراتيجية اليابان المستقبلية؛ فإن الإنسان لايمكنه إلا أن يلتفت إلى حربها الأولى مع الولايات المتحدة الأمريكية، ففي خلال تلك الحرب كانت «سنغافورة» هي بؤرة التركيز في الاستراتيجية اليابانية، فلو أن عدوا تحكم في سنغافورة وفي «مضايق ملقا» عندها فإنه يكون قادراً على خنق اليابان؛ لأن معظم معادن اليابان التي تحتاج إليها وكذا البترول تمر من هناك، ولايمكن لليابان أن تغيّب هذه الحقيقة عن فكرها، كما أنها لايمكن أن تنسى أن القوة التي قد تفكر في إغلاق تلك المضايق لابد أن يكون لديها دوافعها لذلك، وفي جميع الحالات فإن اليابان لابد وأن تعد نفسها لأسوأ الاحتمالات كما هو الوضع بالنسبة لكل القوى الكبرى، وفي هذه الحالة فإنه ينبغي على اليابان أن تتخذ من الخطوات مايحول بين أمريكا وإغلاق تلك المضايق، حيث أن الأمريكيين هم الذين قد يكون لديهم ذلك الدافع، وهم ـ كذلك ـ الوحيدون القادرون عليه.

ولايحتاج الإنسان العاقل لأن يعمل فكره في قضية: هل اليابان تعد نفسها للحرب أم لا؟ إن صناع القرار في اليابان قد يكونون على خطأ بالغ مالم يفكروا في هذا الطريق، وعلى الجانب الآخر فإن صناع القرار في أمريكا يفكرون في الخطوات التي سيرغمون بها اليابان على عمل مايرغبونه. إنه مع نهاية عصر الحرب الباردة لم يعد الصراع عالميا، فلم يعد حدث يقع في «كوبا» بمؤثر في أحداث تجري في «فيتنام» أو في «ألمانيا»، وبمعنى آخر لقد أصبح العالم حرا من تصعيد الصراع والتهديد بإشعال حرب عالمية، كما كان يحدث من قبل.

إن قصر الصراعات على مناطق إقليمية محدودة قد أطلق يد القوة العالمية الكبرى الوحيدة في العالم، وهي أمريكا، لفرض إرادتها بطريقة لاتعرف الرحمة، لأنها ـ بطبيعة الحال ـ لاتخشى عواقب ماتفعل بعد أن أصبحت حرة مطلقة اليد في الميدان العالمي. حقا إن الولايات المتحدة تعيش في عصر جامح عاصف، لكن الحقيقة الأخرى هي أن العالم يواجه عملاقا أمريكيا مطلق السراح لايجد من يوقفه أو يحد من اندفاعه.

إن الحقيقة السياسية والعسكرية في عالم اليوم هي سيطرة بحرية الولايات المتحدة الأمريكية على بحار العالم. وكل بحار العالم ومحيطاته تخضع طرق الملاحة فيها لهذه الدولة، وهذا الوضع الأقرب للخيال حاولت بريطانيا ذات يوم أن تحققه، ولكنها لم تفلح حتى في أوج عظمتها. والنتيجة المنطقية لهذه الحقيقة تقول بأن أمريكا يمكنها أن تقرر شكل التجارة العالمية، كما أنها يمكنها أن تقرر وأن تفرض ماذا يمكن أن ينقل ، وإلى أين يمكن أن يرسل، بل كيف يمكن أن يرسل... وإذا كان ذلك غير مقبول من جانب اليابان فما عليها إلا أن تتحدى القوة الأمريكية... على الأقل في المحيط الهادي..!

وأخيرا...

فهذه هي القضايا التي يعالجها هذا الكتاب غير العادي، وهي تدور كلها حول التحولات الجديدة الجارية ـ تحت السطح ـ في العلاقات اليابانية الأمريكية، في السنوات الأخيرة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي، وخروج أوربا الشرقية من تحت سيطرته، ومن ثم انتهاء عصر الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا، وهي الحرب التي اعتاد العالم على تسميتها حرب القوى العظمى SUPER POWERS WAR، بعد أن لم يعد هناك سوى قوة واحدة يمكن أن يطلق عليها هذا المصطلح، أقصد مصطلح «القوى العظمى».

وحين كانت أمريكا محتاجة ـ في تلك الحرب ـ لحلفاء في كل مكان على سطح الأرض، كانت اليابان ذات وضع خاص لقربها من الاتحاد السوفييتي، ولموقعها المتميز في المحيط الهادي. وبتغير الأوضاع، وبانتهائها إلى ماصارت إليه فقدت اليابان هذه المكانة. والسياسة والاقتصاد لايعرفان العواطف والمشاعر، ومن هنا بدأت أميركا تحرك أوراقها من جديد وتعيد ترتيبها، وبدأت تبحث في التسهيلات الهائلة التي كانت تمنحها لليابان، بل أخذت تضع القيود والعقبات في طريق التجارة اليابانية لأن هذا هو مايخدم المصالح الأمريكية في المرحلة الراهنة.

ولكن، ومن جانب آخر، يمكننا القول بأن اليابان ليست صيدا سهلاً، لأنها تقف اليوم على قمة الهرم الصناعي العالمي، وتتحكم في كثير من الصناعات المهمة وعلى رأسها صناعات الحاسوب (الكمبيوتر) التي تغرق بها العالم، حتى في داخل أمريكا ذاتها، كما أنها بدأت تتسلح بشكل قد يكون مفاجئا للكثيرين في العالم. والخلاصة أن الصراع بين القوتين يسير في اتجاه الكارثة بالفعل، فهل سينفجر الوضع حقا خلال جيل كما تنبأ الكاتبان..؟ ولو حدث ذلك ماذا ستكون النتيجة؟.. وهل هناك قوى أخرى يمكن أن تتدخل.. بالإشعال.. أو بالتهدئة..؟ الله أعلم.

الهوامش:

١ـ إشارة إلى الأوضاع الجديدة التي تولى «جورباتشوف» تنفيذها في الاتحاد السوفيتي.

٢ـ اعتاد المؤرخون أن يطلقوا هذا المصطلح على دولة الخلافة العثمانية قبل تفككها وانهيارها، ثم اقتسام ممتلكاتها بين دول الغرب القوية ـ آنذاك ـ. ومايجري هذه الأيام من محاولة جمهورية الشيشان الاستقلال عن روسيا الاتحادية، وماسبق قبل ذلك من استقلال دول البلطيق، يبين أن الاتحاد السوفيتي سائر في الطريق نفسه.

٣ـ وقت تأليف الكتاب بطبيعة الحال عام ١٩٩١م.

٤ـ يفهم القارئ بالطبع هذا التلميح، الذي هو بالقطع في ذهن صانع القرار الأمريكي. وفي حالة اشتعال المنافسة بين الولايات المتحدة واليابان، فإن ذلك وارد. أما في حالة اندلاع الحرب بينهما ـ كما يتوقع الكاتبان ـ فإنه حتمي. وسيكون أول قرار تتخذه الحكومة الأمريكية، كما أن الحصار البحري خيار مطروح وفي متناول يدها (المترجم).





من نوادر التصنيف

حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألّفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس

يعدّ هذا الكتاب من الكتب العديدة التي اختصرها وهذبها جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأفريقي المصري المعروف بابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ/١٢٣٢-١٣١١م)، صاحب لسان العرب، حيث عُني باختصار الكتب، فاختصر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وزهر الآداب للحصري، ويتيمة الدهر للثعالبي، والذخيرة لابن بسام الشنتريني، ونشوار المحاضرة للتنوخي، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للخطيب، والحيوان للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وغيرها من الكتب؛ حتى قيل إن الكتب التي اختصرها تبلغ خمسمائة مجلدة، كما ذكر ابنه قطب الدين أن والده ترك خمسمائة مجلدة بخطه. وقد خدم ابن منظور بديوان الإنشاء بالقاهرة، وولي قضاء طرابلس، وكفّ بصره في آخر حياته.

أما الأصل الذي اختصره ابن منظور فهو كتاب «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب» لأبي الفضل أحمد بن يوسف التيفاشي صاحب كتاب «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار»، وقد عُني التيفاشي في تأليفه بالتصنيف في الموضوعات النادرة والطريفة، وله عدا الكتابين السابقين: «قادمة الجناح في آداب النكاح»، و«مشكاة أنوار الخلفاء وعيون أخبار الظرفاء»، و«سجع الهديل في أخبار النيل»، و«الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة»، و«درة اللآلي في عيون الأخبار ومستحسن الأشعار»، و«متعة الأسماع في علم السماع»، وغيرها من الكتب.

وقد حقق كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» الدكتور إحسان عباس وقدم له بمقدمة ضافية.

ويقع الكتاب في جزأين، عنون ابن منظور الجزء الأول منها بـ «نثار الأزهار في الليل والنهار»، وطبع هذا الجزء أكثر من مرة، والجزء الآخر عنوانه «طل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار».

والكتاب، كما يصفه إحسان عباس، يمثل حلقة مهمة في سلسلة الكتب الأدبية التي تقع موقعًا وسطًا بين المعرفة العلمية والتسلية بالمعرفة، ويكشف عن منجم كبير من الصور التي حاول الشعراء بها تقريب ظواهر الطبيعة إلى النفوس، وقسم ابن منظور كل جزء إلى أبواب، فالجزء الأول الذي أسماه «نثار الأزهار في الليل والنهار وأطايب أوقات الأصائل والأسحار وسائر مايشتمل عليه من كواكب الفلك الدوّار» جعله في عشرة أبواب، والجزء الثاني من الكتاب وهو «طل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار وجميع مايحدث بين السماء والأرض من الآثار» جعله في عشرة أبواب أيضا، وحشد في الكتاب قدرًا كبيرًا من المعارف والمعلومات والأخبار والآثار والشواهد القرآنية والشعرية، وضمنه أيضا فوائد في التفسير واللغة والنحو والأدب وتفسير الأحلام والفلك وغيرها. ومما أورده من الأخبار:

١- قال مسرور: قام الرشيد هارون يومًا من فراشه إلى صلاة الغداة فصلّى وخرج إلى موضع جلوسه، فرأى في بعض دهاليز القصر قنديلاً مسرجا من الليل لم يُطفأ إلى أن طلعت عليه الشمس، فأمر بإحضار الفراشين وضربهم في ذلك الموضع، فعجبت وقلت: ماعسى أن يكون قد ضاع من البزر في بقاء هذا القنديل مسرجًا إلى هذا الوقت، ثم أخذ مجلسه ورفعت إليه الأشغال، فرفع إليه مشرفُ مطبخه ورقة فيها: إن الطباخ طلب منه عطرًا لتطييب القدور بمبلغ كبير. وناولنيها فأشفقت من أمرها لما وقفت عليه في صدر يومي من نظره في القنديل، ودافعتُ المشرف، وأمير المؤمنين يلحظني ولا أشعر، ولم يكن لي بدّ من رفعها، فرفعتها إليه، فوقّع فيها دون أن ينظرها، فعجبت من تفاوت حاليه. فلما قام من موضعه وأنا خلفه التفت إليّ وأمسك بأذني وقال: «قد رأيتَ مافعلتُه بالفرّاش في هذا الموضع فأنكرته، وقلت في نفسك: ماعسى أن يكون ضاع من البزر في هذا القنديل، ثم حضرت ورقة المشرف فاستكثرتها، ولم يكن مافعلتُه بخلاً بما ضاع في القنديل والبزر، وإنما كان تأديبًا للخدّام في أن لايغفلوا بما يجب عليهم من الخدمة فيما دقّ وجلّ، بحيث لايتعطل شغل من الأشغال».

٢- دخل عبدالله بن عمر بن غانم قاضي افريقية على أميرها يزيد بن حاتم، فجرى بينهما كلامٌ ذُكر فيه هلال رمضان، فقال ابن غانم: أهللنا هلال رمضان فتشايرناه بالأيدي، فقال يزيد: لحنت يابن غانم، إنما هو تشاورناه، فقال ابن غانم: تشاورنا من الشورى، وتشايرنا من الإشارة بالأيدي، قال: ماهو كذلك، قال: بيني وبينك أيها الأمير قتيبة النحوي، وكان إذ ذاك قدم على يزيد، وهو إمام الكوفة، فبعث إليه، وكان في قتيبة غفلة، فقال له يزيد: إذا رأيت الهلال وأشرت إليه وأشار إليه غيرك كيف تقول؟ قال: أقول ربي وربك الله، فقال يزيد: ليس هذا أردنا، فقال ابن غانم: دعني أفهمه من طريق النحو، قال: فلا تلقنه إذًا، فقال له ابن غانم: إذا أشرت وأشار غيرك وقلت: تفاعلنا في الإشارة إليه كيف تقول؟ قال: تشايرنا، وأنشد لكُثَيِّر عزة:

وقلت وفي الأحشاء داء مخامر
الا حبّذا ياعزّ ذاك التشاير

قال يزيد: فأين أنت ياقتيبة من التشاور؟ قال: هيهات أيها الأمير، ليس هذا من عملك، هذا من الإشارة وذاك من الشورى، فضحك يزيد وعرف جفاء قتيبة فأعرض عنه، واستحيا من ابن غانم.

بونابرت في مصر

صلاح الدين كامل مشرف



في شارع شانتيرين - أو شارع النصر كما أُطلق عليه بعد الحملة الإيطالية - قام بيت الجنرال بونابرت، وكان أشبه بمخدع غانية حتى يتلاءم مع ذوق «جوزفين» التي كانت تطمع في اقتناء قصر «ماليزون» - الذي لم تكن تقدر على شرائه - كي تتمتع برفقة المسيو شارل العشيق الذي كان يشاركها خديعة زوجها؛ حينما كان يحرز أعظم الانتصارات في ربوع إيطاليا. وفي هذه البيئة المتسمة بالانحطاط كان الجنرال الشاب يعد خطته لاحتلال مصر، وفي الوقت نفسه يحاول مغازلة الزوجة الحسناء بالرغم من اضطراره إلى احتمال وجود كلبهما المدلل معهما، والذي لم يكن ليكف عن الزمجرة والعواء.

وفي حوالي الساعة الثامنة من صباح ٩ مايو/أيار ١٧٩٨م، وصل الجنرال بونابرت وزوجته إلى ميناء طولون، واتخذ مقره في مبنى إدارة البحرية حيث استبدل بملابسه المدنية بذلة القائد العام، وفي اليوم التالي استعرض قواته وخطب فيها قائلاً:

«منذ عامين توليت قيادتكم وكنتم على شاطئ ليجوريا تفتقرون إلى كل شيء بوفرة. ألم أحافظ على كلمتي؟ والآن أقودكم إلى بلد... حيث تؤدون للجمهورية خدمات لها الحق في أن نتوقعها من جيش لايقهر. إني أعد كل جندي أنه سيحصل بعد عودته إلى فرنسا من المال مايكفيه لشراء ستة أفدنه من الأرض».

وفي حوالي ذلك الوقت وفد رسل يحملون ثلاثة ملايين فرنك من الذهب أُخذت من خزانة مدينة برن!!

وفي السادسة من صباح يوم ١٦ مايو/أيار، ومن فوق ظهر سفينة أمير البحر المدرعة لوريان «الشرق»، أعطى الكابتن "كازابيانكا" إشارة الإقلاع للأسطول الذي سوف تنضم إليه ثلاث قوافل آتية من «جنوا» و«أجاكسيو» و«شيفيتا فيكيا»؛ بحيث يصل عدد الجنود والبحارة إلى (٥٥,٠٠٠) وعدد السفن على اختلاف أنواعها إلى أربعمائة سفينة. ومن فوق "لوريان" وقف بونابرت يشهد السفن تجري إلى خارج الميناء واحدة إثر أخرى وهي تقدم له التحية. ولو كان أحد يعرف الغرض الحقيقي من الحملة فذلك الشخص هو بونابرت، أما أهدافه من وراء تولي قيادتها فلاأحد يعرفها حتى اليوم على وجه التحديد، وربما هو نفسه لم يعرفها. وقف بونابرت أشبه بالفهد منه بالقط البري يحدق في المشهد الذي أمامه بنظرة باردة وهادئة، كانت في عينيه نظرات تنتزع الإخلاص من بعض جنده، وتبث الرعب في نفوس فريق آخر، ولكن لاتظفر بالحب من أحد!.

من أجل امرأة

أسرف المؤرخون والكتاب في بيان الأسباب الكامنة وراء موافقة حكومة الإدارة في باريس على إرسال تلك الحملة إلى الشرق، كالرغبة في توجيه ضربة غير مباشرة إلى بريطانيا، ومحاولة إنشاء إمبراطورية فرنسية نواتها مصر. وعندما راح نابليون يسجل ذكرياته وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة؛ أشار إلى محاولة إنشاء إمبراطورية فرنسية نواتها مصر، وقد سمح لنفسه بالتحليق في سماء الخيال: ماذا يمكن أن يعمل بذلك البلد الجميل "مصر" في خمسين عاما من الرخاء والحكم الصالح؟ إن ألفا من عيون قناطر الريّ تخضع النيل الجبار وتوزع مياهه في كل مكان، وسوف يرتفع عدد السكان إلى أربعة أمثاله بفضل المهاجرين من عمال إفريقية ومن بلاد العرب واليونان وفرنسا وإيطاليا وبولندا وألمانيا. وسوف تعود التجارة مع الهند إلى طريقها القديم، وتستعيد فرنسا سيادتها على «هندوستان».

ومن المؤكد أن مثل هذه المستعمرة القوية سوف تطالب بالاستقلال، هذه الإمكانية لاترهب نابليون؛ إذ بعد إنشاء إمبراطوريته الوهمية سوف يمنحها استقلالاً صوريا، وفضلاً عن هذا فمن الطبيعي كما قال أن يحكم العالم من الاسكندرية بدلاً من أن يحكم من روما أو الآستانة أو باريس أو لندن أو أمستردام.

وبغض النظر عن أمثال هذه الاعتبارات السياسية والاقتصادية؛ فإن للدوافع الشخصية دورها في التاريخ. من الصعب حقيقة إثباتها، ولكن يسمح للكاتب أن يخمنها. لقد انتهت الحملة الإيطالية المظفرة وتردد الحديث عن الصلح، ولو تم هذا لأصبح بونابرت مجرد جنرال عادي بين مئات من أمثاله، وهذا وضع لايرضاه لنفسه، إنه بحاجة إلى مغامرة جديدة وانتصارات جديدة. وبينما كان في البندقية بعد إضعافها يحدق في بحر الأدرياتيك الممتد أمامه، تراءى لخاطره مسرح المغامرة الجديدة... إنه في الشرق حيث قامت الدولة البيزنطية القديمة تحكم البلقان والمشرق والشمال الأفريقي. وإذا كان بونابرت لم يتأكد من خيانة

«جوزفين» فقد هالته كشوف حساب مشترياتها، إنها أرقام فلكية يعجز عن الوفاء بها، ولكنه يحب المرأة ويريد أن يستجيب لمطالبها؛ إذن، فمغامرة جديدة في الشرق المعروف بثرواته وكنوزه الخيالية فيها حل المشكلة. إنها وسيلة لإرضاء ذوق الزوجة وحبها للمال وطموحها، وأكب بونابرت في مخدع الغانية على وضع أدق تفاصيل الحملة. يجب ألا نستخف بأمثال هذه الدوافع الذاتية التي كثيراً ماتكون كامنة في العقل الباطن، ولكنها حقيقة دائمًا وإن كان من المستحيل إثباتها أبدا.

هيستيريا في لندن

منذ عودة بونابرت منتصرا من إيطاليا، وبريطانيا تسيطر عليها نوبة عصبية شديدة خوفًا من إقدام فرنسا على غزوها، وقامت الحكومة تدعو الشعب إلى الإسهام في المصروفات العسكرية الإضافية، وبسبب عدم المسارعة إلى تلبية النداء تعهد جورج الثالث نفسه، بالرغم من أنه كان متمتعا بقواه العقلية، بدفع ثلث إيراداته الخاصة، كما وعد الوزراء بالتبرع بخُمس دخولهم، وصدرت التعليمات عما يجب على الشعب عمله في حالة الغزو مثل إقامة المتاريس في الشوارع وإقامة بيوت بالميادين لسدّها، وتخزين القنابل اليدوية في كل ركن من أركان البيوت، وإخراج الأجانب من البلاد، وعدم تشغيل الخدم الأجانب، ووضع المسجونين في سفن خاصة وفي أماكن مأمونة تماما؛ حتى يمكن القضاء عليهم فوراً إذا دعت الضرورة للدفاع عن البلاد، وطلب إلى البريطانيين أن يقسموا يمين الولاء للملك حتى يكشفوا أولئك المصلحين الذين يسعون إلي إحداث الثورة، وأنشئت فرق الدفاع الخاصة.

وعُهد إلى الأميرال «هوراس نلسون» باستطلاع الحقيقة، فخرج بقافلة إلى البحر المتوسط حيث علم قبل إقلاع الحملة من طولون بيومين، أن ثلاث عشرة سفينة حربية فرنسية على أهبة مغادرة الميناء، وجاءته الإمدادات ولكن بعد إفلات الحملة. كانت تحت قيادة نلسون ١٣ بارجة قوتها الضاربة تعادل القوة الفرنسية وتفوقها في كل شيء، وكانت التعليمات الصادرة إلى الأميرال نلسون واضحة: أن يجد القوة الفرنسية ويمنعها بأي ثمن من التحرك غربًا "أي المحيط الأطلسي لتنضم إلى أسطول برست ومهاجمة بريطانيا" وتحطيمها، ولكن الصعوبة كانت في العثور على القوة الفرنسية.

ممنوع عليها أن تحمل

وصل بونابرت إلى الاسكندرية وسارع بإنزال قواته، فهل كان حكام مصر في ذلك الحين قادرين على المقاومة؟

كانت البلاد تشهد تمثيلية تتكرر باستمرار؛ وهي الصراع بين البكوات المماليك والباشوات من الولاة الأتراك، أو بين البكوات أنفسهم، أما الشعب فكان لايبدي اكتراثا بهم إذ كل أمله أن يتخلص منهم جميعا.

كانت السلطة الحقيقية في أيدي المماليك، وكلمة مملوك معناها «الشخص المشترى» وظهروا لأول مرة في مصر حوالي عام ١٢٤٠م؛ حين جاء السلاطين بنحو ١٢٫٠٠٠ شاب من جبال القوقاز معظمهم من الشراكسة وأبناء جورجيا، وبالرغم من أن حريمهم كان مليئا بالجواري، فإنهم كانوا لايتزوجون إلا من أجناسهم ولم يكن لهم أولاد من الزوجات. والسبب في هذه الظاهرة الأخيرة أن زوجات المماليك درجن على أن يصبن أنفسهن بالعقم حتى يحتفظن أطول مدة ممكنة بشبابهن وجمالهن، ومن ثم بالسيطرة على أزواجهن، ولهذا السبب كان المماليك يعوضون النقص في عددهم بشراء الأولاد من سن ٨ إلى ١٠ سنوات ومعظمهم من القوقاز ويعلمونهم أن يصبحوا محاربين. وبمجرد أن يصبح المملوك قادرًا على قيادة الجند يصبح رجلاً حرًا بصورة تلقائية ويسمح له بتربية لحيته، ويُعيَّن له خادمان على الأقل للعناية بخيله وحاجاته. هذه الفئة كانت تمثل الطبقة الرفيعة (الأرستقراطية) ولكنها أرستقراطية جاهلة بكل شيء سوى ركوب الخيل وقتل الناس وابتزاز الأموال، ولا صلة لها بالشعب من قربى أو مصلحة. وكان البكوات مع جيوشهم ـ وعددهم جميعا حوالي عشرة آلاف ـ يعيشون في بذخ على حساب الناس، وكانوا منقسمين إلى شيع متنافسة تحارب بعضها بعضا باستمرار، وحين يصل الوالي من الآستانة ـ أو الباشا، كما كان يعرف ـ يستقبله البكوات عند دخوله القاهرة، ويصحبونه في موكب مهيب إلى القلعة حيث يظل في سجن مؤدب حتى تنتهي مدة ولايته... هذه هي الطغمة التي كان على بونابرت أن يواجهها، طبقة منقسمة على بعضها، لا تعرف شيئًا من فنون القتال الحديثة، ولا تملك شيئًا من المعدات الحديثة.

جيش بغير أزراره النحاسية

زحف الفرنسيون نحو القاهرة، وسادت الفوضى وأقفرت الشوارع من أهلها وروادها، وأمر رجال الشرطة المقاهي بأن تظل مضاءة طول الليل ومفتوحة، وأن توضع الأنوار أمام جميع المساكن والدكاكين، ومع ذلك كما يقول الجبرتي: «كان الأغنياء ينقلون ثرواتهم إلى المخابئ في الريف يستعدون للهروب، ولم يبق في القاهرة سوى الشيوخ والنساء والأطفال، أما الذكور القادرون على حمل السلاح ويقرب عددهم من مائة ألف فتجمعوا في بولاق حيث ارتفعت الأسعار بسرعة وبشدة، وكان القواد في فوضى. وتناقضت الروايات الواردة عن الطريق الذي يسير فيه الفرنسيون، ولم يخطر ببال القادة أن يرسلوا جواسيسهم لاستطلاع الحقيقة».

ولم يكن طريق الغزو مفروشا بالورد؛ فالجيش يعاني من قلة المؤن وحرارة الجو وعدم التعود على الصحراء وسوء حال الجو، حتى اضطر الكثيرون من الفرسان إلى السير على الأقدام، وعداء الأهالي وسخطهم، وهجمات جماعات البدو من وقت لآخر.

ومن الطريف أن الباعة كانوا يرفضون العملة الذهبية التي يعرضها عليهم الجنود الفرنسيون ويطالبونهم بإعطائهم الزرائر النحاسية بدلاً منها. هذا التصرف الغريب راجع إلى أن هؤلاء الباعة ـ مثل غيرهم ـ كانوا يصدقون ماأكده المماليك من أنهم سيقضون على العدو، لهذا فبعد الانتصار سوف يتهم المماليك كل من في حوزته عملات أجنبية بأنه كان يتعامل مع العدو ويصادرون أملاكه. وحين اشتبك بونابرت مع المماليك في معركة الأهرام كان الجيش يحارب وقد فقد الجند نصف أزرار أرديتهم.

أسطورة الأربعين قرنا

وفي مساء ٢١ يولية/تموز سنة ١٧٩٨م، عسكر الجنود الفرنسيون عند إمبابة، وكانت قوة الفرنسيين حوالي ٢٥٫٠٠٠ جندي، أما المماليك فمن الصعب تقدير عددهم بدقة؛ فالبعض يجعله ٦٠٠٠ من الفرسان، ١٠٫٠٠٠ - ١٢٫٠٠٠ من المشاة، أما نابليون فيضخم العدد، وهدفه أن يبرز أنه حقق نصراً على قوات تفوقه كثيراً، ولذلك ذكر أن الجيش الذي حاربه كان يضم ٧٨٫٠٠٠ منهم ١٢٫٠٠٠ من الفرسان. ومهما كان الرقم الصحيح فقد كان البدو والمشاة بخلاف الانكشارية الألبان غير صالحين للقتال.

والحقيقة أن الفرنسيين كانوا فعلاً متفوقين من



ناحية العدد فضلاً عن تفوقهم من ناحية الأسلحة وإعداد الخطط.

ويقول بونابرت في مذكراته أنه خاطب الجنود قبل المعركة بالكلمات التي أصبحت مشهورة وهو يشير إلى الأهرام: «أيها الجنود... إن أربعين قرنا تطل عليكم».

والمعركة كانت في إمبابة، أي بعيدًا جدا من الأهرام، ولم يكن لدى بونابرت الوقت ليقول هذا الكلام، أو الصوت الذي يجعل قواته المنتشرة تسمعه. أكبر الاحتمال أنه أبدى الملاحظة لبعض الضباط الذين كانوا معه، ومن المؤكد أن الفكرة طرأت على ذهنه في التو إدراكًا منه أنه يصنع تاريخًا أمام أقدم آثار عرفها الإنسان.

وانتهت المعركة بهزيمة المماليك، وفرار مراد بك إلى الصعيد، وإبراهيم بك إلى الشرق، وسلمت القاهرة انتظارا ليوم خلاص قريب.

يكذب على التاريخ

لم يمض وقت على دخول بونابرت إلى القاهرة حتى وردت الأنباء الفاجعة عن تحطم أسطوله في خليج «أبي قير» على يد غريمه «نلسون»، وكعادة نابليون، بعد كل نكبة تحل به، كتب إلى باريس يلقي اللوم على عاتق غيره، وفي هذه الحالة ألقاه على رجل لم يكن يستطيع أن يرد عليه لأنه قتل في المعركة، وعندما أملى تاريخ الحملة وهو بمنفاه في «سانت هيلانة» لم يوجه اللوم إلى «الأميرال برويز» فحسب، بل ألقى المسؤولية على رجل آخر هو الأميرال «فيلنيف»؛ الذي لم يكن في استطاعته أن يرد عليه وأن يدافع عنه نفسه لأنه قتل نفسه بعد هزيمته في معركة «الطرف الأغر». أضف إلى هذا أن نابليون أمر بإتلاف الملف الخاص بالحملة. والوثائق التي نُشرت - ويقال إنها كالتي بهذا الملف - هي موضع شك كبير في أنها تطابق الأصل، وبالرغم من هذا كله فنحن لو خصنا الأدلة المتوافرة فمن المستحيل أن نقاوم الاستنتاج بأن التهم التي وجهها بونابرت إلى "برويز" أكاذيب مختلقة عن عمد.

ويذكر «بونابرت» أنه قبل مغادرته الاسكندرية أمر «برويز» بأن يضع الأسطول في مكان مأمون، ولكن الواقع أن أمرًا كهذا لم يصدر على الأقل كتابة، وفي تقريره إلى الحكومة في باريس يؤكد أن «برويز» أنبأه بأنه يدعم خطوط دفاعه في «أبي قير»، وأنه مستعد لملاقاة العدو، وذلك في خطاب مؤرخ في ٢٠ يولية/تموز، وتسلمه في ٣٠ يولية/تموز، ولابد أنه وصل إلى «بونابرت» بعد ١٠ أيام، وبذلك كان لديه وقت كاف كي يأمر برويز بأن يخرج بالأسطول إلى جزيرة «كورفو».

ويبدو أن «بونابرت» كان حريصا على إبقاء الأسطول في الاسكندرية، ولعله كان يريد أن يبقى هناك مخرج أمام جيشه إذا دعت الضرورة، أو كان يريد أن يستخدم الأسطول لكي يعود إلى فرنسا؛ ففي خطاب بتاريخ ٢٥ يولية/تموز إلى أخيه جوزيف أشار إلى أنه سوف يعود إلى فرنسا في غضون شهرين ويطلّق زوجته «جوزفين».

أما عن معركة «أبي قير» فلقد هاجم "نلسون" برويز في خليج «أبي قير» بتهور وأصبح بين يوم وليلة بطل أوربا. وبونابرت، وقد زوّد «برويز» بتعليمات غير ممكن تنفيذها عمليًا وغامضة، ألقى اللوم عليه، وظل بطلاً، واتبع الأميرال «برويز» أوامره والتفكير السليم والحكم الصادق ومات بطلا.

غراميات القائد

في ٢١ ديسمبر/كانون الأول أصدر القائد منشورًا بالعربية يقول فيه: «هل هناك شخص من العمى بحيث لايرى أن القدر نفسه يوجه عملياتي»؟ هذا الرجل الذي زعم أنه يعمل بوحي من السماء؛ أصدر قبل ذلك بثلاثة أيام أمرًا إلى المواطن «فوريه» الملازم بالفرقة الثانية والعشرين بالتوجه إلى رشيد، ومنها إلى باريس عن طريق مالطة حاملاً بعض الرسائل السرية، كان وراء الأمر سر آخر هو مدام "فوريه".

في المذكرات الخطية التي خلفها التاريخ هذه العبارة التي كتبها بونابرت: «أعتقد أن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الفرد». كان ذلك رأيه قبل أن يلتقي بجوزفين بوآرنيه في أكتوبر/تشرين الأول ١٧٩٥م. الأرملة التي كانت في الثانية والثلاثين من العمر، والعشيقة التي نبذها المواطن باراس، كانت ملامح وجهها تدل على أنها أكبر سنًا من ذلك، ولكنها تمتاز بجاذبية مغرية وأنوثة ورشاقة، كما كان ذوقها ينم عن رقة. كان يعرف ماضيها ولم يشعر بالغيرة وصمم على الزواج منها، وعند التوقيع على عقد الزواج أضاف سنتين إلى عمره وخصم ثلاث سنوات من عمرها.

وعندما قاد الحملة إلى إيطاليا توقع أن تصحبه، ولكنها بقيت في باريس، وطارت الإشاعات عن عشيق شاب، وهدد بونابرت بقتلها إن صح الأمر، وضحكت جوزفين، ولكن لما هدد بالتخلي عن منصبه ليكون إلى جوارها، سارعت إلى إيطاليا ومن بين حاشيتها المواطن «هيبوليت شارل»، ولما عاد إلى فرنسا أطلعته أسرته على كل شيء. ولكن هل يصدق العاشق الولهان؟ وكانت فكرة الطلاق تؤرقها إذ كانت مدينة، ولهذا صحبته إلى «طولون» قبل رحيل الحملة، ولكنه رفض أن يأخذها إلى مصر معه؛ لأن الحب - في رأيه - مهنة العاطل وتسلية المحارب، وفيه خراب الحاكم.

وفي اليوم التالي لدخول القاهرة كتب إلى أخيه جوزيف: «لقد أزيح الستار تماما». أما كيف حدث هذا ومن الذي أبلغه؛ فلايزال سرًا غامضًا حسب مذكرات «بوريين فان جونو» أركان حرب بونابرت الذي أطلعه على خيانة جوزفين، ولكن هذه التهمة تنفيها في مذكراتها «دوقة ابرانت» أرملة «جونو». والواقع أن رواية «بوريين» غير دقيقة إذ جعل تاريخها في فبراير/شباط ١٧٩٩م عندما كان بونابرت في العريش قبيل زحفه إلى سورية، والأرجح أنه علم بخيانة زوجته في ٢٥ يولية/تموز ١٧٩٨م، وعلى كل حال فالأمر المؤكد أنه صمم على طلاقها.

وبعد وصوله إلى القاهرة بقليل تردد أنه نشأت علاقة بينه وبين ابنة الشيخ البكري «زينب»، وإن كان لايوجد دليل قاطع على صحة ذلك، غير أن المعروف أنه قُبض عليها بعد جلاء الفرنسيين واستُجوبت فأبدت الندم، واستنكر أبوها مسلكها، وأنكر علمه بذلك، وهنا قُطع رأسها حسب رواية الجبرتي.

وفي أول ديسمبر/كانون الأول قابل «بولين فوريه»، كانت في إحدى الحفلات، فرآها وأمعن النظر إليها، وكان شعرها غزيرا بحيث يصلح ستارًا يغطيها. كانت «بولين» ابنة غير شرعية لوالد مجهول، وأم تشتغل طباخة تدعى «بيليل»، وكانت قبل زواجها من «فوريه» تشتغل خياطة، ومعنى هذا في فرنسا في القرن الثامن عشر أنها أصبحت ممن يضمهن السادة الأعيان بين ذراعيهم.

وفي المساء نفسه قام «بونابرت» بزيارة المسرح الذي أنشئ حديثا، فكانت «بولين» هناك، وظل يطيل النظر إليها طوال الوقت إذ كانت جميلة للغاية، وفي العشرين من عمرها. وفي ١٧ ديسمبر/كانون الأول صدر الأمر بسفر الزوج إلى باريس، ولم يكد يغادر القاهرة حتى دُعيت «بولين»، أو «بليلوت» كما كانوا يطلقون عليها، إلى حفل عشاء في ميدان الأزبكية مع عدد من النساء

الأوربيات، وحدث في أثناء تناول القهوة أن وقع السائل من فنجان الضابط الجالس بجوارها فلوث ثوبها الجميل، فأخذها إلى الدور العلوي لتنظيف الثوب، وفجأة ظهر القائد العام بالحجرة، وانتظر الضيوف ساعات قبل أن يهبطا. ولم تمض أيام قلائل حتى أقامت «بولين»، أو "كليوباترا" كما عرفت بعد ذلك، في قصر مجاور لقصر «بونابرت»، وكانت تسير في القاهرة في أفضل عرباته.

لكن الزوج عـاد، ولما طلبت الطلاق وافق فوراً... كان "«بونابرت» قد وعدها بالزواج إذا طُلِّقت، وكان يأمل أن تنجب له ولدا، وحاول الاثنان وأخفقا، وثار «بونابرت» وقال لبوريين: ماذا نعمل؟ هذه الصغيرة الغبية لاتريد أن تأتي لي بطفل!! ولما قيل لها إنها تكسب كثيرا لو حملت. أجابت: يا الله! إنها ليست غلطتي.

لم تستمر المغامرة طويلاً؛ إذ بعد شهرين بدأ بونابرت غزو سورية، ورفض أن يأخذها معه فهو لايريد أن يمثل من جديد دور «أنطونيو وكليوباترا». ولقد ظل «بونابرت» طيلة حياته مخلصًا للمبدأ الذي اعتنقه وهو ألا يصحب امرأة معه خلال حملاته ونزواته.

المضايقات

ولكن «بونابرت» كان يتلقى المضايقات من أكثر من جهة؛ فالحملات التي قادها «ديزيه» في الصعيد لم تتمكن من القضاء على مراد بك وأتباعه، والشعب لم يكن يشعر بأي ودّ نحو الغزاة، ولم يتعد سلطان الفرنسيين بعض المدن الكبرى، أما الريف فكان معاديا، ولم يكن لدى بونابرت قوات تسمح له بمحاولة فرض السيطرة على البلاد، واستاء الشعب من إباحية الفرنسيين بسبب الملاهي التي ابتدعوها، وإسرافهم في تناول الخمر وقسوتهم في المعاملة وابتزازهم الأموال بكل سبيل، ومن الحوادث الغريبة أنه أصدر أمرًا بإبعاد بضع مئات من المومسات عن الجنود، ولكن الذي نفذ الأمر رأى إعدامهن جميعًا، وأخذت روح الجنود المعنوية تهبط بسرعة؛ إذ تبددت الآمال التي بنوها كما زينها لهم القائد، وأكثر من هذا واجهه سيل من الاستقالات من «كليبر» و«مينو» و«دوماس» و«برنبيه» الذي كتب إلى «مينو» يقول: إني أعاني كثيرًا جدًا وكدت أصاب بالصمم.

وكان الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط يقبض على رجاله ويصادر الرسائل التي يحملونها، والأنباء تتوارد عن هجوم تعده تركيا بالتعاون مع الإنجليز، ولم ترسل إليه باريس أية إمدادات وماكان في وسعها أن تفعل.

أحلام تبددت

ظلت الأنباء تتوالى خلال شهري نوفمبر وديسمبر/تشرين الثاني وكانون الأول عن استعدادات «أحمد باشا الجزار» للحرب، وفي ١٩ نوفمبر لم يعد في الوسع غض الطرف عن نواياه، فأرسل إليه "بونابرت" إنذاراً نهائيا يقول فيه: «لست أريد الحرب إذا لم تكن عدوي، ولكن حان الوقت كي تفسر موقفك. إذا واصلت إيواء إبراهيم بك على حدود مصر فسوف أعتبر هذا عملاً حربيا وأزحف إلى عكا».

ولكن "بونابرت" كانت تساوره أحلام أبعد مدى من مجرد ضرب الجزار؛ عبر عنها بقوله لضباط أركان حربه في أول ديسمبر/كانون الأول ١٨٠٥م؛ أي في الليلة السابقة لمعركة «أوسترلتز» الشهيرة: «لو أني تمكنت من الاستيلاء على عكا لارتديت عمامة وجعلت جنودي يرتدون الملابس التركية، ولا أعرّضهم للمعارك إلا في حالة الضرورة القصوى. كنت أخلق منهم فرقة مقدسة «الخالدون»، وكنت أنهي الحرب ضد الأتراك بقوات عربية ويونانية وأرمينية، ولعدت إلى باريس بطريق الآستانة».

ولكن تلك الأحلام كان مآلها أن تتبدد، كان الجيش غير مستعد للمغامرة، ولكي يتمكن بونابرت من دفع رواتب الجنود المتأخرة رهن محصولات الوجه القبلي حتى قبل نضجها ولم تكن المؤن متوافرة، وكان الطقس البارد المطير ينذر برحلة شاقة عبر الصحراء، ولكنه لم يلق بالاً إلى مثل هذه الاعتبارات.

وأحاط الفرنسيون بالعريش، وتم التوقيع على شروط الاستسلام، وهي السماح لرجال الحامية بالاحتفاظ بأسلحتهم ومتاعهم دون خيولهم، وأن يتوجهوا إلى بغداد بطريق الصحراء، وألا ينضموا إلى قوات الجزار. وأقسم ضباط الحامية على ذلك بالرسل موسى وإبراهيم ومحمد وبالقرآن على أن يحافظوا على وعدهم، ولكن الفرنسيين أعادوا من كان منهم من المماليك إلى مصر، وأجبروا الباقين على الانضمام إليهم. ويعلق "مالو" على ذلك بقوله: «لقد ضربنا للأتراك أول مثل عن الغدر».

وسلّمت يافا ومُنحت شروط الأمان للحامية البالغ عددها أكثر من أربعة آلاف رجل، ولكن ماإن استسلمت حتى أعمل فيها الفرنسيون السيف. لقد دافع نابليون والمعجبون به، فيما بعد، عن المذبحة بقولهم إنه لم يكن في الوسع الاستغناء عن عدد من الجنود لحراسة الأسرى إذا تقرر إرسالهم إلى مصر، وليس من السهل أن يصحبهم معه لعدم توافر المؤن، ولو نزع سلاحهم وأطلق سراحهم لانضموا إلى الجزار.

وبدأ حصار عكا، وكثرت الهجمات، ولكنها تحطمت جميعا، واضطر بونابرت إلى رفع الحصار والعودة إلى مصر وقد تبددت آماله، ولكن الغريب في هذا الرجل الذي أمر بقتل أبرياء صدّقوا عهده أن يتوجه إلى مستشفى لزيارة الذين أصابهم الطاعون. وبلغت خسائر الفرنسيين في الحملة الفاشلة ١٢٠٠ قتيل في المعركة، ١٠٠٠ ماتوا من المرض، ٢٥٠٠ مرضى أو مصابون بجراح خطيرة، وكانت القوات التي اصطحبها بونابرت هي خيرة رجال الحملة فهلك أكثر من ثلثها وأصبحت في حالة عجز.

وقرر «نابليون بونابرت» أن يعود إلى فرنسا في أول فرصة خشية أن تضيع منه فرصة أكبر. إن تدمير الأسطول في «أبي قير» وإعلان تركيا الحرب، وإخفاق باريس في إرسال المساعدات، ثم نكبة عكا، كل ذلك غيّر الصورة تماما. لم تعد مصر مسرح التاريخ العالمي وإنما أوربا هي التي سوف تصبح المكان الذي يحصل فيه على مجد جديد.

وأخيراً قرر الرحيل واصطحب معه ثلاثة من علماء الحملة وخادمه المملوك رستم وسكرتيره وطباخه وأركان حربه الأربعة، وانتقى معه عدداً من الجنرالات الشبان المخلصين، ووصلت الجماعة إلى الاسكندرية في ٢٢ أغسطس/آب، وبعد ٤٧ يومًا وصل إلى باريس الوطن. لقد انتهت المغامرة وعاد "بونابرت" يسعى وراء المجد والسلطة في الغرب لا الشرق، وخلف وراءه «كليبر» ولكن الأخير اغتاله الشاب السوري «سليمان الحلبي».

المراجع:

1 - From the life of General Bonaparte. By: j. Christopher Herold.

2 - Attack in the West. By major W.G.F jackson.

٣- أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب، للأستاذ السيد فرج، مؤسسة دار الشعب، مايو ١٩٧٠م.



مسرحية:

العش المثالي

للكاتب: سدريك ماونت / ترجمة: د. جمال عبد الناصر

الشخصيات:

جـاك:الزوج

جيـل: زوجته

جين: العمّة

مربية

المشـهـد: حجـرة الجلوس في دارة (فـيـلا) جـاك وجـيل بحي هامـسـتـيـد الجـديد. قطع الأثاث الرئيسية عبارة عن منضدة عليها أدوات كتابية وكرسيين. عند رفـع الستار تظهر حجرة الجلوس خالية تماما، ولكن جاك وجيل يدخلان على الفور تتبعهما العمة جين.

جيل: وهذه هي حجرة الجلوس.

العمـة جين: رائعـة! رائعـة ! غـرفـة دافـئـة ومريحة ! وقطع أثاث جميلة .

جاك (بتـواضع): إننا نعشـقها، فـهي مكان مريح للاسـتـرخـاء والاستمـاع إلى المذياع (الراديو).

العمـة جين: ياإلهـي ! ألديكم راديو ؟ أوه! وسيارة وبيانو.

جـاك: بالطبع أيتهـا العمـة جين. إذ لابد أن يكون لدى الإنسان جهاز راديو هذه الأيام.

جـيل: وهو مـسـلٍّ تمامـا بالنسبـة لي عند ذهاب جـاك إلى عـمله ، لـدرجـة أنني أجـعله ينقله إلـى المطبخ كي أستطيع أن اسـتـمع إلى الموسيقى وأنا أطهو الطعام.

جاك: اجلسي أيتها العـمّة جين . لقد تعبت بالتأكيد بعد أن أريناك كل شيء.

جيل: مارأيك في عشّنا الصغير أيتها العمة جين؟

العـمّـة جين: أعـتـقـد أنه رائع يـاعـزيزتي: الأثاث.. والسيـارة.. والبـيانو.. والثـلاجـة.. والراديو. كل هذا رائع، رائع حقا!

جاك: ونحن ندين لك بكل شيء.

العمّة جين: نعم ياجاك ، هذا مايقلقني.

جاك: يقلقك أيتها العمّة جين؟

العـمّـة جين: نعم.. ذلـك الشـيك الذي أعطيتك إيـاه هدية زواجكما كان بمبـلغ مائتي جنيـه فـقط ، ألم يكن كـذلك ؟ أنا لم أكـتـب ألفين بطريق الخطأ ؟!

جـيل: لا.. طبعًـا، أيتـها العـمّة جين. مـاذا جعلك تظنين ذلك؟

العـمّـة جـين (بارتيـاح) : أجل، ولكـنني لازلت لا أفـهم تماما.. هذا المنزل ، إنه جمـيل جداً، ألا يكلّف إيجاره كثيرا؟

جاك: إيجار؟ آه، لا، نحن لا ندفع إيجارًا!

العـمّـة جين : ولكـن ياجـاك إذا لم تدفـعـا الإيجار سـوف يتم طردكمـا إلى الشارع. ولن يفيد هذا أبدًا. أنت معك جيل والطفل وعليك أن تفكر فيهما .

جاك: لا، لا، أيتها العـمّة جين. أنت أسأت فهمي. نحن لا ندفع إيجارًا لأن المنزل ملكنا.

العمّة جين: ملككما؟

جيل: نـعم، بالطبع. عشـرة جنيهـات فقط يدفعها الفرد ليمتلك مثل هذا البيت.

جاك: لقـد أدركنا أيتهـا العمّـة جين أنه أمر مكلف أن نظل ندفع إيجارًا عامًا بعد عام؛ في حين أنه يمكننا أن نـشتـري بيتًـا ونستـمتـع به مـقابل عـشـرة جنيهـات، وعـدة أقسـاط ربع سنوية بالـطبع. لم لا أصبـح مـالـكًا مـادمت أكره أن أكون مستأجرًا.

العـمّـة جين: فـهـمت، نعم، لـمَ يكون الإنسان مستأجرا مادام في استطاعته أن يكون مالكًا؟ هذا منطقي. ولكن حتي لو كان الأمر كذلك فمؤكـد أنك تكسب كثيرا لتنفق على مكان كهذا!

جيل: آه بالضـبط، أيتهـا العمّـة جين، ففي العـام الماضي حصل جـاك على علاوة قـدرها خمسة شلنات . أليس كذلك ياجاك؟

جـاك (بتـواضع): أجـل وإن لم يكن ذلك كثيرًا، فـأنا أتوقع أن ترتفع العلاوة إلى عـشرة هذا (الكريسماس).

العمّـة جين (فجأة) : ياجـاك ، لقد فكّرت لتـوّى فـي شيء: تلك السـيـــارة.. هل هي ملككما؟

جيل: بالطبع ملكنا.

العمّة جين: كلها ملككما ؟

جـاك: في الحـقـيـقـة لا، ليست كـلهـا بالضبط.

العمّة جين: كم تملكان منها؟

جـاك: آه، يمكنني أن أقـول عجلـة القيـادة وأحد الإطارات وحوالي أسطوانتين، ولكن ألا ترين، أن ذلك أروع مافي الأمر؟

العمة جين: لا أرى شيئًا رائعاً في هذا.

جيل: أجل، أيتها العـمّة جين. فرغم أننا لم نكن نـستـطيع أبدًا أن نـشتـري سيـارة، فـإننا قادرون على الاستمتاع بواحـدة مقابل خمسة جنيهات.

العمّة جين: والباقي بأقساط مريحة ، على ماأظن؟

جيل: بالضبط.

العمّة جين: بالضبط. وماذا عن جهاز الراديو ؟

جاك: حسن، هذا...

العمّة جين: والبيانو؟

جيل: حسن، بالطبع...

العمّة جين: والأثاث؟

جاك: أنا.. أخشى أن...

العمّة جين: أظن أنكما لا تملكان سوى ساق واحدة من هذا المقعد. (تشير إلى واحدة).

جيل: أجل، لا في الحقيقة إنها هذه الساق (تشير إلى أخرى).

العمة جين: وأظن أن البيانو يخص مصنع الأثاث؟

جيل: نـ.. نعم .

العمّة جين: حسن.. لن أجلس على ما يخص المصنع (تقف). والآن، أخبراني، كم تبلغ كل هذه الأقساط؟

جاك: حسن، في الواقع.. (يخرج محفظته ويراجعها) في الواقع حوالي أربعة عشر جنيها وثمانين بنسًا في الأسبوع.

العمّة جين: ياإلهي! وكم دخلك؟

جاك : في الحقيقة.. أنا.. دخلي اثنا عشر جنيها.

العمّة جين: ولكن هذا غير معقول! كيف يمكن أن تدفع أربعة عشر جنيها وثمانين بنسًا من اثني عشر جنيها؟!

جاك: آه، هذا بسيط عليك فقط باقتراض باقي المبلغ للأقساط من المصرف التجاري للاقتصاد والتدبير.

جيل: فهم يجدون سعادة كبيرة في إقراض الإنسان أي مبالغ يحتاجها مقابل أن يوقّع على صك للضمان.

العمّة جين: وكيف يكون السداد في تصوّركما؟

جاك :آه ، هذا بسيط أيضا.. يكون بأقساط أخرى.

العمّة جين: أقساط! (تصفع جبينها بيدها وتسقط على المقعد من فرط الإعياء، ثم تدرك أنها جالسة على مقعد من أثاث لم تُسدّد أقساطه بعد فتقف صارخة).

جاك: ماذا بك أيتها العمّة جين؟ أتودين أن ترقدي؟

العمّة جين: أرقد؟ أتتصور أنني أطمئن على نفسي في مخدع يخص مصنع الأثاث أو شركة ماركس وسبنسر؟ لا، أنا ذاهبة إلى البيت.

جيل: آه، هل أنت مضطرّة حقًا للذهاب؟

العمّة جين: اعتقد أن هذا أفضل بالنسبة لي.

جاك: سوف أوصلك بالسيارة إلى المحطة.

العمّة جين: ماذا! أركب سيارة لها فقط إطار واحد واسطوانتان. لا.. أشكرك.. سوف أستقل الحافلة.

جاك: حسن ، بالطبع مادام هذا شعورك...

العمّة جين (وهي تلين بعض الشيء): والآن، عذرًا إن كان كلامي فظًا، ولكنني صدمت حقًا في الطريقة التي تعيشان بها. فلم استدن بنسًا في حياتي.. ذاك شعاري، وأنا أريدكما أن تفعلا الشيء نفسه. (تفتح حقيبة يدها) الآن انظرا، هذا شيك صغير كنت قد نويت أن أعطيكما إياه، على أية حال. (تسلمه لجيل) لم لا تأخذينه وتسدّدي إحدى فواتيرك، كي تستطيعي أن تقولي: إن شيئا على الأقل يخصكما؟

جيل (باضطراب): أيتها العمّة جين. هذا لطف منك.

العمّة جين (تربت على ذراعها): اهدئي! الآن عليّ أن أذهب.

جاك : سأوصلك إلى الحافلة ، على أية حال.

جيل: وداعًا، أيتها العمّة جين، وشكرًا كثيرًا على هديتك.

العمّة جين (تقبّلها): وداعًا، ياعزيزتي.

(تخرج وجاك. تنظر جيل إلى الشيك وتصيح «عشرة جنيهات!» ثم تهرع إلى المنضدة، وتكتب عنوانًا على مظروف وتوقّع على ظهر الشيك وتضعه داخله مع فاتورة تأخذها من حقيبتها ، وتُغلق المظروف ثم تقرع الجرس. وبعد لحظة تدخل المربية والطفل بين ذراعيها).

جيل: آه، أيتها المربية، أريدك أن تهرعي وترسلي ذلك لأجلي.. سأرعى الطفل أثناء ذهابك.

المربية : من غير ريب ياسيدتي. (تسلّم الطفل لـ جيل، تأخذ الخطاب، وتذهب).

(بعد لحظة يدخل جاك ثانية)

جاك: حسن ، لقد ذهبت! يالها من امرأة صارمة. ومع ذلك تركت لنا شيئا على الحساب. كم كان ذلك؟

جيل: عشرة جنيهات.

جاك (وهو يصفّر): آه، هذا عظيم! نستطيع أن نسدّد قسطي السيارة للشهرين القادمين من ذلك.

جيل: أخشى ألا تستطيع.

جاك: لمَ لا ؟

جيل: لقد بعثت بالشيك لسداد شيء آخر. وذهبت المربية توًا لترسله بالبريد.

جاك: أجل.. هذا حسن، لمن أرسلته؟

جيل: للدكتور مارتن.

جاك: للدكتور مارتن! ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟

جيل (على وشك البكاء): سوف تغضب مني الآن.

جاك: لست غاضبًا! ولكن لمَ ترسلين المال إلى الطبيب؟

فأطباء التأمين لا ينتظرون أجرا.

جيل: (تجهش بالبكاء): ولكن.. أنت لا تفهم..

جاك : لا أفهم ماذا؟

جيل: قسط آخر ويصير الطفل ملكنا تمامًا! (تمسك بالرضيع بشكل يثير الشفقة)

إظلام وستار النهاية.



من فن الحزن الجميل

رثاء الحيوان والمعادل الموضوعي «١»

محمد يوسف أحمد التاجي

لعل من أعجب مامسَّهُ فن الرثاء فيما دأب أصحابه على تناوله جادين أو هازلين، صادقين أو غير صادقين: رثاء الحيوان. ذلك المنحى الغريب الذي لم يمنع كون أبطاله من الحيوان الأعجم من استثارة خيال الشاعر الحزين، واستنطاقه بما قد لايبوح به لأخيه نفسه في الإنسانية. فلماذا يُعنى شاعر ما برثاء حيوان ولايهتم برثاء الإنسان؟ وهل يتفق ذلك ومؤدَّاه النفسيّ (السيكولوجي) في تناول مَرْثيه؟، ومالمعاني التي يمكن لشاعر أن يطرقها في رثاء الحيوان؟! هذا ماسوف تجيب عنه السطور التالية:

لما كان الواقع يشهد بتدنّي الإنسان أحيانا حتى يتفوق عليه الحيوان في خصلة ما، فإن عين الفنان اللاقطة، شاعراً كان أو غير شاعر، لايمكنها أن تفلت مثل هذه المفارقات التي تجمع إلى صحتها وصوابها، طرافتها وغرابتها!!

ولعلنا لانجاوز الحقيقة حين نؤكد أن التعلُّم من الحيوان قد يكون مصدراً ماثلا من مصادر استلهام الإنسان - سواء كان ذلك في حياة الحيوان أم بعد موته -. ولعل من أقدم الشواهد الشعرية التي نذكرها لبيان تقدير الإنسان المنصف أحيانا للحيوان، بيتي عنترة العبسي الشهيرين في حصانه(١):

فازورَّ من وقع القنا بلَبَانه
وشكا إليَّ بعبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

لو كان يدري ماالمحاورة اشتكي
ولكانَ لو عَلِمَ الكلام مُكلّمي

فلئن بدا عنترة مسارعا إلى إنصاف حيوانه الذي تجلّت مآثره له خاصة في الحروب، حتى بادر بتضمينها كلها أو بعضها أبيات معلقته الشهيرة، إلى جانب التنويه بشجاعته هو ونخوته وخصاله الأخرى كفارس مغوار سواء بسواء. وهو جانب لم يغفله العربي منوّها بفضل الحيوان في حياته، وماأكثر ماورد عن شعراء المعلقات وغيرهم في وصف الإبل والخيل والظِّبيِّ وغيرها - ولعلنا نكتفي ببيتي عنترة لأنهما أشهر من أن يُغفلا - غير أن ماجاء شعرا عن خصال الحيوان المتميزة، وهو صُلب موضوعنا في رثاء الحيوان، جاء بعدما نفق، كأنما عزّ على الشاعر أن يلمح أمثال هذه المفارقات الغريبة والطريفة دون أن يمسها في إبداعه؛ كمعادل موضوعي ينبغي إبرازه في مقابل مايفتقده في الإنسان العاقل، وهو أولى به.

رثاء الحيوان بين الهزل والجد

ولقد اتسع الشعراء في رثاء الحيوان حتى شمل أنواعا منها: الهر والكلب والعجل والببغاء والحمار والخروف.. وغيرها. وليس من شك في أن تناولهم لكل حيوان من هذه الأصناف كان يمسُّ جانبًا لايتوافر إلا فيه من ناحية،



الشاعر حسن كامل الصيرفي

ولايتوافر في صاحبه الإنسان من ناحية أخرى. فبدا الإنسان بهذا ـ مع علو قدره ـ أدنى من حيوانه الغريزي، الذي لم يتكلَّف شيئا في اكتساب ميزته هذه. كما أنهم لم يتناولوه بالرثاء إلا بعد مغادرته الحياة، والشعور بالافتقاد الحق إليه فيما لايتوافر إلا فيه، ويُرجى من الإنسان مثيله فلا يوجد فيه.

وقد جرى الشاعر في رثائه للحيوان مجريين مختلفين: بدا في أولهما هازلاً ماجنا يحرص على إبراز مآثر حيوانه الراحل من جهة، ولكن في أسلوب يرسم البسمة على الشفاه، دون أن يكون في ذلك داعيا إلى السخرية منه، بل هو داعٍ غيره إلى إنصافه والاعتراف بفضله. وبدا في ثانيهما راثيا باكيًا حزينا في صدق لايخفى، مما يكاد يجعله قاصداً عن عمد بصدقه هذا إلى نقد سلوكيات الإنسان؛ التي هوى فيها إلى مادون مستوى الحيوان.

ومن الأولى؛ أي التي يبدو الشاعر فيها هازلا، مامُسّ به العجل والببغاء والخروف، وهذه أبيات نظمها الشاعر الريفي أحمد القرعيش في (عجله) الفقيد منذ أكثر من أربعين عاما، وألقيت في حفل أقامه أحد الأصدقاء لتأبين العجل، وهو ـ أي الصديق ـ، الذي تولى إلقاءها في حضرة القرعيش نفسه. قال(٢):

ياباهيَ الذيل والقرونِ
أبكيكَ بالمدمع الهتونِ
حاذرت فيكَ المنونَ حتّى
وقَعْتَ في قبضة المنونِ
ياصاحبي في خواء عيشي
ويارفيقي وياخديني
غادَرْتني دون ما وداعٍ
ولستُ بالغادر الخؤونِ
وكُنتَ في منزلي مصونًا
واليومَ غال الرَّدَى مصوني
زادت شجوني عليكَ حتّى
أوْشَكْتُ أقضي من شجوني
كم خُرْتَ في منزلي خُوارًا
(في السمع أحلى من اللحونِ)
وكنتَ ذُخري على الليالي
بلحمكَ الرائعِ السمينِ
ولم أُدوّرك في السواقي
ولا النواريج في الجرونِ
فأنتَ أسمَى لديَّ قدْرا
من أن تُرى مَوْضع المهينِ
عليكَ أبكي بُكاءَ حُرٍّ
راعٍ لعهد الوفا أمينِ

وبغير تعليق طويل؛ فإن أبرز ما يُلحظ في هذا الموقف أن القصيدة ألقيت في محفل أقيم لغرض التأبين على طريقة المصريين في تأبين موتاهم؛ سواء أكان المؤبَّن حيوانا أم غيره، وهذا هو لُبّ المفارقة.

أما الببغاء، فقد كان لأحد أصدقاء أحمد بن يوسف الكاتب، واخترمه الموت، وقد انتهز ابن يوسف فرصة موت هذا الطّائر ليغمز، بأبيات نظمها في رثائه، أخا لهذا الصديق اسمه عبدالحميد، كان لايعجبه. وقد قال فيها(٣):

أنتَ تبقي ونحن طرًّا فداكا
أحْسَنَ اللهُ ذو الجلالِ عزاكا
فلقد جلَّ خَطْبُ دهرٍ أتاك
بمقادير أتْلَفَتْ ببّغاكا
عجبا للمنون كيف أتَتْها
وتخطت عبدالحميد أخاكا
كان عبدُ الحميد أصلحَ للمو
ت من الببغا وأولَى بذاكا
شملتنا المصيبتانِ جميعا
فقدنا هذه ورؤية ذاكا

ومع أن بعض النقاد رأى أن هذا المعنى مأخوذ من أبيات لابن الرومي قال فيها(٤):

قُل لأبي القاسم المرزا
قابلك الدهرُ بالعجائب
مات لك ابنٌ وكان زينا
وعاش ذو الشين والمعايبِ
حياة هذا كموت هذا
فلَسْتَ تخلو من المصائب

ألا أن الأمر لم يعْدُ استغلال الإنسان الشاعر فرصة موت الببغاء ليُفْرغ سُمَّهُ في أخيه الإنسان.. وهو نمط آخر من المفارقة.

أما الحيوان الثالث الذي حظي بلفتات الشعر الذكية ولقطاته الضاحكة فهو الخروف، برغم أن ماقيل فيه جاء في مناسبة نفوقه. وقد قيلت فيه قصيدتان نظم أولاهما الشاعر محمد الأسمر صاحب الخروف، وكان مُهْدىً إليه في مناسبة عيد قبل أن يخترمه الموت، فقال فيه(٥):

ولم أزل مبتهجا منتظرا
قدومه مُطبِّلا مُزَمِّرا
حتى علِمْتُ أنّه فجاءَةً
مات ولاقى حتفه مُشمِّرا
وأنه استعجل ماكان له
ـ لو لم يَمُتْ ـ مهيًّأ مقدّرا
مَن لامَهُ في أمره فإنني
عذَرْتُه والله فيمن عذرا
لّما أحسَّ أنَّهُ هديةٌ
لشاعرٍ فكَّرَ ثم انتحرا

وإذا كان الشاعر صاحب الخروف لم يعف نفسه من السخرية ولو أتته من حيوان، فإن الشاعر علي الجندي صديق الأسمر لم يشأ أن يفوّت الفرصة حتى يهتبلها للسخرية المتضمنّة من بني الإنسان ولو كان الموت ذاته سببا فيها. قال الجندي(٥):

فقدُكَ الأحور السمين على العيـ
ـد بلاءٌ طاشت له الألبابُ
إن تكن صابرا فلسْتَ تراني
صابرًا ماتوالت الأحقابُ
وانتحابي عليه قرَّحَ جفني
وقليل لمثله الانتحابُ
أيزمني (الرُّقاق) في دقة الشو
ق إليه وأين منِّى (الكبابُ)
أيزمني الشّواءُ يملأ سمعي
بنشيش تلذه الأعصاب
يالها أكلةٌ حَسِبَتُ لها الأ
يام ضاعت وضاع مني الحساب
كيف مات الخروفُ قل لي لم يمـ
ـسَسْهُ سُقمٌ ولاعداه شبابُ
أتراه تَعَجَّل الموت خوف الـ
موت، والخوفُ للنفوس تبابُ



أم تراه قد كان صبًّا سقيما
والصَبابات للورى أسبابُ
قد قنعنا من الضحايا بديك
وقليل المُقلّ ليس يُعابُ
وسلامي عليك لا بل سلامي
لثريد تُحْدى إليه الركابُ
لو جَمَعْتَ الأحزاب يوما عليه
لتناست أحقادها الأحزابُ

ولما كانت القصائد السابقة جميعها قصائد رثاء في الحيوان من منطلق ضاحك؛ فإن قصائد الشعراء في الحمار والهرّ والكلب خاصة، جاءت من قبيل البكائيات الظاهرة الحزن.

ولعل من أقدمها ماقيل في رثاء الحمار، وقد قالها الشاعر المشهور ابن عنين، الذي كان يعيش في القرنين السادس والسابع الهجريين بالشام والعراق، ومنها(٦):

ليل بأول يوم الحشر متصلُ
ومُقلة أبدًا إنسانُها خَضلُ
وهل ألامُ وقد لاقيتُ داهيةً
ينهدُّ لو حُمِّلَتهَا بعضَها الجبلُ
نوى المصكُ الذي قد كنت آملُهُ
عونا وخيّب فيه ذلك الأملُ
لاتبعدن تربةٌ ضمّتْ شمائلهُ
ولاعدا جانبيها العارضُ الهَطِلُ
لقد حَوَتْ غير مكسالٍ ولارعشٍ
إن قيّد القَوْدَ من دونِ السُرى الكَسَلُ
قد كان إن سابَقَتْهُ الريحُ غادرها
كأنَّ أخمصها بالشوكِ ينتعلُ
يطوي على ظمأ خمسًا أضالعهُ
في بيضة الصَّيف والرَّمضاءُ تشتعل
ويقطع المقفرات الموحشات إذا
عن قطعها كَلَّت المُهْرية البذل
يُرجِّع النَّهق مقرونا ويُطربني
لحنا كما يُطرب المزمومُ والرَّمَلُ
لو كان يُفدى بمال ماضننتُ به
ولم تُصَنْ دونه خَيْلٌ ولاخَوَلُ
لكنها خُطّة لابُدّ يُبلغُها
هذا الورى، كلُّ مخلوقٍ له أجَلُ

فهي بكائية بحق لم يحجز الشاعر عن الإفصاح بها أنها قيلت في حيوان. ويذكر هذا الرثاء بما جاءت به شاعرة حديثة بعده بعدة قرون، وذلك في قولها(٧):

يا لعينيه وياكم فيهما
من معان تقتضي منا احترامه
نظرة الحزن التي غشتهما
تجبُر العابر أن يُحنَي هامه

وإذا كان الحمار قد حظي بكثير في رثائه، أوردنا أبرزماقيل فيه قديما عند ابن عنين؛ فربما كان عرضنا لصورته كما جاءت بقصيدة (العابر والحمار) مؤكدة لما ذهب إليه ابن عنين قديما من احتقار الناس للحمار واستهزائهم بصبره البالغ. تقول جليلة(٧):

مات لم يحزن عليه أحد
غيرُ طيف عابرٍ يخطو أمامَه
نام فوق الأرضِ حُرًا هانئا
واستراح الآن من حمل القمامة
ظلَّ طول اليوم يعدو هائما
في دروب الأرض لايدري مُقامَه!
لاهثَ الأنفاس منهوك الخُطى
ضامرَ الأحشاء يستجدي طعامَه
لسَعَاتُ السوط تُدمي ظهْرَهُ
ويدا الجلاّد لاتُرخي زمامَه
حين ولّى الصبرُ عنه وانقضى
ورأى دنياه سبًا وملامَه
ورأى الكون جحودا كلَّهُ
واحتقارا وغرورا وندامة
حين لم يقدر على آلامه
واستقرّت فوق عينيه غمامة
نام فوق الأرض يبغي مأمنًا
حاضنا في الموت أضواء السلامة
حطّم القيد الذي كم غَلَّهُ
وغدا حُرًا خفيفا كالحمامه
أيُها القاتلُ هذا المفتري
ياوسيم الشكل أعطافًا وقامه
أنت أدْنى منه قلبًا ونُهى
وهو أسمى منك نُبلا وكرامة
مُسْتَبِدٌ أنتَ طاغٍ في الدُنَى
وذليل خائرٌ يوم القيامة
إن تكن أسْرَفتَ في إيذائه
لك ربٌ سوفَ يُهديك انتقامه
ذلك السَّاجى على مهد الثرى
لم يكن يطمعُ إلا في ابتسامه

ولعله لم تفُتْنا نغمة التعاطف التي سرت في النصين القديم والحديث، الداعيين بتأكيد إلى الرفق بهذا الحيوان المغلوب على أمره، وتقديره قدره وعدم الإجحاف بجهده وصبره.

الاتجاه إلى رمزية التعبير

ولئن كان الحمار قد حَظي بمن يُندّد بظالميه ويدعو إلى ضرورة الرفق به، فقد كان الهر أيضا من الحيوانات الأليفة التي رُثيت قديما وحديثا.

وسوف نختار لها نموذجين من مرثياتها؛ أحدهما قديم للشاعر أبي بكر ابن العلاّف أحد ندماء المعتضد بالله العباسي، من شعراء القرن الثالث الهجري، وقد امتلأت كتب الأدب والتاريخ بذكرها، ومنها(٨):

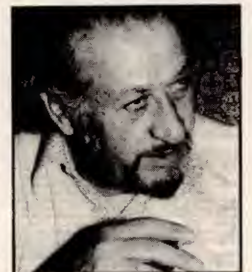
ياهرُ فارقتنا ولم تَعُد
وكنتَ عندي بمنزل الولد
فكيف ننفكُ عن هواك وقد
كنتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ
تطردُ عنا الأذى وتحرُسُنا
بالغيب من حَيَّةٍ ومن جُرَدِ
وتخرج الفأر من مكامنها
مابين مفتوحها إلى السَّدَد
يلقاك في البيت منهُم مَدَدٌ
وأنت تلقاهم بلا مَدَدِ
لاعدَدٌ كان منك مُنفلتا
منهم ولا واحدٌ من العَدَدِ
لاترهبُ الصيفَ عند هاجرة
ولاتهابُ الشتاءَ في الجَمَدِ
وكان يجري ولاسَدادَ لهم
أمرُك في بيتنا على سَدَدِ
حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا
ولم تكن للأذى بمُعْتَقِد..
وحُمْتَ حول الرَّدى بظلمهم
ومَنْ يَحُم حول حوضه يَرِدِ

رثاء الحيوان والمعادل الموضوعي ١

وكان قلبي عليك مرتعدا
وأنتَ تنسابُ غيرَ مُرتَعِدِ
تدخلُ برجَ الحمامِ مُتئِدا
وتبلغُ الفرخَ غيرَ مُتَّئِدِ
أطعمَكَ الغيُّ لحمها فرأى
قتلَكَ أربابُها من الرَّشَدِ
لم يرحموا صوتكَ الضعيفَ كما
لم ترْثِ منها لصوتها الغَرِدِ
أذاقكَ الموتَ ربُّهُن كما
أذقْتَ أفراخَهُ يدا بيدِ
عشت حريصًا يقودُهُ طمعٌ
ومتَّ ذا قاتلٍ بلا قَوَدِ
لاَبَاركَ اللهُ في الطعامِ إذا
كانَ هلاكُ النفوسِ في المِعَدِ
كم دخَلَتْ لقمةٌ حشا شَرِهِ
فأخرجت روحَهُ من الجسدِ

وإذا كانت مرثية الهر قد وقفت في نقل خصلة الخيانة الغالبة في القطط بحيث لم يسلم منها فراخ الحمام ببيت الجيران، بما دعا أصحابه إلى ترصُّده ثم اقتناصه وذبحه تخلصا من أذاه، فإن كتب الأدب اختلفت في مقصد الشاعر من قصيدته؛ فمن قائل إنه قصد بها رثاء ابن المعتز، ومن قائل إنه قصد بها الوزير ابن الفرات أيام محنته، وبعضهم ذكر أنها في غلام للشاعر نفسه قتله مولى جارية كان يعشقها؛ لأن الشاعر حرص على أن يوقف تدفقه التصويري الدرامي بالفعل على فترات يكون بوسعه من خلالها أن يتوجه بخطابه إلى عاقل لا إلى مجرد قط أعجم معتد.

وعلى كل حال فإن القصيدة تمثل إرهاصًا مبكرًا جدًا بالاتجاه إلى رمزية التعبير؛ الذي بدأ في الظهور في الأدب عموما لا في الشعر وحده بعد ذلك بعدّة قرون. وبدا لنا منقولاً عن الغرب فيما نُقل عنه، مع


علي الجندي

أن أصله عربي كما لاحظ القارئ من النص الذي سبق.

وكدأبنا في إيراد نصوص مختلفة من رثاء الحيوان، من القديم مرة ومن الحديث أخرى، فقد آثرنا أن نعرض لنص حديث عن القطة للشاعر (الأبوللي) حسن كامل الصيرفي بعنوان (فلفلة) (٩) جاء به بعد المطلع:

كلُّ شيءٍ إلى انتهاء
انتهاءٍ إلى هباءْ
كم يواري الثرى وكم
غُيِّبَتْ أوجهٌ وُضَاء

ومنها ماسا القطة في تعاطف أخاذ:

لاتعجَّبْ لأعْجمٍ
أنا أوليه بالرثاء
قطة قد خصَصْتُها
بِعَصِيٍّ من البكاءْ
علّمتني خصالُها
كَيف لايُجْحَدُ الوفاء؟!
بينما خان ناطِقٌ
والتَوى طبعه وساء
قطة في سكونها:
عزة النفس والرضاء
حين يمضي بأنفُسٍ
طمَعٌ ميِّتُ الإباء
قطة في امتنانها:
شكرُ مَن يُحْسن الجزاء
علّمَتْني بصمتها:
كيف لايُنكر الثناء؟!
وكثيرون قابلوا
الصَّداقات بالعداء
حيوانٌ.. وإنّما
ليس في طبعه رياء
كم أناس خبرتهم
لاخلاق ولارجاء
الأذى في نفوسهم
ليس يبدو له انتهاء
لاتَعْجَّبْ لأدمُعٍ
حيث لايُنكر البكاءْ
قطة قد جزيْتُها
بوفاءٍ على وفاء
عشرةٌ طال عمرها
في صفاءٍ وفي نقاء
زِينة النفس أن تفي
فالوفا نعمة السماء!

ولقد يستوقف القارئ اختلاف نظرة الشاعرين القديم والحديث إلى خلق الوفاء في القطة، فأنكره الأول وبنى عليه قصته التراجيدية المفجعة.

ولعل هذا الطابع ـ الخيانة ـ يكون غالبا في ذكور هذا الصنف من الحيوان دون إناثه، بدليل أن هرّ ابن العلاّف كان ذكرًا؛ بينما كانت قطة الصيرفي أنثى يغلب عليها الوفاء. ولانرى تفسيرًا لهذا التباين إلا ماوضحناه قبل قليل، ولأن الذكر بطبيعته يكون في سعيه للرزق مهيأ للصدام، فنسبة الشر فيه أكبر من الأنثى الوادعة، اللهم في لحظات الاعتداء على صغارها، حيث تنقلب وحشا كاسرا تكشر عن أنيابها، وتمارس دفاعها ضد عدوها المهاجم بكل جسارة.

(يتبع الحلقة القادمة)

الهوامش:

١ـ شرح المعلقات السبع للزوزني، ص١٢٩، مكتبة المعارف، بيروت.
٢ـ العوضي الوكيل، مطالعات وذكريات (أدب وتاريخ)، ص ص١٠١-١٠٢، المكتبة الثقافية، العدد٢٨٤، ١٩٧٢م.
٣ـ المرجع السابق، ص ص١٠٦-١٠٧.
٤ـ ديوان ابن الرومي.
٥ـ مطالعات وذكريات، ص١٠٨، ١٠٩.
٦ـ ديوان ابن عنين تحقيق خليل مردم بك، دار المعارف، القاهرة. وقد أبى المحقق أن يدرجها إلا في باب الدعابة والتهكم والسخرية، مع أن صاحبها الشاعر حرص على أن يدرجها في باب الرثاء، وهو مما يؤكد أن الشاعر حينما يرثي ـ ولو حيوانا ـ لايكون هازلاً.
٧ـ الشاعرة جليلة رضا في قصيدة (العابر والحمار)، مجلة الثقافة، ص ٦٦.
٨ـ بتصرف عن وفيات الأعيان لابن خلكان.
٩ـ ديوان صلواتي أنا، حسن كامل الصيرفي، ص ص٨٠-٨١، دار المعارف، ط١، ١٩٧٧م، القاهرة.

قصة قصيرة:

تبادل الأدوار

د. صلاح يحياوي

عـالج والدي غطاء قـارورة «الكازوز» دون جـدوى، ثم ناولني إياها هازًا رأسـه، لم تعـد لديه منذ عام تقريبًا قوة كافية في يديه ليفتح القارورة بيرم غطائهـا؛ ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام، إلا أن وجهه كان ينم بوضـوح على أنه غاضب ومخزي وكئيب.

نزعت له الغطاء بسهولة قائلاً له:

– لقد هَوَّنْتَ عليَّ الأمر بحلحلة الغطاء.

كانت هذه الكذبة من أجل كلينا: لأقبل بأنَّ عـدم استطاعـة والدي –الذي يعـرف كل شيء، والقادر على القيام بكل شيء– فـتح غطاء قارورة هو أمر قاس جداً لايمكن تحمله.

وعلى الرغم من أن والـدتي كـانت قـد بلغت الثمانية والستين عـامًا، وأن والدي كان قد تخطى الثالثة والسبـعين، إلا أن لديه دائماً –على مايبدو– بعض القـضـايا «التي عليـه إنجـازها». وتقـاعـدت والدتي أيضًا، ولكنهـا كـانت تقـوم بثـلاثة أنواع مـختلفـة من العمل التطوعي. وكانا يستمتعـان بالعبـادة أولاً، ثم بمشـاهدة الأفـلام التلفـازية والتمثيليات، وبالسفر بين حين وآخر. وكـانت لاتزال أمـامهـمـا سنوات لتقـعدهمـا الشيـخوخـة حقيقة. ومع ذلك فـقد غيرتهما الشيخـوخة تغييراً ملحوظًا خـلال السنوات الخمس الأخيرة. فمثلاً عندمـا كنا نعـود إلى المنزل سـوية مـاإن نصل إلى (سُلّم المنزل) حتى تتردد والدتي، ثم تقف وتمسك بذراعي.. كمـا أن رئتي والدي كانتـا قد أصيبتا منذ سنـوات من التـدخين، ومع أنه كـان لايزال نحيلاً إلا أنه قـد غـدا رقيقـاً ناتئ العظام... لقـد تقدَّمَ بهما العمر!..

إن كل ولَـد –وبخـاصــة ذلك الـذي وُلدَ لوالدين تجاوزا الثلاثين– يعرف حق المعرفة أن هذا الوقت سيـأتي حتـمًا.. ولايستـطيع أحـد توقع الكيفية التي سيُحسُّها حينئذ.

في بادئ الأمر، عندما غدا التغير ملحوظًا في والديّ، كـان رد فـعلي بسـيطًا: كنت حـانقًا عليهـما، لم تعـد والدتي في الحقيـقة بحـاجة إلى أخـذ ذراعي، فـقـد غدت عـاجـزة تمامًـا، ونسي والدي أشياء لمجرد أنه لم يكن يعيرها اهتمـامًـا. وقلت لنفسي غاضباً:

– لو كانا على تفاهم فيما بينهما لهان الأمر.

ولكني كنت أعرف أن ماكـان يحدث لهما لاعلاقة له البتة في إمكان تفاهمهما.

لن يكون كل شـيء على مـايرام، لقـد كـان غضـبي تغطية لحزن فظيع جـداً ألَمّ بي، ورفضت أن أشـعر به. أحـسسـت بأنني أفقـد والديّ، ولم يكن ذلك يعني فـقط أن العمـر يتقـدم بهمـا، بل كـان يعنـي أنهـمـا يقـتـربان من الموت. ومع أن الخـوف كان حـتمًـا كذلك، لكنه يعني أننا كنا نتبادل الأدوار: لـقد كنت الولـد المصون المحاط بالرعـاية والعناية منهـما، فـغـدوت المنوط بالعناية بهما وصونهما وحمايتهما.

عندمـا كنت حدثًـا كـانت أمي تودعني كل يوم عند ذهابي إلى المدرسـة. كنا نتبادل التـحيـة على عتبة باب المنزل، تظلّ ترقبني حتى أختـفي وراء المنعطف، كـان شـعوري بكونهـا تـرقبني بعينيها وسـماعي لصوت باب المنزل ينغلق عندما أختـفي عن ناظريهـا، كان ذلك يـجعلني أشـعر دائمـًا بالأمان والطمأنينة، أما الآن فقد أغلق باب المنزل لآخر مرة!..

لم أكن معتاداً ذلك – وقد لاأعتاده – لكن الزمن يجعل التغيير في والديّ، وفي أدوارنا مألوفاً أكثر فأكثر. لقد بقي بعض حنقي، ولم أعد أرمي اللوم عليـهما لتـقدم العمـر بهمـا. إلا أني كرهت رؤية ازدياد قـابلية ضـعفـهما، وكـرهت الشـعور بعدم الجدوى من عمل أي شيء حول ذلك.

وكان ينتابني شعور آخر أكثر تعـقيـداً، أمر يخـجلني. كنت أفزع عندمـا أفكر فيـما يستتبع ازدياد اتكال والديّ عليّ إذا مـااشتد بهـما المرض أو الضـعف، وكنت أتخيل بامتعـاض كيف أن العناية بهمـا تعطل حيـاتي وتوقع الفوضى فيـها.. وتتـوالى عليَّ مـشـاعـر أخـرى دونما توقع.. منهـا أحياناً عندما كنت أجهد نفسي للمشي ببطء وأنا برفقتهما، وعندما كان يتحتم عليَّ أن أشرح الأمر نفسـه ثلاث مرات. وأشعـر نحـوهمـا بنوع من الحنان الشـديد الواقـعي، وأتوقع أنهـمـا يشـعـران نحـوي بـذلك الحنان الذي جـعلهـمـا يمنـحـاني حبـهـمـا عبـر (الحـفـاضـات) ونوبات الغـضب والحـداثة الحـرون. ويُلمّ بـي إحـسـاس بالرضى لمعـرفتي أنني قـادر على مـد العون إليـهـما عندمـا يحتاجـان إليَّ.. لقـد ليَّن العـمر عـريكة والدي، ذلك الذي كـانت سـخريته وأسلوبه في التـفحص الشامل ينزلان كـالصاعقـة، ليس على المشاهدين فـحـسـب، بل على أبنـائه أيضًـا. إني قـادر على الشـعور بأنني قـريب منه، قد أكـذب إن قلت إن هذه الأمـور كـانت تـكفي لتلطيف الشـعـور بالفـقـدان، مـع أن الفـقـدان أمـرٌ علـيّ أن أتعلم التعايش معه.

ولاأزال أذكـر المرة الأخـيـرة – منذ عـشـر سنوات – عندمـا جاءا لزيارتي .. وتناولنا الطـعام في ضحى ذلك اليوم، ثم ذهبنا إلى الحديقة العامة نسيـر الهوينا، وعندما عدنا إلى المنزل استسلمت والدتي للقيلولة، في حين أخذ والدي يقرأ صحيفة اليوم، وفـي المساء شعـرا بالتحسن بعض الشيء، وبعد تناول طعام العشاء قـررا العودة إلى منزلهما، فاستدعيت سيارة أجرة، وطلبت إلى السائق أن يوصلهـما إلى المنزل، وقـد نازعني شعـور بالرغبة بمرافقتـهما للتأكد من سـلامتهما، غير أننا تبادلنا التحيات وقلت لهما:

– اهتفا (تلفنا) لي بمجرد وصولكما !..

ووقـفـت على الرصيـف أرقب السـيارة حتى اختفت عن الأنظار.

دار شـريط الذكرى هذه فـي خاطري عندمـا شعرت بتبرم أحد أبنائي من بعض تصرفاتي.

تغمدكما الله برحمته ياأبي وياأمي في فسيح جناته.



ألوان الإبل عند العرب

إعداد:
د. جاسر خليل أبو صفيّة

(أ)

الأدْم

الأُدْمَةُ في الإبل: لون مُشْرَبٌ سَوادًا أو بياضًا. وهي صفة يشترك فيها الإنسان والظّباء والإبل. وذهب بعض اللّغويين إلى أنّ الأُدْمة: البياض الواضح.

وقال الليث: الأدمة في النّاس: السمرة الشديدة، وقيل شُربة من سواد، وفي الإبل والظّباء: بياض.

أما الأصمعيّ فكان أكثر دقّة في تحديد دلالة هذا اللّون فقال: الآدم من الإبل: الأبيض، فإن خالَطَتْه حُمرة فهو الأصهب، فإن خالطت الحمرة صفاءً فهو مُدَمّى. (وسيأتي توضيح الأصْهَب والمُدَمّى).

الأمْغاص (المَغَص)

المَغَصُ من الإبل والغَنم: الخالصة البياض. وقيل: البيض فقط دون أن يكون اللّون خالصًا. وهي خيار الإبل، قال ابن سيده: المغص جمعه أمغاص، وقيل هو جمع لاواحد له، يقال إبل مَغَص وناقة مَغَص، والأول أعلى. ومفردها مَغَصَة ومَغْصَة (لغة بإسكان الغين)، وتجمع على أمغاص.

(ج)

الجُؤْوَة

حُمرة تضرب إلى سواد، وهي من ألوان الخيل والإبل. يقال: بعير أجْأى وناقة جأواء. وقال ابن سيدة: إن خالط الكُمْتَة مثلُ صدأ الحديد فهو جُؤوة.

الجَوْن

يشترك في هذا اللون مع الإبل الخيل وحمر الوحش والقَطَا. وهو كلّ لون أسود أُشرب حُمرة، أو سواد يخالط حُمرة. وترى العرب أنّ كلّ بعير جَوْن إذا نظره الإنسان من بُعْد لعدم تبيّن اللّون بوضوح.

(ح)

الحُسْب

الحُسْبَة: لون مشترك بين النّاس والإبل. والجمل الأحسْب: الذي فيه سواد وحمرة وبياض، ويطلق عليه أحيانًا الأكلف، وعند بعض القبائل: الجمل الذي لا لون له، أي يقال فيه: أحسب كذا وأحسب كذا.

والحُسْبَة في الناس والإبل: سواد يضرب إلى الحمرة. وفي لسان العرب أنّ الأحْسب: البعير الذي ابيَضّت جلدته من داء ففسدَت شَعْرته فصار أحمر وأبيض، ويكون ذلك في الإبل والنّاس. وهو شبيه بالبَرَص.

الحِضار

هي الإبل البيضاء أو الهِجان في لغة بعض القبائل. قال أبو ذؤيب يصف الخمر:

فما تُشْتَرى إلاّ بربْحٍ، سباؤها
بناتُ المَخاض: شومُها وحِضارها

أي سودها وبيضها.

الحُلْس

البعير الأحلس: هو الذي تكون كتفاه سوداوَيْن وأرضه وذروته أقلّ سوادًا من كتفيه.

والحلساء من المَعز: التي بين السّواد

والخضرة، لون بطنها كلونِ ظهرها. والأحلس: لون بين السَّواد والحمرة.

الحُمْر

توصف الإبل بلون الحُمرة إذا كانت حمرتها خالصة لايخالطها قُنوء.

الحُوّ

الحُوَّة: صفة في الخيل والإبل. يقال للبعير أحوى: إذا خالط خضرته سواد وصُفرة.

(خ)

الخُضْر

الخُضرة في الخيل والإبل: غُبرة تخالطها دُهمة (سيأتي بيانها).

(د)

الدُّكْن

الدُّكَن والدُّكْنة: لون كلون الخَزّ الذي يضرب إلى الغُبْرة، وهو بين الحُمرة والسّواد، أو يضرب إلى السّواد. والصّفة منه أدكن.

الدُّهم

الدُّهمة: هي السّواد؛ وهو لون يشترك فيه الإبل والخيل وغيرهما. يقال بعير أدهم وحصان أدهم.

(ر)

الرّادنيّة

يقال: بعير أرْدَن وَرادِنيّ، وناقة رادنيّة. وهي صفة تطلق على الجمل الذي يكون وبره جعدًا جميلاً يضرب إلى السّواد قليلاً. وقيل: الرّادنيّ. الشّديد الحمرة. قال الأصمعيّ: إذا خالط حمرة البعير صُفرة كَالْوَرْسِ قيل: رادنيّ وناقة رادنيّة.

الرُّمْك

الرُّمْكَةُ: لون الرّماد، وهي وُرْقَة في سواد قليل. وقيل: بل هو لون أقلّ قليلاً من الوُرقة (سيأتي بيانها). قال الأصمعي: إذا اشتدّتْ كُمتَة البعير حتّى يدخلها سواد فتلك الرُّمكة. وكلّ لونٍ يخالط غُبرته سواد فهو أرْمَك، والناقة رمكاء.

(س)

السُّمْرَة

لون مشترك بين النّاس والإبل والخيل وغير ذلك من الكائنات والأشياء، وهو منزلة بين البياض والسّواد. وتكون الأُدمة في الإبل أكثر من السُّمرة. يقال: بعير أسمر: أي أبيض إلى الشّهبَة

(ش)

الشُّكْل

الأشكل من الإبل والغَنَم: الذي يخلط سوادَه حُمرةٌ أو غُبْرة كأنّه قد أشكل عليك لونه. والشُّكلة في سائر الأشياء: بياض وحمرة قد اختلطا.

الشُّوم

هي الإبل السّوداء، وقد مرّت في شعر أبي ذؤيب. ويقال فيها أيضًا الشّيم والمفرد منه: أشيم وشيماء، وأما الشوم فقيل لامفرد له، وقيل مفرده أشيم.

(ص)

الصُّفر

وقع اختلاف بين علماء اللّغة حول دلالة هذا اللّون؛ فذهب بعضهم إلى أنّه الأصفر المعروف، وقال آخرون: هو الأسود. وقد حدّد اللّه تعالى في كتابه الكريم دلالة هذا اللّون عندما قال في وصف النار: ﴿إنّها ترمي بشررٍ كالقَصْر. كأنّه جمالةٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات ٣٢، ٣٣)، وهو اللّون المعروف. وقالوا: الصُّفْر: سود الإبل، وذلك لأنّ سوادها مُشرب صُفرة. قال ابن سيده: الأصفر من الإبل: الذي تَصْفَرُّ أرضه وتنفذُه شعرة صفراء.

الصُّهب

الصُّهْبَة والصُّهب: حُمرة في شعر الرّأس واللّحية إذا كان في الظّاهر حمرة وفي الباطن سواد. وهو في الإبل كذلك، أي يعلو شعرها حمرة وأصوله سوداء. قال طرفة يصف ناقته:

صُهَابيّة العُثنون، مُؤْجَدَة القَرا
بعيدةُ وَخْدِ الرِّجْل مَوّارَةُ اليَدِ

قال ابن الأعرابي: قريش الإبل: صُهْبُها وأُدْمها، يذهبون في ذلك إلى تشريفها على سائر الإبل. وقد أوضحوا ذلك بقولهم: خير الإبل صهبها وحمرها، فجعلوها خير الإبل كما أنّ قريشًا خير النّاس عندهم.

وقيل: الأصهب من الإبل: الذي يخالط بياضه حُمرة، وهو أن يَحْمَرّ أعلى الوبر وتبيضّ أجوافه، ولكنّها ليست شديدة البياض، وأمّا أقرابه ودُفوفه ففيها توضيح أي بياض.

قال في التّهذيب: الأصهب: أقلّ بياضًا من الآدم، في أعاليه كُدْرَة وفي أسافله بياض. وقال ابن الأعرابيّ: الصّهبة أشهر الألوان وأحسنها حين تنظر إليها.

دائرة المعارف

(ع)

العِيس

هذه الإبل بيضاء يخالطها شيء من الشّقرة. وقيل العِيس والعيسة: لون أبيض مُشرب صفاءً في ظُلمة خفيّة. وقيل: العِيس من الإبل هي التي يميل لونها إلى الصّفرة. قال فيها الشّاعر:

كالعِيس في البيداءِ يقتلها الظّما
والماءُ فوق ظهورها محمولُ

وقال آخر في تحديد لونها:

أقول لِخَارِبَيْ هَمْدان لّما
أثارا صِرْمَةً حُمرًا وعيسا

قال الشارح: أي بيضًا وهي كرائم الإبل.

(غ)

الغُتمة

أن يغلب بياض الشعر في الإبل سواده، وهو لون شبيه بالوُرْقة.

الغَيْهَب

تطلق هذه الصّفة على اللّيل والجمل إذا اشتدّ سوادهما. وهي في الخيل أيضًا. يقال: جمل غيهب: مظلم السّواد.

(ك)

الكُلْف

الكُلْفَة: لون بين السّواد والحمرة، أو سواد يكون في الوجه وهو الكَلَف. ويكون في وجوه الإبل خاصّة، فيقال: بعير أكلف وناقة كلفاء.

والكَلَف: لون يعلو الجلد فيغيّر بشرته. وقيل: البعير الأكلف: الذي في خدّيه سواد خفيّ.

قال الأصمعيّ: إذا كان البعير شديد الحمرة يخلط حمرته سواد ليس بخالص فتلك هي الكُلْفَة.

الكُمْت

الكُمتة: صفة مشتركة بين الخيل والإبل، وهي حمرة يخالطها سواد أو قُنوء، وهو لون ليس بأشقر ولا أدهم، بين السّواد والحمرة. والبعير والناقة كلاهما: كُمَيْت.

الكُهْب

الكُهبة: غُبرة مشربة سوادًا في ألوان الإبل خاصّة، ولكنّها تكون في الخيل أيضًا. وقيل: الكُهبة: لون ليس بخالصٍ في الحمرة، ولايكون إلاّ في اللّون الأحمر.

وخالف ذلك ابن السّكيب فقال: لون مائل إلى الغبرة لايختصّ به شيء دون شيء. ونفى الأزهريّ أن يكون في الإبل مثل هذا اللّون.

(م)

المُدَمّاة

هي الإبل الحمراء التي يخالط حمرتها صفاء. يقال بعير مُدَمًّى

المُغْرَبَة

المغرَبُ من الإبل: هو الذي تبيَضّ أشفار عينيه وحدقتاه وهلبه وكلّ شيء فيه. قال الأزهري: المغرب: الأبيض الأشفار من كلّ شي. وهو أقبح البياض.

(ن)

النّاعِجَة

الإبل البَيضَاء الحسنة اللون، وهي التي يصاد عليها نعاج الوحش. قال ابن جنّي: هي من المهريّة، والنّواعج من الإبل: السِّراع.

(هـ)

الهِجان

هي الإبل البيض الكرام. قال عمرو بن كلثوم:

ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أدْماءَ بِكرٍ
هجانِ اللّون لم تقرأ جَنينا

يقال: ناقة هِجان وإبل هِجان. قال ابن سيده: الهجان: الإبل البيضاء الخالصة اللّون والعِتْق من نوقٍ هُجُن وهجائن.

وفي الخيل : الذي ولدته برذونة من حصان عربيّ.

(و)

الوُرْق

الوُرقة: سواد في غُبرة. وقيل سواد وبياض كدخان الرِّمْث (نوع من الشّجر)، ويكون هذا اللون في أنواع البهائم، وأكثره في الإبل. الجمل الأورق: الذي في لونه بياض إلى سواد.

قال أبو عُبيد: الأورق: أطيب الإبل لحمًا وأقلّها شدّة على العمل والسّير. وقال الأصمعيّ: إذا كان البعير أسود يخالط سواده بياض كدخان الرِّمث فتلك الورقة، فإن اشتدّت وُرْقته حتّى يذهب البياض الذي فيه فهو أدهم وهي دهماء.



دور الأسرة في وقاية أبنائها من تعاطي المخدرات (٤)

التفريق بين مرحلتي الطفولة والبلوغ

إعداد : د. تماضر حسون

ذكرنا في الحلقة الماضية (الثالثة) أنه كي يُفهم اصطلاح مايسمى بالمراهقة يحتاج الأمر للتفريق بين مفهومين أساسيين: الطفولة والبلوغ. والتعرف بفهم عميق إلى الفروق بينهما.

أ ـ الطفولة:

الطفولة بالعمر، تعني عادة كل السنوات التي يحياها الطفل في بيت والديه منذ ولادته وحتى بلوغه سن الثامنة عشرة، وخلال كل تلك الفترة يكون الفرد معتمدًا كليًا على والديه أو على أحدهما ماديًا، كما أنه يتلقى التربية والتنشئة الملائمة. أي إن مرحلة الطفولة في وقتنا الحاضر أصبحت تمتد لتشمل مرحلة الدراسة في المدرسة الثانوية، لذا من الأهمية بمكان أن يدرك الوالدان بأن فترة المراهقة هي جزء من الطفولة وليست جزءًا من البلوغ، وهذا يعني أن الوالدين مسؤولان عن وضع القيود على تصرفات الطفل؛ التي تتراوح من تحديد وقت الدراسة، وفرض الأوقات المناسبة للخروج، إلى التدخل في اختيار الأصدقاء، وتعرف الأماكن التي يرتادها لقضاء أوقات الفراغ والتمتع، إلى تعاطي التدخين والمسكرات والمخدرات... الخ، خلال هذه الفترة وهذا من أولى حقوقهما، ولكن أن يتم ذلك بحكمة وبأسلوب مغاير لأسلوب مرحلة الطفولة الأولى.

إن مرحلة المراهقة التي تبدأ عادة في الثانية عشرة، وتنتهي بسن الثامنة عشرة، ليست هينة على الإطلاق، إذ تصل علاقة المراهقين بوالديهم إلى نقطة حرجة، ليس لأن ظروف الأسرة قد تغيرت، بل لأن المنظور الذي ينظر من خلاله كلا الطرفين لبعضهما بعضا قد تغير، وترتفع شكوى المراهقين بأن والديهم لم يعودا ـ كما كانا من قبل ـ يتفهمونهم ويتفهمون مشكلاتهم، ويؤكدون على وجود فوارق واختلافات تزداد عمقًا بين فهمهم ونظرتهم للأمور خاصة فيما يتعلق بحياتهم وسلوكهم الشخصي، وبين فهم الوالدين لها وتصرفاتهم حيالها.

إضافة إلى ذلك، يرى المراهقون أن حب والديهم واهتمامهم بهم وعطفهم عليهم قد تضاءل وأصبح يرتدي شكلا جديدًا يتسم بالتتبع والمراقبة والتدقيق، الأمر الذي يساعد ـ كما يرى المراهقون ـ على نمو مشاعر النبذ والهامشية؛ مما قد يترجم على المستوى السلوكي بانحرافات واضحة تأتي مسألة تعاطي المخدرات والمسكرات والتدخين على رأسها.

ويلاحظ بوجه عام، أن معظم الآباء والأمهات يعجزون عن تقدير التغيرات الواسعة والسريعة التي يتعرض لها أبناؤهم وأهميتها وهم في سن المراهقة، وبالتالي يقعدون عن إدراك أو إدخال التعديلات الملائمة على مواقفهم إزاءها. وبدلاً من تفهم المستجدات والتكيف معها ومعرفة كيفية التعامل معها؛ يزداد هاجس الخوف لدى الآباء والأمهات على أبنائهم، وبدافع مزيج من المحبة والخوف والعطف والرغبة في إبقاء زمام السيطرة بين أيديهم، فإنهم يستمرون في المحافظة على أساليب التعامل نفسها معهم منذ كانوا صغارًا في مرحلة الطفولة الأولى، بل غالبا مايتشددون أكثر، الأمر الذي قد يخلق شعورًا لدى المراهقين بتسلط الأهل، ويعتبرون ذلك انقاصًا لذواتهم وجرحًا لكبريائهم، لذا فقد يكون هيجان الاحباط والعصيان والتمرد السمة التي تميز التفاعل والاتصال بين المراهقين وذويهم. ولهذا الوضع مخاطره الجسيمة إذا لم يتنبه الأهل لطبيعة المرحلة التي يمر بها المراهق، وتبني الحوار الهادف والنقاش المعقول والاحترام المتبادل. إذ يواجه الأهل ـ في بعض الأحيان ـ عصيان المراهق وتحديه الساخر لقراراتهما، بطرده من المنزل، أو قد يتخذ المراهق نفسه هذا القرار، ولهذا الطرد أو الهروب عواقبه الوخيمة جدًا، مثل ترك المراهق للمدرسة، والتورط في صداقات مع أفراد هامشيين ، أو الانزلاق في طرق إدمان المخدرات والمسكرات...إلخ.

إن الكثير من الآباء والأمهات يجهل أو بالأحرى لم يتوصل للفهم الجيد لماهية المراهقة المتأخرة؛ التي سبق وقلنا عنها إنها جزء من الطفولة، ولكنها في الوقت نفسه مرحلة تهيئة الطفل ليصبح راشدًا، إنها مرحلة حساسة في حياة الفرد، فهو أكبر من أن يكون طفلاً وأصغر من أن يكون بالغًا. في هذه المرحلة يعاني المراهق أشد المعاناة من الضغط بين الحرية والمسؤولية، وبين القيم الجديدة وتقاليد العائلة، في هذه المرحلة يتوجب على الأسرة أن تُعلِّم المراهق كيف يصبح بالغًا، وذلك من خلال قيام كلا الأبوين بدوره الفاعل في مساعدة المراهق على اكتشاف ورؤية ماوراء مخالفة القيم والقواعد والقوانين، مع إشعاره بإنسانيته وقيمته الذاتية ودوره وفاعليته في الأسرة، وتهيئته رويدًا رويدًا لتحمل تبعات تصرفاته لدى بلوغه سن التاسعة عشرة. ومن دون ذلك يبقى المراهق طفلاً حتى بعد اجتيازه سن الثلاثين؛ معتمدًا على ذويه وعاجزًا عن ممارسة دوره في الحياة بوصفه بالغا ولايتعلم كيف يضبط سلوكه وتصرفاته، ويحول كل مشاكله اليومية إلى خلافات مع الآخرين.

ب ـ البلوغ:

أما مرحلة البلوغ الكامل فيمكن تعريفها بشيئين أساسيين:

أولاً: بلوغ الطفل سن التاسعة عشرة.

ثانيا: تحمل الطفل البالغ تبعات سلوكه وتصرفاته بشكل كامل، ثم أن يكون مسؤولاً عن إعالة نفسه ماديًا؛ أي لايكون معتمدًا على أسرته في الحصول على الطعام والمأوى والملبس والعناية الصحية والتعليم... الخ.

عندما يصبح الطفل بالغًا تتبدل نوعية العلاقة التي كانت سائدة بين الآباء والأبناء تبدلاً جذريًا لتأخذ شكلاً آخر. ولكن في أغلب الأحيان يكون البالغ الجديد ليس قادرًا على اعالة نفسه ماديًا، عندئذ ستأخذ العلاقة بين الأهل والبالغ الجديد شكلاً وسطًا، ومنذ البداية يجب أن يعلم كلا الطرفين نوعية هذه العلاقة ويعيها جيدًا. بالنسبة للبالغ الجديد سيكون أكثر استقلالية وحرية من ذي قبل، ولكن سيمارس تلك الحرية وتلك الاستقلالية ضمن قواعد وشروط الأبوين، إذ مقابل الدعم المادي الذي يتلقاه من الأسرة عليه أن يقبل باستمرارية إشراف الوالدين على تصرفاته وسلوكه؛ كالإنجاز التعليمي، ومعرفة نوعية الأصدقاء الذين يعاشرهم ويخالطهم، وتحديد ساعات السهر والأماكن التي يرتادها، وأيضا منعه من هاوية تعاطي التدخين والمسكرات والمخدرات .. الخ. ومن الأمور الشائعة أن البالغ الجديد يحصل على الدعم المادي ولكنه يخالف إشراف الأبوين ويرفضه. وهنا على الأبوين أن يفكرا جيدا في هذا الموضوع، وأن يتخذا قرارًا يكون في مصلحة الطفل البالغ على المدى البعيد. ولنعلم أن قبول تصرفات الطفل البالغ من قبل الأهل، يقلل ـ في الغالب ـ من فرص الطفل لبناء نفسه ومستقبله بنجاح. أما عن كيفية إقامة العلاقات الصحية بين الآباء والأبناء، فهذا سيكون بعون الله موضوع الحلقة الخامسة في العدد القادم.

قصة قصيرة

الخيبة

لطفي بن إبراهيم حتيرة

سحب بلون الضباب تعلو السماء.. مطر خفيف يسقط رذاذا كأنه ذرات من النور.. أسراب من الطيور المهاجرة مُحلقة عاليا ناحية الجنوب.. نسيم بحري يهبُّ على القرية حاملاً معه رائحة الأسماك وأعشاب البحر. أغصان الأشجار تتراقص نشوانة وهي تتعرّى من أوراقها كأنها تستعد للاستحمام... في الشارع جمود كائن وفراغ ساكن، العدم يطلّ من كل ناحية وزاوية، حتى تلك العيون القليلة التي كانت تمرّ بك، عيون مجهدة من طول ساعات العمل وقلة النوم، عيون مضرَّجة بحمرة ممزوجة بصفرة كاحلة كمعظم أراضي المنطقة.

ارتعاشات تصيب أطرافك.. تتجمد أصابعك فهي كالجليد، تحركها فلا تستطيع، السيجارة بين شفتيك تمتصها كما يمتص طفل جائع ثدي أمه الفارغ الخاوي.. خمس سنوات مرت عليك وأنت بهذا الحال لم تتغير ولم يتغير فيك شيء. لازلت في مكانك تراوح كما يراوح الجندي فلا يتقدم ولا يتأخر.. كأن الأيام هي عينها لا تتبدل بل هي تدور حول نفسها فتتكرر، اليوم مثل الأمس والغد كأنه اليوم.. خمس سنوات ما أقصرها عمرًا وما أطولها عذابًا.. خمس سنوات وأنت كما أنت ذلك العامل البسيط المغلوب على أمره، يقضي النهار كله في حمل الأكياس الثقيلة على ظهره ناقلاً إياها من مكان إلى مكان داخل مستودعات ديوان الحبوب.. كنت تنهض في الخامسة صباحًا على صوت المؤذن المنبعث من صومعة الجامع الكبير بالقرية، وكان والدك الشيخ هو أول من يغادر فراشه، فيتوضأ ثم يبسط سجادته في فناء المنزل ويتربّع عليها مرتلاً قرآنه وخاتمًا أوراده الصباحية بصوته الدافئ الحزين حتى إذا حضرت الصلاة يقوم فيصلي ثم يعود ثانية إلى تسبيحه مستغرقا في توحيد الله... كنت تجلس داخل غرفتك والسيجارة بين أصابعك وأنت تسترق السمع خاشعًا إلى تلاوة والدك مراقبًا إياه منتظرًا فراغه.. وحين يستقيم والدك طاويًا سجادته تذهب إليه لتأخذ منه السجادة وأنت تقول:

ـ صباح الخير يا أبي.

وتضيف وأنت منحن تقبل يده:

ـ وكيف أصبحت اليوم..؟

فيجيبك بصوت رقيق متعب:

ـ يسعد صباحك ياولدي ..

ويصمت قليلاً ثم يعود ليقول:

ـ الحمد لله ياولدي الحمد لله.

وبعدها تتجهان معا إلى مربط الحمار ثم تساعده على تسريجه وامتطائه، وقبل أن يغادر المنزل تقول له بأسى ظاهر:

ـ صحتك ياوالدي، صحتك لا تتحمل فلا تتعب نفسك..

كنت تعرف عناده الشديد ومقته الأشد لترك العمل بالغابة والجلوس في البيت.. فكان لايجيبك ويمضي في طريقه، بينما تبقى أنت كالصنم واقفا وسط الفناء.. وتتذكر والدتك المقعدة منذ شهور فتتجه إليها وهي في غرفتها. كنت تعرف جيدا أنها مستيقظة وأنها لاتنام من الليل إلا قليلاً. لكنك كنت تبالغ في الحذر من إِحداث أي صوت وحين تقترب من باب غرفتها كانت تفاجئك وتناديك:

ـ تعال.. تعال ياولدي وادخل..

فتدخل وتدنو منها ممسكا يدها مقبلاً جبينها ثم تقول:

ـ أمي صباح الخير كيف حالك اليوم؟

فتجيبك وفي صوتها حشرجة وألم:

ـ صباحك خير ياولدي..

وكعادتها تلوذ بالصمت وترسل دموعًا مدرارة.. كنت على يقين أنها ستفعل ذلك كشأنها في كل يوم، وكنت تعرف جيدا لماذا هي تفعل ذلك، لكنك كنت تتجاهل

الأمر فتتركها وتخرج إلى عملك... وفي المساء تعود إلى البيت منهكًا تعبًا فاني الجسد خاوي الروح كالحمار الهزيل الذي يُحمّلونه ما لاطاقة له به، فتغتسل ريثما تُعد لك أختك طعام العشاء، فتصيب منه قليلاً، ثم تخرج إلى المقهى لتدفن ذاتك وهمومك في لعب «الدّامة» إلى حدود الساعة الحادية عشرة، ساعتها تعود إلى البيت ومباشرة إلى غرفتك لتنام.

خمس سنوات كأنها أيام معدودة حين تمضي ولكنّها قبل أن تأتي تكون أمامنا كالدهر طولاً.

- صباح الخير...

وانتبهت للقادم الذي انتشلك من الهاوية التي ترديت فيها نفسك فقلت تداري اضطرابك:

- صباح الخير .. صباح الخير.

- متى تمر الحافلة...؟

سأل الآخر.

- الآن... الآن هذا موعدها...

قلت.

ونظرت إلى ساعتك: كانت تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، ونسج الصمت بينكما جدارًا هائلا جعلك تغيب عن الواقع بعيدًا في الزمان غريبا في المكان، ورحت في مجاهل ذاتك المظلمة باحثا عن لحظة مضيئة وركن آمن. لكن هيهات .. هيهات.. لاضياء ولا أمان فكل حناياك حالكة السواد قاحلة، وكل ثناياك مضطربة مشوشة... والدتك المريضة تُلح عليك بالزواج في كل يوم وفي كل لحظة قبل أن تعجّلها الأيام فترحل عن الدنيا، ووالدك الشيخ العجوز هو أيضا يُشدِّد على زواجك كلما سنحت له



الفرصة، لكنك كنت عنيدًا متصلبًا. كنت دائمًا تعلل رفضك للزواج بقولك لهما إنك تبحث عن الفتاة المناسبة، والحقيقة أنك غير قادر على الزواج لقلة المال وضيق ذات اليد... وفي يوم تذْكره دَعَتْك أمك إلى جانبها وقالت لك:

- سنوات ياولدي وأنت تبحث عن الفتاة المناسبة فما وجدتها! لماذا؟ والقرية ملأى بهن لماذا ياولدي لماذا؟

وعددت لك البعض منهن: ابنة عمك نجاح، ابنة خالتك المعلمة، وابنة الحاج الصادق هادية وغيرهن... لكنك كنت سادرا لاتريم ولاتحرك طرفًا ولاتبدي رأيًا، فغضبت أمك وغصت بريقها وانهالت الدموع على خديها وتعكر حالها فكاد يقضي عليها؛ لولا إسراعك باستدعاء طبيب القرية الذي أنقذ الموقف... يومها فكرت طويلاً واحترت.. لكن لا مفر وأذعنت للأمر ثم أعلنت لها موافقتك وقلت لها مطيبًا خاطرها معلنا قرارك:

- سامحيني يا أمي . سامحيني الحق عليّ..

ورحت تقبل يدها مرة وجبينها مرة ثم أضفت:

- ما رأيك يا أمي لو نذهب يوم الجمعة القادم و نخطب...

لم تصدق المسكينة ما سمعته منك، ولّما أكدت لها ذلك ابتسمت وكانت قليلاً ماتبتسم وضجت بالفرحة وبرقت عيناها بهجة، وأشرق محياها نورًا وسألتك: قل يا ولدي قل لي من هي؟

- حياة يا أمي، حياة ابنة الحاج المبروك.

- نعم الاختيار يا ولدي ونعم الدار.. يوم الجمعة إن شاء الله نذهب ونخطبها.

ثم احتضنتك كطفل صغير وقبلتك كثيرا ودعت لك بالصلاح والتوفيق..

وجاء يوم الجمعة لكنك لم تذهب لتخطب، بل ذهبت إلى المقبرة لتزور قبر والدتك المسكينة التي رحلت بعيدًا.. بعيدا تحت التراب، فبكيتها كثيرا وحزنت طويلاً حتى الندم.. وسالت دموعك كما لم تسل من قبل.

- إنها قادمة... إنها هي!

- من ... من؟!

هكذا سألت ثم انتبهت إلى الشخص الذي يقف بجانبك وهو يشير إلى الحافلة القادمة ودون أن تشعر امتدت يدك إلى دموعك السائلة على خديك تمسحها... ثم ركبت الحافلة ومضيت إلى عملك ككل يوم.

الحركة الثقافية في شهر

افتتاح معرض الفن السعودي المعاصر، وتوزيع جوائز مسابقة بيوت الشباب

إعلان نتائج المسابقة الدولية لتلاوة القرآن الكريم

المغرب تقيم معرضًا دوليًا للاختراع

الرئيس الفرنسي يفتتح «مكتبة فرنسا الوطنية»

عرض لوحات فنية يحدث أزمة بين ألمانيا وروسيا

مهرجان الجنادرية العاشر وإقبال غير مسبوق: مليون و٣٩٠ ألف زائر ومتابع


سمو ولي العهد يسلم أحد الفائزين في سباق الهجن جائزته

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن العزيز، رعى صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني افتتاح المهرجان الوطني العاشر للتراث والثقافة «الجنادرية» عصر الأربعاء ٢١ شوال الماضي.

وقد شارك في النشاط الثقافي لهذا العام قرابة مائة وخمسين مفكرًا وأديبًا وكاتبا من ١٦ دولة عربية والباكستان وإيران وتركيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والصين. وكان من أبرز ضيوف المهرجان الشاعران العراقيان محمد مهدي الجواهري وعبدالوهاب البياتي.

وإلى جانب سباق الهجن السنوي الكبير، والمعارض والأنشطة التراثية والتقليدية والفنية التي تربط الحاضر الزاهر بالماضي التليد، تضمن المهرجان نشاطات ثقافية حافلة افتتحها يوم الخميس ٢٢ شوال صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب نائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان، حيث استهل البرنامج الثقافي بندوة «شخصية سعودية» وكان موضوعها الشيخ حمد الجاسر. وتميز النشاط الثقافي للمهرجان هذا العام بتخصيص نشاط ثقافي نسائي مستقل ومصاحب للنشاط السنوي المعتاد، بعد أن اقتصرت المشاركة النسائية في الماضي على متابعة النشاط الثقافي من خلال الدوائر التلفازية التي تبث وقائع المحاضرات والندوات «على الهواء» إلى القاعات المخصصة للنساء.

كما تميز المهرجان العاشر بإقبال جماهيري كبير غير مسبوق، إذ بلغ عدد رواده على مدى أسبوعين هما مدة المهرجان مليونا و٣٩٠ ألف زائر ارتادوا القرية التراثية الشعبية وحضروا عروض المهرجان الفنية والشعبية و أمسياته الشعرية والقصصية وندواته الثقافية.

السعودية

المؤتمر الوطني للحاسوب

عقد في الرياض المؤتمر الوطني الرابع عشر للحاسوب والمعرض المصاحب له.

ناقش المؤتمر الذي افتتحه **صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز** وزير الداخلية، ٣٣ بحثا و١٢ورقة عمل، تناولت مناهج التعليم والتدريب في مجال الحاسوب، وتطبيقات النظم المتعددة الأوساط، ودور

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين:

الأمير سلطان يسلم جائزة الملك فيصل العالمية للفائزين



سمو الأمير سلطان في لقطة تذكارية مع الفائزين بجائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٥هـ

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، رعى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران المفتش العام، الحفل الذي أقامته مؤسسة الملك فيصل الخيرية لتسليم جائزة الملك فيصل العالمية للفائزين بها في عامها السابع عشر في مجالات خدمة الإسلام والأدب العربي والطب والعلوم ، وذلك مساء السبت الرابع والعشرين من شهر شوال الماضي.

وألقى المدير العام للمؤسسة ورئيس هيئة الجائزة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل كلمةً شكرَ فيها سمو النائب الثاني لرعايته الحفل، ورحب بالفائزين مهنئًا إياهم. ثم قدّم الأمين العام للجائزة د. عبدالله العثيمين نبذة عن كل فائز قبل أن يتسلم الجائزة من سموه ويلقي كلمته في الحفل؛ حيث أكد الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الجامع الأزهر الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام، أن بين العلم والإيمان صلة وثقى، صلة هي من القرب بحيث لايكاد ينفصل أحدهما عن الآخر، وعبر عن شكره وتقديره للجائزة منوّها بأهميتها.

وأشاد د. حمدي سيد أحمد السكوت الحائز على جائزة الأدب العربي بالمشاركة بما حققته الجائزة من مكانة مرموقة بالمحافظة على مستوى علمي عال لاتهبط دونه، في حين قال د. محمد أبو الأنوار محمد علي الفائز بجائزة الأدب العربي بالمشاركة إن الجائزة تمثل قيمة حضارية، حيث تصل المملكة العربية السعودية التاريخ الإسلامي المعاصر بأمجاده في العصور الذهبية تكريمًا لمبدأ إعلاء الله للإنسان في الأرض، وأعربت الأديبة الباحثة سلمى لطفي الكزبري الفائزة بجائزة الأدب العربي بالمشاركة عن غبطتها لوجودها في الديار المقدسة، ولتشرّفها بنَيْلِ مثل هذه الجائزة السامية المقرونة باسم ملك عربي عظيم. وقال د. جريجوري ونتر الفائز بجائزة الطب بالمشاركة: «إن هذه المناسبة تفتح عيني على عالمكم وعلمائكم وعلى فرص التواصل الحضاري»، معربًا عن أمله في أن يكون التقدير الذي ناله حافزًا إلى المزيد من العمل والبحث، وأعقبه د. مارك ديفز الفائز بجائزة الطب بالمشاركة بكلمة أكد فيها أن مايجمع الحضور الليلة ويربطهم بذكرى الملك فيصل هو البحث عن الحقيقة، معتبرا نفسه محظوظًا إذ أتيحت له الفرصة لزيارة المملكة العربية السعودية، أما د. تاك واه ماك الفائز بجائزة الطب بالمشاركة فتوجه بالشكر لهيئة الجائزة لتقديرها لأعماله، معبرًا عن شكره لمؤسسة الملك فيصل الخيرية لدعمها للبحوث المتعلقة بالأمراض المعدية. ونوه د. كارل باري شاربلس الفائز بجائزة العلوم بحرص جائزة الملك فيصل العالمية على أن يكون تقديرها للعمل مبنيًا على الأعمال ذات النفع الملموس للإنسانية.

والمعروف أن جائزة الملك فيصل العالمية تمنح في مجال خامس هو «الدراسات الإسلامية»، وقد حُجبت هذا العام لكون الأعمال المرشحة لنيلها لاترقى إلى مستواها.

التعليم الأهلي في التعليم والتدريب، وشبكات وتقنيات التعليم والتدريب، والتجارب والخبرات في هذا المجال، ولغات ونظم تحضير الدروس، والتعريب والتعليم، وموضوعات أخرى.

مستقبل التنمية في المملكة

نيابة عن **صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز** أمير منطقة الرياض، قام معالي د. أحمد بن محمد الضبيب مدير جامعة الملك سعود، بافتتاح اللقاء السنوي للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية (جستن) الذي عقد بالتعاون مع المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني تحت عنوان: «التعليم الفني والمهني ومستقبل التنمية في المملكة العربية السعودية».

تضمن حفل الافتتاح كلمة لرئيس الجمعية د. راشد بن حمد الكثيري، ثم كلمة لمعالي مدير الجامعة، ثم كلمة لمعالي محافظ المؤسسة العامة للتعليم الفني الأستاذ محمد بن سليمان الضلعان.

استمر اللقاء ثلاثة أيام (من ١٧-١٩/١١/١٤١٥هـ)، وتزامن معه إقامة معرض للكتاب والوسائل التعليمية والحاسب الآلي.

معرض الفن السعودي المعاصر


الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز

افتتح **صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز** الرئيس العام لرعاية الشباب في النصف الأول من شهر ذي القعدة الماضي المعرض الثاني عشر للفن التشكيلي السعودي المعاصر.

احتوى المعرض أكثر من مائة عمل فني مابين تصوير وعمل زيتي ورسم وفنون تطبيقية، استخدمت في تنفيذها خامات متعددة، وتنتمي لمدارس فنية مختلفة، إلا أن الجامع بينها كونها تعبر عن البيئة السعودية بمفرداتها وتراثها.

من جهة أخرى قام سمو الأمير فيصل بن فهد بتوزيع كأس الرئيس العام لرعاية الشباب ورئيس الجمعية العربية السعودية لبيوت الشباب وجوائز المسابقة الثقافية السنوية السابعة لبيوت الشباب، على الفائزين بها، وذلك في احتفال أقيم بهذا المناسبة في الرياض في مطلع الشهر الماضي.

الفائزون بالمسابقة الدولية لتلاوة القرآن الكريم وتجويده

اختتمت - مؤخرًا - في مكة المكرمة المسابقة الدولية السابعة عشرة لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره.

حل في المركز الأول في فروع المسابقة الخمسة كل من : سيف الرحمن حافظ مراد من باكستان (الفرع الأول: حفظ القرآن كاملاً مع التلاوة والتجويد وتفسير الجزء الرابع عشر منه)، وطاهر إدريس من نيجيريا (الفرع الثاني: حفظ القرآن كاملاً مع التلاوة والتجويد) ووليد عاطف صيام من مصر (الفرع الثالث: حفظ عشرين جزءًا مع التلاوة والتجويد)، وعبدالرحيم محمد العباسي من السعودية (الفرع الرابع: حفظ عشرة أجزاء مع التلاوة والتجويد)، ومحمد السيد أحمد ضيف من مصر (الفرع الخامس: حفظ خمسة أجزاء مع التلاوة وحسن الصوت).

موسوعة عن السرقات الأدبية

بدأت إحدى دور النشر بالرياض في الإعداد لإصدار موسوعة جديدة في نوعها وهي عن السرقات الأدبية.

يشارك في تحرير الموسوعة أدباء ونقاد وكتّاب من أقطار عربية مختلفة، وتهدف إلى تحديد مفهوم دقيق وواضح للسرقة الأدبية، والإسهام في إعادة الحقوق لأصحابها من خلال كشف عمليات السرقة الأدبية في مجال الكتب في مختلف أوجه المعرفة. ولم تكتف الجهة الناشرة بالاستكتاب عن طريق المراسلات، بل لجأت إلى الإعلان التجاري عبر الصحف لضمان أكبر قدر من المشاركة في تحرير الموسوعة التي خصصت لها مكافآت نقدية أعلن عنها على شكل جوائز.

كتب جديدة

الفلسفة الظاهراتية في الاتصال الإنساني: رؤية نقدية، تأليف د. محمد بن سعود البشر، صدر عن دار العاصمة للنشر في الرياض.

أيام في بلاد العم سام، تأليف خليل الفزيع، صدر عن دار أمنية للنشر والتوزيع في الدمام.

الحسبة في الماضي والحاضر، تأليف د. علي بن حسن القرني، صدر عن مكتبة الرشد في الرياض.

الإمارات

ترميم قصر الزبّاء

بدأت - مؤخرا - عملية لترميم أساسات قصر الزبّاء في رأس الخيمة والتنقيب عن الآثار التي يحتويها.

ترجع تسمية القصر إلى الزبّاء الملكة العربية القديمة، وقد كان مستخدمًا قبل أربعمائة عام، ويرجح الآثاريون أنه ربما بُني

على بقايا حصن أقدم، حيث عثر فيه على فخاريات تعود إلى عصر ماقبل الإسلام.

افتتاح توسعة متحف دبي

افتتح نائب حاكم دبي الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم مشروع تجديد متحف دبي وتوسعته، الذي تكلف خمسة وعشرين مليون درهم، وشمل بناء توسعة تحت الأرض، وبناء وترميم قلعة الفهيدي القديمة.

وقامت البلدية بهذه المناسبة بإصدار كتيب إعلامي باللغتين العربية والإنجليزية يقدم لمحة إعلامية عن تاريخ المتحف ومحتوياته، الذي افتتح عام ١٩٧١م.

المؤتمر الثالث لاتحاد المكتبات المتخصصة

استضافت جامعة الإمارات المؤتمر السنوي الثالث لاتحاد المكتبات المتخصصة ـ شعبة الخليج العربي، في منتصف شهر شوال الماضي.

ناقش المؤتمر ٢٤ بحثًا تناولت أساليب نقل الوثائق إلكترونيًا وتبادل البيانات الببليوجرافية، وأسس الانتفاع المشترك بمصادر المعلومات وتقنياتها، وسبل التعاون بين المكتبات، وموضوعات أخرى. كما أقيم على هامش المؤتمر معرض للمنتجات والخدمات الخاصة بالمعلومات، عُرض فيه أحدث ما أنتجته الشركات المتخصصة في هذا المجال.

سلطنة عمان

قطع نقدية أثرية

أدى لعب الأطفال ولهوهم إلى اكتشاف أكثر من مائة قطعة نقدية يعود تاريخها إلى قرن من الزمان وبالتحديد إلى عهد السلطان فيصل بن تركي سلطان عمان ١٨٩٥م.

وكانت مجموعة من الأطفال تلهو بالحَفْرِ بجوار شجرة في قرية سيفم في ولاية سهلا، حين عثر أحدهم على قطعة نقدية، فتواصل الحفر إلى أن تم العثور على مائة قطعة كانت مدفونة في تلك البقعة.

قطر

معرض الكويت بين الماضي والحاضر

نظمت السفارة الكويتية في الدوحة معرضها الثاني للصور تحت عنوان «الكويت بين الماضي والحاضر» بالتعاون مع جامعة قطر خلال الفترة من ١٥ إلى ٢٠ ذي القعدة الماضي.

أبرز المعرض النهضة الحالية للكويت، ومدى التقدم والتطور الحضاري الذي وصلت إليه، وأوضح الجهود التي بذلت لإعادة إعمار مادمره الغزو العراقي، كما عُرضت صور ووثائق للأسرى الكويتيين المعتقلين في العراق.

الكويت

كتب جديدة

الكويت وعلاقاتها الدولية، تأليف جيورجي بوتداريفسكي، ترجمه إلى العربية د. ماهر سلامة، وصدر عن مركز البحوث والدراسات الكويتية.

اللغة والتفسير والتواصل، تأليف د. مصطفى ناصف.

جوته والعالم العربي، تأليف كاترينا مومزن، ترجمه إلى العربية عدنان عباس علي، وراجعه د. عبدالغفار مكاوي.

صدر الكتابان السابقان ضمن سلسلة عالم المعرفة.

مصر

افتتاح مكتبة مبارك العامة ومكتبة دار الأوبرا


الرئيس حسني مبارك

افتتح الرئيس محمد حسني مبارك «مكتبة مبارك العامة» في قصر الطحاوية بالجيزة، التي أقيمت بالتعاون بين وزارة الثقافة ومؤسسة بيرتليسمان الألمانية.

أقيمت المكتبة على مساحة ٣٦٠٠م٢، وتضم ٧٧ ألف مادة ثقافية تشمل كتبًا ومجلات وشرائط فيديو وكاسيت، وينتظر أن ترتفع موجوداتها إلى ١١٠ آلاف مادة، وتكلفت إقامتها قرابة عشرة ملايين جنيه.

وتعد ثالث مكتبة عامة كبرى في مصر بعد دار الكتب القومية ومكتبة القاهرة الكبرى التي افتتحت مؤخرًا.

من ناحية أخرى افتتحت السيدة سوزان قرينة الرئيس مبارك مكتبة دار الأوبرا المصرية التي تعد من أحدث المكتبات العالمية في نوعها، حيث تضم مجموعة من أندر الأسطوانات العربية والعالمية، تم الحصول عليها من كبار المؤرخين والموسيقيين. وألحقت بالمكتبة أماكن مخصصة للسمعيات والبصريات، كما تضم المكتبة الأشرطة التي تم تسجيلها من خلال الصالون الأدبي لدار الأوبرا مع كبار الكُتّاب والفنانين.

شارع المعز متحف مفتوح

تجري حاليا دراسة لمشروع تحويل شارع المعز لدين الله في المنطقة الفاطمية من القاهرة إلى متحف مفتوح.

ويضم هذا الشارع أكثر من ثلاثين أثرًا تتنوع مابين قصور ومساجد ومنازل وأسبلة ترجع إلى عصور إسلامية مختلفة، من أهمها قصر بشتاك وسبيل عبدالرحمن كتخدا ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون.

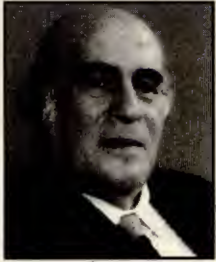
تواجه تنفيذ المشروع مشكلة ازدحام الشارع بالسكان والمحلات التجارية.

مجلة جديدة للأطفال

يصدر في مطلع محرم المقبل ١٤١٦هـ العدد الأول من أحدث مجلة للأطفال تحمل اسم «قطر الندى».

تصدر المجلة عن هيئة قصور الثقافة، وتتوجه إلى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٤ ـ ١٥ عامًا، ويشارك الأطفال في تحريرها. يرأس تحرير المجلة حسين مهران والسينارست محمد السيد عيد، ويدير التحرير الشاعر أحمد زرزور.

جوائز مصطفى وعلي أمين


مصطفى أمين

وزعت ـ مؤخرًا ـ جوائز جمعية مصطفى أمين وعلي أمين الصحافية. حيث منح مبلغ خمسة آلاف جنيه لكل من: اسم الصحافي الراحل عبدالسلام داود، وفاروق لقمان مدير معهد تدريب الصحفيين بالشركة السعودية للأبحاث والتسويق، وأحمد الجندي نائب رئيس تحرير جريدة «الأخبار»، وجورج إبراهيم الخوري رئيس تحرير مجلة «الشبكة»، وحسنية

محاضرات وندوات

«بين أعلام البيان والنابغة مي»، عنوان محاضرة ألقتها الأديبة سلمى لطفي الكزبري في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض.

حول ديوان الشاعر ناجي شعيب «الطمي والبيوت العالية»، أقيمت في أتيليه القاهرة ندوة شارك فيها عدد من الشعراء وأدارها د. مدحت الجيار.

تجربتي مع سلسلة «كتابي»، موضوع ندوة نظمها مركز الدراسات اللغوية والأدبية المقارنة بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تحدث فيها منشئ السلسلة د. حلمي مراد.

«بعض الظواهر الجيولوجية في الخليج العربي»، عنوان محاضرة ألقاها في مقر السفارة الكويتية في بريطانيا مايكل رايس.

«مسيرة السلام إلى أين؟»، عنوان محاضرة ألقاها في المجمع الثقافي بأبو ظبي فيصل الحسيني.

«التكوين الفني للأديب العربي المعاصر»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي القصيم الأدبي ببريدة د. مصطفى الشكعة.

استضافت مجلة «الكاتبة»، في لندن الروائي إدوار الخراط ليحاضر عن تجربته الأدبية وموقع المرأة فيها، ورؤيته للمؤنث في الثقافة والإبداع، قدمت الأمسية هاديا سعيد.

عبدالجواد من جريدة «الأخبار»، ونوال مصطفى من جريدة «الأخبار»، وإلهام أبو الفتح من «جريدة الأخبار»، وسعيد عبدالخالق نائب رئيس تحرير جريدة «الوفد»، ومحمود معوض من جريدة «الأهرام»، وكريمة كمال من مجلة «كل الناس»، والفنان محمد توفيق.

كما نال أوائل أقسام الصحافة والإعلام بالجامعات المصرية والكويتية والسودانية مبلغ ألف جنية لكل واحد منهم.

مؤتمر الإسكندر الأكبر

يقام مؤتمر الإسكندرية الدولي الثاني تحت شعار «الإسكندر الأكبر والإسكندرية» خلال الفترة من ١٥ إلى ١٩ يناير ١٩٩٦م بمناسبة مرور ٢٣ قرنًا على تأسيس مدينة الإسكندرية.

تدور مناقشات المؤتمر حول تسعة محاور رئيسية، أبرزها لغز مقبرة الإسكندر، وسكان المدينة القديمة، وتاريخها في العصور القديمة، ومكتبتها ومنارتها، والدور الحضاري الذي قامت به بين بلدان البحر المتوسط.

الإبداع القصصي لدى المرأة

نظمت لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة - مؤخرًا - مؤتمرًا عن «الإبداع القصصي لدى المرأة» استمر يومين، وشارك فيه مجموعة من النقاد من بينهم: د. لطيفة الزيات ومحمود أمين العالم وفريدة النقاش ود. نصر أبو زيد ويوسف الشاروني، ود. رضوى عاشور وإبراهيم فتحي و د. أمينة رشيد.

ناقش المؤتمر موضوعات حول إسهامات المرأة في الفن القصصي وظاهرة الإبداع النسائي، إلى جانب شهادات لبعض الكاتبات.

انتشال منارة الإسكندرية في الخريف

يقوم فريق مصري - فرنسي من الغطاسين المتخصصين في انتشال الآثار بعملية استكشاف تحت الماء لتحديد موقع بقايا منارة الإسكندرية والمعابد والقصور التي كانت قائمة بالقرب منها، تمهيدًا للبدء في عملية انتشالها في الخريف المقبل.

وكان أحد الغطاسين الهواة قد اكتشف بقايا المنارة عام ١٩٦١م، بعد ستة قرون من اختفائها، إلا أن عملية انتشالها أهملت حتى تجددت منذ وقت قريب.

«أهمية الصلاة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع ابن فريج بمدينة عفيف الشيخ صالح بن غانم السدلان.

«الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية»، عنوان ندوة نظمتها كلية الآداب بجامعة الكويت شارك فيها الدكتوران: محمود إبراهيم حسن وسليمان سعدون البدر.

«ثوابت في الأدب العربي الحديث»، عنوان ندوة أقيمت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تحدث خلالها د. مصطفى بدوي.

«تطور الحياة الثقافية في الإمارات»، عنوان محاضرة ألقاها في كلية الشرطة بدبي د. سعيد عبدالله حارب.

«الآثار المصرية: تاريخها وجهود صيانتها»، عنوان محاضرة ألقاها في مقر منظمة اليونسكو في باريس د. عبدالحليم نور الدين.

«دراسة في الفنون الإسلامية في أوروبا»، عنوان محاضرة ألقاها د. شربل داغر في المركز الثقافي الإسلامي في بيروت.

«التحدي الإعلامي للعالم الثالث»، عنوان محاضرة ألقاها في نادي المنطقة الشرقية الأدبي بالدمام د. عائض الردادي.

«جنوب لبنان: نظرة في ماضيه وحاضره»، عنوان محاضرة ألقاها في جامعة أوتاوا بكندا محمد علي فرحات.

«تطور التعبير الحركي وعلاقته بالمسرح»، عنوان محاضرة ألقاها في رابطة الأدباء بالكويت د. حسن خليل.

متحف طوابع البريد العربية


د. عصمت عبد المجيد

افتتح الأمين العام لجامعة الدول العربية د. عصمت عبدالمجيد متحف طوابع بريد الجامعة بمناسبة الاحتفال بيوبيلها الذهبي.

ضم المتحف طوابع تذكارية لجميع الدول الأعضاء تعكس مراحل تطور كل دولة، إضافة إلى طوابع تذكارية لبعض منظمات العمل العربي المشترك ومؤسساته، و ٥٣ ألف طابع بريدي من مختلف أنحاء الوطن العربي.

كتب جديدة

الشرق الأوسط، تأليف علاء عبدالوهاب، صدر عن دار سينا للنشر.

الحروب الصليبية، الجزء الرابع، تأليف وليم الصوري، ترجمه إلى العربية حسن حبشي، وصدر ضمن سلسلة «تاريخ المصريين» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الأساطير والميثولوجيات السياسية، تأليف راؤول جيرارديه، ترجمه إلى العربية خليل كلفت، وصدر عن دار الفكر للدراسات والنشر بالاشتراك مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة.

طعم الحريق، رواية لمحمود الورداني، صدرت ضمن سلسلة روايات الهلال عن مؤسسة دار الهلال.

ترميم وصيانة آثار مصر الإسلامية، تأليف جير باشاراش، مراجعة أمينة خيري، صدر عن دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة.

فراش البحر، مختارات من الشعر الصيني ترجمها إلى العربية بدر توفيق

موسيقا التكوين، ديوان للشاعر الراحل خالد عبدالمنعم.

صدر الكتابان السابقان عن هيئة قصور الثقافة.

دراسات في تعدي النص، تأليف وليد الخشاب، صدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

لبنان

المعرض السنوي للجامعة الأمريكية

نظمت الجامعة الأمريكية في بيروت معرضها السنوي الجماعي في مطلع شهر ذي القعدة الماضي تحت عنوان «اللوحة التجريدية في الفن اللبناني».

ضم المعرض ٥٦ عملاً فنيًا قدمها ٥٦ فنانًا يمثلون مختلف الأجيال والاتجاهات الفنية، من أبرزهم الراحل صليبا الدويهي، وسامية عسيران جنبلاط، ومحمد شمس الدين، وأمل داغر.

مجلة نسائية

صدر - مؤخرًا - في بيروت العدد الأول من المجلة الشهرية النسائية الجديدة «مجلتي».

ترأس تحرير «مجلتي» مريم شقير أبو جودة، وهي تهتم بالموضوعات الاجتماعية والفنية المتنوعة، وتولي اهتماما لشؤون المرأة العربية.

كتب جديدة

الاغتراب عند أريك فروم، تأليف حسن محمد حسن حماد، صدر عن المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر في بيروت.

الربابة في حياة البادية، تأليف ياسين صويلح، صدر عن دار الحصاد للنشر.

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، تأليف د. عبدالعزيز الدوري.

التنمية البشرية في الوطن العربي، بحوث ألقيت في ندوة فكرية نظمتها الأمانة العامة للجامعة العربية.

صدر الكتابان السابقان عن مركز دراسات الوحدة العربية.

حركة الترجمة الفلسطينية، تأليف د. حسام الخطيب، صدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وطن وعسكر، تأليف مطيع السمان، صدر عن دار بيان للنشر والتوزيع.

الجمر الغافي، رواية لأميلي نصرالله، صدرت عن منشورات نوفل.

وعد التوراه: من إبرام إلى هرتزل، تأليف موسى مطلق إبراهيم، صدر عن دار بيسان.

الأردن

مجلة «الجديد»

صدرت - مؤخراً - عن دار الشروق في عمان مجلة فصلية ثقافية فكرية تحمل اسم «الجديد».

تختص المجلة بعالم الكتب والمكتبات ومايتعلق بها من شؤون الطباعة وتقنيتها، ويرأس تحريرها فتحي البسي.

وفاة جمعة حماد

توفي - مؤخراً - الكاتب والمفكر جمعة حماد، وزير الثقافة الأردني الأسبق ومؤسس صحف «الدستور» و«الرأي» في الأردن و«المنار» في القدس.

كان حماد زعيماً لقبائل سيناء وجنوب فلسطين، ويعدّ أحد الذين أسهموا في تشكيل الرأي العام الأردني الفلسطيني .

سورية

أيام ثقافية جزائرية

استضافت دمشق مهرجاناً عن المجاهد الأمير عبدالقادر الجزائري، أقيم في مطلع شهر ذي القعدة الماضي تحت عنوان «أيام الثقافة الجزائرية» واستمر ثمانية أيام.

تضمن المهرجان معرضاً عن الثورة الجزائرية، وبعض آثار الأمير عبدالقادر ومقتنياته، ومعارض للكتب والفنون التشكيلية والفنون التقليدية، والحلي والملبوسات، إضافة إلى محاضرات ثقافية وأمسيات شعرية وقصصية وسينمائية.

كتب جديدة

العرب بين الأيديولوجيا والتاريخ، تأليف أحمد برقاوي، صدر عن دار الأهالي في دمشق.

المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تأليف محمد بن أبي سرور البكري الصديقي، تحقيق ليلى صباغ.

فصيحات العرب وبليغاتهم في الجاهلية والإسلام (النثر)، تأليف عبدالقادر فياض حرفوش.

صدر الكتابان السابقان عن دار البشائر.

محاضرات في الوعي القومي الديموقراطي، تأليف توفيق المديني، صدر عن دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع.

المغرب

ندوة عن تاريخ المجال والسكان

نظمت مؤسسة الملك عبدالعزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالتعاون مع مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان في المغرب الإسلامي، ندوة حول موضوع «جوانب من تاريخ المجال والسكان في المغرب»، خلال يومي ٧ و ٨ ذي القعدة الماضي (٧ - ٨ أبريل ١٩٩٥م).

تطرقت الندوة إلى تاريخ المجال والتغييرات البيئية في المغرب خلال العصور التاريخية، وتعمير البوادي، وقضايا المصادر والمنهج في دراسة السكان فيما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين، ومحاولة رصد بعض القبائل الزناتية، والتحركات البشرية في المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر، وإسهام علماء الآثار في التعمير والإخلاء بمغرب العصر الوسيط، وموضوعات أخرى.

جائزة الحسن الثاني الأدبية


الملك الحسن الثاني

تدرس الجهات المختصة حالياً فكرة إنشاء جائزة أدبية للأعمال العربية المتميزة في مختلف مجالات الإبداع.

ينتظر أن تحمل الجائزة اسم «جائزة الحسن الثاني الأدبية» وتمنح للمبدعين العرب من مختلف الأقطار.

«مواسم»

صدر - مؤخراً - العدد الأول من أحدث مجلة فصلية مغربية تحت مسمى «مواسم»، يقف وراء إصدارها الشاعر أحمد الطريق.

اشتمل العدد الأول على إبداعات شعرية وقصصية، ودراسات أدبية ونقدية ومسرحية،

ونصوص ومختارات ووثائق.

معرض دولي للاختراع

يقام المعرض الدولي الأول للاختراع والتجديد في الدار البيضاء خلال الفترة من ١٠ إلى ١٤ محرم المقبل ١٤١٦هـ (٨-١٢ يونية ١٩٩٥م) تحت شعار «المغرب والاختراع سنة ١٩٩٥م».

تنظم المعرضَ المنظمةُ العالمية للملكية الثقافية (OMPI)، ويشارك في أعماله منظمات ومعاهد دولية ومخترعون من قارات العالم المختلفة، وتمنح خلاله عدة جوائز منها الجائزة الأولى لأحسن اختراع، وتحمل اسم «جائزة الملك الحسن الثاني»، إضافة إلى جوائز من المنظمة العالمية للملكية الثقافية، والمنظمة الدولية للصحافة الدورية (OMPP) والفيدرالية الدولية لجمعية المخترعين (IFIA).

يهدف المعرض إلى الإسهام في تنمية روح الاختراع والابتكار وتعزيز الاتصالات واللقاءات بين المخترعين والمؤسسات المعنية بالاختراع.

كتب جديدة

الترجمة الإنجليزية العربية، والعربية - الإنجليزية، دليل لغوي مدرسي وضعه باسم حاتم، صدر عن مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة التابعة لجامعة عبدالله السعدي.

الإسلام والحجاب بين عصر الحريم وتحديات العصر، تأليف خديجة صبار، صدر عن دار أفريقيا الجديدة.

تونس

مهرجان ربيع الفنون الثقافي

أقيم - مؤخرًا - في القيروان مهرجان ربيع الفنون الثقافي بمشاركة مجموعة من الشعراء والفنانين العرب والفرنسيين.

ضم المهرجان أمسيات شعرية عربية وفرنسية، وموشحات أندلسية من مدينة فاس، وعروضا مسرحية وموسيقية.

البوسنة

مهرجان ثقافي

نظمت الهيئة العليا السعودية لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة والهرسك مهرجانًا ثقافيًا تضمن مسابقات في مجالات الشعر والقصة والرواية، شارك فيه عدد كبير من أدباء البوسنة وكتابها.

هدف المهرجان إلى توسيع دائرة العمل الإغاثي من إطار المساعدات المالية إلى إطار العمل الفكري، وربط المهاجرين والشعب البوسني بعامة بتراثه الفكري الإسلامي، وايجاد نواة نشاطات فكرية ذات ملامح إسلامية.

رسائل جامعية

«مدى فاعلية طريقة التعلم بالاستقصاء الموجّه على التحصيل الدراسي لتلاميذ المرحلة الثانوية في مقرر الأحياء الدقيقة (حيا ٥) مقارنة بطريقة الإلقاء الشائعة في التعليم العام» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية التربية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة، تقدم بها صلاح يحيى هود عبدالجليل.

«التوازن الاستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط والدور المصري بعد أزمة الخليج»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في أكاديمية ناصر العسكرية العليا في القاهرة، تقدم بها اللواء مصطفى كامل محمد السيد.

«مشكلات الترجمة الإنجليزية للتعبيرات الاستعمارية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها عزة مازن.

«النظام القانوني للأنهار الدولية، نظرية تطبيقية على أهم أنهار الشرق الأوسط»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في جامعة الزقازيق، تقدم بها الرائد شرطة منصور أحمد العادلي.

«زراعة الأعضاء من الوجهة الطبية الشرعية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الطب بجامعة القاهرة، تقدمت بها الطبيبة حنان صلاح الدين المحلاوي.

«نظام مقترح للمعلومات ودعم القرارات لخدمة نشاطات حماية البيئة على المستوى القومي»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية التجارة بجامعة قناة السويس، تقدم بها ياسر حسين كاظم.

الصين

أول مسابقة لتلاوة القرآن

فاز محمد توهتي، وهو صائغ من منطقة شينجيانج يبلغ من العمر ٤٦ عامًا بالجائزة الأولى في أول مسابقة لتلاوة القرآن الكريم تقام في الصين.

شارك في المسابقة التي عقدت في بكين ٣٤ متسابقًا ونظمتها الجمعية الإسلامية الصينية.

وفاة زيا بان

فقدت الحركة الأدبية والثقافية الصينية واحدًا من رموزها بوفاة الروائي والناقد والسيناريست زيا بان عن عمر يناهز ٩٥ عامًا.

ولد زيا بان في إقليم زيجيانغ عام ١٩٠٠م، وأنشأ عام ١٩٣٠م مجلة «آرت»، واتجه منذ عام ١٩٣٢م إلى كتابة المسرحيات الوطنية وإعداد السيناريو.

اليابان

معرض الحياة الإنسانية

تستضيف مدينة ماتسيو غربي اليابان معرضًا بعنوان «الحياة الإنسانية على كوكب الأرض» خلال الفترة من ٨ إلى ١١ ديسمبر المقبل ١٩٩٥م.

يضم المعرض نماذج لأبرز المشروعات البيئية والتنموية والصناعية في العالم.

إسبانيا

أسبوع ثقافي قطري

اختتم في مدريد أسبوع ثقافي قطري نظمه نادي الجسرة الثقافي الاجتماعي، واستمر خلال الفترة من ٢٦ شوال إلى الرابع من ذي القعدة الماضي.

عُني الأسبوع بنقل صورة حية عن قطر قديمًا وحديثًا في مختلف مجالات الحياة، وتضمن عدة معارض تراثية وتشكيلية وفوتوجرافية.

الولايات المتحدة

مركز للتفاهم الإسلامي المسيحي

افتتح مركز للتفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة جورج تاون بواشنطن في جناح أطلق عليه اسم «جناح حسيب صباغ» تكريمًا للسيد حسيب صباغ الذي أسهم في إنشاء المركز.

يهدف المركز إلى تحقيق تفاعل بين الديانتين بما يخدم الحوار بين الشعوب والحضارات، ويؤكد على رسالة الإسلام السامية، بغية تصحيح الصورة المغلوطة عنه في أذهان الغرب.

وفاة أشهر ناشر

توفي - مؤخرًا - الكاتب والناشر أيان بالانتاين، مؤسس دور نشر: «بالانتاين» و«بنجوين» و«بانتام» عن عمر يناهز ٧٩ عامًا.

بدأت رحلة بالانتاين في النشر عام

«الأحكام الفقهية المتعلقة بالمكان في غير العبادات»، عنوان رسالة دكتوراه نوقشت في قسم الفقه بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، تقدم بها عبدالكريم بن يوسف الخضر.

«هجرة العمالة المصرية»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تقدمت بها جميلة مطر.

«اللهجة الدارجة في الرياض: دراسة قائمة على الرسوم الكاريكاتيرية لدى الفنان إبراهيم الوهيبي» موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية العلوم الإنسانية بجامعة فيينا، تقدمت بها بريجيت مورث جيكانك.

«عالم المثال بين الغزالي والسهروردي وابن عربي»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة القاهرة، تقدمت بها هالة فؤاد.

«العمارة الدينية في طرابلس في العصر العثماني الأول»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآثار بجامعة القاهرة، تقدم بها صلاح بهنسي.

١٩٣٩م، حيث قدم للقارئ الأمريكي أول طبعة من الكتب ذات الأغلفة الورقية الخفيفة، واستمرت جهوده في هذا المجال قرابة نصف القرن من خلال دور النشر الثلاث التي أسسها، ونشرت لكبار الأدباء والمفكرين في العالم.

أحدث الكتب

مشاهدة الأرض (أول أطلس من نوعه يصور من الفضاء)، تأليف فريدريك أنجل وبريشيلا سترايبن، صدر عن مؤسسة سميثسونيان.

المياه في العالم العربي، تأليف بيتر روجرز، وبيتر ليدون، صدر عن مطبعة جامعة هارفرد.

بريطانيا

جائزة التأليف المسرحي لطفلة سعودية

منح مسرح يونيكورن الطفلة السعودية عديلة باسرور جائزة التأليف المسرحي عن مسرحيتها «أناس مسافرون».

والطفلة الفائزة تلميذة بالمرحلة الابتدائية بمدينة جدة، وقد تفوقت بمسرحيتها على مائة مؤلف ومؤلفة من الصغار تتراوح أعمارهم بين أربعة أعوام و ١٢عامًا شاركوا في المسابقة التي دخلت عامها السادس هذا العام.

الفائزون بجائزة النقاد

أعلنت مؤسسة النقاد والكتب القديمة عن أسماء الفائزين بجوائزها في مجالات الرواية والشعر والأعمال الروائية.

منحت جائزة الرواية للأديبة كارول شيلدز عن روايتها «مذكرات جريئة»، ونال جائزة الشعر مارك رودمان عن ديوانه «الفارس»، وذهبت جائزة الأعمال غير الروائية إلى لين ينكولاس.

وفاة جيمس هاريوت

توفي - مؤخراً - الروائي البريطاني جيمس هاريوت إثر إصابته بالسرطان عن عمر يناهز ٧٩عامًا.

وُلد هاريوت في مقاطعة جلاسجو عام ١٩١٦م، وتخرج في جامعتها عام ١٩٤٠م، وبرع في نسج القصص على ألسنة الحيوانات، مقدمًا عالمًا من الخيال يسمح له بالتعبير عن أفكاره بحريّة ووضوح، ومن أشهر أعماله في هذا المجال روايته «كل المخلوقات» التي صدرت عام ١٩٧٢م.

أحدث الكتب

صنع في أمريكا، تأليف بيل برايسون، صدر عن دار نشر هيدلاين في لندن.

أرض النخيل، (انطباعات رحالة عن منطقة الخليج العربي في مطلع القرن الميلادي العشرين) تأليف كورستجي. م. . كورستجي، صدر عن دار جارنيت.

الأدب الشعبي العراقي، تأليف ماجد شبر، صدر عن دار نشر كوفان.

الجغرافيا السياسية الجديدة لآسيا الوسطى، تأليف علي بنو عزيزي ومايرون وينر، صدر عن دار أي. بي. توريس.

فرنسا

افتتاح المكتبة الوطنية

افتتح الرئيس فرانسوا ميتران - مؤخراً - «مكتبة فرنسا الوطنية» في باريس، التي تعد أكبر مشروع ثقافي تشهده أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.

تكلف مشروع المكتبة قرابة ثمانية مليارات فرنك فرنسي، وتطلب جهد سبع سنوات من أجل تحقيقه، وجند ١٦٠٠ عامل لإتمامه بسرعة فائقة قبل نهاية ولاية الرئيس ميتران.

وتتكون المكتبة من أربعة أبراج، يرتفع كل منها ثمانية أمتار تحوطها حديقة مستطيلة الشكل مساحتها ١٢ألف متر مربع، وفي كل برج ١٨ طابقًا، سبعة منها للمكاتب، والباقي لتخزين الكتب.

وينتظر أن تقام مع مطلع العام الميلادي الجديد مجموعة من ورش العمل لنقل ١٢ مليون كتاب و ٣٥٠ ألف دورية إلى المكتبة، ولإنجاز نظام معلوماتي ضخم يضم فهرسًا به ما لايقل عن ثمانية ملايين مدخل.

معرض عن مدينة قرطاج

يقام حاليا في باريس معرض عن تاريخ مدينة قرطاج التونسية يستمر حتى الرابع من شهر صفر ١٤١٦هـ (٢ يوليو ١٩٩٥م).

يلقي المعرض ضوءًا على تاريخ قرطاج منذ إنشائها عام ٨١٤ قبل الميلاد إلى أن دمرها الرومان عام ٦٩٨م، من خلال مجموعة لوحات تصور المدينة وحضارتها، والحروب التي نشبت على أرضها، إضافة إلى التماثيل البرونزية التي

الحركة الثقافية في شهر

كانت تغطي جدرانها.

جائزة ميموني لكاتب إسباني

تسلم الكاتب الإسباني خوان جويتيسولو جائزة رشيد ميموني التي يمنحها كل عام معرض الكتاب في مدينة فيلنوف سورلوت.

وتمنح الجائزة دوريًا لأحد الكتاب الذين يدافعون عن الحريات العامة في الجزائر.

للمرة الثانية: جائزة فيمينا لسمبرون

منح الكاتب الإسباني خورخي سمبرون جائزة فيمينا دوكاريسكو لعام ١٩٩٥م عن كتابه «الكتابة أو الحياة».

والكتاب الفائز عبارة عن سيرة ذاتية لسمبرون تروي تجربته بوصفه هاربًا من معسكرات الاعتقال إبان الحرب العالمية الثانية، وقد سبق لسمبرون - وهو وزير ثقافة أسبق - أن نال جائزة فيمينا عام ١٩٦٩م عن روايته «الموت الثاني لرامون مركادير».

كما منحت الجائزة في مجال الرواية - للمرة الأولى - للروائي كلود أرنو عن روايته «الحرباء».

أحدث الكتب

التفكير في الحرية: الحكم والصدفة والوضع، تأليف ميجويل بناسياج، صدر عن دار لاديكوفيرت في باريس.

الأيام الثلاثة الأخيرة لفرناندو بيسوا (سيرة خيالية للشاعر البرتغالي الراحل) تأليف أنطونيو تابوكي، صدر عن دار نشر سوي.

البطة، رواية للكاتب التشيكي مولان كونديرا، صدرت عن دار نشر جاليمار.

خيانة التنوير، تأليف جين كلود هوليبورد، صدر عن دار سويل.

السجن رقم خمسة، تأليف مهدي زانا، صدر عن دار آرليا.

ألمانيا

معرض لايبزج للكتاب

أقيم - مؤخرًا - معرض لايبزج الدولي للكتاب بمشاركة ١٣٠٠ دار نشر تنتمي إلى ٢٦ دولة من أنحاء العالم بينها عدة دول عربية.

تركز الاهتمام هذا العام على الكتب التي تناولت تاريخ ألمانيا وأوربا، وآدابهما الحديثة المعاصرة، وسلطت الأضواء - بصفة خاصة - على أدب التشيك وأدبائها وفي مقدمتهم فرانز كافكا، وأعلن عن منح الأديب المجري بيتر نادواس جائزة المعرض التي تحمل اسم «جائزة التفاهم الأوروبي».

معرض برلين ١٩٤٥م

أقيم في مدينة برلين بمناسبة مرور نصف قرن على انتهاء الحرب العالمية الثانية معرض بعنوان «برلين عام ١٩٤٥م»، افتتح في مطلع شهر ذي القعدة الماضي، ويستمر حتى ربيع الأول ١٤١٦هـ.

ضم المعرض صورًا تاريخية ووثائقية عن الحرب، إضافة إلى عدة معارض نظمتها متاحف المدينة، ومجموعة من الندوات حول الحرب وأهوالها ونتائجها.

وفاة دراخ

توفي - مؤخرًا - الأديب النمساوي ألبرت دراخ عن عمرناهز ٩٢ عامًا.

ودراخ أحد الأدباء الذين أثروا الأدب الألماني بنتاجهم، وقد بدأ الكتابة في سن مبكرة، وبرّز في مجال القصة والرواية، ونال جائزة «كلايست الأدبية» في سن الثلاثين، ومارس المحاماة إلى جانب العمل الأدبي، وكافح الحكم النازي، وحصل عام ١٩٨٨م على جائزة بوشنر، كم أن له العديد من المؤلفات من أبرزها «المخالفة الكبيرة ضد شجرة الدراق» و«رحلة غير عاطفية».

روسيا

معرض تشكيلي للوحات نادرة

عرض متحف الأرميتاج في سان بطرسبرج ٧٤ لوحة نادرة لكبار فناني أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي، كان يعتقد أنها فقدت خلال الحرب العالمية الثانية.

ضمت المعروضات أعمالا لرينوار وبيسارد ومانيه وجوجان وديجا وفان جوخ وغيرهم، ويستمر عرض هذه الكنوز الفنية حتى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر المقبل ١٩٩٥م. وقد تسبب عرضها في أزمة بين ألمانيا وروسيا، حيث تطالب الأولى بهذه اللوحات التي نقلها الجيش الروسي من ألمانيا خلال الحرب مع الغنائم التي حملها.

شجون

شعر:
د. محمود النجار عبدالحليم

مابال حبك قد أثار شجوني | فظللت بين جوى وبين حنين
وشكيت حتى قد مللتُ شكايتي | وبكيت حتى جف دمعُ عيوني
يغشاني الليلُ البهيم فأنطوي | فيه وقد ناجاك وحيُ فنوني
ناجاك بالشعر الذي من أدمعي | ودمي معانيه وسُهْدُ جفوني
فتبيني فيه الشجون وحاذري | أن تحسبي في الشعر كل شجوني
فلكم هنالك للشجون بقية | غابت بقلب المولع المفتون
غابت ولكني أحس لهيبها | في كل نوبةِ لوعة تغزوني
لاتحسبي أن الشقي بحبه | أوفيك خامرت الشكوك يقيني
لكنه فرط الغرام هو الذي | أبداً يثير هواجسي وظنوني

ياصاحبي غني

شعر:
مجتبى محمد المختار

يامدحةً ماأراد قائلها العبـ | ـاس إلا أن يظهر الألَقُ
نور يضيء الوجود حين يعمّ | الناس زيغ ويكثر الرهق
ذاك رسول الهدى محمد قد | أرسله الله فانجلى الغسق
أكرم بِهَدْيٍ أتاه وأتبعه | فهو صدوق وصدقه خُلُقُ
من كان من هديه على ثقةٍ | فالخير يرتاد كل من وثِقوا
إنْ قومُهُ قدما كذبوا وعموا | فهؤلاء التابعُ استبقوا
من مكة الأزهرين منبعُهُ | وفي جميع البلاد يندفق
ياصاحبي غنِّي بحر منسرحٍ | من خير ماأهلُ بيته نسقوا:
(من قبلها طبت في الظلال وفي | مستودع حيث يُخصَفُ الورق) (١)
(تُنقلُ من صالبٍ إلى رحمٍ | إذا مضى عالم بدا طبق)
(وأنت لما وُلدت أشرقت الأ | رض وضاءت بنورك الأفُقُ)
(فنحن في ذلك الضياء وفي النـ | ـور وسُبلِ الرشاد نخترق)

(١) الأبيات بين الأقواس من مدحة للعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

مأزق القيم

يشتمل الكتاب على ٣٣ مقالة تمثل وقفات المؤلف ورؤيته، ومعالجاته لأزمة الاحتلال العراقي لدولة الكويت. وقد كتب المؤلف مقالاته على فترات خلال عام ١٩٩٠م في زاوية «حروف وأفكار» بصحيفة الرياض السعودية، باسمه المستعار «مسلم بن عبدالله المسلم»، وهو الاسم الذي يذيِّل به مشاركاته الصحفية والأدبية والسياسية وغيرها منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا.

تنحو مقالات الكتاب مناح فكرية وتحليلية وتاريخية، يناقش المؤلف من خلالها واقع الأمة العربية ومستقبلها، ويقدم تفسيرات مؤسسة عن بواعث الأزمة، والأسباب التي أدت إلى تطورها، وبلوغها نقطة اللاعودة. وفي ذلك يقول المؤلف: «قضية الكويت - بكل المقاييس - كانت امتحانًا للإرادة العربية، واختبارًا للضمير المسلم. وقد نجح في التعامل مع هذه القضية قوم وسقط آخرون، الذين نجحوا إزاء المحنة يمثلون صورة الحياة المشرقة الأصيلة، والنظرة الى الواقع في إطاره الصحيح. والذين سقطوا في الامتحان يمثلون الحياة الوقتية العارضة فلم يضعوا في حسابهم أي اعتبار للحسابات الأخرى، وارتضوا لأنفسهم شق الصف وتمزيق وحدة العرب وتفريق كلمتهم، والاجهاز على سمعتهم».

«مأزق القيم» عنوان يعبر عن مضامين معظم مقالات الكتاب، وهذه العبارة ذات الدلالات تتخذ أبعادها في الآراء التي يصنف فيها مواقف الأطراف المختلفة: «وقد كانت هذه الأمة - بحكم العقيدة التي تربطها، والوشائج التي تستمدها - أقوى صلة وأشد تماسكا وأمس رحمًا بين بعضها بعضا، إذا اشتكى منها عضو تداعت له سائر الأعضاء، فما بال الوضع انقلب والصورة انتكست؟ ومن يتحمل مسؤولية هذه النكسة وعاقبة هذا التمزق؟ لاشك أن الذي يتحمل تلك المسؤولية التاريخية هو الفريق الذي قام بإشعال أحداث المحنة الخليجية والفريق المناصر له، الذي انحاز إليه، فقد مزقت هذه المحنة أواصر الأمة وزرعت الشقاق، ولاتزال النار تحت الرماد ويوشك أن يكون لها ضرام، ولكن سيطفئها الله كما أطفأها من قبل».

يقع الكتاب في ١٧٤ صفحة من القطع المتوسط. وهو الإصدار الثالث عشر من سلسلة «كتاب الرياض» التي تصدرها مؤسسة اليمامة الصحفية

النظرية التكاملية في تدريس اللغات

يقدم مؤلف الكتاب الكندي هكتر هامرلي نظرية في تدريس اللغات تقوم على عدد من الأفكار، أهمها: أنه ينبغي لبرنامج تدريس اللغة الأجنبية أن يحقق ثلاث كفايات: الكفاية اللغوية، والكفاية الاتصالية، والكفاية الثقافية، ويجب أن يبدأ برنامج التعليم بالكفاية اللغوية، تليها الكفاية الاتصالية، ثم الكفاية الثقافية.

كما ينبغي تأكيد التكامل بين الكفايات الثلاث، بصورة متدرجة. ويرى المؤلف أن هناك فروقًا جوهرية بين تعلم اللغة الثانية واكتساب اللغة الأم، ويؤكد الفروق بين أساليب تعليمها.

يقول مترجم الكتاب د. راشد بن عبدالرحمن الدويش من جامعة الملك سعود، الرياض إنه اختار كتاب هامرلي لتقديمه إلى المكتبة العربية «نظرًا لاحتوائه على معلومات قيمة، ولما لدى مؤلفه من تجربة واسعة في مجال تعليم اللغات، ومساهمات علمية أهلته لطرح «نظريته التكاملية». ويرى المترجم أن من بين مايمتاز به كتاب هامرلي، ويجعله جديرًا بالقراءة المتبصرة، وخاصة من قبل مدرسي اللغات الأجنبية، أنه يطرح على بساط البحث والمناقشة معظم مجالات الخلاف وأهم وجهات النظر في ميدان تدريس اللغات، ويتسم طرح المؤلف بأنه ليس مجرد سرد لأوجه الخلاف، بل جاء مقرونًا بمقترحات تقدم حلولاً في تدريس اللغات».

يقع الكتاب في ٢٩١ صفحة من القطع الكبير، وقد عالج المؤلف موضوع الكتاب في أحد عشر فصلاً، وثلاثة ملاحق.

المنجم في المعجم

هو المعجم الذي قام بتأليفه الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، ويضم تعريفًا بالشيوخ الذين أخذ عنهم العلم بمختلف ضروبه؛ من قرآن، وحديث، وفقه، ولغة. وغير ذلك. وقد بلغ عدد الشيوخ المذكورين في الكتاب مائة وخمسة وتسعين شيخًا، منهم اثنتان وأربعون امرأة.

وقام بتحقيق الكتاب إبراهيم باجس عبدالمجيد، معتمداً على نسختين خطيتين، إحداهما مسودة المصنف، وقدم له بذكر ترجمة المؤلف، ودراسة موسعة للكتاب مبينًا منهج المؤلف فيه، ومصادره التي اعتمدها في ترجمته لشيوخه. وفي تحقيقه للكتاب ذكر المحقق مصادر ترجمة الشيوخ الذين أوردهم السيوطي. كما قام بتخريج النصوص الواردة، من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأشعار، والتعليق على بعض المواضع المهمة من الكتاب، وبيان رأيه فيها، ثم أتبعه بفهارس شاملة تسهل الاستفادة منه.

الكتاب من إصدار دار ابن حزم في بيروت عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ويقع في ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط.

«سجن العمر» بالإنجليزية

عن مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة صدرت الترجمة الإنجليزية التي قام بها المستعرب بيير كابكا الأمريكي الجنسية لكتاب «سجن العمر» للأديب الراحل توفيق الحكيم. وفي مقدمة الكتاب يقول المترجم للقارئ بالإنجليزية: هذا الإصدار هو جزء من السيرة الذاتية الإبداعية لتوفيق الحكيم التي كتبها بأسلوب شائق بسيط ومباشر ومفعم بالفرح الذي عرف به الحكيم وجدد فيه.

والكتاب يغطي الفترة الأولى من حياة توفيق الحكيم في منتصف الثلاثينيات، ويعكس محاولة الكاتب فهم ذاته من خلال علاقاته العائلية. كما يلقي ظلاله على طبيعة العلاقة بين أبناء الأسرة الواحدة، ويرسم صورة للحياة الاجتماعية في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، وإن كانت أكثر الأمور تشويقا في (سجن العمر) هي ذكريات الكاتب ومشاهداته عن المسرح المصري في سنوات العشرينيات والثلاثينيات. وبذلك يمكن أن يعد هذا الكتاب مرجعا لكل من يريد أن يغطي تاريخ الأدب العربي في تلك الفترة.

مترجم الكتاب بيير كابكا أستاذ للغات الشرق الأوسط وثقافاته بجامعة كولومبيا، و صاحب العديد من الدراسات في أدب العالم العربي.

١ـ جوائز المسابقة :

جوائز عديدة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ ـ ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريالاً، ١٥٠ ريالاً)

ب ـ خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج ـ عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د ـ خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢ـ شروط المسابقة :

أ ـ الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية ـ وليس نسخة مصورة ـ للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثيًا أو رباعيًا ـ إن أمكن ـ وعنوان المراسلة.

ب ـ ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة ، مجلة الفيصل،
ص.ب . (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ ـ أية إجابات تصل بعد ٤٥ يومًا (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د ـ من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد (٢١٩)

ج١ : آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ماكسبت وهم لايُظلمون﴾ (البقرة:٢٨١). وعلى الرغم من الاختلاف الموجود بين علماء التفسير حول آخر مانزل من القرآن؛ إلا أن الذي يترجح لدى النظر في الأحاديث والآثار الواردة في هذا الأمر، أن آية:﴿واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله﴾، هي آخر مانزل من القرآن الكريم، إذ لم ينزل بعدها وحي على الإطلاق، ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها إلا تسع ليال انتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: آخر مانزل من القرآن كله: ﴿واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله﴾ الآية، وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيةتسع ليال، ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول. وأخرج ابن جرير مثله عن ابن جريج، ومثله عن ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس، كما ذكر ذلك البغوي في تفسيره.

وأما ماروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حين تلا قول الله ـ تعالى ـ :﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(المائدة:٣)، وقال له يهودي كان حاضرًا: لو نزلت علينا في يوم لاتخذناه عيداً، فقد قال ابن عباس: إنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد: في يوم جمعه وافق يوم عرفه. وقد وقع مثل هذه الرواية لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، ولكن هذا لايدل على أن:﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية، هي آخر مانزل من القرآن بإطلاق، ولكنه يدل على كمال الأحكام الدينية، وانتهاء التشريع الإسلامي بنزولها؛ إذ لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من الفرائض أو مسائل الحلال والحرام، وثبت أنه نزل عليه من الوحي بعدها سورة النصر، نزلت كلها في أوسط أيام التشريق، وفهم بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنها أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أُعلم به، كما روى البخاري ذلك عن ابن عباس في حديث طويل.

وبذلك يتبين أن آخر مانزل من القرآن بإطلاق إنما هو آية:﴿واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله﴾. والله ـ تعالي ـ أعلم.

***

ج٢ : من أسماء يوم القيامة التي وردت في القرآن الكريم: القيامة، القارعة، الحاقة، الساعة، اليوم الآخر، البعث، يوم التغابن، النبأ العظيم، الواقعة، يوم الفصل، يوم التناد، يوم الجمع، الطامة الكبرى، الصاخّة، الراجفة، يوم التلاقي، يوم الدين، اليوم الموعود، الآزفة، الغاشية، المعاد، اليوم المشهود، يوم الحسرة، يوم الحساب. وهذه الأسماء مؤيدة بالآيات التي وردت فيها في كتاب الله العظيم، فعلى المسلم أن يتدبر في آيات ربه ويتعظ.

***

ج٣ : بُني حصن المصمك في عهد الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م.

***

ج٤ : تعود نشأة الجمباز في العصر الحديث إلي فريدرخ لودفيج جان (١٧٧٨-١٨٥٢م) وهو رياضي ألماني لُقب بأبي الجمباز. عُرف بالوطنية والاهتمام بالشباب وتشجيعهم على ممارسة الرياضة والتمرينات البدنية. أهم أعماله اختراع أجهزة العقلة، والمتوازيين، وحصان الوثب. ألف ـ بالاشتراك ـ كتاب «الجمباز الألماني»، ثم انتشر

للاشتراك املأ هذه القسيمة
(عنوان الاشتراك من الخلف)

الاسم: ....
العنوان: ....

الجمباز من بعده في بقية أرجاء العالم.

أما اللاعبة التي حصلت على الدرجة الكاملة في ألعاب الجمباز لأول مرة في تاريخ اللعبة، فهي الرومانية «ناديا كومانشي». وقد حققت هذا الإنجاز الفريد سبع مرات في دورة مونتريال الأولمبية ١٩٧٦م، وكانت تبلغ من العمر ١٤عامًا، وقد فازت بذهبيات الفردي العام والعقلة وعارضة التوازن، فأطلق عليها النقاد لقب «الآنسة الصغيرة التامة الكمال»!

***

ج٥ : افتتحت أول محطة إذاعية في المملكة العربية السعودية، في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود - طيب الله ثراه -، وكان ذلك يوم وقفة عرفات (التاسع من ذي الحجة عام ١٣٦٨هـ، الموافق أول أكتوبر ١٩٤٩م).

***

نتائج مسابقة العدد (٢١٩)

أ - فاز بالجائزة المالية الأولى، وقدرها ٥٠٠ريال سعودي، علي علي محمود الشريف، الدقهلية - مصر.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها ٣٥٠ريالاً سعوديًا، عبداللطيف ياسين، الدار البيضاء - المغرب.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها ١٥٠ريالاً سعوديًا، عبدالرحمن منصور شار، جيزان - المملكة العربية السعودية.

***

ب - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عددًا)، كل من:

١- يسري العبد محمد الحسني، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٢- محمد معن مراد، دمشق - سورية.

٣- بن دولة حليمة، وهران - الجزائر.

٤- أحمد عبدالجواد أحمد جودة، الدقهلية - مصر.

٥- فيصل عبدالعزيز مهدي، عالي - البحرين.

***

ج - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢عددًا)، كل من:

١- حورية حسن العلي، الأحساء - المملكة العربية السعودية.

٢- سجى حسن أحمد، الزرقاء - الأردن.

٣- محمد عامر أحمد العقاد، القاهرة - مصر.

٤- منال عبدالكريم قدور، حلب - سورية.

٥- وضحى إبراهيم عبدالرحمن الربيع، الأحساء - المملكة العربية السعودية.

٦- علي أحمد محمد أبوعودة، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٧- عزيزة عبدالقادر عبدالحميد، عمان - الأردن.

٨- كمال محمد حسن حميدة، البحيرة - مصر.

٩- مريم قرة داود بنت حسين، حلب - سورية.

١٠- كاملة أحمد فرجاني، الدوحة - قطر.

***

د - كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، كل من:

١- عيسى محمد أحمد آدم، الخرطوم - السودان.

٢- حيدر قاسم عاشور، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

٣- هناوات إبراهيم البساطي، الدقهلية - مصر.

٤- إسراء بنت صبحي إبراهيم، حلب - سورية.

٥- واجدة عبدالسلام عواد، عمان - الأردن.

***

أسئلة مسابقة العدد (٢٢٢)

السؤال الأول:

للصلاة المفروضة أوقات محددة لابد أن تؤدَّى فيها، لقوله تعالى:﴿ إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾(النساء:١٠٣). اذكر ثلاث آيات من كتاب الله تعالي تبيِّن مواقيت بعض الصلوات.

***

السؤال الثاني:

يستحب للمسلم إذا جلس للتشهد الأخير في الصلاة أن يدعو ربَّه - عز وجل - بعد التشهد وقبل السلام بما شاء من خيري الدنيا والآخرة. اذكر دعاءين من المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.

***

السؤال الثالث:

كان سادة قريش - قبل الإسلام - يجتمعون في دار أسموها«دار الندوة»؛ ليتداولوا فيما بينهم مايعرض لهم من شؤونهم. إلى من تُنسب هذه الدار؟

***

السؤال الرابع:

استطاع أبناء الجزائر أن يتوجوا كفاحهم الطويل والمرير ضد المستعمر الفرنسي بعقد اتفاقية تعترف فيها فرنسا باستقلال الجزائر. متى عُقدت هذه الاتفاقية؟

***

السؤال الخامس:

مئذنة الكتبية، إحدى أشهر المعالم لمدينة عربية عريقة. أين تقع، ومتى تم بناؤها؟

***

مسابقة مجلة قسيمة
الفيصل
العدد (٢٢٢)
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

استراحة العدد

ويأتيك بالأمثال

يَا حرزًا وَأبْتغِي النَّوَافِلاَ

ويُروَي «واحرَزًا». قالوا يريد «واحرزاه» فحذف، وأصله الخطر.

ويُضرب هذا المثل لمن طمع في الربح حتى فاته رأس المال، وهذا قول بعضهم. وقال أبو عبيد: يريد أدركت ما أردت وأطلب الزيادة. قال: يُضرب في اكتساب المال والحث عليه، والحرص عليه. قالوا: والحرْز بمعنى المحرَز، كأنه أراد: ياقوم أبصروا ما احْرَزْتُ من مرادي، ثم ابتغي الزيادة، وحرْزا يريد به حرْزي، إلا أنه فر من الكسرة إلى الفتحة لخفتها، كقولهم: «ياغُلاما» في موضع ياغُلامي.

دروس

قال حكيم: لايخلو نسق الكائنات من حولنا من دروس ينبغي أن نتعلمها: فمن النمل نتعلم الاجتهاد، ومن الديك النشاط، ومن الجمل الصبر، ومن الأسد الشجاعة، ومن الزهور البشاشة.

إهداء

كتب أحد المؤلفين على أول كتاب ألّفه: «إلى زوجتي العزيزة.. التي لولا غيابها عني ماستطعت تأليف هذا الكتاب»!

ستار العيوب

اجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، فقال قس: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ أجاب أكثم: هي أكثر من أن تُحصر، إلا أنني أعرف خصلة إن استعملها الإنسان سُترت عيوبه. قال: وماهي؟ أجاب: حفظ اللسان.

الأدب أدب الدين

وصف أعرابي الأدب في مجلس معتمر بن سليمان فقال: الأدب أدب الدين، وهو داعية إلى التوفيق، وسبب إلى السعادة، وزاد من التقوى، وهو أن تعلم شرائع الإسلام، وأداء الفروض، وأن تأخذ لنفسك بحظها من النافلة، وتزيد ذلك بصحة النية وإخلاص النفس، وحب الخير منافسًا فيه، مبغضًا للشر نازعًا عنه، ويكون طلبك للخير رغبة في ثوابه، ومجانبتك للشر رهبة من عقابه، فتفوز بالثواب، وتسلم من العقاب، ذلك إذا اعتزلت ركوب الموبقات وآثرت الحسنات المنجيات.

رقم قياسي

نشرت الكاتبة الجنوب أفريقية كاثلين ليندساي (١٩٠٣ - ١٩٧٣م) ٩٠٤ روايات خلال حياتها التي لم تتجاوز السبعين عامًا، وتعد بذلك صاحبة الرقم القياسي في عدد الروايات المنشورة لأية سيدة.

وعد ووعد

تقدم أعرابي مع خصم له إلى أحد الولاة، فقال الوالي: قل الحق وإلا أوجعتك ضربًا، فقال الأعرابي: فأنت أيضا فاعمل به، فما أوعدك الله منه أعظم مما أوعدتني منه.

يبكون وهم ظالمون

قال الشعبي: كنت جالسًا عند شريح القاضي، إذ دخلت إمرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاء شديدًا، فقلت: ماأراها إلا مظلومة؟، قال شريح: وماعلمك؟ قلت: لبكائها، قال: لاتأخذك المظاهر، فإن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون.

من خصال الجاهل

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أربعة من خصال الجاهل: غضب على مَنْ لايرضيه، وجلوس إلى مَنْ لايدنيه، وتفاقر إلى مَنْ لايغنيه، وتكلم بما لايعنيه.

مدرسة للأفيال

يوفد التايلنديون أفيالهم الصغيرة إلى مدرسة خاصة بالأفيال، حيث يخضعون لسلسة من التدريبات الشاقة بقصد تمرينهم على اقتلاع الأشجار ونقلها، والمشي فوق المعابر الخشبية الضيقة، وتستمر الدراسة ست سنوات، يعقبها حفل تخرج لكل دفعة.

رد بليغ

اشترت إحدى السيدات كتابًا من تأليف الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل، فلما لم تفهم منه كلمة، ذهبت إلى راسل وقالت له: لم أفهم من كتابك هذا شيئًا، فردّ بهدوء: لقد أعطيتك كتابًا لأن هذه حرفتي، ولكني لاأستطيع أن أعطيك عقلاً فهذا خارج عن قدرتي.

نسيان

كان الفيلسوف أدوين أدمان، أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبيا يزور صديقًا له ذات مساء، وأطال الجلوس حتى بلغت الساعة الثانية صباحًا، فأخذ صاحب المنزل يتثاءب لعل أدمان يشعر بطول مكثه

وينصرف، إلا أن أدمان تجاهل هذا التثاؤب، مما دفع صديقه إلى القول: إنني أكره أن أضطرك للانصراف من عندي، لكنني سألقي محاضرة غداً في التاسعة صباحًا. فاحمرّ وجه أدمان خجلاً وقال: ياإلهي لقد ظننت أنك الذي تزورني، وليس أنا الذي أزورك!

أكبر عين

يملك الكائن الرخوي البحري المعروف باسم «الحبّار» أكبر عين لأي كائن حي، إذ يبلغ محيط عينه ٣٨ سنتيمترًا.

متكبر

قال أبو اليقظان: جلس رافع بن جبير بن مطعم في حلقة العلاء بن عبدالرحمن الحزقي، وهو يقرئ الناس، فلما فرغ قال: أتدرون لِمَ جلست إليكم؟ قالوا: لتسمع. قال: لا، لكن أردت التواضع لله بالجلوس إليكم!

هكذا كانوا

أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يستسلفه أربعمائة درهم، فقال عبدالرحمن: أتستسلفني وعندك بيت المال، ألا تأخذ منه ثم ترده؟ فقال عمر: أخاف أن يصيبني قدري فتقول أنت وأصحابك: «اتركوا هذا لأمير المؤمنين حتى يؤخذ من ميزاني يوم القيامة، لكنني أتسلفها منك لما أعلم أني إذا مت جئت فاستوفيتها من ميراثي».

سكينة وأهل الكوفة

لما قُتل مصعب بن الزبير، خرجت سُكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم تريد المدينة المنورة، فأطاف بها أهل الكوفة فقالوا: أحسن الله صحابتك يابنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: والله لقد قتلتم جدي وأبي وعمي وزوجي مصعبًا، أيتمتموني صغيرة، وأرملتموني كبيرة، فلا عافاكم الله من أهل بلد، ولاأحسن إليكم بالخلافة.



آثار لمسجد من القرن الثاني عشر الهجري بجزيرة جنا (المنطقة الشرقية

عادة كريهة

يقول الفيلسوف الفرنسي أندريه موروا: ليست الشيخوخة سوى عادة كريهة، لايجد الرجل العامل وقتًا لاعتيادها أوالاستسلام لأمراضها.

من ومن

مَنْ يَرحم يُرحم، ومَنْ يصمت يسلم، ومَنْ يفعل الخير يغنم، ومَنْ يقل بالباطل يخسر، ومَنْ يكره الشر يعتصم، ومَنْ لا يملك لسانه يندم.

بخيل

قال الجاحظ: قلتُ مرة للحرامي: قد رضيت بقول الناس إنك بخيل! قال: لا أعدمني الله هذا الاسم. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأنه لايقال «فلان بخيل» إلا وهو ذو مال، فإذا سلم لي مالي فادعني بأي اسم شئت.

ثلاثة وثلاثة

قيل: ثلاثة تضرّ بأربابها: الإفراط في الأكل اتكالاً على الصحة، والتفريط في العمل اتكالاً على القدر، وتكلف مالا يطاق اتكالاً على القوة.

شريك القائل

قال عمر بن عتبة بن أبي سفيان؛ نزّه سمعك عن استماع الخنا ـ أي فُحش القول ـ كما تنزّه لسانك عن القول به، فإن السامع شريك القائل.

الليالي

إن الليالي للأنام مناهل
تُطوى وتبسط بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة
وطوالهن مع السرور قصار



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع. وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

الجرس والدلو

بثينة خضر مكي

تمطَّت وهي تتثاءب، فداهمت أنفها رائحة الأرض الممتزجة برائحة روث البهائم والدجاج، ورائحة جريد النخل الذي يشكل جزءًا من السقف المتهالك، ويلوِّن بالظل سماء الغرفة التي تنام خارجها.

ـ صفية .. قومي، لقد ارتفعت الشمس!

مرق صوت عمتها كالسهم حادًا يئز في أفق الفناء العطن مناديًا عليها.

فتحت عينيها في بطء، وهي تحك أنفها بظاهر يدها المتسخة بينما تفرك قدميها الواحدة بالأخرى، وكأنما تنفض عنهما آثار الوحل العالق بهما منذ الأمس، فتسمع لتساقط كتل الطين اليابسة حفيفًا على «البُرْش» الأحمر المهترئ الأطراف الراقدة عليه.

ثم رفعت طرف الثوب القديم، الذي تضع جزءًا منه تحت رأسها، وتتغطى بما تبقى منه، لتمسح عينيها من خيوط النعاس، وتمسح خيوطًا أخرى تدلَّت في لزوجة، تسيل من بين رموشها.

ـ قومي .. يابنت!!

جلجل الصوت يناديها.. مرعدًا في تهديد هذه المرة. نهضت في عجلة وهي تهب دفعةً واحدة، بينما لاتزال يدها تعمل في فرك عينيها، وأخذت تطوي البرش في سرعة، ثم حملت السرير الخشبي المنسوج بالحبال على ظهرها الصغير، ووضعته على الأرض قريبا من المدخل حيث جلست عمتها.

ـ كيف أصبحت .. يُمَّه؟

ـ صباحك زين يابنيتي.

أخذت تجر طشتًا يمتلئ بالأواني المتسخة التي تريد غسلها. ثم تناولت دلوًا متآكل الأطراف في أعلاه حبلٌ غليظ بيدها اليمنى، وباليد الأخرى حملت إناءً من الصفيح واتجهت ناحية البئر الكائنة في نهاية فناء المنزل.

كانت تتحرك في آلية شديدة، وهي تعيد عملاً قامت به آلاف المرات، أزاحت حجرًا ثقيلاً يربض فوق غطاء البئر وهي تلهث.. ثم فتحت البئر، وقذفت بالدلو إلى داخلها، وعندما سمعت صوت ارتطامه بقعر البئر هزته قليلاً ثم جذبته إلى الخارج.. ممتلئًا، يتراقص الماء جَزِلاً على حوافه الصدئة وكأنه يحتفل بإخراجه من جوف الهاوية.

ملأت راحتيها من الماء، غسلت فمها ووجهها ويديها ومسحت على جدائلها المنسدلة حتى كتفيها في نعومة.

كررت عملية ملء الدلو من البئر وسكبه في إناء الصفيح، وحين امتلأ حملته على كتفها الصغيرة، ومضت تحجل به في مشية متعثرة، وأفرغته في إناء آخر، وضعته قرب طشت الغسيل. ثم جلست القرفصاء لغسل الأواني وهي تدندن بأغنية شعبية شائعة.

تضاحكت عمتها وهي تستمع إلى غنائها المبتور، وقالت تستحثها بعد أن أكملت صنع الشاي بالحليب ذي الرائحة النفاذة:

ـ اقتربي ياحبيبتي.. خذي كوبًا من الشاي.

عندما مدت يدها لتمسك كوب الشاي الساخن لسعتها الحرارة في عنف على أصابعها التي أخرجتها لتوها من طشت الغسيل، واندلق بعض الشاي على ساعديها وجلبابها فانتهرتها المرأة في قسوة، وقد اختفت من ملامح صوتها تلك الرقة المحدودة الأجل.

وضعت كوب الشاي بجانب الطشت ـ بعد أن تذوقته ـ لتواصل غسل الأواني، وفجأة رنَّ جرس المدرسة المجاورة.. دق قلبها في عنف. أحست وأذناها تلتقط الرنين الموسيقي.. بأنه يزلزل

نفسهـا، وجاهدت عبثًا للتحكم في دموعها التي طفرت من عينيها وانتثرت على الأواني المتسخة التي تكومت أمامها .

كانت صفية تذهب إلى المدرسة مرهقةً كل يوم، بعد تأدية واجبها الصباحي، مثل غسل الأواني وكنس المنزل وترتيبه، وعند وصولها إلى المدرسة يكون طابور الصباح قد شارف النهاية، مما يعرضها لتوبيخ المدرسات، الذي غالبًا ما يكون مصحوبًا بالضرب بطرف المسطرة الحاد على كفيها الصغيرتين اللتين جرحتهما حبال الدلو، فتظل تبكي لحصتين متتاليتين ولاتستطيع استيعاب الدروس. وهكذا انقضت عليها ثلاث سنوات ـ كلمح البرق ـ في المدرسة دون أن تعرف كيف تكتب أو تقرأ جملةً واحدةً. وقد كان من ضمن الأهداف الرئيسة لإدخال صفية المدرسة هو قراءة وكتابة الخطابات لعادل ابن عمتها عائشة التي تكفلت بتربيتها بعد وفاة والدتها وزواج أبيها بأخرى.

ولما كان عادل يعمل بالتجارة في مدينة تقع على حدود البلاد، فإن عمتها كانت تمنّي نفسها باليوم الذي تتمكن فيه من إملاء شجونها وطلباتها على ابنة أخيها لتسطرها إلى الغائب الحبيب، بدلاً من حمل أسرارها الخاصة إلى أبناء الجيران وآذان أمهاتهم. ولكن انتظارها لذلك اليوم طال كثيراً حتى نفد صبرها، وصفية تُتأتئ وتُثأثئ وهي تحاول قراءة خطابات عادل القديمة إلى والدته، الأمر الذي جعل عمتها تستشيط غضبًا وغيظًا، وتُحرِّم على ابنة أخيها الذهاب إلى المدرسة.

أطلقت صفية تنهيدةً طويلةً من أعماق قلبها الصغير، فالتفتت إليها عمتها وقالت بحنانٍ مفاجئ:

ـ ماذا بك اليوم.. أيوجعك شيء؟

ـ كلا .. لاشيء.

أجابتها في سرعة محاولةً مداراة انفعالها.. ومدت يدها في اضطرابٍ لتمسك بكوب الشاي، وأخذت ترتشفه في جرعات كبيرة تبتلع بها غصةً تشق حلقها، غير أن دمعةً كبيرةً سبقتها وتدحرجت لتستقر في كوب الشاي الساخن!

وعمَّ المكان صمت ثقيل لايتخلله إلا صوت خشخشة «الليف» الذي كانت تجلو به أواني الألمونيوم.

التعليق:

اختارت الكاتبة ـ في هذه القصة ـ لحظة مفعمة قادرة على الإشعاع، وبالتالي ترْك أثر عميق في نفس المتلقي، وهذا الأثر هو مناط نجاح القصة لأنه يشكّل الغاية من كتابتها، فوحدة الانطباع جوهر البناء الذي تنهض عليه القصة القصيرة، ولعل أهم مايلفت الانتباه استغناء الكاتبة عن المقدمات التقليدية وولوجها مباشرة إلى رحاب الحدث، فالكلمةالأولى في القصة القصيرة تحدد الاتجاه إلى النهاية، وبدت الحساسية واضحة في اختيار الكلمات، وهي قائمة على التصوير. فالطاقة التمثيلية فيها عالية إذ يتشكل المشهد عبرها منسابًا بلا نتوءات: التمطي والتثاؤب. وهمان فعلان دالان، بحكم ظلالهما الصرفية، على الكسل، يتلوهما فعل ذو دلالة مناقضة، ومن خلال هذا التناقض الدلالي تتفجّر الحيوية والحركة داخل القصة.

والقاصة عمدت إلى التلوين والتنويع في أسلوب القص، هناك اللّوْحة المصورة والمشهد المتحرك الذي يليه الحوار، وهذا يعزز تقنية التقابل القادرة على إثارة التوتر وحقن الموقف بأسبابه، وإن مكان التقابل هنا لايحمل معنى التناقض، وقد سرت في مقاطع القص ثنائية حكمت مسار السّرد فيها تتمثل في الانتقال بين الداخل والخارج والباطن والظاهر.

وثمة عناصر ثلاثة نهضت عليها القصة تتمثل: في العنصر المكاني، والعنصر البشري، والحركة التي تتجسّد الوقائع والأفعال، وكل ذلك تعبر عنه الكاتبة من خلال نسيج لغوي أقام لونًا من ألوان التفاعل بينها وأفضى إلى ما أشرنا إليه من وحدة في الانطباع والأثر.

أما اهتمام الكاتبة بالمكان فهو ليس مقصودًا لذاته بل لأنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأسّ الأزمة التي تتمحور حولها القصة. من هنا كان تتبُّع الكاتبة لجزئيات الحدث في أدق تفاصيله أمرًا مهما. فاللهفة والسرعة حركتان يدفع إليهما الخوف، والكدح في ظروف بالغة السوء يمهد للّحظة النهائية في القصة، تلك اللحظة التي تسمى بلحظة التنوير في أدبيات النقد القصصي التقليدي.

ومن الملاحظ أنّ السمة التراكمية ممثلة في الاحتفال بحرف العطف «الواو»، الذي يدل على مطلق الجمع كما هو معروف، هي الأبرز في النص، ولكنه التراكم الذي يفضي إلى التنمية والتطوير، وليس مجرد التكرار. فالتراكم الكمي من ذلك النوع الذي يحدث تحوّلاً كيفيًا، والعطف بين الجزئيات والتفاصيل يجعل المشهد الإنساني مكتظًا بمشاهد متابعة غنية بعناصر من شأنها حقن الموقف بدلالات متكاثرة وإيحاءات مشعة؛ كالكشف عن حقيقة النموذج البشري المقابل: نموذج التسلط والقهر في مقابل الإذعان والاستسلام. حتى إذا بلغ ذلك ذروته جاء جرس المدرسة ليثير كوامن النفس ويذكّر ببؤس الموقف وزرايته.

ومن الملاحظ أن تركيز الكاتبة كان على بناء النموذج الإنساني الذي يمثل في جوهره شريحة اجتماعية محدّدة الملامح؛ فكل شيء في القصة مسخّر لاستكمال الصورة وتعميق الإحساس بالموقف، وهنا تكمن القدرة على إبراز التفاعل المثمر بين الموقف والشخصية، فنحن أمام نموذج بشري في موقف معين ينسج بتؤدة ويميط اللثام عن كم لابأس به من المعاناة والتركيز على وصف الأشياء، وخصوصًا الدلو الذي يبرز ذكره في العنوان كعنصر رئيس ومحور دلالي مهم. فالدلو المتآكل الأطراف ذو الحبل الغليظ يمثل بؤرة إشعاع في اتجاه الرؤية الخاصّة للنص، وهو رمز المعاناة والهبوط، وقد كانت الكاتبة موفقة حين وضعت الدلو الرث الذي ينساب بلا ضجيج إلى أعماق البئر ويومئ إلى المكابدة الصامتة في مقابل الجرس المجلجل الذي يرمز إلى الصعود وإلى لون من ألوان الحياة الحافلة بالحيوية والحركة، وهذه الثنائية التي تضمنها عنوان النص أذكت سلسلة الثنائيات، وعمقت النزعة الدرامية التي لاتنهض إلا بمثل هذا التقابل حتى في الصياغة اللغوية منذ السطور الأولى: الحركة والسكون، ويستطيع القارئ أن يرصد عدداً كبيراً من الثنائيات التي تتمحور حول التقابلات السالفة الذكر.

وقد وظفت الكاتبة «النعوت» التي وردت في سياق الوصف توظيفًا موحيًا ودالاً أثرت به الموقف، ولم تكن تلك مجرد نعوت عامة مجانية إنشائية الطابع، وكلها صفات حسّية ذات إيماءات خاصة، وقليلاً ما تأتي تجريدية معنوية. فعلى سبيل المثال تصف الكاتبة السقف بأنه متهالك، والفناء بأن عطن ويد الفتاة بأنها متسخة والبرش بأنه أحمر مهترئ الأطراف، والسرير بأنه منسوج بالحبال، والحواف بأنها صدئة والجدائل بأنها منسدلة والأواني بأنها متسخة.

ولعل ماكان من الأفضل أن تتفاداه الكاتبة إبّان السّرد التلخيص الذي يوجز في أسلوب حكائي تقليدي نمط الحياة التي كانت تحياها البطلة إبان فترة ترددها إلى المدرسة، فالتلخيص يختزل المشهد الذي هو قوام الحركة في القصة القصيرة، وإذا كان ذلك مقبولاً في الرواية فإنه يبدو خللاً فنيًا في هذا الفن القائم على الحساسية واليقظة في التقاط الجزئيات والبعد من التعميم والتجريد.

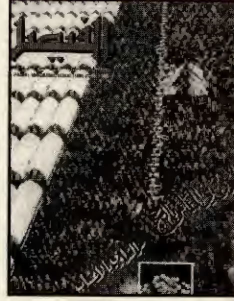
كما أن مايسمى «بالثغرة» في أدبيات النقد الروائي، وهي صنو التلخيص ملازمة له ودالة عليه حيث يشيرالكاتب إلى انقضاء الزمن دون الإشارة أو الوصف لما يحدث خلال هذا الزمن المنقضي، كقول الكاتبة: «وهكذا انقضت عليها ثلاث سنوات كلمح البرق». هذه الثغرة الزمنية تشكّل منزلقًا فنيًا خطيراً، حيث بدت القصة وكأنها تلخيص للعمل الروائي.

أمر آخر تجدر الإشارة إليه وهو أسلوب التقرير الإخباري المحض الذي يهتم بإيراد المعلومة دون إيحاء أو تصوير أو نشر للظلال الدلالية كقول الكاتبة: «وقد كان من ضمن الأهداف الرئيسة لإدخال صفية المدرسة هو قراءة وكتابة الخطابات لعادل ابن عمتها... إلخ». وكذلك منطقية الصياغة التي تعتمد على إيراد المقدمات تعقبها النتائج.

ويُحمد للكاتبة أنها أبقت النهاية مفتوحة دالة، وجاءت طبيعية يقود إليها سياق السرد دون تكلف.

د. محمد صالح الشنطي

التداوي بالأعشاب ومستقبل الصناعة الدوائية العربية



لقد تطور علم العقاقير وتوصل إلى تصنيع الأدوية كيميائيًا لأغلب الأدواء، وبالرغم من النجاح العظيم؛ إلا أنها لاتخلو من نفحات السم القاتل التي تترك في الجسم آثارًا ضارة باقية فيه تظهر آجلاً أوعاجلا. لذلك بدأ الإنسان في الإغراض عن الأدوية المصنعة وعاد إلى خيرات النباتات حيث إنها الدواء الشافي والعلاج الناجع بإذن الله.

وإشارة إلى مانُشر في العدد ١٩٨ تحت عنوان «التداوي بالأعشاب الطبية»، فقد كان المقال ممتازا، وتناول الموضوع من معظم جوانبه، إلا أن هناك بعض الإضافات التي أحببتُ أن يطلع عليها القراء في كل مكان، أوجزها في السطورر التالية:

لقد أثبت العلم أن المواد الكيميائية الطبيعية الموجودة في النباتات أكثر أمانًا من مثيلاتها المخلّقة كيميائيًا. وهناك استخدامات غير دوائية للنباتات الطبية تتمثل في: تحضير مستحضرات التجميل، وتصنيع المبيدات الحشرية، وصناعة الروائح والعطور والتوابل والبهارات ومكسبات الطعم أو النكهة أو الرائحة أو المواد الملونة.

وترجع الأهمية العلاجية للنباتات الطبية إلى عدة عوامل منها أنها تحتوي على كميات متفاوتة من الأملاح المعدنية التي يكون الجهاز الهضمي للإنسان أقدر على هضمها وامتصاصهاوهي ذائبة في عصارة النبات، كما تحتوي النباتات على مواد عديدة أخرى تحدث أثرها الفعال بطرق مختلفة. وهكذا نجد أن كل عشب علاجي يرتبط بأكثر من عملية فسيولوجية أساسية.

وبالموازنة بين تأثير الأعشاب الطبيعية والعلاج الكيميائي؛ نجد أن الأعشاب الطبيعية تستخدم كامل النبات، وأنها منتجات طبيعية اعتادها الجسم، وأنها تُستخدم مادة غذائية تسهم في صحة الجسم مما يؤدي إلى علاجه بنفسه، والأعشاب تقضي على مسببات المرض وهي تنجح في الحالات المزمنة. أما العلاج الكيميائي فهو يعتمد على استخدام المشتقات المعزولة أو المركبة. والعقاقير مواد غريبة تعامل كمواد سامة وتنتج منها آثار جانبية. ومع أن العقاقير تتميز بأن تأثيراتها أكثر دقة إلا أنها تنقص من الصحة العامة للجسم، وهي تستهدف العلاج بشكل مباشر وتؤثر بشكل أسرع، وتأثيرها فعال في الحالات الطارئة، لكنها غالبا ما تخطئ في الحالات المزمنة.

والشخص الذي يُعالَج بالأعشاب ربما يتحسن بالسرعة نفسها التي يحققها العلاج بالعقاقير، ولكنه سوف يشعر فيما بعد أنه أقوى حالاً. ويساعد طب الأعشاب في زيادة مقاومة الجسم لأعراض أخرى ويمنع حدوث أمراض مزمنة. أما سبب عدم الثقة بنتيجة العلاجات النباتية فلأنه من الصعب تحديد الجرعة المناسبة بشكل دقيق لاختلاف المحتويات الفعّالة للنباتات في قوتها من فصل إلى آخر.

وهناك العديد من الأمراض المزمنة بأعراضها المختلفة وآلامها المبرحة التي تصيب الإنسان، ويمكن الشفاء منها تماما أو تخفيفها نوعًا ما باستعمال بعض الأغذية ذات المصادر النباتية؛ لأن الدواء والشفاء من جنس الطعام والغذاء.

وهناك مصدران أساسيان للعقاقير: أولهما المواد الفعالة المستخلصة من النباتات الطبية، وهي للأسف قليلة ولاتفي بحاجة الإنسان ومتطلباته لعدم الاهتمام بالنباتات الطبية ورعايتها والإكثار منها. والمصدر الثاني هو المركبات الكيميائية المصنعة التي انتشرت وتنوعت نتيجةً للتطور العظيم في فروع الكيمياء المختلفة، وكذلك في وسائل استخلاص المواد الفعالة من النباتات الطبية.

ولقد كان من المتوقع بعد انتشار العقاقير المصنعة وتنوعها أن يتراجع المرض وتزداد السيطرة عليه، ولكن الذي حدث هو العكس تمامًا، فقد عرف الانسان أمراضًا لم تكن معروفة من قبل، بل دخلنا عصر الأمراض المزمنة، وربما يرجع السبب في ذلك إلى عدة أمور، منها: أن الأدوية العديدة التي يتناولها المريض تعمل في أغلب الأحيان على اختفاء أعراض المرض فقط، بينما يبقى المرض كامنا ليتحول إلى الحالة المزمنة، بجانب أنها قد تؤثر في مناعته في مقاومة الأمراض الأخرى.

إن كل نبتة أو عشبة هي في الواقع صيدلية كاملة تحتوي على مواد فعالة تنوعت بنسب وضعها الله سبحانه وتعالى بحكمته وتقديره، فالبصل مثلاً يحتوي على مواد هاضمة وأخرى تنظم احتراق واستهلاك المواد السكرية

كما يفعل الأنسولين تمامًا، كما تحتوي على زيت طيار عطري يكسبه رائحته الخاصة، وهذا الزيت مطهر قوي المفعول يقتل الجراثيم. كما يحتوي البصل على أملاح تقوي الأعصاب وأخرى تحمي الشرايين من التصلب، هذا إلى جانب مواد تقوي بصيلات الشعر وتحول دون سقوطه.

كل هذه الفوائد تختزن في بصلة واحدة، فهل يمكن لعقار واحد مصنع أن يملك كل هذه الفوائد مجتمعة؟

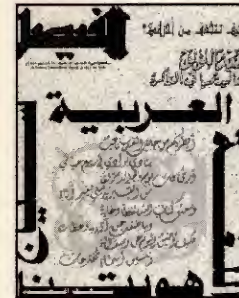
نحن لاننقص من حجم الانتصارات العظيمة التي حققها الطب الحديث، ولكن بجانب ذلك فقد أثبتت البحوث أن لكثير من العقاقير الطبية آثارا جانبية ضارة، مما جعل المؤتمرات الطبية والصيدلية تنادي بضرورة الحد من تداول هذه الأدوية والعودة إلى النباتات الطبية والاهتمام بها بوصفها مصدرًا آمنًا لصناعة العقاقير.

ومع كثرة النباتات الطبية والعطرية البرية المنزرعة في البلاد العربية، وعلاقة ذلك بإقامة صناعة الدواء والعطور وبعض الصناعات الأخرى، فإن تنميتها والاستفادة منها لم تنظم على المستوى القومي حتى الآن، ولاتزال الاستفادة منها تعتمد على الجهود الذاتية لمؤسسات معينة، ولبعض الأفراد الذين يصدرونها للخارج بهدف الكسب المادي فقط.

إن مستقبل صناعة الدواء في الوطن العربي يُحتم علينا أن نفكر في هذا الموضوع بنظرة قومية لا إقليمية، بمعنى أن يكون التفكير على مستوى الوطن العربي كله. وإن مقومات نجاح هذه الصناعة متوافرة في الأقطار العربية، ومنها الموقع الجغرافي المتميز والمناخ الملائم، وتنوع النباتات الطبية وتوافر الأيدي العاملة والخبرات في مجال البحوث الدوائية والزراعية والصناعية والحمد لله، ففي بعض البلاد العربية اليوم شركات دوائية يمكنها أن تسهم بقسط وافر في هذا الموضوع الذي سوف يغنينا مستقبلا عن استيراد الأدوية من الخارج، مما يعود على البلاد العربية ومواطنيها بالخير والنفع الوفير.

جهاد عبدالرزاق أنعم
صنعاء ـ اليمن

اللغة العربية بخير!



قضيت وقتًا حافلاً بالمتعة وأنا أقرأ «إطلالة» العدد رقم ٢١٨ من مجلة «الفيصل» الحبيبة إلى قلبي وقلب كل عربي مسلم غيور على لغته العربية الجميلة ودينه الإسلامي الحنيف.

وأرجو أن تتسع صفحات مجلتنا الحبيبة لكلمتي القصيرة هذه حول موضوع تلك الإطلالة.

لقد أدرك علماء الغرب وتلامذتهم المتغربون في بلادنا الترابط الوثيق بين اللغة العربية والدين الإسلامي، وعرفوا أن الإسلام لايُفهم فهمًا جيدًا إلا باللغة العربية. وأدركوا أن اللغة العربية ركن جوهري من القرآن الكريم، وأنها أساس في قدرة الشريعة الإسلامية على حل مشكلات الحياة ومتطلباتها، وأدركوا أن اللغة العربية هي من العوامل الكبرى في تمكين فكرة الوحدة الإسلامية، وأنها أسٌ قوي من أسس الأخوة الإسلامية، فقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية السائدة في جميع بلدان العالم الإسلامي بين المحيط الأطلسي في الغرب والمحيط الهادي في الشرق وعلى جميع سواحل المحيط الهندي، فهي لغة التخاطب ولغة العلم والأدب بالإضافة إلى أنها لغة العبادة اليومية لكل المسلمين، إذ من المحتوم على المسلمين جميعًا، أينما كانوا ومهما كانت لغاتهم وأجناسهم ومواطنهم، أن يتعلموا اللغة العربية ويتقنوها، ذلك لأن العبادة من صلاة وتلاوة وقرآن لاتتم إلا باللغة العربية التي أُنزل بها القرآن الكريم. لقد أدرك أعداء الإسلام ولغته هذا وغيره، فأخذوا يوجهون إليه السهام المسمومة، وإليها الحراب القاتلة، وبذلوا الجهود الكبيرة لتدمير هذا الصرح الشامخ، ومن هذا المنطلق أخذوا يروّجون فكرة عجز اللغة العربية عن مسايرة التطور العلمي، وأنها لم تعد صالحة في هذا العصر لاستيعاب كل أغراض العلوم الحديثة. وكذلك حاولوا فرض لغاتهم على الشعوب الإسلامية محاولين بذلك صهر هذه الشعوب بلغاتهم وحضارتهم، كما أخذوا يروّجون اللغة العامية واللهجات الإقليمية المحلية لتكون لغة التخاطب والكتابة والآداب والفنون والمعاملات، ومن هؤلاء في مصر الغالية الدكتور طه حسين ولطفي السيد وغيرهما، وفي لبنان

سعيد عقل وسعيد فريحة. كما أخذوا يروّجون فكرة كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية متناسين جمال الحرف العربي وقوته وتناسقه، وأول من دعا لذلك المستشرق لويس ماسنيون بحجة السهولة واليسر وضبط الكتابة. كما أخذوا يعملون على فصل اللغة العربية عن المضمون الإسلامي، وعملوا على جعلها لغة قومية لاعلاقة للإسلام بها. ولكن اللغة العربية استطاعت بفضل الغيورين عليها أن تصمد أمام هذه الحملات وأن تقهر جميع العقبات بفضل القرآن الكريم الذي حماها من الضياع. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبيا لَعَلَّكُم تَعْقِلُون﴾ (يوسف٣)، والله ولي التوفيق.

سهام رفقي محمود
دمشق - سورية

«الأديان السماوية» تعبير خاطئ



قرأت في العدد ٢١٩ موضوعًا للأستاذ الدكتور حسن ظاظا تحت عنوان «الفقه الإسلامي وشريعة اليهود». وقد استرعى نظري كلمة استخدمها الدكتور ظاظا - وأظنها مما يقع فيه كثير من الكتاب سهوًا - وهي قوله «... ولعلّ السبب في ذلك شعور باطني بأن اليهودية هي أول دين سماوي له كتبه، وأن الإسلام هو آخر هذه الأديان السماوية...». أقول:

إنّ هذه الكلمة (الأديان السماوية) كلمةٌ خاطئة، فليسَ ثمة إلا دينٌ حقٌ سماويٌ واحدٌ، تعاقبت الأنبياء والرسل على الدعوة إليه والبعثة به.

فما من نبي ولارسول منْ بعثة سيدنا آدم عليه السلام إلى بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا كان يدعو إلى عقيدة واحدة هي: الإيمانُ بوجود الله ووحدانيته، وتنزيههُ عن كل مالا يليق به من صفات النقص، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار وغير ذلك.

فكان كل رسولٍ يدعو قومه إلى الإيمان والاعتقاد بهذه الأمور، كما كان كلُّ واحد منهم يؤكد دعوةَ من بُعثَ قبله، ويُبَشّرُ ببعثة من سيأتي بعده، وهذا نجده واضحًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَسُول إلاَّ نُوحِي إِلَيْه أَنَّهُ لا إلَه إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون﴾ (الأنبياء:٢٥). وفي قوله أيضا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّين مَاوَصَّى به نُوحًا وَالَّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَاوَصَّيْنَا به إبْرَاهيمَ وَمُوسَى وعيسى أنْ أَقيمُوا الدِّين ولاَ تَتَفَرَّقُوا فيه﴾ (الشورى:١٣).

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يلاحظ أن العقائد السابقة كلها تنطوي تحت دين واحد، هو الإسلام، الاسم القديم للعقائد السابقة.، ونجد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿ما كان إبْرَاهيمُ يَهُوديًا وَلاَنَصْرَانيًا وَلَكن كَانَ حَنيفًا مُسْلمًا وَمَاكَانَ منَ المُشْركين﴾ (آل عمران:٦٧)، وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلمين﴾ (الأعراف:١٢٦)، وفي قوله تعالى عن حواريّي عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عيسَى منْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَاري إلى اللَّه قَالَ الْحَوَاريُّون نَحْنُ أَنصَارُ اللَّه آمَنَّا باللَّه واشْهَدْ بأَنَّا مُسْلمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢).

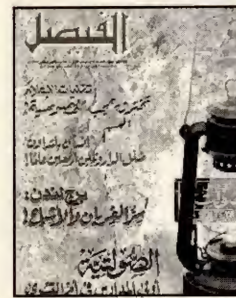
فالدين إذًا واحدٌ لايتعدد في أصله ولا على لسان الأنبياء: ﴿إنَّ الدِّينَ عنْدَ اللَّه الإسْلاَمُ﴾ (آل عمران:١٩). وإنما يوجد تعدّدٌ وتغيُّرٌ في التشريع؛ لأن الغاية من التشريع إقامة الأحكام التي تضمن حياة منتظمة للفرد والمجتمع، كما أن فكرة التشريع قائمة على مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم، وهذه المصالح تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. فسيدنا موسى عليه السلام بُعث إلى بني إسرائيل والحال يقضي أن تكون شريعتهم شديدة قائمة على أساس العزائم لا الرُّخص. في حين بعد مرور حقبة من الزمن وبعثة سيدنا عيسى عليه السلام

جاءهم بشريعة فيها من اليسر والسهولة ما لم يكن في شريعة موسى عليه السلام، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥٠).

آمل أن تتسع صفحات مجلتنا لهذا الإيضاح، كما أرجو أن يتسع صدرُ الأستاذ الكبير الدكتور حسن ظاظا لهذا التعليق. وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

محمد خير الطرشان
دمشق - سورية

حساب الجمل أصله وفصله



طالعنا في العدد رقم ٢١٥ لشهر جمادى الأولى ١٤١٥هـ، في باب «استراحة العدد» مانشر تحت عنوان: الحروف في حساب «أبي جاد» (حساب الجُمَّل) ترتيب الحروف، وقد وردت الحروف الأبجدية (أبجد، هُوَّز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثَخذ، ضظغ) وأمام كل حرف رقم أو عدد خاص به. فما هذه الحروف؟ ومن رتّبها بهذا الترتيب؟ وماعلاقة كل حرف بالرقم الذي خُصِّصَ له؟ وماعلاقة ذلك بالدين؟ نرجو كريم تفضلكم بالتوضيح الكامل حيث إن هذه الأرقام رُبطت بالأسماء وأسماء سور القرآن بل الآيات القرآنية، فهناك من يردد اسمًا من الأسماء الحسنى كما يتكون من حروف وجمع أرقام الحروف ويقرأ الاسم بالعدد الناتج، وكذلك السور القرآنية حيث انتشر مثل هذا بين العامَّة ويروّج له بعض من ينتسبون إلى العلم. ونحن لانعلم من أين جاء هذا العلم، وماعلاقته بالدين الإسلامي؟ نرجو توضيح ذلك، مع العلم بأن مثل هذا العمل منتشر بين أوساط العامَّة في الدول الأفريقية العربية.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الشيخ بن خليل بن أبو النور
الخرطوم - السودان

المحرر:

للاجابة على استفسار القارئ الكريم كتب الأستاذ عاصم محمد بهجة البيطار مايلي:

للحروف ترتيبان باسمين مختلفين: أولهما: الترتيب الهجائي وهو المعروف أ،ب،ت،ث.. وهو المعتمد في المعاجم وكتب التراجم وغيرها مما يحتاج إلى ترتيب يسهّل المراجعة. وثانيهما هو الترتيب الأبجدي: أبجد، هَوّز... وكل منهما ثمانية وعشرون حرفًا. وقد أخذه العرب عن غيرهم، يقول صاحب اللسان: قال ابن دريد: لاأحسبه عربيًا. وبنوا عليه حساب الجمّل (بتشديد الميم)، وذهب بعضهم إلى تسميته بحساب الجُمَل (بالتخفيف)، والأول هو المشهور، أما الثاني (بالتخفيف) فيقول ابن سيده: لست منه على ثقة.

أمّا الحساب بالأحرف فلا علاقة له بالدين، ولم تجر عادة علماء المسلمين على إدخال حساب الجمّل في تعداد سور القرآن الكريم أو كلماته أو حروفه، ولكنه اصطلاح حسابي محض اصطنعه الشعراء بشكل خاص في الأزمنة المتأخرة، حين خبت جذوة الإبداع، ولجأ الشعراء إلى التلاعب بالألفاظ، وإظهار المقدرة اللغوية، والمهارة في تركيب الكلمات، وكان من مظاهر ذلك: التأريخ الشعري، فكان الشاعر إذا هنّأ بمولود أو بزواج أو بانتصار في معركة أو بفتح من الفتوح، إلى غير ذلك من الأغراض، جعل الشطر الأخير تأريخًا لها، أي إذا جُمعت القيم العددية للحروف، كان مجموعها دالاً على تاريخ المناسبة.

وحساب الجمّل مصطلح دنيوي لاديني، والعرب أخذوه عمن قبلهم ورتبوا الحروف ترتيبا اصطلاحيًا لايقوم على نظرية فلسفية أو عددية أو دينية أو اجتماعية، والأقدمون لم يستعملوا حساب الجمّل، فلاتراه في ديوان العرب الجاهلي أو الراشدي أو الأموي أو أكثر العصور العباسية، بل كثر في عصور الدول المتتابعة، واشترط فيه أن تكون الكلمات الدالة على التاريخ منظومة في جملة لها معنى مرتبط على نحوٍ ما بالقصيدة ومناسبتها. والشاعر كثيرًا مايقول: أرّخْتُ... ثم يأتي بكلمات التاريخ. ومايقال في الحساب الأبجدي مثلا يقال في الحساب الروماني؛ فقد اصطلحوا على الأعداد، ورمزوا لها بحروف.

ويمكن أن يلاحظ المرء بوضوح أن ترتيب الكلمات على هذه الصورة فيه البدء بالأخف على اللسان والآذان، وتتدرج الكلمات في ثقل النطق بها حتى تصل إلى ذروة الثقل في: ثخذ، ضظغ.

حول «قصة قصيدة» ذي الإصبع:

عرفنا قصة القصيدة، فما قصة اسمه؟



تعليقا على قصة قصيدة المنشورة تحت عنوان «وصية ذي الإصبع لابنه» في العدد رقم ٢١٦، أود أن أتوقف عند نقطتين:

الأولى: عدم تعريف الكاتب الفاضل بالشاعر حيث لم يذكر اسمه ولكنه قدم له وصفًا تفصيليا اجتماعيا. وصاحب هذه القصيدة كما جاء في كتاب «الروائع من الأدب العربي» في مجلده الأول عن الشعر الجاهلي هو حُرثان بن مُحَرِّث بن ثعلبة بن سيار، وسمي بذي الإصبع لأن أفعى نهشت إبهام رجله فقطعتها.

الثانية: هي قصيدته النونية الشهيرة التي مطلعها:

يامَنْ لقلبٍ طويل الهمّ محزونِ
أمسى تذكّر «ريا» أمّ هارونِ

عند مطابقتها بالأصل وجدت أن الكاتب قد جمع أبياتا هي مفرقة ومتداخلة مع أخرى في القصيدة وأورد كلمات ليس لها وجود في الأبيات الأصلية، فمثلا يقول الكاتب: له قصيدة نونية تؤيد رصانة شعره مطلعها:

يامَن لقلبٍ شديد الهمّ محزون
أمسى تذكر ريا أمّ هارون

وهذا البيت في القصيدة الأصلية هو كما ذكرنا آنفا. والقصيدة تعد من عيون الشعر العربي، ولا أجدني إلاّ موردا أحد مقاطعها الجميلة حتى يستمتع القارئ معي بهذا الجزء من هذه القصيدة الخالدة. يقول شاعرنا:

إنّي لعمرك مابابي بذى غَلَقٍ
عن الصديق ولاخَيْري بممنونِ
عفٌ يؤوسٌ إذا ماخفتُ من بلد
هُونا فلستُ بوقّاف علَى الهُونِ
ولا لساني عن الأدنى بمنطلقٍ
(بالفاحشات) ولافتكي بمأمون
لِيَ ابنُ عم لَوَ ان الناس في كبد
لظل محتجزًا بالنبلِ يرميني
إني أبيٌّ أبيٌّ ذو محافظة
وابن أبيٍّ أبيٍّ من أبِيِّين
وأنتمو معشرٌ زَيْدٌ على مائة
فأجمعوا أمركم كُلاً فكيدوني
فإن (عرفتم) سبيل الرشد فانطلقوا
وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني
ماذا عليَّ وإن كنتم ذوي كَرَمٍ
ألاَّ أحبّكُمُو إن لم تحبّوني؟
الله يعلمكم والله يعلمني
والله يجزيكمو عني ويجزيني
الله يعلم أني لا أحبكمو
ولا ألومكمو ألاَّ تحبوني
لو تشربون دمي لم يُرْوَ شاربُكُم
ولا دماؤكمو جمعًا تُرَوِّيني
قد كنتُ أوليكمو مالي وأمنحكم
وُدِّي على مثبِت في الصدر مكنون
لايخرج (الكرهُ) منِي غير (مأبية)
ولا ألينُ لمن لايبتغي ليني
ياعمرو لو كنت لي الفيتني يسرًا
سمحا كريما أُجازي من يجازيني

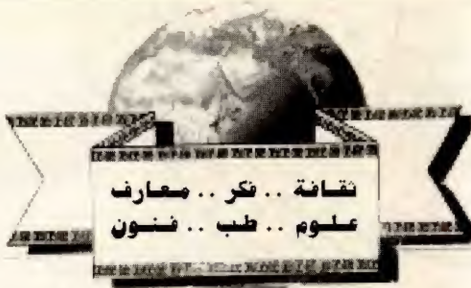
والأبيات التي تضمنت كلمات بين قوسين هي الأبيات الأصلية على خلاف ماأورده الكاتب في العدد المذكور. ولكم جزيل الشكر.

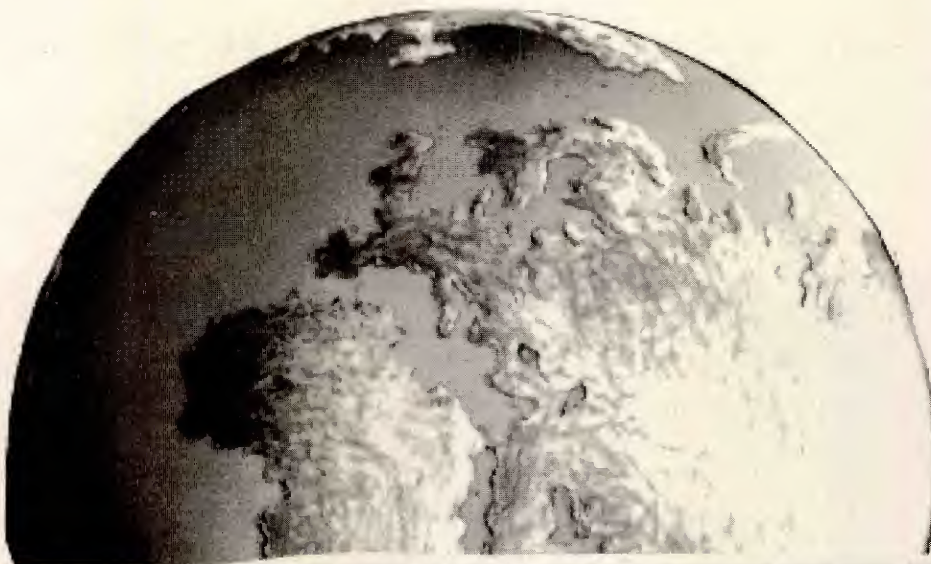
صلاح عبدالستار الشهاوي
دمشيت - طنطا - مصر

المحرر:

باب «قصة قصيدة» له سَمْتٌ يسير عليه، والمجلة تتيح للكاتب الفاضل (د.محمود جبر الربداوي) اختيار الأسلوب الذي يراه مناسبا لعرض القصة، لكننا نوضح - بمناسبة هذا التعليق - أن الكاتب يختار من شعر شاعرٍ قصيدةً ذات قصة طريفة أو ذات مغزى، فيركِّز الحديث حول القصيدة، لما في قصتها من متعة وفائدة وعبرة، ويصرف النظر عن التركيز على قصائد الشاعر الأخرى، وعن أخباره الفرعية التي لاتخدم غرض الباب. وليس من مهمة الكاتب الفاضل أن يقوم بدور المحقق للنص إذا اختلفت روايات الألفاظ، وماأكثر اختلافها في الشعر الجاهلي، ويكتفي باختيار أصلحها لقارئ المجلة.

ملحوظة أخيرة للقارئ الكريم صلاح الشهاوي وهي أن كلمة (خيري) في البيت الأول صحيحة، أي كما أوردها الكاتب، لأن كلمة (خبري) تجعل البيت مكسورا والمعنى غير مستقيم.


ثقافة .. فكر .. معارف
علوم .. طب .. فنون



رُدودٌ خاصَّة

الأخ فاضل بن عمار - وهران - الجزائر:
المشاركة في حل المسابقة تتطلب الحصول على أحد الأعداد الأخيرة.، لضرورة إرفاق القسيمة الأصلية للمسابقة مع الإجابات، التي يجب أن تصل خلال مهلة زمنية مدتها ٤٥ يوما ابتداء من تاريخ صدور العدد، أي مطلع كل شهر هجري (لمعرفة بقية الشروط راجع ص ١٣٢).

الأخ محمد مبروك بركات - كفر الشيخ - مصر:
شكرا على اقتراحك حول نشر الكشاف السنوي في نهاية كل عام إصداري وليس في العدد الأول من كل عام إصداري (الذي يوافق دائما شهر رجب). الاقتراح وجيه، ولكن مايجعل تنفيذه صعبا أن هناك مواد تحريرية تُعدّ للنشر قبل صدور العدد بمدة قصيرة (مثل الأخبار في باب الحركة الثقافية في شهر) والانتظار حتى تكشيف هذه المواد وضمّها إلى الكشاف سيؤخر طبع الكشّاف ومن ثم تأخير صدور العدد.

الأخ أحمد عبود عبدالمجيد - سوهاج - مصر:
مادمت مقبلا على العمل في مجال الفنادق إن شاء الله، فلا نتوقع أن تجد صعوبة في الحصول على معلومات عن هذا المجال من مصادر المعلومات المتوافرة في بلدك، مثل المكتبات ومراكز المعلومات والمعاهد المتخصصة في الفنادق وماإلى ذلك، ولعل ذلك أيسر عليك من الاعتماد على المعلومات الموجودة في السعودية. أما المكتبات السعودية، فهناك أكثر من مكتبة تقدم خدماتها بالبريد، وتلك المكتبات تقدم معلومات للمستفيدين ولاتزودهم بالكتب نفسها.

الأخ بدر عبدالحميد إبراهيم - حولي - الكويت:
رسالتك أحيلت إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بحكم أن «دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية» صادر عنه.

الأخ عبد الكريم عبدالحي عبدالرحيم - حلب - سورية:
كمية التوزيع المخصصة لسورية الشقيقة نزيد منها بشكل دوري تلبية لاحتياجات القراء المتزايدة. والعدد المطلوب في الطريق إليك إن شاء الله.

الإخوة: فؤاد بن حسن - سوسة - تونس، منير الكرايز - الدار البيضاء، زوبير محمد - العيون - المغرب:
جميع استفساراتكم - على اختلافها - يمكنكم التوجه بها إلى الملحق التعليمي في السفارة السعودية في بلدكم، ونأمل أن تجدوا لديه المعلومات المطلوبة. أما عناوين الشركات - ياأخ زوبير - فلابد من تحديدها أو تحديد مجال اختصاصها على الأقل، والملحق التجاري السعودي في بلدك يمكنه تزويدك بالعناوين التي تريدها.

الإخوة: أبو بكر مصطفى الوليلي - الرياض، الأزبعاري محفوظي وأحمد بن مغربي - الأغواط، عبّار عبدالسلام - سيدي بلعباس، جعفر بوغلوم - مسيلة - الجزائر:
مع تقديرنا لمشاعركم تجاه مجلتكم وقرائها، فقد سبق أن ذكرنا مرات أن مايسمى «هواة التعارف» أو «نوادي الصداقة» أو ماشابه ذلك ليس من اهتمامات المجلة، ولاتشجع مثل هذ الاتجاهات لعدم جديتها ولأن مساوئها أكثر من إيجابياتها، ويكفي شبابنا العربي والمسلم مايعانيه كثير منهم من إضاعة للوقت واهتمام بسفاسف الأمور.

الأخت عيدود جميلة بنت الجموعي - ورقلة - الجزائر:
أرسلنا إليك بعض المعلومات التي طلبتها، نأمل أن تكون قد وصلتك.

الأخ عبدالحفيظ عبدالله كاشف - بورتسودان - السودان:
القسم المختص سيرد على رسالتك آملين أن يحقق لك رغبتك.

الأخ المأمون سي محمد - أغادير - المغرب:

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كُتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١- أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدّة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢- ألا يكون الموضوع منشوراً من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣- حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤- أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري - إن وجد - وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥- الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

يبدو أن خطأ ما قد وقع وتسبب في تأخر وصول الأعداد إليك، وهي ستصل إليك قطعا إن شاء الله. والخطأ بالطبع غير مقصود، مقدرين تفهمك لظروف عمل المجلة لكونك استبعدت أن يكون الإهمال هو السبب. أما الطلب الذي يخص مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية فقد أحلناه إلى القسم المختص فيه، راجين من الجميع مراسلة المركز مباشرة على عنوانه المذكورفي الصفحة الأخيرة من كل عدد (باطن الغلاف الأخير).

الأخ عبدالحميد حسن خريّف ـ تونس العاصمة:

حوَّلنا رسالتك إلى قسم المخطوطات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لكننا نقترح عليك الكتابة مرة أخرى، ولكن إلى القسم مباشرة مع ذكر شيء من التفاصيل حول الموضوع.

الأخ عبدالرحمن العلي ـ حلب ـ سورية:

نرحب بإسهاماتك الكتابية، ولكن لايمكن إبداء الرأي في الموضوع الذي حددته في رسالتك إلا بعد قراءته.

الأخ معز عطي ـ القيروان ـ تونس:

نغبطك على إنتاجك الوفير، كما نغبطك على سعة الوقت المتاح لديك طالما أن لديك «مايزيد على ١٢٠ موضوعًا في جميع المجالات»! نرحب بصلتكَ بالمجلة، وعموما نرجو أن تراجع الرد السابق. أما تعليقك المكتوب على «إطلالة» العدد رقم ٢١٩ فمن المتعذر قراءته لنوع الورق المستعمل في الكتابة، نأمل تجنب ذلك مستقبلاً، وشكرًا.

الأخ ياسين سويد ـ غارداية ـ الجزائر:

المجلة تهتم بالرياضة من الناحية التثقيفية، ولكنها لاتهتم بها كألعاب رياضية، ولهذا نعتذر لك لعدم إمكان مساعدتك للحصول على مجلات رياضية أو عناوين نواد رياضية.

الأخ عبدالكريم قاروط ـ حمص ـ سورية:

الكتاب الذي سألتنا عنه غير متوافر لدينا، ولانعلم إذا كان يُوزَّع في سورية أم لا.

الأخ قاسي السبيعي ـ الرياض:

اقتراحك الخاص برجال التاريخ يستحق الدراسة، والمجلة بموضوعاتها العامة وأبوابها الثابتة تهتم بهم بوجه عام كما يلاحظ القارئ المتابع.

الأخ صلاح الدين سيد علي بن زيان ـ المسيلة ـ الجزائر:

كيفية إصدار مجلة «الفيصل» ومراحل ذلك لاتختلف عن أي إصدار صحافي مماثل، ولا نظن أن في ذلك مايستحق النشر، وبخاصة في «ملف كامل» كما تقترح، ولكن يمكن أن نضيف شيئا بدهيا هو أن المراحل والإجراءات لاتختلف، ولكن الاختلاف من صحيفة أو مجلة إلى أخرى يكمن في سياسات التحرير والأفكار والطموحات والإمكانات، ولك أن تسمي ذلك «سر المهنة»، أو ماشابه ذلك. بقي أن نعاتبك عتابا أخويا: لماذا الكتابة إلينا في رسالتين متتاليتين باسمين مختلفين؟!

الإخوة: عبدالله فهد أبو شبيب ـ الهفوف ـ الاحساء، قوادري إلياس ـ البليدة، قاصدي عبدالقادر ـ تيارت، يوسف يحمدي ـ قالمة، كمال الدام ـ الوادي، بعفي محمد الأخضر ومعمري معمر ـ ورقلة ـ الجزائر:

طلبات الاشتراك التي وردتنا منكم أحيلت إلى قسم الاشتراكات.

الأخوين: عمار نغيش ـ باتنة، غماري سعيد ـ ندرومة ـ الجزائر:

نظام المجلة لايسمح بتقديم اشتراكات مجانية للقراء، فنرجو المعذرة.

الإخوة والأخوات: سعاد برقيقة ـ ورقلة، قوسيم بوناب ـ بسكرة ـ الجزائر، حسن بو درقة ـ المغرب:

شكرا لكم على مشاعركم النبيلة تجاه المجلة، ومعذرة إذا لم نتمكن من الرد عليكم كتابيا بصفة شخصية.

الإخوة: محمد أحمد الزهراني ـ الباحة، محمد عنتر عبدالحليم ـ مصر، عبدالله جدي ـ المسيلة ، أيدر الطيب بن عبدالله ـ أدرار ـ الجزائر، علي إبراهيم ـ اللاذقية، عبد الكريم قاروط ـ حمص، ياسين صويلح ـ الحسكة، عبدالكريم عبد الحي ـ حلب ـ سورية، سيف الدين سيد أحمد ـ الخرطوم ـ السودان :

الأعداد المطلوبة في طريقها إليكم إن شاء الله، وعدم حصولكم على أي عدد مطلوب يعني عدم توافره في المجلة.

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ ـ ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٤٧٨٨٤ ـ
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ١١٤٠ ـ ٢٥٨٠، رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلسًا ـ الإمارات ٧دراهم ـ قطر ٧ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلسًا ـ عُمان ٧٥٠بيسة ـ الأردن ٥٠٠فلس ـ اليمن ٢٥ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٣ جنيهات ـ المغرب ٦دراهم ـ تونس ٦٠٠مليم ـ الجزائر ١٠دنانير ـ العراق ٤٠٠فلس ـ سورية ٢٠ليرة ـ ليبيا ٨٠٠درهم ـ موريتانيا ١٠٠أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠شلن ـ جيبوتي ١٥٠فرنكًا ـ لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريالاً سعوديًا، للمؤسسات ٢٥٠ ريالاً سعوديًا.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

على موعد

نحو أدبيات جديدة للأدب

د. محمد محمد شتا أبوسعد

هل يمكن لتلقائية التعبير أن تشكل إطارًا جديدًا للمذاهب الأدبية المعاصرة، أم إن الأمر أكثر تعقيدا وأشد وعورة مما يتصوره القارئ الذي يريد أن يتحول بين يوم وليلة إلى أديب؟

لاشك أن هذا السؤال العويص سيظل مطروحا على الساحة الأدبية مادام هناك قلم يكتب وفن يتحكم، ذلك أن الأدب ليس انطلاقة بلا هدف، ولا هو شكل بلا مضمون، وإنما الأدب تعبير فني يتسم بالأصالة والرقي ورهافة الحس، بحيث يشف عن نزعة تتطلع إلى تغيير شيء ما في المتلقي، وبقدر مايكون صدق التعبير، يكون التأثير.

ومن يريدها انطلاقة أدبية لاتحدها حدود ولا تقيدها قيود، يقول: إن الأدب لايعدو أن يكون صياغة فنية لتجربة بشرية، فدعونا نعبر عن تجاربنا بالأسلوب الذي نريد، وبالكيفية التي نرى، وبالمنطق الذي نستطيع.

وتخفق القلوب خوفا على هؤلاء، لأنهم من خلال ذلك يمكن ألا يجدوا أساس التعبير، فلا يتجشؤون إلا هواءً فارغا. فالتجربة الشخصية بحُلوها ومُرِّها تؤثر في الإنسان وتدفعه دفعا إلى التعبير، وقد يكون هذا التعبير مستجمعا بعض خصائص الصياغة الفنية، ولكن التجربة وحدها مجردة من بعض أو كل أدوات التعبير عنها لاتصلح لإنتاج عمل يبقى حتى وإن كان هذا العمل مؤثرًا تأثيرًا وقتيًا.

إن حَمْلَةً شَرِسة تقوم الآن في إنجلترا ضد شكسبير، وهي حملة ظالمة تستند إلى أن الرجل، وإن كان عملاقا في زمن، فإنه لايجوز أن يظل مهيمنا على الحياة الأدبية المعاصرة، وحسبه أنه عبر عن عصره، وآلام قومه وآمالهم، ولكل زمن ظروفه، وقد انطوت صفحة ظروف الماضي، لذا يجب أن لايكون لشكسبير وجود في الحاضر.

وهذه الحملة لم تفرق بين العمل الفني الأبقى والأدوم، لا لشخصية من عبَّر عنه؛ وإنما لطبيعة التعبير الوارد فيه. إن الدفاع عن التجربة القيمة والتعبير الرائع ليس إلا انعكاسا لأدب يبقى ويدوم، ولكن لو كان الأمر أمر تجربة فحسب لما كان لها أن تبقى ولما كان لها أن تدوم.

كذلك فإن التجربة البشرية التي عبر عنها مثل هذا الأديب، هي أعم من التجربة الشخصية، والذين يريدون أدبا معبرا عن تجربة شخصية لا يغفلون طبعًا أنهم بشر، وأن تجربتهم لذلك تجربة بشرية، ولكن البشرية هنا صفة لصاحب التجربة وحده، وليست إطارًا عاما أو قاعدة للتعبير الفني؛ بمعنى أن البشرية ليست شخصا، وإنما هي أشخاص لهم تجارب وآمال وآلام. وخصوصية التجربة، وإن كانت لاتنفي بشريتها، تنفي عمومية هذه البشرية.

إن الفنان ذا التجربة الفردية يمكن أن يجعلها تجربة إنسانية عامة من خلال التقاط نماذج متكررة من الشخصيات، فيلتقط صور الواقع، ويحلل الإطار الشخصي فيها ويدمجها بالنماذج التاريخية الأخرى والأفكار الأسطورية أو المثالية، مع صب كل ذلك في قالب اجتماعي لا بأس في تطعيمه بالخيال. فإذا استطاع أنصار التلقائية أن يحققوا ذلك في تعبيرهم؛ فقد استطاعوا أن يلجوا عالم الأدب من أوسع أبوابه، على نحوٍ يمكنهم من التعبير عن هموم الإنسان وأحزان الإنسان، وآمال الإنسان، وآلام الإنسان.

وقد يظهر هذا المفهوم جليًا في النثر كفن أدبي، والشعر كتعبير فني راق، والحوار المسرحي، فإذا وقف الإنسان عند حد التقليد غير المنطوي على الجدة والابتكار، فقد تحجر الفن الأدبي، وتهدمت أصوله، وغابت رؤاه المؤثرة وأغراضه وأصوله، وخَفَتَ صوت المعاني المعبرة فيه، وانطفأت جذوة أخيلته، وصار مجرد كلام أجوف لا يقدم زادا، ولا يحل إشكالا، ولا يخدم هدفًا إنسانيًا.

إن أحدا لاينكر أهمية التجربة الشخصية، ولكن أحدا لايمكن أن يستسلم للمضامين الخاصة المعبرة عن الأزمات غير المؤثرة، والبيئات غير المتجانسة، والسياقات المتنافرة، ذلك أن الأديب لابد أن يعبر، والتعبير إحساس، والإحساس تأثر وتأثير، فإن كان تأثرا فحسب كان تجربة مكبوتة، وإن كان تأثرا مع التعبير غير الفني كان تجربة شخصية غير ذات بعد تأثيري عام، أما إن كان التعبير ينم عن إحساس متأثر ومؤثر فذلك هو المنطلق الحقيقي للتعبير الأدبي.

كذلك فإن التعبير الأدبي بلا غاية يريد الأديب تحقيقها هو مجرد عمل عفوي يمكن أن يحقق الراحة لمن يمارس التعبير أو يباشره لبعض الوقت، ولكنه يمكن أن يؤدي إلى إحساسه بالألم، بعد ذلك، كل الوقت، فالأديب إنسان له رسالة أخلاقية، والأديب المسلم له رسالة عقدية، وليس من الضروري أن يكون أفراد العمل الأدبي وُعَّاظًا. وإلا فقد العمل قدرته التأثيرية الفنية، ولكن المهم أن تكون له قاعدة عقدية تشف عن نزعة إيمانية تشيع في الموقف الذي يراد للقارئ التأثر به تأثرًا يخدم حياته ولا يهدم ذاته، وهذا هو منطلق الأدبيات الجديدة لما يعرف بالإسلامية في الأدب، كنور ينبثق من ثنايا السطور، ويشع فيها إيمانا قويًا يدفئ الصدور، وهذا أمل كبير لأصحاب القدرة على التعبير.